مصر
وكيف غُدِرَ بها

ألبرت فارمان



ترجمة

عبد الفتاح عنايت

تقديم

إبتسام عبد الفتاح عنايت

بسم الله الرحمن الرحيم

الزهراء للإعلام العربي
قســـم النشــر

ص ب ١٠٢ مدينة نصر ــ القاهرة ــ تلغرافيًا زهراتيف تليفون : ٢٦١١١٠٦ / ٤٠٢١٩٨٨ فاكس : ٢٦١٨٢٤٠
P.O: 102 Madinat Nasr. Cairo -Cabl : Zahratif- Tel : 2611106 - 4021988 - Fax : 2618240

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ »

صدق الله العظيم
فصلت/٣٣

الطبعة الأولى
١٤١٤ هـ ــ ١٩٩٥ م

مصر
وكيف غُدِربها

Egypt and Its betryal

تأليف

ألبرت فارمان

Farman . Elbert Eli

قنصل أمريكا في مصر ١٨٧٦ : ١٨٨١م

ترجمة

عبد الفتاح عنايت

تحقيق

ابتسام عبد الفتاح عنايات

الزهراء للإعلام العربي

نبـذة عن المؤلف

كان يشغل منصب المعتمد والقنصل العام للولايات المتحدة الأمريكية في مصر من ١٨٦٨ إلى ١٨٧٥ - والذي عُين بدلاً من المستر « بيروسلي الذي توفي - فرُشح « فارمان لهذا المركز . كان عمل فارمان هو الإشراف على أعمال المدنيين والتجار التابعين للولايات المتحدة والمترددين على مصر - وكان يقوم بجمع الضرائب القنصلية المستحقة على الواردات والصادرات التي يتعامل فيها التجار الأمريكيون .. فكانت واجباته دبلوماسية وقنصلية .

فارمان ، ألبرت إلى

الوظيفة : قاضي .

الميلاد : ٢٣ إبريل ١٨٣١ - ولد في نيوهافن بنيويورك .

التدرج الوظيفي : ١٨٥٥ أنهى تعليمه العالى فى كلية أمرست - أخذ يعمل في محاكم أمريكا .

١٨٥٩ سافر إلى أوروبا لدراسة اللغات والقانون في جامعات برلين وهايدلبرج .

١٨٦٨ - ١٨٧٥ كان ممثلاً دبلوماسيًا للولايات المتحدة ، وقنصلاً عامًا في مدينة القاهرة في مصر .

١٨٧٦ - ١٨٨١ حصل على منحة وقام برحلة إلى أعالى النيل .

١٨٨٤ - ١٨٨٣ كان يمثل الولايات المتحدة في الرابطة العالمية وكان دوره أن يقوم بفحص الدعوى المقامة لصالح ساكنى الإسكندرية وإصدار قرار لتحديد القيمة المالية التي ستدفع تعويضًا لهم عن الخسارة التي نتجت عن قذف

المدينة بالقنابل وحرقها سنة ١٨٨٢ - وذلك لضمان « مسلة كليوباترة » كهدية من الخديوى لمدينة نيويورك .

١٨٧٨ كان عضوًا ممثلاً للولايات المتحدة في الاتحاد الدولي لتعديل قانون المحاكم المختلطة في مصر .

١٨٧٩ قام بجمع أكبر مجموعة من العملات والآثار المصرية وهي موجودة الآن في متحف الفنون بمدينة نيويورك .

١٨٩٤ منحه الخديوى وسامًا إمبراطوريًا برتبة « مديديه Medjidieh »

١٩١١ توفى .

مصدر المعلومات : من سجل الدبلوماسيين بالقنصلية الأمريكية بالقاهرة .

تحقيق ابتسام عبد الفتاح عنايت .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

نتعرض في هذا الكتاب إلى فترة زمنية هامة وقعت مصر خلالها تحت ظلال الحكم العثماني ما يقرب من ثلاثمائة عام كان تاريخ مصر فيها شديد التماسك والترابط إلى حد كبير وكانت فترة لها مظاهرها الواضحة المتميزة تحت ظلال الحكم الإسلامي القوي . حلت العناصر التركية الأرستقراطية محل بكوات المماليك وأصبحت هي المالكة الكبرى للأرض ، وكانت الأرض هي مصدر القوة والثراء لذلك استطاع الأتراك السيطرة على السياسة الداخلية والخارجية دون مقاومة تذكر . فلم يكن هناك مجال للتمرد أو المقاومة فاستتب الأمن والنظام في البلاد ، وانكب أفراد المجتمع على العمل الجاد ، وانفتحت أبواب البلاد لطائفة من الأجانب الذين بدأوا يتدفقون إلى مصر . وبدأ ينشأ نظام التعليم الحديث ببداية حركة النقل والاقتباس في المجال الفكري والحضاري ، وظهرت طبقة « الأفندية » من الموظفين – تلك الطبقة التي استطاعت أن تلعب دورها في الحياة السياسية في تاريخ الحركة الوطنية .

ووجدت الظروف التي أدت إلى نشأة الطبقة الرأسمالية الزراعية المصرية ، (الإقطاعيين) ، فالأرض التي استولت عليها حكومة الولاة ، انتقل جزء كبير

منها إلى أيدى الأفراد ، وأصبحت الطبقة الرأسمالية الزراعية ذات مصلحة أساسية في سياسة الدولة ، فقد تحركت حين اشتدت الأزمة المالية في عهد إسماعيل .

كانت هذه الحياة الاجتماعية الجديدة ذات صلة وثيقة بالحياة الاقتصادية في القرن التاسع عشر ، وظلت الأرض الطيبة أرض مصر هي مصدر الثروة والرخاء الذي كانت تعيش فيه في ذلك الوقت كما كان الحال في القرون السابقة .

في عهد حكومة الولاة ازدادت مساحة الأراضي المنزرعة إلى ما يزيد على أربعة ونصف مليون فدان ذلك مع قلة عدد السكان ، وتوسعوا في زراعة القطن بل تم تصديره ، وأنشئت صناعات أخرى ، وأنشئت السكك الحديدية ، وحفرت قناة السويس ، ونشطت التجارة ، فكانت مصر هي هبة النيل تنعم بالثروة والرخاء .

في ذلك الوقت اشتدت المنافسة بين إنجلترا وفرنسا على الاستئثار بالنفوذ الأعلى في مصر ، لتحقيق خدمة مصالحها الاقتصادية ، وكانت هذه المصلحة ملحة وشديدة في القرن ١٩ بسبب الثورة الصناعية في قارة أوروبا ، فالدول الصناعية مثل هاتين الدولتين كانتا تريدان الأسواق لجلب المواد الخام اللازمة للصناعة ، وأيضًا لتصريف خاماتها المصنعة فيها ، أضف إلى ذلك تشغيل رءوس الأموال . ازداد عدد الأجانب الوافدين إلى مصر ، والذين جلبوا معهم رءوس الأموال لاستثمارها ، وبالتالي ظهرت معها حاجة الولاة والخديويين إلى هذه الأموال، فازداد نفوذ القناصل في مصر ، حتى إن النفوذ القنصلي تغلغل في مصر ، وأصبح هؤلاء القناصل بالاشتراك مع طائفة الممولين الأجانب ؛ صاروا يؤلفون عصبة قوية ذات مصالح مالية بعيدة المدى ، ما لبثت أن وضعت مصر في ثوب جديد – ليس فقط لاستغلالها اقتصاديًا ، بل صار التطلع واضحًا بشدة إلى التدخل السياسي .

وبدأت معالم التدخل السياسي تتحقق ؛ فقد تم خلع الخديوى إسماعيل ١٨٧٩ ، وقامت الثورة العرابية ، وأنزلت بريطانيا قواتها ، وبدأ الاحتلال البريطاني ١٨٨٢ .

وبهذا الحدث يختتم تاريخ مصر في القرن التاسع عشر .

هذا عرض سريع يسبق ، ويعاصر الفترة التي أقام فيها مؤلف هذا الكتاب في مصر .

بقلم : ابتسام عبد الفتاح عنايت .

الفصل الأول

مشاهداتى الأولى في مصر

في صبيحة يوم من أيام شهر مايو وصلت إلى الاسكندرية بعد رحلة دامت ستة أيام من مرسيليا على إحدى البواخر التابعة لشركة « مساجيرى ماريتيم Messagerie Maritimes» ولقد كان وقع صوت رفع الحقائب والصناديق من أماكن تخزينها إيذانًا للركاب بقرب وصولهم إلى محط رحالهم . ومن ثم هرع جميع الركاب إلى سطح السفينة ليلتقطوا أول منظر لأرض النيل .

ولقد كان الشاطىء المنخفض خلوًا من الأشجار لا تتخلله أية نجاد . وكان أول ما يقع عليه البصر خطًّا صغيرًا مصغرًا من شاطىء رملي يبدو خلال غاشية الصباح . وخلف ذلك نحو الشرق . سرعان ما يبدو لك نُصبُ « بومبي » وبعض الاستحكامات العسكرية تليها إلى البحر أشرعة عدد كبير من السفن الراسية في الميناء ، إلى جانب عدة طواحين هوائية على طول الشاطىء . ولقد مررنا في طريقنا بنقطة مرابوط Point Marabout ، ثم مررنا بعد ذلك بباب العرب ، وهو عبارة عن قناة قديمة طولها ميل تخترق شريط الأرض الذي يفصل بحيرة مريوط عن البحر . وعلى طول هذا الشريط كنت ترى قلاعًا لا يدل منظرها على العدوان ، بيد أني شاهدتها بعد ذلك ست سنوات

وقد حجبها دخان المعارك وسط صخب القنابل المتفجرة وزئير المدافع .

وعلى مقربة من « باب العرب » تقع المكس وبقايا القصى الصيفي لسعيد باشا ، بقبابه وأبراجه الرائعة . وحينما صعد مرشد عربي إلى ظهر السفينة واصلنا طريقنا نحو الشرق في قناة وعرة متعرجة على مقربة من خط من الاستحكامات . وبعد أن تركنا الفنار على يسارنا – ذلك الفنار الذي أقيم في بقعة كانت فيما مضي الطرف الشرقي لجزيرة فاروس « Island of Pharos» التاريخية – دخلنا ميناء الاسكندرية العتيق المتقلب الأطوار ، ثم ألقت الباخرة مرساها في مواجهة رأس التين ، وهو المقر الصيفي للخديوي . هنا كان أول منظر وقع عليه بصرى من مناظر الحياة الشرقية التي تكشفت أمام ناظرى إبان عدة سنوات ، تلك المناظر التى طالما امتازت بالغرابة وإن اتسمت بالفتنة دائمًا .. في ذلك الوقت لم يكن ثمة أحواض للبواخر الكبيرة . وكنا نحن على بعد ميل من مكان الرسو . وبمجرد أن رسونا إذا بالقوارب الصغيرة تغطى المياه حولنا يباشرها أعراب معممون يرتدون ثيابًا فضفاضة وهم يظهرون استعدادهم للقيام بخدمة الركاب .

وكان المكان أشبه بمستشفى المجاذيب ، فقد كانت مئات من الأصوات الجهورية التي يشيع فيها الغضب تتصايح برطانة غير معروفة . وكانت القوارب التى ينافس بعضها بعضًا تروح وتغدو ساعية في الوصول إلى مكان قريب من المرساة . ولقد انقض عدد كبير من هؤلاء الأعراب على حقائب اليد التى كان يحملها أول راكب ينزل من السفينة ، ثم أعقب ذلك مشادة وحشية لم تحسمها إلا بضع ضربات من أحد رجال البوليس ... هذه كانت أول معرفة لي بعرب مصر الذين وجدتهم في النهاية أناسًا سلسي القياد يسهل حكمهم . ولقد أرسل إلى حاكم المدينة قاربه الخاص يديره بعض الجنود ، وسرعان ما أفسحت القوارب الأخرى الطريق له . وهكذا نجوت من مضايقات الحشود الغفيرة من الأعراب الذين كانوا يترقبون وصولنا منذ أول خيط من خيوط الصباح . وهكذا أدار زورقنا الخفيف ثمانية من الرجال

المدربين على التجديف حتى وصلوا بنا إلى المرفأ المجاور لترسانة السلاح بدلاً من الرسو في المرفأ العادي على مقربة من الترسانة . وتقع الترسانة على لسان من الأرض يصل جزيرة فاروس العتيقة بموقع المدينة ، وكانت هذه الجزيرة تبعد ميلاً عن الشاطىء الأصلي في عصر ما قبل البطالمة . ويقال إن الإسكندر الأكبر بعد أن أبحر من أحد فروع النيل سار بمحاذاة الشاطىء حتى وصل خلف الجزيرة ، وكانت هذه الجزيرة هي المرفأ الوحيد للسفن على شاطىء مصر . وحينما أدرك ما لهذه المدينة من ميزات طبيعية أمر بأن تقام فيها مدينة . وكانت هناك قرية في ذلك الوقت يسكنها بعض الصيادين ويطلق عليها اسم « فيراكروز Vera- Cruz» .

وقد ربط « بطليموس سوتر » أو ابنه « فيلا ألفونس » الجزيرة بالشاطىء الأصلي بواسطة جسر أطلق عليه ، نظرًا لطوله ، اسم « السبع مضامير »[١] (ويبلغ طوله حوالى ثلاثة أرباع الميل) . وكانت تتخلل هذا الجسر ممرات للقوارب . وكانت هذه الممرات مليئة منذ أمد طويل بأنقاض المدينة ورواسب البحر . ويكون جسر السبع مضامير – ويبلغ عرضه الآن أكثر من نصف ميل – جزءًا هامًا من الحي العربي بالمدينة . وفي طريقي إلى الفندق في الحي الأوروبي لمحت طرفًا من تلك المناظر الشرقية الخلابة التي لا تفتأ تسر خاطر السائحين . وقد حدث بعد ذلك بفترة وجيزة أن كنت أصطحب سيدة أمريكية – في أول زيارة لها لمصر – من الباخرة إلى نفس الفندق ، فصاحت عندما وقع بصرها على أحد هذه المناظر ، وكان يومًا من أيام السوق في الحي العربي : « إن هذا المنظر وحده يستحق الرحلة من أمريكا » .

ولقد وجدت بالإسكندرية نائب القنصل العام الأمريكي الذي قدم من القاهرة لمقابلتي وبرفقته أحد حراس القنصلية ويدعى حسن . وكان حسن يشغل هذا المنصب منذ ثمانية عشر عامًا .. كان عربيًا أمينًا مخلصًا ، يعتز

---

(١) المقصود به مضمار السباق عند اليونان وطوله 6،6 أقدام وتسع بوصات .

بمنصبه الذي كان يعتبر أرفع من مستوى الفلاحين العاديين . وكان يرتدى بدلة كحلية زاهية مطرزة بالجدائل الذهبية كما يحمل سيفًا مقوسًا . وحينما رأيته بادىء الأمر مع نائب القنصل العام لم أدرك تمامًا حقيقة مركزه ووظيفته . وعندما حانت لي فرصة البقاء بعض الوقت في غرفتي بالفندق ، وجدته عند انصرافي جالسًا في البهو عند باب غرفتي ، ويبدو أنني أظهرت دهشتي ، سواء بالنظرات أو الكلمات ، إذ أنه بادرني بقوله : « لسوف أكون معك دائمًا » .

ولم يكن هناك أصدق من هذه الكلمات تعبيرًا عن الواقع ، فقد كان « دائمًا معى » ، في مكتبى بالمدينة ، وخلال رحلاتي العديدة في أعالي النيل ، وفي فلسطين ، وجبل سيناء ، وفي كل مكان كان لي نعم الخادم ، والحارس الأمين ، بل والترجمان لي بين العرب المقيمين خارج القاهرة . وكان في جولاتي يقوم بدور الخادم الخاص لي ، فيجلس بجوار السائق ويمسك بيده عصا أو هراوة يعتليها تمثال نسر . ولقد جعلت منه خبرته الطويلة ، ومقدرته الطبيعية ، وتفانيه المطلق في أداء واجباته ، جعلت منه شخصًا نافعًا للغاية ، كما اكتسب شهرة لامعة وورد ذكره مرارًا في الكتب التي نشرها السائحون . وكان قد رافق اثنين من القناصل العامين في ساعاتهم الأخيرة ، وظل على إخلاصه لكل من خدم معه . زد على ذلك أنه رافق بتلر ، القنصل العام ، في رحلته إلى الخرطوم في رفقة الجنرال ستانتون الذي كان يقود قافلة مكونة من أربعين جملاً ، في رحلة دامت أربعة عشر يومًا عبر الصحاري حيث لم يعثر على الماء إلا مرة واحدة فحسب [١] .

وبعد أن طفت بالمدينة وشاهدت مسلة كليوباترا – الموجودة الآن في نيويورك – ونصب بومبي الذي يقع عند مدخل السرابيوم ، سافرنا إلى القاهرة في

---

(١) كان ذلك في وقت دأب فيه الخديوى على الاحتفاء بالضيوف حفاوة ملكية رائعة ، فكانت الرحلة تقوم على حساب سمو الخديوى إسماعيل باشا ، في بواخر خاصة حتى الشلال الأول والثاني . ومن ثم بالجمال عبر الصحراء إلى مدينة بربر ثم بالباخرة مرة ثانية إلى الخرطوم . وكان المسافة التي يقطعها المسافرون ذهابًا وإيابًا تبلغ حوالى أربعة آلاف ميل ، بينما كان الوقت اللازم لإتمام الرحلة يبلغ شهرًا في الذهاب ومثله في الإياب .

قطار بعد الظهر ، بعد أن أجلنا المزيد من دراسة الإسكندرية إلى يوم آخر في المستقبل .

وتبلغ المسافة إلى القاهرة مائة وثلاثين ميلاً . وكانت رحلة عانينا فيها حرارة الجو وغباره ، فقد كان وقت التحاريق ، وهو أسوأ فصل من فصول السنة . وفي هذا الخط من خطوط العرض قلما تجد النهار طويلاً ، إذ ما كدنا نشرف على الأهرامات عند غروب الشمس حتى أرخى الليل سدوله عند وصولي إلى « جراند نيو أوتيل » .

ورغم أني كنت متعبًا من جراء الرحلة التي دامت زهاء شهر ، إلا أن الأرق اعتراني في أول ليلة لي في مصر ، ذلك لأن التغير الفجائي من هواء البحر البارد قد زاد من أثر الحرارة الاستوائية ، ولم تكف الموسيقى العربية (أو تلك الأصوات النشاز المزعجة التي تصدر عن الآلات أو الأصوات . والتي يطلق عليها العرب اسم الموسيقى) لم تكف هذه الموسيقى حتى ساعة متأخرة من الليل . واستمر بعد ذلك نباح الكلاب وغناء الشبان العرب وصياحهم — أعني متشردى القاهرة الذين لا مأوى لهم سوى الشوارع — حتى مطلع الفجر . وعلى كل لا يحتاج الأمر إلى ليال كثيرة حتى تألف هذه الأصوات الغريبة . فلم تؤرق بعد ذلك نومي أكثر من رياح وأمواج البحر أو دقات الساعة في غرفة النوم .

أما الكلاب في القاهرة ، كما هو الحال في القسطنطينية والمدن الشرقية الإسلامية الأخرى ، فليس لها صاحب ، وتسمى بالكلاب « الضالة » لأنها ليست مستأنسة ، وهي تعيش في جماعات ، وكل جماعة تقيم في حيها الخاص بها ، والويل للكلب التعس الذي يعتدى على أرض جماعة أخرى ، إذ بمجرد أن يعبر خط الحدود ، تقوم القوات المتحدة للأرض المعتدى عليها بالهجوم عليه دون رحمة أو هوادة .

في هذه المدن حيث تلقى القمامة في الشوارع أو في الأراضي الفضاء ، تؤدى الكلاب عمل الكناسين ، مثل الصقور التركية الجارحة التي تحوم في

« فيرا كروز Verakruz، وكثيرًا ما تنازع المتسولين فتات الخبز التي تلقي من المطابخ .

وهيأ لى الصباح مشاهدة أول منظر لمدينة القاهرة . وكان الفندق . وهو بناء ضخم ، من بين الممتلكات الخاصة للخديوى في ذلك الوقت ، فقد أقيم أصلاً لكي يتسع لإقامة الضيوف الذين حضروا الاحتفال بافتتاح قناة السويس ، وكان له شرفة ذات أرضية من الرخام حيث يستطيع الضيوف أن يجلسوا ، وقد أظلتهم خميلة تحميهم من وهج الشمس ، ويشاهدوا المناظر العابرة التي تنطق بالفتنة الجارفة ، كما يستنشقون الهواء الصحي الذي يمتاز به هذا الجو الممتع . حقًّا ، إن الزائر الذي يملك وقت فراغ كاف يستطيع أن يقضي الساعات والأيام في هذا المكان ، ينعم بمشاهدة مناظر متجددة تتكشف أمام ناظريه على الدوام . والشوارع مكتظة بالمارة يتجاوب فيها باستمرار وقع أقدام خليط كبير من الناس ، وهم يسرعون في طريقهم . هنالك توجد الحمير لركوب السائحين أو النساء المحجبات اللاتي يرتدين ملابس سوداء واللاتي ينتمين إلى القشرة الدنيا من الطبقة المتوسطة ، ويسرع خلف الحمير المكاريون يستحثونها بصرخاتهم العالية أو يلهبون ظهورها بسياطهم . وتوجد أعداد كبيرة من الجمال محملة بالحبوب ، وأخرى أسرع منها تحمل بعض البدو على ظهورها ، كما توجد عربات يركبها بعض النسوة الجميلات من حريم الخديوى تغطي وجوههن غلالات رقيقة ، ويرافقهم أغواتهن . وهناك عربات أخرى أقل فخامة تحمل بعض النساء الأكثر تحفظًا (وهن زوجات وبنات البكوات والباشوات) ويرافقهم كذلك أغواتهن .

أماالسقا أو « حامل الماء » فهو يسير حاملاً قربته مملوءة بالماء يرش به الشارع أو يوزع جرعات من الماء على المارة في أكواب مصنوعة من النحاس الأصفر وهو ينادى : « يعوض الله علي » أملاً في أن ينال صدقة يسيرة .

ويمر القناصل والباشوات في مواكب حافلة يتقدمهم سائسون يرتدون

ملابس مزركشة ويسرعون الخطى » ، كما يتقدم موكب الخديوى حراسه على صهوة جيادهم وسائسوه وهم يصيحون : « افسحوا الطريق » .

وإلى جانب ذلك يوجد بعض الجنود تصاحبهم فرق الموسيقى وترى إلى جانب ذلك الشحاذين القذرين ، وتسمع وقع أقدام لا ينقطع من اليهود ، والأقباط ، والمسلمين ، والعرب ، والأتراك ، والسوريين ، والأرمن ، والعجم ، والأوربيين ، وكل منهم في زيه الذي يتميز به . هذه هي المناظر اليومية لذلك الشريط الذي لاينتهي من المناظر الخلابة التي تجرى في شوارع القاهرة .

وتكتنف شرفة الفندق من كل جانب حدائق مليئة بأشجار ونباتات المناطق الحارة . وعبر الشارع في قلب الحي الأوربي ، تقع حديقة الأزبكية ببحيراتها ، ونافوراتها ، وجبلاياتها ، ومغاراتها ، وتحتل عشرين فدانًا أو يزيد . كما تتخللها الطرقات الجميلة ، والشجيرات والأشجار العديدة النادرة التي غلب أغلبها من الهند .

ومن بين هذه الأشجار يوجد عدد كبير من أشجار « البنيان » تتدلى فروعها إلى الأرض وتمتد أغصانها إلى باطن الأرض فتكون أصولاً جديدة . وإنك لتسمع صوت البط في مجارى المياه الصناعية وترى البجع الأبيض والأسود وهو يتهادى في رشاقة على سطح البحيرات كما تشاهد قوارب النزهة الصغيرة تشق الماء ويمرح فيها الأطفال .

ويتدفق القاهريون الذين ينتمون إلى الطبقتين الوسطى والدنيا ، عصر كل يوم ومساءه ، إلى هذه الحديقة لكي يستمتعوا بصوت الموسيقى ويشاهدوا ألعاب الشعوذة . وبهذه الوسيلة يتيحون للأجنبي فرصة عجيبة لكي يشاهد خليطًا من الناس – من كل الأشكال والألوان والأديان والجنسيات – الذين يتكون منهم سكان القاهرة . كما يحيط بالحديقة من جميع الجوانب مبان فخمة ، من بينها دار الأوبرا .

ولقد تركت نزهة الصباح القصيرة أثرًا طيبًا في نفسي عن مقر إقامتي المؤقت ، كما منحتنى أملاً ، تحقق بعد ذلك بأكمل معانيه ، في إقامة سارة في عاصمة الخديوى .

الفصل الثاني

استقبال سمو الخديوى لي

كان أول واجب أقوم به في القاهرة هو زيارة الخديوى إسماعيل باشا . ولقد تم ذلك في قصر الجزيرة الواقع على الشاطيء الغربي للنيل في مواجهة المدينة . ولقد أحاط شريف باشا - وزير الخارجية - سموه علمًا بوصولى ، وتحدد ميعاد ومكان هذه المقابلة غير الرسمية .

ولقد عبرت النيل على ذلك الجسر الفخم إلى تلك الجزيرة الطويلة البيضاوية الشكل حيث اتجهت إلى اليمين مخترقًا شارعًا عريضًا تفصل بينه وبين شاطيء النيل أشجار نخل باسقة . وعلى الجانب الآخر ، أي الجانب الأيسر ، تقع حدائق النباتات والحيوانات . وتشتمل الأخيرة على مختلف أنواع الحيوانات الواردة من أفريقية وآسيا من بينها قطيع صغير من الفيلة يقوم على خدمتها حراسها الهنود . وقد أرسلت هذه الفيلة فيما بعد ، بناء على نصيحة الجنرال ستون إلى مناطق أعالي النيل لكي تقوم بمهمة النقل . وفي آخر هذا الطريق المتسع يقع قصر الجزيرة ، وهو قصر صغير نسبيًا ، ولكنه مسكن رائع منيف ، بدىء في بنائه أثناء حرب الاستقلال التي اشتعلت في بلادنا بينما كانت مصر منتشية بسبب ثروتها المفاجئة الناشئة عن ارتفاع ثمن القطن . ولقد أنشأ إسماعيل باشا هذا القصر خصيصًا لملذاته لمدة محدودة من كل عام . وكان يتصل به حدائق غناء ، كما أقيم به كشك قد زين على الطراز المراكشي . وعلى مسافة قصيرة من القصر أقيم بناء خاص بالحريم .

ولقد أقام في هذا القصر أيام الاحتفال بفتح قناة السويس سنة ١٨٦٩ ، الإمبراطورة يوجيني أولاً ثم فرنسيس جوزيف إمبراطورالنمسا بعد ذلك ، كما أقام فيه بعض الشخصيات البارزة أمثال « البرنس أوف ويلز » . ولقد بيع القصر واستبدل بفندق يشرف على إدارته بعض الضباط الإنجليز . هذه الجزيرة تكون على هذا الحال في وقت فيضان النيل فقط ، ذلك أن الفرع الغربي للنيل يجف في الأوقات الأخرى .

دخلت القصر فتقدمني كبير التشريفات على سلك كبير صنع من الرخام « الكارارا » حيث لقينى الخديوى في غرفة استقبال فاخرة . ولقد استقبلني سموه عند الباب استقبالاً حارًا . وبعد التقديم والتحيةالمعتادة اتخذت مقعدي عند طرف إحدى الأرائك الكبيرة وأخذ الخديوى مقعده في الطرف الآخر وقد امتدت قدماه أمامي على الطراز التركي .

وكان حديثنا يدور حول موضوعات عامة ، ورحب بي الخديوى في بلاده وسألني ما إذا كنت مسرورًا بزيارتي ، كما سأل عن صحة رئيس الولايات المتحدة وحالة البلاد العامة ، ثم تمنى لي أن استمتع بإقامة طيبة في بلاطه ، كما أبدى استعداده لعمل كل ما بوسعه لجعل زيارتي مريحة . ولما كان لا يتكلم الإنجليزية فقد كانت محادثاتنا باللغة الفرنسية التي كان يتكلمها بطلاقة . لم يكن إسماعيل باشا جذابًا من الناحية الجسمانية ، فقد كان يبلغ من العمر حوالي السابعة والأربعين ، قصير القامة ، عريض المنكبين ، ضخم الجثة ، ولون بشرته أكثر سمرة من لون بشرة الأوروبيين . أما جفونه فكانت مرتخية ، وجفونه اليسرى أكثر ارتخاء من اليمنى . وعندما تكون ملامحه ساكنة تبدو عيناه وكأنها نصف مغلقة . وكانت حواجبه فاحمة اللون ، خشنة ، كثة الشعر ، وبارزة إلى الأمام . أما لحيته البنية الداكنة فكانت قصيرة . وكانت أذناه كبيرتين وليست من الحسن بمكان . وكان يرتدى حلة إفرنجية سوداء ، غير أن معطفه كان من الطراز « الاستامبولى » أي أنه معطف « بصف واحد » ذو ياقة منتصبة ، كما كان يرتدى على رأسه الطربوش الأحمر .

ولا يظهر الأتراك عراة الرءوس قط ، إذ أن هذا العمل يعتبر دليلاً على المهانة البالغة . ولقد أخبرنى شاب كان أبوه أحد وزراء السلطان ، وكان هو نفسه يعمل في إحد المصالح في القاهرة ، أخبرنى أنه لم يظهر أمام والده عارى الرأس مطلقًا ، حتى ولا في طفولته المبكرة ، وأنه لا يجرؤ على مثل هذا العمل ، ذلك أنه لا يستطيع أن يُعرِّض أباه لمهانة بالغة . ولقد أخبرنى رياض باشا ، الذي أصبح رئيسًا للوزراء فيما بعد ، في معرض الحديث عن أول زيارة له لأوربا ، أنه دهش حينما طلب منه موظف الكنائس في ألمانيا ، وكان يزروها في ذلك الوقت ، أن يخلع طربوشه . ولو تصادف أن دخل مسلم أحد المساجد وهو عارى الرأس لطرد على الفور ، ولكان محظوظًا إذا لم يصبه سوء . ويُلبس الطربوش أو العمامة في المسجد ، وفي حفلات الاستقبال العامة والخاصة ، وفى الولائم ، والواقع في كل مكان يذهب إليه التركي أو المسلم . أما المرأة التي تبدو في الشارع فينبغي عليها لا أن تكون محجبة فحسب بل عليها أن تغطى رأسها كله . ويعتبر خرقًا صريحًا لآداب اللياقة أن تظهر المرأة الجزء الخلفى من رأسها ، تمامًا كما لو أظهرت وجهها . فإن أقدمت على عمل شيء من ذلك كان فضيحة العمر .

وكان للخديوى عادة التحدث وإحدى عينيه مغلقة ، بينما يمعن النظر بعينه الأخرى في أدق تفاصيل ، وحركات ، وطريقة الحديث ، وحتى أفكار هؤلاء الذين يتحدث معهم .

ورغم كل نقائصه ومساوئه الجسمانية ، كان محدثًا ممتعًا ، يتسم في كثير من الأحيان ، بشوشًا دائمًا ، ومثيرًا للاهتمام . كان صوته هادئًا يبعث على السرور ، وألفاظه منتقاة ومعبرة . وكان فائق الذكاء ، ولديه معلومات دقيقة حتى عن التفاصيل التي تخص حكومته وشئونه الخاصة الشاسعة ، وتبرهن نظراته الحادة الثاقبة (حينما تكون عيناه مفتوحتين من أثر حديث شائق) وإجاباته السريعة الدقيقة ، ومعلومات الخاصة بموضوعات ليس من المفروض أصلاً أن يكون ملمًا بها ، تبرهن لكل هؤلاء الذين استمتعوا بالحديث

معه ، أنه رجل يمتاز بقدرة غير عادية .

وحسب العرف الجاري في البلاد لم يكن في مقدور أي أمريكي أن يتقدم إلى الخديوى إلا عن طريق ممثله الدبلوماسي . وقد أتيحت لي الفرصة في أن أقوم بهذا الواجب مرارًا أثناء السنوات الخمس التي أقمتها في القاهرة ، وكثيرًا ما كان يدهش الزائر لما كان يلمسه من ذكاء الخديوى النادر . فعندما قدم له قائد إحدى البوارج الأمريكية أخذ الخديوى يوجه له سلسلة من الأسئلة التي تخص سفينته ، ولم يستطع القائد أن يجيب على بعضها ، ثم تطرق إلى وصف سفنه الخاصة وصفًا تفصيليًا .

وقد عبر القبطان وغيره من الضباط الذين كانوا برفقته عن بالغ دهشتهم بعد أن انصرفوا من حضرة سموه . نظرًا لما لمسوه منه من معلومات حربية . وكان القول نفسه ينطبق على غير ذلك من الشئون . ولذا كان العسكريون والمدنيون على السواء يدهشون من معلوماته المفصلة . أضف إلى ذلك أنه كان يملك القدرة النادرة على أن يكتسب ثقة زائره بأن يزيح عن كاهله كل حرج ممكن ويجعله على طبيعته تمامًا .

وقد تأجلت مقابلتي الرسمية مدة طويلة نظرًا لعدم وصول أوراقي الضرورية من القسطنطينية ، ذلك أنه من الوجهة الإسمية يعتبر الخديوى من رعايا السلطان . ولذلك ، قبل أن يعترف رسميًا بممثل حكومة أجنبية في مصر ، لابد من الحصول على موافقة أو إذن السلطان . ويتم هذا عن طريق الحكومة التي ترسل ممثلها . ومن ثم تتصل حكومة السلطان بحكومة الخديوى لكي تؤكد ما إذا كان المرشح مقبولاً ، أي ما إذا كان « شخصًا مرغوبًا فيه » .

كما أن أعمال الدواوين في القسطنطينية غاية في البطء ، وربما تكون أبطأ من أعمال أية دواوين لأية حكومة في العالم ، أضف إلى ذلك أن مقتل السلطان عبد العزيز ، الذي حدث عقب وصولى بأسبوعين ، قد أدى إلى زيادة تعطيل وصول الوثائق الرسمية المطلوبة ، وحال كذلك دون وصول

الأوراق عاجلًا ، كما أدى إلى زيادة التعطيل موت طومسون باشا ، وزير البحرية ، وزوج الأميرة فاطمة هانم ، ابنة الخديوى الثانية التي كان يؤثرها على غيرها .

وكانت الأوراق التي أرسلها هوراس ميلنارد وزيرنا المفوض لدى « الباب العالي » ، تتضمن فرمانًا موجهًا إلى الخديوى وتوجيهًا مرسلاً إلي يحدد امتيازاتي الرسمية ، وقد كتبت هذه الأوراق باللغة التركية بأسلوب منمق وبحروف كبيرة ، كما كانت سطورها المتعاقبة مختلفة الألوان ، وهي الآن ضمن الهدايا الكثيرة التي تلقيتها في مصر . ولقد قمت بترجمة هذا الفرمان إذ أنه مثل عجيب على التعبيرات الشرقية . « إلى وزيرى النبيل ، سمو الخديوى ، المثل الأعلى ، والمدير القدير لأعمال الدولة ، منبع الحزم والإنسانية ، بل ومؤسس صرح العزة والمجد – أنت يا مدعم قواعد السعادة والخلاص . خليل العناية الإلهية ، خديوى مصر ، مزدانًا بنياشين الدولة العثمانية والمجيدية من الدرجة الأولى ، أي وزيرى إسماعيل باشا ، الأمير الجليل القدير ، الذي اختارته قدرة الله . عند استلام هذا الأمر ليكن معروفًا لديك بأن البعثة الدبلوماسية للولايات المتحدة التى تقطن عند بوابتنا السعيدة قد قامت برفع تقرير تحيطني فيه علمًا بوفاة المستر بيروسلى الذي كان قنصلاً عامًا للولايات المتحدة في مصر والتي تشرف على أعمال التجار التابعين للولايات المتحدة الذين يروحون ويغدون في هذا القطر . كما أحاطتنى بترشيح مستر البرت . ا. فارمن الذي اعتمد مني بأمر سلطاني . ذلك الأمر الذي قدم إلى الوزير المفوض ليحفظه لديه . ولقد أعطاه أمرى السلطاني هذا سلطة الإشراف على أعمال المدنيين والتجار التابعين للولايات المتحدة والمترددين على هذه البلاد ، كما نص على أن يعامل ، دون أي تدخل من جانب أي شخص غريب ، طبقًا للشروط المنصوص عليها في المعاهدات المبرمة حاليًا . لقد أعطيته فرمانًا آخر ، ولسوف تعامله شخصيًا وفقًا للمعاهدات المبرمة ، وأنت ، أيها الخديوى السالف الذكر ، لسوف تتصرف بمقتضى نصوص هذا الأمر المشار

إليه ، وتسمح له بجمع الضرائب القنصلية المستحقة على الواردات والصادرات التي يتعامل فيها التجار الأمريكيون ، وعليك ألا تسمح بأي نوع من أنواع التدخل في حقوق القنصلية .

خاتم السلطان

كبير الوزراء

ولقد تجنب الباب العالي ذكر اختصاصات القنصل العام في مصر وتعتبر واجبات المعتمد البريطاني والقنصل العام للولايات المتحدة في مصر واجبات دبلوماسية وقنصلية ، وإن كانت الأولى هي أهمها أساسًا . والمعتمدون والقناصل العامون التابعون لدول أوربا الكبرى التي لها قناصل يقومون بالواجبات القنصلية تعتبر وظائفهم دبلوماسية محضة . وعلى كل فإن الباب العالي لا يعترف بهؤلاء الممثلين الدبلوماسيين إلا على أنهم قناصل عامون ويعتبرون في نفس مرتبة غيرهم من المعتمدين والقناصل العامين لدى الخديوى .

وفي حفل الاستقبال الرسمي الذي أقيم في قصر عابدين قدمت خطاب اعتمادي شخصيًا إلى الخديوى ، بناء على التعليمات الصادرة إلى وكان هذا الخطاب موجهًا من رئيس الجمهورية الجنرال جرانت . وكانت وزارة الخارجية فى واشنطون قد أرسلت نسخة منه إلى شريف باشا لهذا الغرض . وكان نص الخطاب كما يلي :

من بوليسيس س. جرانت ، رئيس جمهورية الولايات المتحدة إلى سمو خديوى مصر .

صديقي العزيز البار

لقد وقع اختيارى على البرت أ. فارمن ، من مواطني الولايات المتحدة كمعتمد وقنصل عام للولايات المتحدة الأمريكية في مصر ، لكي يقيم في

القاهرة ويشرف على مصالحنا ، ويبذل كل ما في وسعه من وسائل شريفة كي ينمى ويحافظ على الألفة والنية الصادقة بيننا . ولذا ألتمس من سموكم أن تعامله على هذا الأساس وأن تمنحه الاحترام اللازم وأن تواليه بالثقة التامة في كل ما يمثله من قبل حكومته وعلى الأخص عندما يؤكد لسموكم توافر الصداقة الخالصة بيننا .

حرر في واشنطون في ١٣ من أبريل سنة ١٨٧٦م.

بأمر رئيس الجمهورية

وزير الدولة	صديقي المخلص
ج . ل . كادوالدر	ى. س. جرانت

هذا وقبل تقديم الخطاب قمت بإلقاء كلمة قصيرة أكدت فيها لسمو الخديوى الصداقة الحارة من قبل الرئيس ورغبته في دوام علاقات الصداقة الموجودة بين حكومة مصر وحكومة الولايات المتحدة ، فأجاب الخديوى بالفرنسية مبينًا تقديره لعبارات الصداقة ، كما سماها ، التى ألقيتها باسم حكومتنا . راجيًا مني تبليغ مشاعر الصداقة إلى جناب الجنرال جرانت ، كما عبر عن رغبته التى لا تقتصر على دوام علاقات الإخلاص بل ترمى إلى تقوية هذه العلاقات بمختلف الوسائل بين كل من الولايات المتحدة الأمريكية ومصر . كما أكد لى أنه على استعداد لمساعدتي في إنجاز المهمة التي كلفت بها من قبل حكومتى .

في هذه الزيارة كان يصحبنى طبقًا للعرف الجاري . الوزير المفوض المساعد وسكرتيرى الخاص وأربعة من المترجمين ، ولم تكن وظائف هؤلاء المترجمين سوى وظائف فخرية فحسب ، وذلك لأنهم لا يقومون بخدماتهم إلا في بعض المناسبات الرسمية العامة . ولقد كانوا أشخاصًا من ذوي النفوذ والمال الذين يقومون بخدمات صغيرة من حين إلى حين في مقابل ما يتمتعون

به من حماية . ولما كانوا ملحقين بالمفوضية كان لهم حق التمتع بحقوق وامتيازات المواطنين الأمريكيين ، وعليه فقد كان هذا سببًا في تخلصهم من طلبات الابتزاز للحكام وغيرهم من الموظفين المحليين لتلك الحكومة الاستبدادية .

والدولة العثمانية تسمح بأربعة من المترجمين لكل وزير مفوض جريًا على التقاليد القديمة . وهم من الوجهة النظرية يكونون جانبًا من حاشية الوزير المفوض . والواقع أنهم سكرتيروه ومترجموه ومساعدوه .

بعد تقديم خطاب الاعتماد كان من بين الحاضرين ، وهم من الموظفين المصريين ، شريف باشا ، وقد جلس الجميع على أرائك تركية ، وقدمت إليهم نراجيل ذات أذرع مرصعة بالماس أجسامها مرتكزة على أطباق من الفضة . وكانت هذه الأذرع طويلة بشكل يسمح للإنسان باستخدام النرجيلة بطريقة ملائمة . وبدع أن أخذوا بضعة أنفاس قدمت إليهم القهوة التركية . وبعد حديث قصير بيني وبين الخديوى قام سموه ورافقني حتى باب غرفة الاستقبال . وعندما كنت على وشك الخروج أبدى أسفه على أن الظروف قد حالت بينه وبين استقباله لي بالطريقة المألوفة ، ثم أردف قوله : إنه سوف يكون سعيدًا إذا ما قام بهذا العمل غي المستقبل .

كنت أعتقد أن هذه المقابلة سوف تكون بديلاً لحفل الاستقبال الفخم المألوف الذي يقام طبقًا لما يجرى به العرف في مصر ، ذلك أنه لم تكن قد انقضت مدة الحداد ، وهي أربعون يومًا ، على وفاة المرحوم طوسون باشا . ولذا فإننا قد أبلغنا في الخطاب الذي حدد مكان وميعاد الاستقبال بأنه سوف يتم دون « أي احتفال » .

وفي الوقت المحدد للاستقبال النهائي ، حضر زكي باشا ، كبير التشريفات ، إلى مقر إقامتي بصفته ممثلاً للخديوى ومعه عربتان : إحداهما ، وهي العربة الملكية ، خصصت للباشا ولشخصي ، وكانت مطلية بطلاء ذهبي وتجرها جياد بيضاء مزركشة يصاحبها بعض السائسين والحراس . أما العربة

الأخرى فكانت لحاشية القنصل . وكان الباشا محاطًا بعدد من رجال السواري على جياد بيضاء وشهباء ساروا في حراستنا حتى القصر . وعند مدخل القصر ظهرت فضيلة من المشاة على جانبي الميدان . وعندما اقتربنا بدأت طلقات المدافع تدوى من القلعة وبدأ الجنود يحيوننا عند مرورنا .

وعند مدخل القصر استقبلنا طونينو بك مساعد كبير التشريفات يصحبه آخرون من أتباع الخديوى . وحينما ارتقينا السلم الضخم ، استقبلنا الخديوى وقادنا إلى غرفة الاستقبال . وبعد أن تبادلنا مع سمو الخديوى قليلاً من كلمات المجاملة جلسنا جميعًا ودارت علينا الغلايين وفناجين القهوة كما حدث في المناسبة السابقة . وحينما استأذنت للانصراف ، قدم لي الخديوى سيفًا مقوسًا ذا نصل دمشقي وغمد مرصع بالذهب ، كرمز لسلطتي في بلاده . وعندما غادرنا القصر مررنا بين صفوف الجند الذين قاموا بتحيتنا مرة ثانية ، ووصلت إلى مقر إقامتى بنفس الطريقة التى حضرت بها ، ويصحبنى نفس الأشخاص الذين رافقوني إلى القصر ، ثم تبادلت الزيارات بعد ذلك ، كما جرت العادة ، مع شريف باشا ، ومع أبناء الخديوى وغيرهم من الشخصيات البارزة .

وفي الصباح التالي ترتب على هذه المقابلة أن حضر إلي سائقو العربات والسائسون وغيرهم من خدم الخديوى وخدم ناظر التشريفات ووزير الخارجية الذين أسعدهم الحظ بحضورهم هذه المقابلات . وقد حضروا جميعًا لتناول « البقشيش » الذي كان من حقهم ، كما يقتضى العرف في مثل هذه المناسبات . وقد حدد العرف المبالغ التي تعطى لهم فيمايلي : سائق الخديوى ، ستة جنيهات استرلينية ، السائق الثاني ، أربعة جنيهات ، السائسون ، أربعة جنيهات ، حرس ناظر التشريفات ، خمسة جنيهات ، حرس وزير الخارجية ، عشرة جنيهات ، سائق الوزير وسائسوه وخدمه ، خمسة جنيهات ، الحرس القنصلي ، جنيه واثنا عشر شلنًا ، فيصبح المبلغ الكلي خمسة وثلاثين جنيهًا واثني عشر شلنًا استرلينيًا ، أو مائة وثلاثة وسبعين دولارًا .

ولقد منح الخديوى القائم على خدمتنا (حسن) ستة عشر نابليو (تقدر بما يزيد على ستين دولارًا) وذلك ليشترى بها حُلة رسمية جديدة من المفروض أنه يحتاج إليها عند دخوله الخدمة لدي القنصل العام الجديد . وكان من عادة الخديوى حينئذ أن يقوم بإهداء أي قنصل عام جديد – بمناسبة استقباله الرسمي – جوادًا رشيقًا ، جهز سرجه ولجامه على أحسن طراز شرقي ، فقد وشي سرجه الكبير بالذهب بينما زخرف بقية الطاقم بنفس الأسلوب الفاخر . ولقد قبل القناصل العامون لكل الدول هذه الهدية بما فيهم قناصل الولايات المتحدة ، فيما عدا سلفي الذي تلقى تعليمات بألا يقبل الهدية ، وقد تكرر هذا الحظر في التعليمات التي صدرت إلي ، ولما كان من المعلوم أن الحصان لا يمكن قبوله ، لم يقم المسئولون بتقديمه إلي . وعلى كل فقد سبق أن سألني شريف باشا في حديث جرى حول هذا الموضوع ، عن الحق الذي يكفل للولايات المتحدة أن تتدخل في عاداتهم القديمة ، ثم لمَّح بأنه ينبغي عليه أن يقدم الحصان ، تاركًا لي أمر رفض الهدية .

ولم يتوان سائس الخديوى عن أن يحضر إلي لكي يتناول نصيبه من « البقشيش » كما لو كان قد تبعنى من القصر مقتادًا الجواد ، وكما لو كنت قد قبلت الهدية . ولم لا ؟ لم يكن ذنبه إن حكومة الولايات المتحدة قد اتخذت قرارًا يفيد بأن هذه الهدية عمل غير دستوري ، بعد أن كانت قد سمحت بقبول الجواد لأمد طويل . وعادة إهداء الحصان عادة قديمة يرجع أصلها إلى الزمن الذي لم يكن فيه ثمة طرق ممهدة للعربات في مصر ، حتى ولا في المدن الكبرى مثل الإسكندرية والقاهرة ، ولذا كان وجود الحصان ضرورة بالنسبة لأي شخص ذي مكانة . وعندما وصلت ، لم يكن ثمة طرق للعربات خارج هاتين المدينتين وضواحيهما القريبة ، وليس هناك الآن سوى بضع طرق قليلة ، أطولها – على حد معرفتي – الطريق الممتد من القاهرة إلى الأهرامات ، وهي مسافة تبلغ حوالي تسعة أميال .

وقبل حفل الاستقبال الرسمي الذي أقيم لي ، كثيرًا ما قمت بزيارة

الخديوى الذي أشعرني بأني على صلة وثيقة بسموه بفضل شخصيته الاجتماعية اللطيفة . وكان ينبغي علي أكثر من مرة أن أقوم بواجب غير سار ، وهو المطالبة غير الرسمية – وإن كانت بطريقة ملحة مهذبة – بدفع التعويضات الأمريكية ضد الحكومة المصرية . وعلى حين أنني كنت أقوم بهذا العمل أمام وزير الخارجية أو وزير المالية كان من الضروري في بعض الأحيان أن أثير الموضوع أمام الخديوى شخصيًّا ، وكانت الحكومة المصرية في ذلك الوقت في ضائقة مالية شديدة ، ولذا كان مجرد ذكر أي تعويض مالي لابد وأن يسبب بعض الضيق . وعلى كل ، لم يكن بي حاجة للمطالبة بشيء آخر خلاف ذلك ، في الوقت الذي كان فيه الممثلون الأوربيون لا يلحون في طلب التعويضات المالية فحسب ، بل يقومون كذلك بتنفيذ مشروعات سياسية ، ذات أهمية حيوية بالنسبة للخديوى ، الأمر الذي أدى في النهاية إلى أن يفقده عرشه .

وعندما أعلن نبأ وصولى في القصر لم يكن الخديوى يخشي مطلبًا مجحفًا أو مؤامرة سياسية من جانب حكومتى ، ولذا لقينى بإخلاص تام دون أي خوف من تعريض مصالحه للخطر . والواقع أن الولايات المتحدة وروسيا كانتا في ذلك الوقت الدولتين الكبيرتين الوحيدتين اللتين لم تكن لهما مطمع سياسي مباشر أو غير مباشر بالنسبة لمصر . مثل هذه الظروف ساعدت كثيرًا في دفع التعويضات الأمريكية التي سويت أخيرًا بطريقة مرضية ، ودفعت عن آخرها . ولقد كنت مدينًا بهذه النتيجة لصداقة الخديوى .

الفصل الثالث
أسرار النيل والري

مصر بلد العجائب ، والقاهرة مدينة ساحرة فاتنة ، من أجمل مدن العالم ، وقلما تجد مدينة تضاهيها في بهجتها ، وقلما تجد مملكة حديثة العهد فى مظاهرها وروعتها كمصر ، بل قلما يجد الباحث وراء اللذة أو الباحث وراء العلم ما يضاهيها . ففي كل زاوية من زوايا البندر أو الريف تجد المدهش العجيب ، والجديد اللذيذ ، فالمساجد وقباب المساجد لسلاطين المماليك ، ومقابر العائلة المالكة وجبانة العرب ، والقصور العتيقة ، والشوارع المكتظة بالكتل البشرية المتحركة ذهابًا وإيابًا ، ومبانيها ذات الطراز العربى ، والأسواق العجيبة الممتلئة بالبسط والسجاجيد الشرقية الفاخرة ومجموعة الآثار الفرعونية ، والقلعة بقصورها ، ومسجد محمد على المبني من المرمر والمناظر الباهرة ، والصحاري والغابات المتحجرة ، والصخور الفسفورية البيضاء بجبل المقطم ، والأهرامات وأبي الهول ، والأضرحة العتيقة الرائعة ، والنيل ، والحقول المحيطة بواديه ، وعادات أهله المختلفة . كل ذلك يجتمع ليحدث أثرًا ليس له نظير في أي مكان آخر فوق سطح المعمورة .

لقد نقشت هذه المناظر على الذاكرة أثرًا لا يبلى ، وذلك أنه بعد مضى سنين عديدة على تلك المناظر يشتاق « الإنسان الذي شرب من ماء النيل مرة » أن يمرح ثانية في طقس مصر الجميل ويعود إلى مسراتها وملذاتها التي تظهر له حينما يسرح الطرف فيها وكأنها حلم لذيذ عن أرض عجيبة تضيئها أشعة مصباح علاء الدين السحرية .

ولقد قال هيرودوت (أبو التاريخ) في معرض الحديث عن مصر منذ ألفين وثلاثمائة وخمسين عامًا : « أنها تشتمل على عجائب أكثر من أي بلد آخر في الوجود . وتبدى أعمالاً أعظم مما يتصور عند مقارنتها بغيرها من الأقطار » .

منذ ذلك التاريخ لم تقف مصر عن إثارة إعجاب السائح والمؤرخ المحب لجمالها وروعتها .

أما من الوجهة الجغرافية فهي ليست إلا واحة محوطة بالصحاري الشاسعة من كافة الجهات ، عدا الشمال . ولقد كانت تسمى عند القدماء بالأرض السوداء وذلك نسبة إلى لون الطمى الأسود الذي يهبه النيل للبلاد فيكسبها الخصوبة والنماء ، ويجعل بينها وبين رمال الصحراء فرقًا شاسعة .

ولقد كانت منذ العصور الأولى البستان ، بل حقل القمح الخصيب لأهل المشرق ، فقد كانت المورد الغذائي الوحيد الذي يعتمد عليه . بل لقد كانت منذ العصور الأولى تمد أهلها (الذين كان عددهم أكثر من الآن) بخيرات تفوق الوقت الحاضر ، كما كانت تمد قبائل البدو المنتشرة في الصحاري المجاورة ، وتصدر كميات كبيرة من الغلال والسكر والقطن – حتى أنه منذ ستة وثلاثين قرنًا من الزمان قال يعقوب عليه السلام إلى أبنائه : « إنني قد سمعت عن مصر بكثرة غلتها ، ألا فلتنزلوا مصر وتبتاعوا لنا منها حتى يمكننا أن نعيش ونحفظ أنفسنا من الموت » – منذ ذلك اليوم لم تخفق مصر في إنتاج أكبر محصول سنوي ، فيما عدا بعض السنوات . في سنة ١٨٨٠ كانت مصر تحتوى على خمسة ملايين من الأفدنة من الأطيان الزراعية ، وهي مساحة تقل عن سُدس مساحة ولاية نيويورك . ومع صغر مساحتها هذه فإنها ما زالت (سواء كان ذلك في الأزمنة القديمة أو الحديثة) محط أنظار الطامحين من الأجانب .

ولقد قاست مصر من الغزوات الكثيرة ، واليوم تعرض تلك التربة الغنية

أهلها للصعوبات التي يسببها لهم هؤلاء الذين يفرون من الجبال والأقاليم القاحلة ، والنيل العجيب (سليل أوزيريس) هو مصبدر خصوبتها وثروتها .

أما الواحات الصغيرة فتروى أراضيها من مياه العيون والآبار وعليه يروى ويزرع النزر اليسير من أراضيها .

وفي دلتا النيل وواديه تؤخذ المياه من النهر للغرض نفسه . ولا توجد أهناك أمطار ذات أهمية عملية ، ولكن النيل هو عماد النباتات ، فعلى مياه النيل يعيش الأهالي ودوابهم ، وأنه لينبوع الحياة لهذه المملكة ، أهلها وحيوانها ونباتها ، فمياهه إن فاضت تسبب دمارًا عظيمًا وإن شحت يتسبب عنها المجاعة ، وإذا ما توقف النيل عن الفيضان ذبلت وذوت كل النباتات والشجيرات والأشجار ، وبعد مدة لا تتجاوز الأشهر الثلاثة تصبح هذه البلاد قاحلة لا يقطن فيها إنسان تمامًا مثل الصحراء الكبرى .

هذا وإن ملايين السكان لم يشربوا غير مياهه العذبة لينتظرون فيضانه السنوي بفارغ الصبر ، كما يرقب فلاح المناطق الشمالية عودة فصل الربيع .

ولقد كان النيل عند قدماء المصريين ذلك المعبود المقدس الذي تفوق أسراره أسرار أي معبود آخر ، فإن منابع النيل هي العامل الأكبر في فيضانه السنوي إبَّان حرارة الصيف ، وانخفاضه في فصل الشتاء ، بل وخواصه التي تهب الحياة للبلاد .. كل ذلك كان في اعتقادهم ، كغيره من الخيرات التي تهبها المعبودات الأخرى ، عبارة عن مظاهر تفوق إدراك الأحياء من البشر ، ومن القداسة بحيث لا يمكن الاستغناء عنها .

ولقد شاهد الكثير من عقلاء الرجال وكتبوا عن هذه الموضوعات وقدموا بوجه عام نظريات بالغة السخف .

ويروى هيرودوت أن الرجل الوحيد من بين جميع المصريين والليبيين واليونانيين الذي يدعى أنه يعرف شيئًا عن منابع النيل إنما هو مسجل بيت المال

بمنيرفا في سايس بمصر .

وتنحصر قصته فيما يلي :

يوجد جبلان قائمان بين مدينة سيين في طيبة وجزيرة الفيل .. وأن منابع النيل التي لا قاع لها تنحدر من بين هذه الجبال ، ونصف هذه المياه تتدفق نحو الشمال إلى مصر والنصف الآخر نحو الجنوب إلى بلاد الحبشة ، هذه الرواية تحدد منابع النيل عند الشلال الأول الذي زاره هيرودوت فيما بعد محاولاً الوقوف على ما في تلك المعلومات من خطأ دون الحصول على الحقائق السليمة . هذا وأن الفيلسوف الرياضي العظيم طاليس أحد الحكماء السبعة الذين نزلوا بمصر حوالي سنة ٦٠٠ قبل الميلاد ، قد أدلى برأيه في سبب فيضان النيل قائلاً :

« إن الرياح السنوية التي تهب بشدة على مصب النهر تسد التيار المائي وتوقفه ومن ثم تمنعه من أن يفيض في البحر ، وبسبب هذا ترتفع مياه النهر ويمتلىء مجراه بالمياه حيث تفيض على البلاد المنخفضة .

وأخيرًا : « نسب الفيلسوف انجزاجورس الفيضان إلى ذوبان الثلوج التي تنزل على بلاد الحبشة ».

ولقد ترك لنا تلميذه يوريبيديس هذه السطور :

« إن نهر النيل الذي ينبع من بلاد العبيد اليابسة إنما يفيض عند ذوبان الجليد وانحداره إلى مجرى النهر » .

هذا ويقول « أفورس » :

إن أرض مصر قاطبة مكونة من طمى النيل ، وتربتها تمتاز بطبيعة إسفنجية مفككة وبها صخور ضخمة ومغارات تمتلىء بمياه غزيرة تتجمد في فصل الشتاء ، وتنحدر في فصل الصيف من كل جانب كما يتصبب العرق من

المسام ، فتكون سببًا في ارتفاع مياه النيل .

كما توجد نظريات أخرى غير معقولة كهذه استنبطها حكماء اليونان الأقدمين بعد عناء شديد . فعندما نقرأ عن الرياح التي توقف جريان نهر عظيم مسببة فيضانه فوق ربوع البلاد لبضعة أشهر أو عن تلك المياه المتجمدة في إقليم يمتاز بصيف دائم ثم ذوبانها بسبب فعل حرارة الصيف اللاذعة ، نتساءل عما إذا كانت حكمة العلماء في القرن التاسع عشر لا تزال تضاهى تلك الحكمة غير المعقولة لهؤلاء الذين كانوا يعيشون منذ ألفي عام .

أما هوميروس فمع أنه لم يكن يعرف شيئًا عن هذه الحقائق إلا أنه كان مصيبًا في تسمية النيل نبعًا سماويًّا ، في بيته القائل « برجوعنا إلى مجرى مصر السماو ي » .

ومع أن الأمر يبدو لنا الآن يسيرًا إلا أننا استغرقنا أكثر من ألفي عام لحل أسرار منابع النيل وفيضانه السنوي . ولم تعرف الحقائق ولم تفسر الظواهر بطريقة مرضية إلا في جيلنا الحاضر ، رغم أن المسألة لم تعد أكثر من مشكلة جغرافية منذ أمد طويل .

والآن وقد أحاط الناس علمًا بما تهبه الطبيعة من المياه بتنظيم فيضانها حلت العبادة محل الإعجاب ، هذا وإن العربي الذي يعيش في الوقت الحاضر وقد جرد من عمى الخرافات ليبسط سجادته متجهًا نحو مكة راكعًا في صلاته الخافتة إلى الله سبحانه وتعالى شاكرًا ربه من الأعماق لفيضان النيل التي تمنحه الحقول اليانعة والمحاصيل الوفيرة .

يوجد بمصر فصلان : فصل الصيف الطويل الحار ، وفصل الشتاء القصير . وفي فصل الشتاء تنخفض الحرارة إلى درجة التجمد إلا مرة كل بضع سنين حيث ينشأ عنها برد أبيض صغير .

وفي شهر يونيه ترتفع الحرارة بشكل يؤثر على النفس كما يؤثر على التربة

حيث تجف وتيبس وتشقق شقوقًا كبيرة . هنالك تذبل النباتات وتذوى أوراق الأشجار بل ويجف وجه الأرض وييبس في مختلف أنحاء البلاد . وإذا بالنيل الذي انخفض إلى قراره ووصل إلى أقصى درجة من الهبوط يبدأ في الفيضان فجأة .

وبالرغم من حرارة الشمس المتزايدة يستمر النيل في فيضانه بكميات كبيرة حتى شهر سبتمبر وفي بعض الأحيان حتى شهر أكتوبر حين يطغى النيل على البلاد التي لا تحميها الحواجز ولا الجسور . هذا وإن الأقاليم التي يأتي منها ذلك النهر العظيم كانت - علىقدر ما وصل إليه علم قدماء المصريين - كبلادهم بلا مطر . ولذا فليس من العجيب أنهم كانوا يعتقدون في هذه الظاهرة التي لم يستطيعوا تفسيرها وقد تملكتهم رهبة خرافية ، ولذا نسبوا إلى نهر النيل صفات القداسة والألوهية . والنيل له منبعان . فهو ينبع من بحيرتين عظيمتين في أواسط إفريقية هما بحيرة البرت وفكتوريا نيانزا ، حيث يصل محيط دائرة الأخيرة إلى ٨٠٠ ميل .

هذه البحيرات هي مستودع الأمطار الساقطة في محيط تلك المنطقة . وهي تتخذ شكل بركة عظيمة في أقاليم جبلية يستمر فيها المطر أكثر من ستة شهور في العام حيث ترتفع بحيرة فكتوريا نيانزا إلى أكثر من ثلاثة أقدام بسبب هذه الأمطار ، فهي المعين الذي لا ينضب ، بل الخزان الطبيعي الهائل الذي يمد النيل بالمياه بانتظام عجيب . هذا وإن مياه بحيرة فكتوريا تصب في بحيرة البرت نيانزا ، ويعتبر مخرج بحيرة البرت نيانزا بحق بداية النيل ، كما توجد طرق بالأراضي المنخفضة ، تغمرها المياه إبان الفصل الممطر حيث تضيف إلى المياه المخزونة كميات كبيرة .

ويُعزى فيضان النيل السنوي إلى الأمطار التي تنزل بالمناطق الجبلية بلاد الحبشة ، تلك التي تكون النيل الأزرق والعطبرة . فالأول منها يصب في النيل الأبيض عند الخرطوم والثاني يصب في النيل على بعد ٢٠ ميلاً جنوبي النيل

الأزرق .. هذان الرافدان يمدان النيل بالطمى المخصب للتربة ، كما يفعل الحجر الأصفر بنهر المسوري . وفي فصل الجفاف يبدوان لك نهيرين صغيرين ، وعلى الأخص العطبرة الذي يكاد يكف عن جريانه ، ولذا يبدو لك في كثير من مواقعه مجرى صخريًا رمليًا جافًا تعترضه في بعض الأحيان بركة عميقة يعيش فيها التمساح وعجل البحر .

كما يرد إلى هذه البرك حيوانات الخرتيت والفيل والنمر والأسد والخنزير البرى لتطفىء ظمأها ، وفي الفصل الممطر تصبح أنهارًا هادرة على جانب من العمق سريعة الجريان تجرف أمامها كميات كبيرة من التراب والرمال والأشجار . أما جنوبي نهر العطبرة فلا توجد فروع للنيل حتى ولا نهير صغير في طريقه إلى مصبه بالبحر البالغ طوله ١٦٠٠ ميل ، ومن جراء ذلك لا يزيد النيل كغيره من الأنهار زيادة مطردة في حجمه وهو في طريقه بعد ذلك إلى مصبه ، وعلى العكس من ذلك عندما يخترق النيل الأقاليم الصحراوية السودانية تقل مياهه تدريجيًا بسبب الامتصاص والبخر ، كما تقل في مصر بسبب كثرة استعمالها للري ، إلا أن مياهه تصل إلى البحر خلال فرعين عظيمين ، يتسع كل منهما اتساعًا يكفى لتكوين نهر عظيم يحمل معه كميات هائلة من الرواسب الغرينية ، ومنذ زمن بعيد استغل الإنسان هنالك مهارته في الانتفاع بهذه المياه بسخاء مسلمًا أمره للعناية الإلهية .

ويقول « سترابو » : إن العناية والاهتمام اللتين يوليهما الناس للنيل عظيمة جدًا بحيث تجعلان العمل الدائب ينتصر على الطبيعة ، فالأرض خصبة بطبيعتها ، وبما تمتصه من مياه تنتج كميات عظيمة من الفاكهة ، وكذا يفيض النيل ويرى مساحات كبيرة من الأراضي .

أما الكفاح الدائب فقد نجح في سد ما عجزت عنه الطبيعة ، حتى إنه في الفصول التي يفيض فيها النيل أقل من المعدل السنوي المعتاد ، يروى القسط الأكبر من الأراضي بواسطة القنوات والسدود ، كما هو الحال في الفصول

التي يفيض فيها النيل بشكل رائع .

وهذا يعطينا فكرة عما كان عليه الحال عند بداية العصر المسيحي ، ولكن نظام الري في مصر لم ينشأ مع عصر الرومان ولا مع أسلافهم المباشرين اليونان ، بل يرجع إلى تاريخ ربما كان قبل فجر التاريخ الفرعوني .

أما وفرة المحاصيل الزراعية في مصر فلا تفوقها وفرة محاصيل أي بلد آخر . ولهذا فإن المجهود الذي تتطلبه هذه المحاصيل يعتبر مجهودًا كبيرًا نسبيًا .

وما من أحد ، سوى هؤلاء الذين درسوا الموضوع دراسة خاصة لديه فكرة واضحة عن مقدار العمل والمجهود الضروري لرفع مياه النيل وتوزيعها في الوقت المناسب وبالكميات المطلوبة لكل فدان من الأرض المزروعة .

كما أن عمليات الري والحرث والزراعة وجمع المحصول تباشر غالبًا في وقت واحد في حقول مجاورة لبعضها . ومن الواجب ري الأراضي عدة مرات قبل نضوج المحصول ،هذا وإن كميات مياه الري تتوقف على نوع المحصول ، فالأرز وقصب السكر يحتاجان إلى كميات كبيرة من المياه . أما القمح والشوفان والشيلم فتحتاج إلى القليل منها .

ويوجد في مصر حوالي ٨٥٠٠ ميل من قنوات الري الكبيرة منها حوالي ألفي ميل صالحة للملاحة وهذه تكون جهاز الشرايين العظيم للنيل لنقل مياهه إلى مختلف أنحاء البلاد ، بينما يوجد ٤٥ ألف ميل من القنوات الصغيرة تستخدم لتوصيل المياه إلى الأراضي لتسهيل عملية الصرف .

وتوجد كذلك سدود عظيمة ، ارتفاع الواحد منها حوالي العشرين أو الثلاثين قدمًا ويبلغ عرضها ضعفي أو ثلاثة أضعاف هذا الطول ، وهذه توجد على جانبي النيل وفروعه بالدلتا ، وذلك لحفظ المياه في أماكنها أثناء فيضان النيل .

وفي الوجه القبلى توجد مئات الأميال من الجسور الثانوية من نفس نوع

جسور الدلتا ، وأخرى أفعوانية الشكل تجرى مخترقة الوادى . كما توجد حواجز صغيرة عديدة في مختلف أنحاء البلاد .

كل هذا يفي بالغرض الهام الذي يرمى إليه جهاز الري العظيم هنالك – وسواء ألقينا نظرة على هذا الجزء الذي صنعته يد الطبيعة أم ذاك الذي فعلته يد الإنسان فإننا نجد جهازًا سريًّا ليس له نظير في كماله وعظمته ، وأنه ليسد حوالي ثمانية ملايين من الأنفس والدواب بالمياه الغزيرة ، كما تمد كافة الأراضي المحيطة به بالخصوبة . وبدون هذا النظام لا يمكن الحصول على برميل واحد من السكر أو مكيال من القمح أو رطل واحد من القطن – فالتربة نقية ومياه النيل جنوبي النيل الأزرق والعطبرة ممتلئة بالطمى الذي يكسب الأرض قوة . وعندما يزال هذا الطين بالتقطير تصبح هذه المياه شهية مغذية لا تضارعها مياه أخرى في صحتها ولذتها – ونفس هذا القول ينطبق على مياه نهر المسوري بأمريكا لنفس الأسباب .

وفي كلتا الحالتين تفيض المياه بسرعة ثلاثة أميال في الساعة فتغطى مساحة كبيرة من الأراضي متممة في ذلك عملية التطهير .

هذا وتحتوى الرواسب التي توزع على الأراضي عن طريق عمليات الري المتكررة على نسبة مئوية كبيرة من كربونات الكالسيوم وأكسيد الحديد وكربونات المغنسيوم . وهي كافية للغاية للاحتفاظ بخصوبتها وإن كانت الأراض التي يتم تسميدها كذلك تنتج محصولاً أوفر . وهذه الرواسب تأتي بكميات كبيرة بشكل يجعل تطهير القنوات أمرًا لا بد منه .

وتطهير القنوات الكبيرة يحتاج إلى مجهود مائتي ألف عامل على الأقل لمدة ستة شهور في السنة .

هذا وإن المياه العالية تضر بالجسور حيث تحمل معها كميات كبيرة من الأتربة ، ولذا فهي في حاجة إلى ترميمات مستمرة .

وعندما تنخفض المياه في شهور أبريل ومايو ويونية ترى الأهالي قائمين بإصلاح الجسور وتطهير القنوات . وهذه العملية تتم حتى الآن بطريق التسخير وتعرف بالسخرة ، تلك التي وجدت في مصر منذ أيام الفراعنة حيث كانت تؤخذ الأهالي من القرى الريفية « رجالاً ونساءًا وأطفالاً » إلى مسافات بعيدة للعمل بدون أجر مدة تتراوح بين العشرين أو الثلاثين يومًا أو أكثر بحسب مقتضيات العمل - وإنك لترى الآلاف من الأهالي متجمعين في مسافة لا تزيد على ثلاثة أو أربعة أميال وهم يعملون فوق الجسور ويطهرون القنوات .

وهذه الأعمال جميعها يؤديها آدميون فعلاً . وهم يعملون كالنحل تحت إشراف ملاحظين قد وقفوا بجانبهم وبيدهم السوط - فالشباب منهم يقلبون الأرض بالمعاول ويملئون المقاطف التي يحملها النساء والصبيان على رءوسهم فوق تلك الجسور المائلة للسدود والقنوات .

وفي عصر حفر قناة السويس لم يزود عمال السخرة بالمقاطف التي اعتبرت من الكماليات ، بل استبدلوها بتشبيك أذرعهم خلف ظهورهم ، فكانوا يصعدون الجسور العالية في أشكال مقوسة ثم تستقيم ظهورهم عند القمة عندما يدعون أحمالهم تسقط على الأرض - وكان الآلاف من هؤلاء يموتون أثناء الاشتغال بهذا العمل الضخم .

وعند تنفيذ نظام السخرة هذا كان ملاحظ العمل يسرع في معاقبة المهمل المتواني من العمال صغيرًا كان أو مسنًا ، ذكرًا كان أو أنثى .

وإذا لم يسر العمل بسرعة كافية ترضي حاكم المديرية أو مساعديه كان الملاحظ نفسه هو الذي يأخذ دوره في الجلد بالسياط ، كما كان يحدث أيام موسي « وكان الموظفون الذين يشرفون على بني إسرائيل والذين عينهم موزعو العمل التابعون لفرعون كثيرًا ما يضربون » . وكان الملاحظون هم مشايخ القرى التي كان الأهالي يقيمون بها . وهم مسئولون عن ضرائبهم وعن القيام بنصيبهم المفروض عليهم من العمل . هذا والسائح الذي يبقى بمصر حتى

شهري مايو ويونية يمكنه أن يشهد المناظر الجديدة التي تمثلها هذه الكتل البشرية ، المتراصة من العمال من كلا الجنسين ومن مختلف الأعمار بملابسهم الغريبة (وهم غالبًا عراة الأجسام) ، وأسلوبهم المعروف في العمل . فهم ينامون على الأرض في أماكن عملهم حيث تغطى الأرض بكتل بشرية . وإذا كان هنالك في الأماكن المجاورة شاطيء رملي جاف فهم يعتبرونه نعمة كبيرة ! ذلك لأنه لين ناعم يناسب أجسامهم ، تلك الأجسام المنهوكة القوى التي احتملت مشقة العمل وشدة الحرارة . أما في ليالي فصل الصيف الحارة فيجدون في هذا الشاطيء فراشًا لهم - زد على ذلك أن الجو منشط جاف وتضيء قبته السماوية الزرقاء عشرات الألوف من المصابيح السماوية حيث يستريحون من عنائهم وينامون كفايتهم كغيرهم من أبناء البشر والمحظوظين - أما فيما يتعلق بالغطاء ليلاً فبنفس ملابسهم التي يرتدونها نهارًا ، وقد يكون الغطاء بطانية في بعض الأحيان - ثم يستيقظون في الفجر المبكر ، وهم لا يحتاجون إلى وقت لعمل زينتهم في الصباح . وبعد ذلك تكفيهم قطعة من الخبز السن وجرعة من ماء النيل لإفطارهم . وبعد هذه الوجبة البدائية العاجلة يقادون بسرعة إلى العمل .

وتعتبر القنوات التى تطهر عن طريق الخدمة العامة هى الشرايين الأصلية التى توصل المياه من النهر إلى الأراضي المجاورة لريها . وعند هذا الحد يبدأ عمل ملاك الأراضي ، هذا وأثناء استمرار الفيضان تسهل عملية ري الأراضي ، ولو أن إقامة الفتحات والسدود وحفر المصارف والتطهير وتوزيع المياه تحتاج إلى مجهودات كبيرة شاقة .

ولولا السدود لطغت المياه أثناء الفيضان على جميع أنحاء البلاد - وفي جزء كبير من الوجه القبلي وفي حيز محدود من الدلتا لايزال طغيان المياه على الأراضي متوفرًا - فتظهر المملكة عندئذ في كثير من أماكنها بمظهر البحيرة العظيمة المزركشة بالجزر العديدة التي تتكون من قرى الفلاحين التي تميزها مجموعات من أشجار النخيل . هذه الجزر الريفية يتصل بعضها ببعض بواسطة

السدود أو بواسطة جسور عالية تقام على طول القنوات . تلك الجسور التي تقام من التراب الذي يتراكم من عمليات على مر السنين . ثم تبدأ المياه فى الانحسار تدريجيًا وتعد الأراضي بمجهود شاق حيث تبذر وتزرع . ثم ينبت الحب في التربة الدافئة وتترعرع وريقاته الصغيرة - وهناك تُغطي الحقول في نهاية الخريف أو في بدء الشتاء بالخضرة اليانعة . وسرعان ما تحتاج الأرض إلى مزيد من المياه . فإذا كان النيل والقنوات لاتزال ممتلئة فإنها تطلق على الأراضي كما هو الحال في الري الأول ، وإذا كانت منخفضة جدًّا فيجب رفعها بالطلمبات أو بأي وسية أخرى . وفي أغلب أماكن الدلتا تحفظ المياه بواسطة القنوات في مستوى أعلى من مستوى الأراضي خلال الجزء الأكبر من السنة . إلا أن رفع المياه بالطلمبات أو بأي وسيلة أخرى يبدأ في بعض المناطق بعد الفيضان بشهر واحد أو شهرين ويستمر حتى يفيض النيل في الصيف المقبل . ولري المحصول الثاني بصفة عامة يجب رفع المياه بنفس الوسيلة .

هذا وإن انخفاض النيل عند القاهرة يبلغ قدره ٢٥ قدمًا وعند طيبة ٣٨ وعند أسوان ٤٨ قدمًا - وفي وقت التحاريق ينخفض النيل في بعض الأماكن إلى ٣٠ أو ٤٠ قدمًا عن حافة الشاطىء فإذا لم تصل المياه عن طريق القنوات من مستوى أعلى من النيل يجب رفعها كل هذه المسافة لري الأراضي .

والري بالطنبور أو الطلمبات يستمر في بعض المناطق أغلب أيام السنة وما يزيد على نصف الأراضي يُروَى ببعض هذه الوسائل ردحًا من الزمن . وإذا كانت المياه تحتاج إلى رفعها ٢٠ قدمًا فوق مستوى شواطىء النيل ، كما هو الحال في ٣٩ الوجه القبلي أثناء فصل الشتاء فإنها تروَى عادة بالشادوف - والشادوف جهاز بسيط يتكون من دلو يتصل بأحد طرفي الشادوف بجريدة نخل بواسطة حبل يقابله في الطرف الآخر كتلة من الطين تعمل كميزان وهذا الدلو المصنوع من الحصير أو الجلد أو نسيج الصوف يُعلَّق عادة في حلقة - والجريدة قصيرة ترتكز على قضيب أفقى منصوب على عمودين قائمين من سطح الأرض - بهذه الوسيلة يمكن رفع المياه إلى حوالى ٨ أقدام بسرعة عجيبة .

وعندما ينخفض النيل إلى درجة كبيرة قد يحتاج الري في بعض الأحيان إلى أربعة أو خمسة شواديف الواحد فوق الآخر لرفع منسوب المياه إلى مستوى الأراضي المطلوب ريها . ويبلغ متوسط الارتفاع أثناء فصل الجفاف بالوجه القبلي حوالي ٢٥ قدمًا ، فالمياه تُرفَع عادة لمثل هذه المسافة بواسطة خمسة شواديف حيث يشتغل أحدها منفردًا والأخرى تعمل مزدوجة - فيرفع الرجل المياه من النيل مباشرة بواسطة الشادوف الأول إلى ارتفاع حوالي ٤ أو ٥ أقدام حيث تفرغ المياه حوض قد حُفِر على الشاطىء ، وعلى جانبه رجلان كل بشادوفه لرفع المياه إلى حوض ثان ثم رجلان آخران لرفع المياه إلى حوض ثالث ، وهكذا حتى تصل المياه إلى الارتفاع المطلوب حيث تسير إلى مسافة ميل أو أكثر في بعض الأحيان بواسطة القناطر المنشأة على الجسور المنخفضة . وإذا كانت المياه تحتاج لرفعها إلى ٢٥ قدمًا فإن تشغيل خمسة شواديف تشغيلاً مستمرًا لمدة ٤٨ ساعة يكفي لري فدان واحد . وهذه العملية يجب أن تُكرّر ثلاث مرات على الأقل لكل محصول . وعليه فالعمل اللازم لري فدان واحد يستغرق ٧٢ يومًا لمدة عشر ساعات يوميًا .

أما المحاصيل التي تحتاج إلى كمية كبيرة من المياه كالقطن والأرز وقصب السكر فإنها تزرع في المناطق التي تحتاج إلى جهد أقل من حيث الري . وفي بعض الإقطاعيات الكبيرة تستعمل الطلمبات البخارية ولكن الوقود « وهو الفحم يجلب من إنجلترا وهو غالي الثمن بحيث لا يمكن تعميمه حيث تجد أجر العمل زهيدًا جدًا . وكان هناك حوالي ٤٠٠ طلمبة بخارية في عام ١٨٨٠.

وعندما ترتفع المياه بواسطة الشادوف أو بأي عملية يدوية أخرى فإن الحد الأدني للعمل اللازم للفدان الواحد هو ١٥ يومًا والحد الأقصى لا يقل عن ١٠٠ يوم . ولما كان الأجر زهيدًا جدًا فإن مساحات كبيرة من الأراضي تروى بهذه الطريقة .

وفي عام ١٧٨٣ بالرجوع إلى السجلات الرسمية وجد في أربع مديريات بمصر ٨٠٥٣٦ عاملاً من العمال الزراعيين بأجر يبلغ متوسطه من ٢/٨ ٥ إلى ٦/٢ ٧ من السنت يوميًا . وكان يزيد الأجر على ١٠ سنتات في اثنتين من المديريات فقط . أما متوسط الأجر لهذه الطبقة فقد كان ١/٢سنت يوميًا . ويجب ألا يفهم من ذلك أن العامل كان يتناول غذاءه كما هو الحال في مزارع الولايات المتحدة ، ذلك أن العامل يمون نفسه بنفسه . ومع ذلك فقد كانت الأجور المذكورة آنفًا هي الأجر الكامل للعمل .

وبالرغم من هذه الأجور فلم يكن للعامل عمل مستديم فقد كان يؤجر باليومية بحسب ما يتطلبه العمل كما كانت تفرض عليه ضريبة شخصية تبلغ قيمتها أجر عشرة أيام إلى خمسة وعشرين يومًا كل عام . هذا وأن المتوسط الحالي لأجر العامل ما بين ١٠، ١٥ سنتًا يوميًا بينما زاد ثمن الطعام زيادة نسبية .

أما عن وسائل الري الأخرى سوى تلك التي ذكرت آنفًا فالساقية هي الآلة التي تستخدم أكثر من غيرها ، فالساقية يشيع استعمالها بالوجه البحري حيث يوجد به ما يزيد على ٥٠,٠٠٠ ساقية وهي آلة بدائية مصممة على مبدأ الحلقة المتصلة . وهي تدار بواسطة الثيران أو البقر أو الخيل وبعض الأحيان بواسطة الجمال أو الحمير وترفع المياه بواسطة قواديس من الفخار قد ربطت إلى سلسلة لا طرف لها تدور حول عجلة رأسية .

وهذه الآلة تستعمل عادة لرفع المياه من الآبار الكبيرة التي لها عيون متصلة بالقنوات ، ففي منطقة الدلتا تقف المياه عادة فوق التربة على نفس مستوى مياه نهر النيل في نفس البقعة . هذا وإن العين الكبيرة التي ليس لها أي اتصال مباشر بإحدى القنوات أو النيل تنتج كمية كبيرة من المياه تكفى لري قطعة صغيرة من الأرض .

الفصل الرابع

أسرار النيل

إبان إقامتي في القاهرة أقيمت بمناسبة فيضان النيل أعياد واحتفالات كثيرة يرجع أصلها إلى الأزمنة التي كان النيل فيها لايزال سرًّا من الأسرار الخفية ومحلاً للتقديس والاحترام . ففي ليلة يونية سقطت دمعة الآلهة إيزيس من السماء إلى نهر النيل مسببة فيضانه كما كان يعتقد المصريون القدماء ، والواقع أن النيل كان يبدأ فيضانه السنوي في هذا التاريخ من كل عام . هذه الليلة – ولو أن حفلاتها كانت أقل بهجة من العام الماضي – فقد احتفل بها هؤلاء الأهالي المقيمون على ضفتي النيل ومعهم أصدقاؤهم الذين ساهموا معهم في هذه الاحتفالات التي أقيم فيها عديد من الطقوس الخرافية .

وفي أعقاب هذا التاريخ سرعان ما يصبح ارتفاع مياه النيل ملموسًا للناظرين على طول النهر . وفي كل صباح يمر المنادون في مختلف أنحاء المدينة بشوارعها المزدحمة وأزقتها الضيقة معلنين في صوت عال العلامة التي وصلت إليها مياه النيل بناء على التقرير الرسمي الذي يكتبه الشيخ القائم بمهمة مقياس النيل .

ومن أهم الاحتفالات التي شاهدتها كان قطع الخزان الذي كان يقام كل عام في فصل التحاريق على قناة « الخليج » التي كانت تمد مدينة القاهرة بالمياه قبل حكم إسماعيل باشا وقبل مد شبكة من أنابيب المياه . وكانت هذه القناة تمد عددًا كبيرًا من الأهالي بمياه الشرب حتى وقت قريب – هؤلاء الذين كانوا

يفضلون في شربهم النظام العتيق معتقدين اعتقادًا خاطئًا بأنه أصبح لهم من النظام الحديث . كانت القناة عميقة الغور وتجرى مبتدئة من مصر القديمة في مواجهة جزيرة الروضة مخترقة الجزء القديم من المدينة الحالية . ويقال إن عمرو ابن العاص قائد أمير المؤمنين هو الذي أنشأها بعد غزوه لمصر في عام ٦٤١ بعد الميلاد بقصد توصيل النيل بالبحر الأحمر - ولقد أوصلها حتى أصبحت على مقربة من بوبسطة حيث اتصلت بقناة قديمة تصب في البحيرات المرة ومنها إلى البحر الأحمر .

وتمتلىء هذه القناة - فيما عدا ذلك الجزء الذي يخترق مدينة القاهرة - ثم تصب بعد القاهرة مباشرة في تلك الترعة الكبيرة التي توصل المياه العذبة إلى قناة السويس عند الإسماعيلية ثم بعد ذلك إلى السويس . هذه القناة القصيرة التي تمد مدينة القاهرة بالمياه كانت دائمة الجريان بسبب عمليات التطهير المستديمة - ولقد كانت تجف عدة شهور من كل عام - وفي حالة الفيضان كانت تملأ الصهاريج الضخمة المقامة على جوانبها على طول القناة حيث تنقل المياه إلى المستهلكين بواسطة السقايين طوال أيام السنة . وإنك لتشاهد السقايين يبيعون المياه بصفة مستديمة في الطرقات وكذلك يهبونها للمارة بدون مقابل أو بمقابل زهيد ، كما يتراءي للشارب . وكانت تباع من القرب غالبًا أو الأواني الفخارية (القلل) في بعض الأحيان ، وفي كلتا الحالتين تقدم المياه في أكواب نحاسية تضرب إحداهما في الأخرى لتحدث رنينًا شديدًا يلفت الأنظار .

وقبل سفري إلى أوربا في أول صيف قضيته في القاهرة دعاني محافظ المدينة إلى حضور احتفالات قطع الخزان ، وكان ذلك حوالى منتصف أغسطس عندما يفيض النيل إلى درجة تضر بالمحصول . ولقد كان يحتفل بهذا الفيضان بفرحة حقيقية تبدو في غالب الأحيان على وجوه الطبقة العامة في أعيادهم الصاحبة بفيضان النيل .

ولقد أقيم الاحتفال الرئيسي في الصباح المبكر عند رأس القناة بمصر القديمة حيث استيقظ أهالي مدينة القاهرة عن بكرة أبيهم قبيل الفجر ، فكنت ترى الأولاد يحملون الأعلام وينضمون إلى المنادين الذين يعلنون الأنباء السارة – أنباء فيضان النيل العميم .

قطعت مع رفاقى ثلاثة أميال ، وقد اخترقنا مختلف الأحياء العامرة حتى وصلنا إلى السد عند مدخل مصر القديمة – ومما يعرف الآن عن مصر القديمة أنها هي تلك البلدة الصغيرة المقامة حول حصن بابليون الذي أنشأه الرومان في مصر ، وكان حصنًا شاسعًا يعسكر فيه جنود الرومان لضمان خضوع مصر لروما ولأباطرة بيزنطة حتى فتحها عمرو بن العاص بعد حصار طويل . ولقد كان هذا المكان يسمى بالفسطاط في أوائل العصر الإسلامي . ولاتزال توجد جدران هذا الحصن المتهدمة ومعها الجزء الهام من المدينة الحالية بما في ذلك عدد من المنشئات والكنائس والأديرة القبطية .

وعند وصولي إلى السد وجدت زحامًا شديدًا من الأهالي يبلغ الآلاف من أفراد الطبقة العامة قضوا هناك ليلتهم – ولقد كانت الخيام مقامة على طول شواطىء النيل والقناة – وكانت القوارب تروح وتغدو محملة بالأهالي في ذلك الفرع الصغير من النيل الذي يفصل جزيرة الروضة عن الشاطىء الأصلي .

ولقد كان سرادق الحاكم الذي دعيت إليه مقامًا على شاطىء القناة مباشرة فوق السد – وقد بنى أمام أفريز يستوى مع حافة المياه . وكان يقوم بحراسة هذه السرادقات الجند الذين رافقوا المحافظ ، وكان يشغلها هو وأعوانه وبعض الأوربيين . ومن هذا الأفريز كنت ترى منظرًا عامًا على الشاطىء الغربي للنيل لجزيرة الروضة بأسوارها المرتفعة ، وحدائقها الغناء ، ونخيلها ، ومقياس نيلها . وخلف ذلك على مسافة بضعة أميال في الجانب الآخر من الوادى كنت ترى الأهرامات وقد حجبت عنا منظر مآذن الجوامع وقبابها كما حجبت عنا أبراج الكنائس القبطية وأسوار أديرة مصر القديمة .

هذا وإن مظلات بائعي الحلوى والفاكهة والخبز وغيرها من المأكولات التي تشاهد عادة في أيام المواسم والأعياد كان يؤمها زحام شديد . ولقد كان رنين الأطباق بأيدى السقايين الذين لا ينقطعون عن تلك الأماكن ، والنغمات المختلفة للموسيقى البلدى ، وأصوات القاهريين ، والصدى العام لهذا الزحام الشديد بغير شك أكبر مظهر من مظاهر الفرح والسرور الذي يشبع غريزة كل أعرابي محب للجلبة والضوضاء وإن كان لا يفوق جلبة اليوم الرابع من شهر يوليو بالولايات المتحدة الأمريكية .

وقد كان عدد كبير من الرجال يشتغلون ليلاً في حفر هذا السد من الجهة البحرية حاملين التراب في محاقب إلى البر . وكانوا يعملون في حذر وبكل احتياط ، بل وعلى أهبة الاستعداد لترك العمل عند سماعهم أول إنذار ، فما كنا لننتظر طويلاً حتى انفجرت المياه منسابة مكتسحة أمامها كل ما يعترضها من حواجز منهمرة بقوة هائلة إلى القناة حيث تغمرها حتى يصل مستواها إلى مستوى النيل تقريبًا .

هنالك ظهر محافظ المدينة على حافة الأفريز وبذر قروشًا جديدة في عرض المياه قيمة الواحد منها خمسة سنتات ، ظاهرها من الفضة والواقع أنها خليط من المعادن . في تلك اللحظة يخلع الكثير من الأعراب كساءهم البسيط ثم يقفزون إلى الماء بحثًا عن العملة . والبعض منهم غير قادر على مقاومة التيار والبعض الآخر كان يندفع بسرعة السمكة إلى القاع جالبًا معه تلك القطع الفضية اللامعة - وفي لحظات قليلة كنت ترى القناة قد ملئت بالرجال يسبحون فيها ويتنازعون من أجل مكان في هذا الزحام المحتشد .

وعند قطع السد يكتسح التيار أحيانًا بعط الرجال وقد يكون سببًا في إغراقهم ، ولو أن الكثير منهم بارع في السباحة . وكان إلقاء العملة الفضية في الماء عادة قديمة بقيت دون غيرها من العادات . وقد استمرت هذه العادة لترضي اعتقاد الناس الخرافي بأن لها أثرًا عظيمًا في جلب فيضان النيل .

وفي حديث لي مع المحافظ في مناسبة مشابهة أخبرني أن مسألة التخلي عن عادة إلقاء النقود في النيل كانت موضع نظر ولكن لم يرغب أحد من المحافظين أن يأخذ على عاتقه مسئولية إلغاء هذه العادة علمًا منه بأنه إذا جاء الفيضان منخفضًا على أثر ترك هذه العادة سيعتبرها الكثيرون السبب في انخفاض مياه النيل ، وهكذا تتأثر عادته ونفوذه بين عدد كبير من الناس . وكانت قناة الخليج قد ملئت حديثًا وستصبح الاحتفالات بقطع السد من الآن فصاعدًا لا يذكرها إلا التاريخ ونقلاً عن أقاويل المسلمين كان الأقباط قبل فتح عمرو بن العاص مصر يقدمون في هذا المكان ضحية لإله النيل هي عبارة عن عذراء جميلة يلقى بها في النيل كل عام – ولكن لم يثبت صحة هذه الأقاويل ، ذلك أن بعض الكتاب قرروا أن الضحية التي كانت تلقى في النيل إنما هي صورة عذراء لا عذراء حقيقية . وبالفعل لم يحصل شيء من هذا القبيل في موسم الاحتفالات التي حضرتها .

وبمجرد أن ملئت القناة شرعت القوارب التي أخذت أبهى زينتها ، تبحر من النيل إلى القناة ، وهم المحافظ وحاشيته بالانسحاب وأخذ الجمهور ينتشر في مختلف الجهات . ولقد ذكرت جزيرة الروضة التي تقع على مقربة من القناة – وهي الآن تزار لمشاهدة مقياس نيلها المشهور . والشائع عند العرب أن ابنة فرعون قد وجدت موسى على شاطئ هذه القناة بين هذه الأعلام ، مما يزيد من أهمية هذه الجزيرة كما يوجد على هذا الشاطئ « شجرة موسى » و « شجرة القديسة مندورة » . ذلك الرمز المقدس الذي غرسته فاطمة بنت النبي ﷺ ولقد عمرت هذه الشجرة أجيالاً طويلة وهي لاتزال قوية شهية . والاعتقاد السائد أن لها قوة عجيبة في شفاء المرضى ، تبرئ الأعرج وتجعل الأعمى مبصرًا – هذا ولم تكن قاعدة مسلمًا بها أن كل زائر متعبد كان ينشر ملابسه فوق فروع هذه الشجرة يشفي مرضه وعاهته إلا أن هذه الحقيقة لم يكن لها أي تأثير على شهرة هذا النطاسي البارع ، وأن واحدًا من كل عدة آلاف من الكاثوليك المتعبدين الذين يزورون معابد اللورد ، يدعي بأنه قد

استفاد صحيًا من الزيارة على أن هذا لم يمنع مئات الآلاف من المهاجرين المعتقدين في قدسية هذا المكان من زيارته سنويًا حيث يعتقدون أن العذراء قد ظهرت فيه للراعية دوبر ناديت سوبيروس فإذا كانت أغلبية المستنيرين الذين يعيشون في هذا الجيل المثقف تعتقد في هذه الأماكن المقدسة هذا الاعتقاد فمن ينكر على العربي المسكين السلوى التي يستمدها من مثل هذه الخرافة .

ويبلغ طول جزيرة الروضة التي تأخذ شكلاً مستطيلاً حوالي 2 ميل ، ويبلغ عرضها ميلين عند المنتصف ، وهي محاطة بسور مرتفع ولم تحصن إلا مرة واحدة . وقد كانت هذه الجزية ملجأ للأقباط عندما فقدوا حصن بابليون الذي كان متصلاً بجسر من الزوارق - وبعد هذا الارتداد شرعوا في المفاوضات مع الفاتح عمرو بن العاص وأخيرًا عقدوا شروط التسليم - هذا ولقد عوملوا بكل إنسانية وسمح لهم باسترداد أموالهم ، والواقع أن الكثير رحبوا باتباع النبي وذلك لإراحة أنفسهم من حكامهم البيزنطيين الظالمين ، ولقد كانت الجزيرة في أول أمرها مصيفًا للاجئين بسبب برودة هوائها أي مصيفًا لعائلات بعض الباشوات القاهريين الذين كانوا يملكونها ، وقد ازدانت بالحدائق الغناء المليئة بنباتات المنطقة الحارة كالبرتقال والليمون والموز والحناء وقد علتها جميعًا أشجار النخيل - وشجرة الحناء هي تلك الشجرة التي يصنع من أوراقها طلاء الحناء الذي كان يستعمله المصريون منذ زمن بعيد في طلاء أظافرهم وأيديهم ، ويقع مقياس النيل في الجزء العلوي من الجزيرة - ولقد عبرت النيل في زورق حتى وصلت إلى سلم حجري ، وما أن صعدت إلى أعلى حتى وجدت نفسي أمام حديقة قد رصفت ممراتها بالحجارة الصغيرة في أشكال زخرفية ، وبعد تجوال قصير بين الأشجار والأزهار قادني المشرف على الجزيرة إلى هذا المقياس العجيب لارتفاع النيل وانخفاضه ولكن أي سر في هذا الاختراع البسيط لتحديد عمق مياه النيل ؟ إنه بئر على شكل مستطيل كبير ذى جدران مبنية من الحجارة يبلغ طول كل جانب منه ٥ ياردات ، في وسطه عمود مثمن الشكل قد نقشت عليه كتابة بالخط الكوفي . ويخرج من قاعه ممر

يؤدي إلى النيل ، والواقع أن عددًا قليلاً جدًّا حتى من بين المتعلمين العرب يعرف قراءة الخط الكوفي . والشخص الوحيد في مصر الذي كان يجيد قراءته كان رجلاً إنجليزيًّا تخصص سنين عديدة في دراسة العملة الإسلامية ، ولكن السر لم يكن في الكتابة المنقوشة على العمود وعلى جوانب البئر بل كان في الآيات القرآنية ، ومن العجيب – كما ظهر لنا – أن النزر اليسير جدًّا من أهالى القاهرة كان يمكنه أن يعرف فيضان النيل بالضبط .

هذا وإن انخفاض النيل عام ١٨٧٧ الذي لم يسبق له نظير قد هيأ لنا الأسباب التى يصح أن نتخذها أساسًا لأخطر النتائج حيث إن أكبر ارتفاع ممكن الحصول عليه في هذا العام هو سبعة عشر ذراعًا معماريًّا ، وثلاثة قراريط . وطبقًا للتقارير الرسمية الخاصة للاثنتين والخمسين سنة السابقة التي أمكن الحصول على التقارير الخاصة بها كان هذا الانخفاض في فيضان النيل أقل من أي انخفاض آخر حدث خلال هذه المدة بثلاثة أقدام وثلاث بوصات ، وأقل من متوسط الفيضان بعشرة أقدام تقريبًا .

لقد قدر المختصون أن ٥٠ ألف فدان من الأراضي التي تقدر بربع أراضي الوجه القبلي لم يستطع ريها ، وبطبيعة الحال كان لابد من تركها بلا زراعة . ولقد علمت أن التقارير الرسمية لم تكن كافية لإعطاء مقاييس صحيحة . ولما كنت أريد أن أقدم تقريرًا صحيحًا للمستر افارتس Mr. Evarts وزير الخارجية في ذلك الحين عن هذا الحدث الهام فقد باشرت الحقائق المضبوطة بنفسي .

ولقد طلبت هذه المعلومات من الجنرال ستون الذي كان بصفته رئيسًا لموظفي الخديوى يرأس وزارة الحربية بالقاهرة ، يحتفظ بسجل لفيضان النيل وانخفاضه سنين عديدة مستخلصًا أرقامه من القوائم التي كانت تنشر يوميًّا في الجريدة الرسمية .

وبالفعل كان قد أعد خرائط للرجوع إليها في الشئون العسكرية قائمة على

أساس هذه المعلومات التي كانت تبين ارتفاع مياه النيل عن كل شهر لعدة سنين ، ولقد وجدت أنه لايعرف شيئًا عن مقياس النيل فيما عدا أن ارتفاعه حوالى ٢١ بوصة ، وأنه يعتقد أن كل التقارير مبنية على هذا الأساس . إلا أنني طلبته من محافظ العاصمة حيث إنه المختص بمقياس النيل ، فأجابني بأنه شخصيًا ليس لديه أي علم بكيفية قياس فيضان النيل وأن هذه الأسرار لا يعرفها إلا الأسرة التي تختص بمقياس النيل ! وقد تبين لي من حديث جرى مع شريف باشا وزير الخارجية إذ ذاك أنه هو ذاته لا يفقه شيئًا عن هذا الموضوع .

هذا ولقد أنشيء مقياس الروضة منذ قرن من الزمان طبقًا لما يراه بعض الكتاب ويحتمل أن هذا النظام الحالي يرجع إلى أبعد من ذلك . ولقد ورث ذلك الأبناء عن الآباء بحق الميراث الشرعي في الأسرة التي أنيط بها واجب قياس فيضان النيل وانخفاضه – ويحلف كل شيخ اليمين على أن يقوم بواجباته متكتمًا .

وبعد البحث والتحرى عثر ترجماني على كتاب عربي قديم مشتملاً على قائمة بالحقائق التي تأكدت منها فيما بعد – ولقد نشر هذا الكتاب منذ مائة عام على أثر نزول البعثة العلمية الفرنسية أرض مصر ، تلك البعثة التي اكتشفت الخدعة التي كانت تنطلي على الناس .

فمن الوجهة النظرية كانت الأرض التي لا يمكن ريها بالفيضان الطبيعي للنيل أو بطريق القنوات في حالة ارتفاع مياه النيل معفاة من الضريبة . ولكن القرار بالنسبة للأرض التي تدفع عنها ضريبة لم يكن متروكًا لدافع الضريبة ولا للسلطات المحلية الدنيا ، بل تفصل في هذه المسألة القرارات الرسمية عن فيضان النيل – وفي حالة انخفاض فيضان النيل تحدد الضريبة المناسبة لهذا الانخفاض .

وفي عهد الفراعنة كان يوجد بممفيس مقياس للنيل بل ومقاييس أخرى في

نقط مختلفة على شاطىء النيل .

هذا وإن السجلات المحفوظة عن فيضان النيل كانت العوامل الفعالة في تحديد مقدار الضريبة في ذلك الوقت كما هو الحال في وقتنا هذا . ولقد كان الكهنة الذين يمثلون الطبقة المتعلمة ، والمفروض فيهم أنهم واضعوا كل هذه العلوم . أقوى حصانة من الملك – فقد كانوا يحتفظون بسجلات النيل ويقدرون الضرائب التي يخول للملك الحق فيها ، وذلك بأن يتشاور القسيس مع الملك مجتمعين كما يتشاوران فيما يختص بضروريات بيت المال مع مراعاة التكتم ، فإن الدوافع التي تتطلبها السرية ظاهرة للعيان .

أما الحقائق التي تأكدت منها فهي أن ذراع مقياس النيل هو ٢١ بوصة وربع بوصة ، وأن علامة الصفر على المقياس هي سبعة أذرع تحت علامة متوسط انخفاض المياه ، وذلك لأن النيل إذا ارتفع في القاهرة إلى ١٦ ذراعًا بلديًا أي تسعة أذرع فوق علامة المياه المنخفضة فإن الناس تتوق أنفسهم إلى مقدار الزيادة الضرورية للفيضان . ولتهدئة خواطر الجمهور يعد النصف ذراع على أنه ذراع كامل وبذلك يدخل في الحسبان زيادة سريعة . وعندما يصل الفيضان إلى ٢٣ ذراعًا معماريًا ، تصبح هناك الكمية الكافية من المياه اللازمة لإنتاج أكبر محصول . وإذا استمر النيل في فيضانه فإنه يخشى من فيضانه وتحطيمه للجسور والخسائر الناتجة عن ذلك . وعند ذلك يعودون إلى استعمال الحد الأقصى وهو ١/٤ ٢١ بوصة – وهذا الأمر يتفق مع العرف السائد لدى الجمهور وهو « بشر ولا تنفر » .

والعامل الأصلي لمزاولة الاختلاف في مقياس النيل إنما هو خاص بتحديد الضريبة . ولذا فإن السر في استمرار هذه العملية والغموض الذي يحيط الأمر كله فيما يتعلق بطائفة دافعي الضرائب ليس له أي غرض آخر . ولكي تفهم إلى أي حد تسلط الجهل على هذا الموضوع الحيوي بالنسبة لكل إنسان يجب أن نتذكر أن عددًا قليلاً جدًا من الأهالي يعرف القراءة والكتابة وأنه في

حكومة مطلقة كهذه قلما يهتم المتعلمون وقلما يتدخلون في مسائل من المفروض أنها من الامتيازات الخاصة بصاحب السلطان أو بمن يخولهم السلطة .

هذا وإن مقياس النيل قد أصبح أمرًا سهلاً حتى إنك إذا سألت أي متعلم في مصر عن المقياس الذي أتى به النيل لم يجبك منهم واحد في الألفين مع أنهم يتحدثون دائمًا عن عدد الذراعات المعمارية لفيضان النيل وانخفاضه . ومدى ما يهتمون بمعرفته إنما هو ما ينشر عن وصول النيل إلى ٢٣ ذراعًا معماريًا ، ذلك القدر الكافي لإنتاج أكبر محصول وهو الفيضان المرغوب فيه . ولقد كان الفيضان في عام ١٨٧٧ أقل من متوسط الفيضان السنوي بخمسة أقدام ويقل عن أكثر الفيضانات انخفاضًا منذ الاثنين والخمسين عامًا السابقة بعشرين بوصة .

هذا وإن السنة التي بدأ فيها الفيضان ينخفض عن المعتاد فى ذلك الوقت هي سنة ١٨٣٣ وأن النتائج السيئة لفيضان عام ١٨٧٧ الذي جاء منخفضًا تظهر لنا الأهمية البالغة للفيضان العادي للنيل .

ويقول هيرودوت في حديثه عن النيل « إذا لم يرتفع النيل زيادة قدرها ١٥ أو ١٦ ذراعًا على الأقل فإنه لا يفيض على البلاد » وقد أشار إلى المقياس المقام في ممفيس على مسافة عشرة أميال من جزيرة الروضة . وبعد ذلك بخمسمائة أو ستمائة عام أي في عصر حكم الرومان كانت الحالة تستلزم هذا الارتفاع .

ومن بين الرسوم العديدة التي كانت على العملة المصرية في ذلك الحين كان إله النيل . ويتمثل هذا الإله راقدًا على الأرض ممسكًا بيده عنقودًا من العنب وعلى مقربة منه تشاهد تمساحًا أو فرس بحر . ولقد أضيف حرفان يونانيان إلى هذه العملة عندما ارتفع مقياس النيل إلى ١٦ ذراعًا معماريًا في السنة التي صكت فيها هذه العملة . ويمثل الحرفان الرقم ١٦ دالين بذلك لى أن العام كان عام خير ويسر . ويحتمل أن يكون مقياس الذراع في ذلك الوقت

مماثلاً للذراع الحالي . فإذا كان الأمر كذلك فإن ارتفاع المياه المطلوب لغمر الدلتا يماثل الرقم الذي ذكر سابقًا .

الفصل الخامس

الصيام والحج إلى مكة

من أمتع المناظر التي يشاهدها الأجنبي في القاهرة هي منظر الحجاج المسافرين إلى مكة والمدينة المنورة من كل عام – أي رحيل قافلة الحجاج وعودتها وما يلحق بها من أفراح .

ويسبق هذا شهر رمضان المقدس الذي يبدأ فيه سفر الحجاج حيث يعدون أنفسهم للقيام بهذا الواجب المقدس – شهر رمضان هو ذلك الشهر التاسع من شهور السنة العربية – ويشتمل على ثلاثين يومًا خصصها المسلمون لفريضة الصيام . ولو أن المسلم متراخ في القيام بالفروض الرئيسية الدينية إلا أنه شديد التمسك بالصيام المفروض . فلربما يمتنع عن الزكاة ويفرط في فريضة الحج أو في الاشتباك في حرب مع الكفار ولربما ينسى القيام بالخمس صلوات في أوقاتها المعلومة ولكنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يفرط في صوم رمضان . وإنه ليعتقد أن القرآن قد أنزل على محمد في ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان المعظم – ذلك الشهر الذي تفتح فيه أبواب السماء ويلبي الله فيها دعوات التائبين ويغفر لهم خطاياهم .

هذا هو الشهر الذي أنزل فيه الوحي على محمد وبعث فيه بالتوراة إلى موسى وبالإنجيل إلى عيسى . وتشتمل السنة الهجرية على اثني عشر شهرًا قمرية أو ثلاثمائة وأربعة وخمسين يومًا . ولها ثلاثة أعوام كبيسة كل ثلاثين

عامًا حيث تزداد السنة الكبيسة يومًا واحدًا على معدل الأيام السنوي .

ولذا فأي تاريخ هجري ثابت إذا ما نسبناه إلى تقويمنا الإفرنجي وجدنا أنه يأتي عادة مبكرًا عن السنة الإفرنجية بأحد عشر يومًا تقريبًا . وتختلف السنة القبطية عن السنة العربية ، فالسنة القبطية لاتزال مستعملة عند اليونان وتبدأ عادة في اليوم الثاني ٥٣ عشر من شهر يناير ، وكأن هذا لم يزد مسألة التواريخ بمصر تعقيدًا - ذلك أن الحكومة إبان قيام نظام المحاكم المختلطة كانت تتبع التقويم الجريجوري الذي كان يستعمل في وزارة المالية والمحاكم المختلطة ، كما كان يستعمله الأوربيون .

كل هذه النظم كان يستعملها الأفراد على اختلاف جنسياتهم ودياناتهم .

فاليوم العربي يبدأ من غروب الشمس والشهر العربي يبدأ من وقت ظهور الهلال . ولإثبات أول يوم في رمضان يجب رؤية الهلال عمليًا . وحقيقة ظهوره يجب أن تقرر بعد المغرب بقليل . وهذا الأمر ليس بصعب في جو صاف كجو مصر ، حيث يخرج الرجال إلى التلال العالية خلف القلعة وبمجرد أن يشاهدوا تمام الهلال من فوق جبل ليبيا يقفلون راجعين . ولابد من إثبات ذلك كتابة ، بل لابد من صدور قرار بشأنه وإعلانه على أصحاب المقامات العالية الذين يجتمعون بمنزل القاضي .

وسرعان ما تطلق المدافع من القلعة . وتتحرك المواكب في مختلف أنحاء العاصمة مصحوبة بالموسيقي معلنة بدء صيام رمضان في كل مكان .

وفي طليعة فجر اليوم الثاني يعلن المنادى الصيام في كل حي وعند بزوغ الشمس تسمع صوت المؤذنين من المآذن من مختلف أنحاء العاصمة « ها قد بدأ الصيام » .

وصيام المسلمين هو في واقع الأمر الامتناع عن الطعام والشراب والتدخين ما بين شروق الشمس وغروبها طوال مدة الصيام ، ولا يعفى من الصيام إلا

المرضى والجنود في ميدان القتال .

وبسبب قصر فصول الشتاء في مصر يأتي شهر رمضان في فصل الحرارة سنين متتابعة . هذا وإن الامتناع عن الطعام والشراب في أيام قد اشتد فيه الحر والجفاف طوال شهر كامل من شهور فصل الصيف ليعتبر تضحية عظيمة . وهذا الامتناع عن الطعام والشراب يؤثر في حالة الأهالي الطبيعية حيث تشاهد عليهم توعك المزاج من جهة العمل وسرعة التأثر والانفعال الذي يسبب المخالفات في بعض الأحيان .

ويعوض صيام النهار بإفطار الليل ، وإنه لمن المؤلم أن يشاهد الإنسان في بعض الأحيان وهم يلاحظون غروب الشمس بفروغ صبر في يوم قد طال أمده واشتدت حرارته . وعندما توشك الساعات المضنية من النهار على الانتهاء ينتظرون في صمت مطبق دوي المدافع التي تطلق من القلعة معلنة أن الصيام قد انتهى ، حينئذ تشعل السجائر ويعد البلح والفاكهة وتكثر الطلبات على حمالي المياه حيث إن الظمأ هو أول ما يجب إطفاؤه في مثل هذه اللحظة ، هنالك يلقى العامل عدته ويقفز سائق العربة من عربيته والجمال من فوق جمله ، والكل ينتظر بفروغ صبر جرعة من ماء النيل المقدس .

وعندئذ يأتي الإفطار حيث ينغمس كل شخص فيما أعد الله له من نصيب . في رمضان تؤجل الأعمال الشاقة إلا أن المقاهي والمطاعم تصبح في أشد حالات رواجها ، وتزدان الطرقات بالأنوار وتصدح الموسيقي العربية والإفرنجية في كل مكان وتتبادل الأحاديث والأغاني حتى الهزيع الأخير من الليل ، وقبيل الفجر بساعة تسمع صيحة المآذن مؤذنة بالإعداد للصيام وعندئذ تعد أكلة الصباح المبكر أي السحور وهي الوجبة الهامة في شهر رمضان ، تلك التى تتعارض مع وائد الشرق في جعل وجبة الصباح المبكر بسيطة إلى أقصى حد ممكن .

وإنها لثلاثون يومًا طويلة إلا أن مدفع القلعة يعلن أخيرًا انتهاء الصيام –

وفي صباح اليوم التالي لانتهاء الصيام الموافق أول شوال وهو الشهر العاشر من السنة الهجرية تبدأ أيام العيد الثلاثة ويعرف : بالعيد الصغير – وهو موسم الزيارات والمقابلات والحفلات وتقديم الهدايا للأطفال والخدم ، وارتداء الثياب الجديدة .

وفي يوم العيد يسمح الخديوى بالمقابلات مبتدئًا من الساعة السادسة صباحًا حيث يقابل ضباط الجيش – بد ذلك يتقدم الزوار على اختلاف درجاتهم بترتيب قد أعد من قبل فيبدأ بمقابلة رؤساء المصالح وكبار الموظفين ثم رجال الدين فرجال القضاء الأهلي فممثلي التجار فالأعيان والوجهاء فأصحاب المقامات على اختلاف درجاتهم ثم قضاة المحاكم المختلطة ، وأخيرًا حوالي الساعة الحادية عشرة يتقدم إليه ممثلو الدول الدبلوماسيون . وهم دون غيرهم الذين يحظون بشرف الجلوس بين يدي الخديوى حيث تقدم إليهم القهوة ويدخنون في الشوبك ويتبادلون الحديث مع سمو الخديوى ويقدمون له التهاني بمناسبة حلول العيد .

وعقب حلول العيد الذي لا تهمل فيه التقاليد الدينية تعد العدة لسفر الحجاج الذي لابد منه في اليوم الثالث والعشرين من الشهر . وتحمل قافلة الحجاج أردية جديدة في كل عام تسمى بالكسوة ، وهي أبسطة فخمة تغطى بها جدران الكعبة الخارجية في كل عام . وما الكعبة إلا بناء صغير يقع داخل السور بمكة المكرمة ذلك الذي يطوى بين جدرانه الحجر الأسود المقدس . وتصنع الكسوة عادة من الحرير الأسود المشجّر وتُوشي بالذهب وتزين بالآيات القرآنية . وتصنع عادة بالقاهرة ، وهي تستمد فخامتها من تلك الحقيقة التي تقرر أن الحكومة المصرية إنما تكلفها ٢٣٫٣٠٠ دولار . هذا وإن مصاريف الحج التي تنفقها الحكومة المصرية إنما تزيد على ٣٣٠٫٣٠٠ دولار أي مبلغًا يساوى ضعف المبلغ المقرر للمدارس القائمة تحت الإدارة الأوربية على وجه التقريب . وتصنع هذه الكسوة من قطع صغيرة ترسل فورًا بعد العيد الصغير إلى مسجد الحسين لحياكتها بعضها ببعض وعند الانتهاء من أجزاء

الكسوة توصل بها حاشية عريضة فاخرة وستار يعلق على باب الكعبة . كما تأخذ القافلة معها رداء من القماش المزخرف لاستخدامه غطاء لمقبرة إبراهيم عليه السلام .. وكذلك بعض القطع الأخرى المصنوعة من القماش الأخضر الموشى بالذهب والحرير على اختلاف ألوانه لوضعها داخل الكعبة . كما ترسل الكسوة من دمشق لتغطية مقبرة محمد عليه الصلاة والسلام بالمدينة المنورة ، كما تأتي قافلة ثالثة من بغداد - والقوافل الثلاث ترحل من مدنها في وقت واحد على وجه التقريب حيث تدخل حدود الصحراء العربية العظيمة بعد بضعة أيام ، وتسير جنوبًا حتى تصل إلى مكة بعد حوالي ٤٠ يومًا .

وتختلف المناظر والاحتفالات بالقاهرة في شكلها العام عند سفر الحجاج من كل عام اختلافًا يسيرًا حيث ترسل الدعوات الرسمية إلى الممثلين الأجانب بالحضور . وسأروي لكم ما شاهدته في إحدى المناسبات . يصل الضيوف المدعوون في الصباح المبكر إلى قصر محمد على بالقرب من القلعة حيث تبدأ القافلة بالرحيل . هنالك كنت تشاهد فرقًا من مختلف طبقات الجيش قد اصطفت ، كما تنتظم الجماعات الدينية المختلفة - في الأماكن المجاورة - في موكب كبير .

هذا وقد أعد للخديوى أو من ينوب عنه سرادق من القطيفة الحمراء والذهبية اللون وكذلك للوزراء وفضيلة القاضي والمفتي وبعض الشخصيات الكبيرة من العسكريين ورجال الدين ثم الملكيين . وكان سمو ولي العهد توفيق باشا يمثل الخديوى . لم يحضر الخديوى إسماعيل بنفسه هذه الحفلات الدينية العامة بل كان يمثله فيها توفيق الذي كان يعتبره المؤمنون أكثر إيمانًا من أبيه . وعندما تولى توفيق الحكم استمر في حضور كل مناسبة من هذا القبيل . وعند وصول سموه اتخذ مقعده في وسط السرادق - محوطًا بالموظفين والمدعوين - وسرعان ما تقدم الجزء الذي كانت فيه الكسوة محمولة من الموكب فوقف الجمل أمام سرادق الخديوى . هنالك تقدم سمو الأمير وأمسك الجمل من مقوده حيث سلمه إلى فضيلة الشيخ أمير الحج . وبهذا العمل يكون قد أولى

ثقته إلى أمير الحج ومنحه السلطة على جميع من معه .

والمحمل ما هو إلا محفة على جانب من الأبهة والفخامة ذات قمة هرمية عالية قد زينت بأبهى الزخارف ، وهي مغطاة بقماش موشى بالذهب وقد نقش على كل من جانبيها جزءًا من القرآن – وهذه المحفة تحمل الآن كرمز للملكية ولقد كانت تصنع في أول الأمر خصيصًا لنساء الخلفاء اللاتي كن يقمن بالحج – ويقال إن المحمل إنما ظهر لأول مرة في عهد الملكة الجميلة الحكيمة « شجرة الدر » التي أدت الحج سنة ١٢٥٠ ميلادية في محفة فخمة محمولة على جملين ، واستمرت المحفة تصحب الحجاج سنويًا إلى مكة منذ قرون وهي تعتبر مقدسة بالنسبة للمسلمين البسطاء الذين يزجون بأنفسهم في الزحام للمسها والتبرك بها . أما البعير الذي يحمل الكسوة فيزين بأفخر زينة ويقود القافلة في الصحراء ، بل ويصبح مقدسًا إلى حد ما ، فلا يصح استخدامه لأي غرض آخر بل يستمر مخصصًا لحمل المحمل ما دام قادرًا على ذلك .

ثم يعقب المحمل شيخ غريب الشكل وهو قائد الجمال الذي يصحب الحجاج في كل عام . ولقد كان شيخًا عربيًا متين البنية ، شعره مضفر طويل وجسده عار حتى خصره ويمتطى جمله متمايلاً تارة إلى الخلف وأخرى إلى الأمام بعينيه المسبلتين كأنما هو في نشوة روحية . يعقب ذلك الحجاج كل على جمله وفي بعض الأحوال أسر كاملة بكافة لوازمها وخيمها وبعض المواد الضرورية لرحلة الصحراء . ولقد كانت الجمال مزدانة بمختلف الزينات وسعف النخيل وإذا كان شعرها الخشن الطويل قد ابيض من تأثير الشمس فإنه يسترد لونه الطبيعي النحاسي بواسطة استعمال كميات كبيرة من الحناء .

والقسم الرئيسي من الموكب المختص بتكريم الحجاج عن طريق اصطحابهم خارج المدينة كان يمثل الطليعة متقدمًا الموكب بأسره مخترقًا الشوارع الضيقة للأحياء الوطنية بالمدينة متجهًا نحو باب النصر . بوابة الخروج التي تبعد حوالي ٢ ميل عن مقر القلعة . ولم أنتظر شيخ السنانير الذي يسير على مقربة من

المؤخرة وهو يسير نصف عار كشيخ الجمال . ويشبهه من حيث خشونة المظهر وغرابته ويمتطى جمله العالي وقد أحيط بسلال قد ملئت بعدد كبير من القطط ذاهبة لأداء فريضة الحج المقدس . وهي تطل على الجماهير جيث تقابل بالتهليل والفرح ويبدو عليها أنها تدرك ذلك الامتياز الذي يفضلها على بقية بني جنسها من السنانير . في مثل هذا اليوم كانت توقف جميع الأعمال حيث تقفل الحوانيت والمحال الكبيرة وتزدحم الشوارع بالآلاف من الأهالي في أحسن ملابسهم . هنالك يقفون على جانب الطريق الذي يمر منه الحجاج حتى إنك لتشاهد النساء يندمجن في هذا الزحام .

وقد كان هذا الحي الوطني من مدينة القاهرة بشوارعه الضيقة ومبانيه الأنيقة المنسقة على الطراز العربي أكثر إثارة للاهتمام من غيره ، وعلى الأخص في تلك الفترة التي يمر بها موكب الحجاج حيث تزداد المباني بأبهى المظاهر إذ رفعت بجانب فروع النخيل الأعلام والبيارق على اختلاف أنواعها وأشكالها . ولقد كانت الأسطح والمنافذ مكتظة بالأهالي من كلا الجنسين رجالاً ونساء ومن مختلف الطبقات والأعمار وقد تاقت أنفسهم لمشاهدة الموكب أثناء مروره . بل لقد كان المنظر على الجانبين منظرًا عامًا لوجوه البشر المفعمة بالسرور وقد لُفت أجسادهم بأفخر الثياب الشرقية .

ثم تركنا طريق الحجاج مارين بشارع جانبي مسرعين إلى البوابة الخارجية للحصول على منظر لذلك الجزء من الموكب الذي كان قد سبقنا فإذا بنا نشاهد فصائل من الجنود المشاة والسواري تتجه إلى خارج المدينة بالصحراء . ولقد كان يتقدم كل قسم من أقسام الموكب فرقة من الموسيقى وقد امتطى رجالها ظهور الجمال ، كما شاهدنا رجال القضاء ورجال العسكرية وغير ذلك من الشخصيات البارزة ما بين ملكية ودينية بملابسهم الرسمية الفاخرة ونياشينهم المذهبة . والكثير منهم كان مصحوبًا بحرسه في زيه الرسمي ، ولقد كانت هناك طوائف من الدراويش كل طائفة تختلف باختلاف لون عمامتها ، فمنها الأزرق والأخضر ومنها الأبيض والأحمر وقد حملت الأعلام والبيارق

المزدانة بأجمل الزخارف وقد اشتغل البعض منهم بنوع مخصوص من العبادة حيث كانوا يتلون صلاتهم وهم يتمايلون ذات اليمين وذات اليسار وقد أصبحوا في حالة دينية شبه جنونية ، وآخرون كانوا يأكلون الثعابين ويبتلعون قطع الزجاج ويمشون على أطراف السيوف الحادة ، وآخرون يرشقون أسياخًا من الحديد في وجوههم فتخترقها من خد إلى آخر .

وينبغي أن نضع في اعتبارنا أنهم كانوا يقومون بهذه الحركات تحت ستار الدين ، زاعمين أن الضر لا يصيبهم بمعجزة من السماء . وكان من بينهم رجال أنصاف عراة مدججون بالسيوف وطوائف أخرى ملكية على اختلاف صنوفهم ، فمنهم راكبو الخيل والحمير ومنهم راكبو الجمال من العرب المدججين بالرماح والدروع بأرديتهم المزركشة يتخللهم عدد من الجنود .

هذه كانت بعض معالم ذلك الطابور الطويل من المؤمنين الذي استغرق أكثر من ساعتين لمروره من باب النصر .

هذا وإن هؤلاء الذين كانوا يقومون بالحج إنما كانوا يعسكرون خارج المدينة بالصحراء - هنالك يقضون يومين أو ثلاثة في عمل الترتيبات الأخرى والاحتفالات الدينية ، فكان الدراويش الذين يذكرون ويرقصون ويولولون يواصلون كل ليلة طقوسهم العجيبة . وهكذا كانوا يشجعون ويثيرون مشاعر هؤلاء الذين كانوا على وشك القيام بتلك الرحلة الطويلة الخطيرة إلى المدينة المقدسة للقيام بذلك الواجب المقدس الديني الذي تهون من أجله كل تضحية لدى كل مسلم حقيقي ، والحج يعتبر تضحية فعلية ، ذلك بأنه بسبب الأمراض المعدية التي تنتشر عادة في مكة ، بل بسبب الحرمان مدى تسعين يومًا بالصحراء يخفق الكثير من الحجاج في العودة . وإنك لترى مكة ورمال الصحراء الممتدة في الطريق المؤدية إليها قد بعثرت بعظام البشر من المؤمنين .

وأول يوم من الرحلة يسيرون ببركة الحج التي تبعد مسافة عشرة أميال .

هذا ويرافق الدراويش القافلة حتى هذا المكان حيث يقضون الليلة الأخيرة في الذكر والتعبد ، ثم يعقب ذلك وداع الأقارب والأصدقاء فالرحيل .

هذا وعند ترك القاهرة متجهًا نحو الشرق يجد الإنسان نفسه في طريق صحراوية تسمى « درب الحاج » تخترق قنال السويس على مقربة من أطلال « أرسينو القديمة » وتبعد عن السويس شمالاً بعشرة أميال وعند ذلك يستمر قليلاً إلى الجنوب الشرقي عبر شبه جزيرة سيناء حتى يصل إلى رأس خليج العقبة ، ثم يسير الطريق على مقربة من شاطىء الخليج وشاطىء البحر الأحمر حتى يصل إلى مكة . وهذا الطريق صحراوى رملى تكتنفه الصخور والنباتات الخضراء في بعض جهاته . وفي مكة تتلاقى القوافل الثلاث بالحجاج الذين أبحروا عن طريق البحر الأحمر من بلاد العجم والهند وتركيا وولايات أفريقية الشمالية بما في ذلك مصر حتى رسوا في جدة على مسافة يومين سفرًا من المدينة المقدسة . ويبلغ مجموع عدد الحجاج الذين يجتمعون من مشارق الأرض ومغاربها حوالى ١٠٠ ألف حاج في الغالب . وبعد تأدية المراسيم الدينية العادية في مكة ، تلك التي تصل أبهتها وفخامتها إلى حد ليس له نظير يتجه الحجاج نحو الشرق حوالي ست ساعات وذلك لصعود جبل عرفات .

وهنا ، طبقًا للعقيدة المحمدية ، أعد إبراهيم عليه السلام ابنه إسماعيل لا إسحاق للذبح .

والمسلمون يعتبرون إسماعيل أبًا للجنس العربي . فهنالك بعرفات يتسلق الحجاج جبل عرفات ، ويقضون به ليلة . وفي اليوم التالي وهو العاشر من الشهر الثاني عشر الهجري يضحون بكبش كبير إحياءً لذكرى التضحية التي قام بها إبراهيم تنفيذًا لأمر ربه كما يفسر العلماء . في تلك الليلة على سفح جبل عرفات تقوم مذبحة كبيرة للخراف ويحتفل بهذا اليوم ، يوم التضحية ، في جميع أنحاء العالم الإسلامي .

وهؤلاء الذين ليس لهم المقدرة على شراء كبش أو لحم من أي حيوان يحل

ذبحه يتلقون العون ممن هم أوفر منهم حظًّا . ويوم التضحية هو يوم العيد الأكبر ، عيد القربان الذي توزع فيه الصدقات على الفقراء والهبات على الخدم والأزياء الجديدة على الأطفال ، وهو يوم المقابلات الخصوصية والرسمية وتبادل التهاني وإقامة الأفراح والحفلات وبالاختصار يحتفل به كما يحتفل بعيد آخر رمضان .

هذا وتستغرق القافلة ستين يومًافي العودة ، حيث تسير ببطء إلى المدينة لزيارة قبر النبي ﷺ وقضاء مدة طويلة بالحجر الصحي على مقربة من السويس . ثم تسير حتى تصبح على مقربة من القاهرة في آخر صفر ، وهو الشهر الثاني من العام الجديد حيث يلتقى الحجاج على مسافة من المدينة بأقاربهم وأصدقائهم وقد أحاطت بهم الموسيقى ومظاهر الأفراح . فتسمع حينذاك دوي الطبل وغيره من الأدوات الموسيقية الوطنية وطلقات البنادق ، كما تسمع نواح وعويل النساء والأطفال الذين أتوا للترحيب بأزواجهن وآبائهم فيجدون مكانهم في الموكب خاليًا . وبعد البقاء معسكرين خارج المدينة حتى يحل ميعاد الاحتفالات الختامية تدخل القافلة المدينة بنفس الموكب والمظهر الذي رحلت به .

كما أن الكسوة التي كانت قد سافرت مع القافلة تحل محلها الكسوة والأغطية القديمة وتقطع إلى قطعها الأصلية وتوزع على المساجد والمشايخ بمثابة آثار مقدسة . ويدخل الموكب المدينة عند البدء في الاحتفالات الدينية التي تقام بمناسبة مولد النبى محمد ﷺ في اليوم الثاني من شهر ربيع الأول وهو الشهر الثالث من العام الهجري . ويجتمع في هذه المناسبة عدد كبير من مختلف الهيئات الدينية ، وعلى الأخص من الدراويش من مختلف أنحاء الديار المصرية ، وعندئذ تظهر القاهرة في أبهى حللها . وتستمر الاحتفالات بمولد النبي إلى الحادى عشر من شهر ربيع الأول عند الاحتفال « بالدوسة » .

وتكتظ الشوارع بالأهالي في أبهى حللهم يتوسطهم بعض الأجانب من

الرعايا والسياح كما تشاهد في الاحتفال بمولد النبى صفوف طويلة من الأكشاك عامرة بمختلف الألعاب وأشهى الأطعمة من خبز إلى كعك وقهوة وبطيخ وشمام إلى غير ذلك من الفواكه والمأكولات ، كما تكثر في ذلك الحين أنواع الملاهي الوطنية ، كالموسيقى والشاعر (في المقاهي) والمراجيح واللعب بالعصا – هنالك تمر الجماعات من الجند والمواكب من الدراويش تتقدمهم الموسيقى وتظللهم الرايات والأعلام الزاهية الألوان .

ويعقب حرارة النهار مساء جاف جميل . ويبدو أن كل الناس قد خرجوا إلى الشوارع . وكانت مظاهر الفرح بادية في أجلى مظاهرها . ولقد كانت الحوانيت والأكشاك مزدانة بالأنوار ، وكنت تسمع الشعراء والمنشدين في كل منعطف من المنعطفات ، وترى الدراويش يحملون المصابيح المختلفة الألوان ، وعربات الحريم تمر بسرعة تتقدمها المشاعل البراقة يحملها حملة المشاعل الذين يهرعون صائحين : « افسحوا الطريق » ولقد أعدت أماكن فسيحة ضربت فيها خيام ضخمة لكل طائفة من الطوائف الدينية . هنالك كان يطوف في مختلف أنحاء هذه الأماكن عدد غفير من الكتل البشرية آناء الليل وأطراف النهار ، كما كنت تشاهد الدراويش الراقصين وهؤلاء الذين يعرفون باسم المداحين ، يقومون بعملية الذكر بلا انقطاع مهذبين بذلك نفسية المسلم وباعثين التسلية والإشفاق في نفس الأجنبي . ولقد قضينا الليالي الثلاث الأخيرة في مشاهدة اللعب بالنار وهو فن قد برع فيه العرب .

هذا وإن حيوية الكتل البشرية المتحركة ، والسرادقات المضيئة وقد فتحت من أحد جوانبها حيث ترى الدراويش بحركاتهم الإيقاعية ، والأنوار والزهور المعلقة على أحبال مختلفة الأطوال والارتفاع ، وكل طائفة يميزها لونها ، كل هذا إلى جانب الشموع الرومانية والصواريخ وغير ذلك من مختلف الألعاب النارية يحدث منظرًا غاية في الروعة . وكان الحاضرون يمثلون مختلف الطبقات – وكان الأمير ولي العهد في سرادقه محوطًا بكبار الموظفين وأعضاء أسرته الذكور . وكان يمر عدد كبير من العربات الفاخرة تحمل حريم الخديوى

وقد ارتدين أبهى الثياب وتسترن بحجاب خفيف ، إلى جانب حريم الباشوات والجاليات الأجنبية . هذا وقد اختلط المزارعون بالعمال والصناع ، كما اختلطت الطبقات الغنية بالفقيرة ، كما ظهر هنالك السائح المتنقل على حماره أو على قدميه أو في عربته ، كل بحسب مزاجه وماليته . ومن بداية الاحتفال بالمولد النبوي ، ذلك الحفل الطويل المدى ، إلى نهايته لا يمكنك أن تلحظ أي ضعف أو فتور في حماس الناس ، وعلى كل فقد كان ينتهي عادة بفصل ختامي يحيل تلك الرواية الطويلة الممتعة إلى مأساة محزنة تاركة أثرًا سيئًا في نفوس المسلمين والمسيحيين على السواء . ويُعزى ذلك إلى أسباب مختلفة .

الفصل السادس

الدوسة والدراويش

إن كلمة « الدوسة » تعنى « الخطو » ومعناها الأصلي : الدهس بالأقدام .

وكان الحفل يشتمل على دراويش « السعدية » ممتطين خيولهم فوق عدد كبير من المريدين ، هؤلاء الذين ينطبحون أرضًا راقدين على بطونهم ووجوههم ملتصقين ببعضهم .

وقبل ظهيرة الحادى عشر من الشهر يجتمع دراويش الرفاعية ، الذين يعتبرون « السعدية » طائفة منهم على مقربة من مسجد الحسين حيث ينضم إليهم آخرون أشد منهم تعصبًا ويقيمون حفلاً يحضره عدد لا يقل عن عدة آلاف . وكان شيخ السعديين من الدراويش بعد تمضية ليلة في الصيام والطقوس الدينية استعدادًا للقيام بمعجزة النهار ، يمتطى صهوة جواده وينضم إلى الموكب ، ثم يسير معه حتى يصل إلى المخيم حيث ينتظره عدد كبير من الناس يبلغ الخمسين ألفًا أو يزيد .

وكان على جانب الميدان على يسار المدخل صف طويل من الخيام . وكانت أبعد خيمة من الداخل هي خيمة شيخ الطرق الذي يصدر الأوامر الدينية ، ثم يلي ذلك خيمة الخديوى التي كان ينزل فيها سمو الخديوى توفيق باشا وصحبه . أما الثالثة فكانت خاصة بكبار الأوربيين ، أما بقية الخيام فكانت خاصة بالدراويش . وأما هذه الخيام طريق يبلغ اتساعه حوالي ٣٠ قدمًا

قد أعد لمرور المواكب . وقد اصطف الجند أمام هذه الخيام لمنع ضغط الجمهور عليها .

هنالك ينزل المتطوعون المستشهدون في الساحة العمومية أمام الخيام ومعهم عدد مساو لهم من الدراويش حيث يكون مع كل رجل تابعه . وعندما يصل رئيس كل فرقة أمام خيمة شيخ الدراويش يقف على الفور ، ثم ينطبح مَن معه مِن الرجال ٦٥ البالغ عددهم حوالي ٤٠٠ على الأرض في شكل زاوية قائمة مع خط سيرهم ورءوسهم متجهة نحو السرادقات ، وقد رقدوا ملاصقين لبعضهم على قدر المستطاع . وكانوا يرتدون ملابسهم العادية وهي زي أفقر الطبقات ،ولاشك في أنهم كانوا يمثلون الطبقة الدنيا ، وهي أشد الطبقات تعصبًا . وكانوا يرتدون ملابس فضفاضة مثبتة في الوسط بحزام أو حبل ، عراة الأقدام والأيدى . ولقد كان الخادم يظل جالسًا عند رأس كل منهم أثناء مرور الخيل من فوقهم – هذا ويأخذ التنظيم الابتدائي لهؤلاء الرجال حوالي نصف أو ثلاثة أرباع ساعة من وقت وصول الموكب حيث كانوا يرقدون على وجوههم وكانت الجند تصد الكتل البشرية المتزاحمة ، وكل يريد مكانًا في المقدمة .

وفي مواجهة ذلك كان يوجد عدد كبير من العربات الخاصة بحرم العائلات في مقدمة الصفوف ووراءهن عربات الأجانب والجالية الأجنبية الذين كانوا مضطرين إلى الوقوف على مقاعد عرباتهم ليشاهدوا ما يدور هنالك . وفي وسط هؤلاء وخلفهم كنت ترى جمهرة من الناس لا يستطيعون التقدم إلى الأمام .

هذا وإن أجسام المتعبدين المخدوعين عند تجمهم وانتظامهم في صعيد واحد يكونون طريقًا ملتويًا يسير فيه الشيخ المقدس الذي تصل قداسته إلى درجة أن النبي يحمى من الضر هؤلاء الذين انبطحوا على الأرض لكي يطأهم بأرجل جواده . وإذا عرف بطريق الصدفة أن أحدهم قد أصيب فإن ذلك يعزى إلى نقص في الإيمان .

هذا وعند إعطاء الإشارة يبدأ الأتباع على طول الخط الممتد والآلاف المحتشدة من المؤمنين يصيحون : « الله ، الله – لا إله إلا الله وهم يؤكدون ويمدون مقطع الكلمة الأخيرة حتى إنك لا تسمع شيئًا سواها ، وفي النهاية الأخرى كنا نشاهد رجلين قد تحركا جنبًا إلى جنب يمشيان على الأجسام وقد حملا الأعلام الخضراء المكللة برءوس الرماح وكان يتقدم الشيخ خلفهما مباشرة على جواد مقودًا برجلين حيث يسيرون مسرعين على طول الخط بين صيحات الذكر وهي « الله ، الله – لا إله إلا الله » تلك الصيحات التي تعالت بالتدريج واختلطت بصيحات الجماهير حتى أصبحت تحاكى الزئير المنقطع النظير . ولقد كان الشيخ رجلاً كبيرًا مرتديًا عمامة خضراء وقد لف جسده بعباءة ذات لون بني فاتح ربطت من وسطها بحزام .

وكان مغمض العينين يتمايل على جواده بحركة تتناسب مع سير ذلك الجواد بشكل يتفق مع حالة هؤلاء الذين يستغرقون في غيبوبة دينية . ولقد كان يسير يسنده رجلان من الجانبين بأيديهما منعًا له من السقوط . وكان الراقدون على الأرض لا يبدون حراكًا ، يقوى من عزيمتهم الابتهال بذكر الله الذي كان يحميهم نبيه مظهرًا قوته للكافرين . وعندما كان يتقدم الشيخ بجواده على طول الخط كانت تصحبه دفعة قوية من الزحام تسد الطريق من خلفه . ولست أدرى هل كان ذلك معدًا بواسطة المنظمين أم لم يكن من المستطاع كبح جماح الناس .

ولقد كانت البقعة الممتدة أمام سرادقنا خالية تمامًا من الجمهور وعندما اقترب الجواد كنت قد اتخذت مكانًا على مقربة من التابعين الذين يجلسون عند رءوس الرجال . ولاحظت أن الخيل في الشرق تسير هادئة تحت أسرجتها . أما هذا الجواد فقد كان حسب عادته متمرنًا على الرهونة مبيطرًا على النمط الشرقي بحدوة مستديرة تغطى السطح الأسفل لحافره . ولقد مر مسرعًا يخطر في مشيته ذات اليمين وذات اليسار تنزلق أمامه تارة بين الرجلين المنبطحين على الأرض وتارة أخرى تصطدم بأجسادهم وأطرافهم بكل عنف

وشدة . وعندما كانت الجماهير تسد عليه الطريق من الخلف كان يصدها المنظمون للحفل حيث ترتد إلى الطريق المجاور لسرادقات الدراويش . وفي أقل من دقيقة لم تكن لترى شخصًا واحدًا راقدًا على الأرض . وكانت تخفى حقيقة الإصابات عن الناس .

ولقد اندلعت وسط الزحام مسرعًا على إثر مرور الجواد لأرى لأول وهلة شابًا مصابًا قد قام من بين الراقدين ضاحكًا كأنما كانت ألعوبة لا إصابة وآخر كان محمولاً في حالة إعياء ينزف الدم من أنفه وفمه .

وهذا هو ما أمكننى الحصول عليه من المعلومات وسط هذا الزحام وتلك الجلبة . كما شاهدت أن البعض قد قاموا دون أي إصابة عدا رجلين لم يقدر أحدهما على اخفاء ما ألمّ به من ألم من جراء جرح أصابه ، بينما فقد الآخر قواه وكأنما قد فقد معها الحياة – وظننته أصيب فى عموده الفقرى ، ولكن السرعة التى كان الجمهور يتحرك بها لم تتح لى الفرصة لمشاهدة حقيقة هذه الإصابات .

والبعض كان يعتقد أن انسانًا لم يصب فى كل هذه الحركات العنيفة وأن النبى ﷺ هو الذى حفظهم وحماهم عن طريق المعجزة . ولقد كان هذا هو الاعتقاد السائد عند الأغلبية الساحقة من المسلمين . أما الأقلية فقد كانت تعتقد بل وعلى يقين أن عددًا كبيرًا يصاب فى كل عام وأن إصابة البعض منهم كانت مميتة . ولقد نشرت إحدى الصحف الأوروبية المحلية فى عام ١٨٧٩ أن عدد المصابين من بين هؤلاء المتعبدين المنبطحين على الأرض كان حوالى الثلاثمائة وخمسين رجلا . ولكن هذا كان بلا شك مبالغًا فيه ، اذ أنه لم يكن من المستطاع معرفة عدد المصابين حتى على وجه التقريب .

ولقد كانت الأجسام مرصوصة ملتصقة ببعضها بشكل يثير الدهشة حيث كان الجواد يتحرك فوقها بخطوات واسعة . وكان تقريرى فى ذلك الوقت أنه لا يمس أكثر من واحد من كل ثلاثة أو أربعة أشخاص . وعلى كل فقد كانت

النتائج مروعة مما أثبت أن عملية الدوسة يجب اعتبارها من المعتقدات البربرية والخرافات الدينية التى توارثها هذا الجيل.

ولقد أردت أن أتحفز من عقيدة المسلمين الحقيقية على آثر مشاهدة منظر من هذه المناظر بأن وجهت السؤال إلى «حسن» الذى كان لا يعدله إنسان فى إيمانه، فأخبرنى صراحة بأن ما من إنسان يصاب فى هذه المناسبات، وإنها ضرب من المعجزات، حتى انه لا يشعر بالخوف فى أن يلقى بنفسه أمام الجواد ما دام يعتقد أنه لن يصاب. فقلت له إنك مخطىء فيما تعتقد ورويت له ما شاهدت فجفل بسبب ثقته فيما أقول. ولكننى شاهدت أن عقيدته بالرغم من تأثيرى عليها ما فتئت قوية.

وفى اليوم التالى حضر «حسن» وطلب مخاطبتى – وقال انه قد التقى بشيخ كبير من علماء المسلمين يثق فيه تمام الثقة، ولقد أخبروه بأن البعض قد أصيب فى عملية الدوسة كما قُتل البعض الآخر وأن الدوسة لم تكن ركنًا من أركان الدين الإسلامي. ثم قال: إن الدوسة ما هي إلا عملية قديمة لطائفة من الدراويش المتعصبين، تلك العملية التي أضرت بتعاليم الدين الإسلامي. وكان هذا هو رأي الطبقات المتعلمة بما في ذلك علماء الأزهر – جامعة القاهرة العظيمة. هذا المعهد هو محور التربية الإسلامية والمنبع الرئيسي الذي تصدر منه العقائد الصحيحة للدين الإسلامي إلى مختلف أنحاء العالم الإسلامي، ومما شاهدته أن معتنقى الدين الإسلامي أكثر عددًا من أي دين آخر وأن عددهم في ازدياد مستمر.

ولحسن الحظ أن الدوسة أصبحت – على الأقل في القاهرة – أثرًا من آثار التاريخ. تلك المدينة العجيبة سوف ينقصها من الآن فصاعدًا إحدى وسائل التسلية، وعلى الذين يشغفون بمشاهدة المناظر الدامية أن يقنعوا أنفسهم بمشاهدة مصارعة الثيران في أسبانيا.

ولقد شاهدت آخر عرض للدوسة بمصر في شهر فبراير سنة ١٨٨٠ حيث

أصدر الخديوى أمرًا عاجلاً لمشايخ الطرق الذين يديرون دفة هذه العملية بإيقافها مع غيرها من العادات الأخرى مثل ابتلاع الثعابين والزجاج ، وغرز الإبر والمسامير الكبيرة في الخدود والأنف والأذرع وفي مختلف أجزاء الجسم ، والسير على حد السيوف إلى غير ذلك من أعمال الشعوذة - تلك الأعمال الشائنة التي كانت تُشاهد حتى هذا الوقت في الاحتفالات الدينية التي كانت تعتبر معجزات عند بعض المتعبدين المتعصبين .

ولقد كان الخديوى توفيق باشا وأعضاء مجلس وزرائه هم المسئولين عن إلغاء مثل هذه العمليات الشائنة . والحقيقة إن إيقاف هذه العملية الذي تم دون معارضة جدية كان دليلاً على تقدم الوعي الأخلاقي .

فقد رغب الخديوى في إلغاء عملية الدوسة مؤيدًا في رغبته هذه من الوزراء وشيخ الإسلام الذين قرروا بأنه لم ينص عليها في الدين الإسلامي كما أنها ضد تعاليم القرآن على خط مستقيم رغم أن أحدًا منهم لم يجرؤ أن يتحمل مسئولية هذا الإجراء المتطرف .

وفي سنة ١٨٨٠ حصلت عدة أحداث ساعدت الخديوى توفيق على تحقيق رغبته في الإلغاء . فقد قضى الله بوفاة الشيخ الأكبر للدراويش وهو الشيخ البكري ، وكذلك الشيخ الذي كان يتقدم الدراويش على جواده ، وكلاهما كانا معارضين بشدة لأي تدخل في التقاليد الدينية القديمة . كما أن الجواد الذي كان يدوس المتعبدين في عملية الدوسة قد أصابه مرض عضال قبيل الاحتفال بمولد النبي بأيام قلائل هذه الحوادث المتعاقبة أثبتت صحة تفاؤل الخديوى توفيق لزعماء الخرافات الدينية الذين سرعان ما رضخوا دون إبداء أي معارضة لقرار إلغاء الاحتفال بعملية الدوسة .

والواقع أن الأصل في عملية الدوسة مجهول لدى الجميع . وكل ما سمعته في القاهرة عن هذه العملية هو ما كانت ترويه الأساطير بأنه في القرن العاشر من الهجرة مُنع رجل من رجال الدين عند عودته من الحج بمكة

إلى القاهرة خارج أسوار المدينة بحجة أنه لم يقم بأي دليل يثبت ما له من الكرامة التي تخول له المركز الذي كان يشغله .

وقد قيل حينئذ : إنه إذا كان يستحق المركز الذي هو فيه فليقم دليلاً مظهرًا لكرامته . وحينما استثارته الاتهامات جمع عددًا كبيرًا من الزجاجات ووضعها ملاصقة لبعضها على الأرض ثم امتطى صهوة جواده وسار فوقها دون أن تُكسر واحدة منها . ولقد كان من بين المتفرجين على هذه التجربة عدد كبير من النساء اللائي ألقين بأطفالهن أمامه مسوقين بتلك التجربة التي يشاهدها بأعينهن جهارًا فمر بجواده من فوقهم دون أي إصابة – هناك فُتحت له أبواب المدينة . وعند دخوله من الأسوار أخذ الناس يلقون بأنفسهم أمامه وهو يسير على أجسامهم بجواده . فلم يَصب أحد وتكررت المعجزة بعد ذلك في كل عام حتى أصبحت ركنًا معترفًا به في الاحتفالات الدينية التي تقام عقب رجوع الحجاج من مكة من كل عام . هذا وأن الاعتقاد السائد عن الدوسة لدي الكثيرين هو أنها استمرار أو تقليد لعادة قديمة يغلب الظن فيها أنها من أصل هندي .

ولقد رأيت أن الديانة الإسلامية خليط عجيب من مختلف الأديان التي كانت معروفة إذ ذاك لمحمد ، فقد مزجت فيها الديانة اليهودية والمسيحية بكل مهارة مكونة نظامًا عدل بحيث يلائم الخلق الذي انتشرت بينهم دعوته – نظامًا كان الإعجاز من أهم عناصره الجوهرية ، كما أن العادات الوثنية التي لم يحرمها القرآن استمرت متبعة .

فما كان لزعيم ديني أن يحصل على شهرة فائقة دون قوة إيمان الجمهور في قدرته على إتيان المعجزات ، ولذا فإن أي احتفال على شاكلة الدوسة وغيرها من العادات التي كانت مغروسة في نفوس الناس الذين أصبحوا مسلمين فيما بعد ، كان يتقبلها الأتباع المتعصبون عن طيب خاطر . أما عن الديانة الإسلامية فهي خير من الوثنية التي حلت محلها . ولا يقل أتباعها في

اعتقاداتهم الخرافية عن عدد كبير من أمثالهم في الديانة المسيحية ، كما أن مظاهر اعتقاداتهم الخرافية ذات طابع أقوى من تلك التي تنتشر في الديانة المسيحية ، وأهل الشرق في تمسكهم بهذه العقائد إنما يدلون على تحكم هذه العقائد فيهم .

أما فيما يتعلق بعامل التعصب فهو مشترك بين جميع الأديان ويظهر جليًا عند المسلمين من الدراويش البالغ عددهم الآلاف : فهم نساك ورهبان الشرق – غير أن عددًا بسيطًا من طوائفهم العديدة هو الذي يجعل الدين شاغله الروحاني الوحيد .

والأغلبية فيهم متزوجون ، فمنهم الصناع والتجار وصغار المزارعين الذين يساهمون في الاحتفالات الدينية في مواعيدها المعروفة لديهم ، وعلى الأخص في يوم الجمعة ومواعيد الأعياد الكبيرة . والبعض منهم يحترف التسول ويتخذ من حضور الاحتفالات الدينية عملاً له – وهم صانعو المعجزات في المواكب .

وتسمى التدريبات الدينية للدراويش باسم « الذكر » وما هي إلا ابتهال توقيعي متصل إلى الله مصحوبًا ببعض الحركات التي تقوم بها الجماعة في حركة واحدة وصوت واحد . ويستمر هذا الذكر ساعات دون انقطاع وفي الغالب لا تزيد مدته على خمس وعشرين دقيقة أو نصف ساعة . هذا وإن حركة بعض الدراويش كانت تمتاز بالدوران بسرعة وتسمى « الدوامة » أو رقصة الدراويش .

ولقد حازوا درجة التفوق فيها ، فهم يدورون على قدمهم الأيسر ساندين أنفسهم بلمس الأرض بذات اليمين حيث يقومون بحوالي خمسين أو ستين لفة في الدقيقة الواحدة مصحوبة بوضع رشيق لكل من الجسد والأذرع قلما يفوقه أبرع الراقصين .

وتنحصر حركة بعض الطوائف فى تحريك الرأس من اليمين إلى الشمال أو إلى أسفل وأعلى دلالة على الخشوع والخنوع ، وفى بعض الأحيان يقومون بحركة يميلون فيها بأجسامهم إلى الأمام ثم إلى الخلف بقدر ما تستطيع من ميل ، يميلون برءوسهم إلى الأمام حتى الركبة ثم يرتدون إلى الوراء حتى تكاد رءوسهم تلمس الجزء الأسفل من جسمهم . وتستمر الجماعة على هذه الحركة منادين فى صلاتهم بكلمة « الله الله لا إله إلا الله » ويطلق الأجانب على هؤلاء الدراويش وغيرهم الذين يقومون بأنواع مماثلة من الذكر اسم « الدراويش المولولين » .

والبعض منهم يقومون بابتهالاتهم جالسين أو مكبين على صدورهم والكل يقومون بصلواتهم وقد أغمضوا أعينهم إلى تلك الدرجة التى يفقدون فيها وعيهم بل وتعتريهم حالة من النشوة الدينية . ويجب ألا يستدل من على أن الدراويش ليسوا مخلصين فى عبادتهم ، بل هم قوم مؤمنون بالقرآن وأتباع مخلصون للنبى (عليه السلام) .

الفصل السابع

رحلة إلى جبل سيناء

تعتبر شبه جزيرة سيناء جزءًا من القطر المصرى ، ويقوم السائحون فى بعض الأحيان بزيارة الجبال المقدسة التى بسيناء حيث تبدأ الرحلة عادة من السويس على ظهور الجمال ، وهو الطريق العملى الوحيد لهؤلاء الذين لا يلقون أى عون رسمى خاص . وتستغرق هذه الرحلة فترة ثلاثة أسابيع منها 16 يومًا فى قطع الطريق الصحراوى . فإذا ما استؤجرت الجمال والمرشد فإنها لا تحتاج بعد ذلك لأكثر من بضعة أيام .

ويجب أن يؤخذ لهذه الرحلة الزاد الكافى عدا الخبز فإنه يمكن الحصول على بعضه عند الوصول إلى سيناء . وفى هذه الضرورة كان الرهبان يمدون المسافرين بالأرز والعدس والبلح ، ولكن أثناء هذه الزيارة لم يمكننا الحصول على الخبز السن . وفى فصل الجفاف لا يمكن أن تجد المياه العذبة إلا فى مكانين أو ثلاثة على طول الطريق ويجب أن يؤخذ منها كميات كافية من هذه الأماكن. ولكي نتأكد من السماح لنا بالدخول الدير يجب أن نحمل معنا خطابات من دير أهل سينا فى القاهرة .

وبدلًا من أن تأخذ الطريق العادى اتخذت جماعتنا طريق البحر من السويس إلى الطور وتبلغ هذه المسافة ١٦٠ ميلًا ، ثم بعد ذلك إلى سيناء على ظهور الجمال . ولقد اختصر لنا هذا الطريق رحلتنا الصحراوية إلى مسافة ثمانية أيام ذهابًا وإيابًا إلى البحر . وكان معنا خطابات من شريف باشا إلى محافظ السويس لتمهد لنا طريق المرور ، وأخرى إلى محافظ الطور لإعداد الجمال لنا .

وبدون هذه الخطابات كان من العسير علينا أن نسلك هذا الطريق ونحصل على هذه الجمال .

ولقد كانت الجماعة تتكون من الجنرال لورنج ، وهو ضابط سابق من ضباط الحلفاء ، والمستر إدوار فنديك ومترجم القنصل « حسن » وأحد الطهاة ، وخادم أسمر اللون .

ولقد أخذنا معنا خيمتين وما يلزم من الأسرة والبطاطين واللحوم الناضجة والفاكهة وكذلك الأسلحة الضرورية واللوازم الشخصية بالسكة الحديد إلى السويس .

وعندما تركنا القاهرة كنا نعتقد أن سفرنا إلى طور سيناء سيكون على ظهر سفينة كانت قد أعدتها الحكومة لنقل الكابتن برتن وبعض العمال إلى أرض مَديَن على الشاطىء الشرقى لخليج العقبة للبحث عن معدن الذهب . ولقد أبلغ الكابتن المذكور الخديوى بأنه قد وجد ذهبًا فى تلك المنطقة فى طريقه إلى مكة قائلا : « إن الإنجيل قد تنبأ بهذا الاكتشاف » .

ولقد اقتنع الخديوى بذلك وأعد له حملة بحرية قوية للقيام بهذه المهمة وكانت هذه إحدى الحالات الكثيرة التى كان الأجانب يحتالون فيها على الخديوى إسماعيل . وكانت النتيجة الوحيدة لهذه الرحلة الباهظة التكاليف هى اكتشاف بعض كبريتور الحديد والقليل من النحاس دون سواه . هذا ولقد تأخرت السفينة عن موعد قيامها حتى أصبح من المحتم علينا أن نحصل على قارب للقيام برحلتنا .

وبعد المساومات الطويلة التى لابد منها فى التعامل مع العرب أعد لنا مركب حمولته خمسة وعشرون طنًّا . وكان يلزم لنا يومان للاستعداد للرحلة . ولقد قضينا بعض هذا الوقت فى زيارة آبار موسى وعين موسى التى تقع على الطريق الصحراوى الموصل إلى سيناء ، وعلى مسافة ثلاث ساعات من السويس .

ولقد عبرنا مياه قناة السويس القليلة الغور فى قارب صغير ثم أخذنا الحمير بعد ذلك . بعد عبور القناة وجدنا أنفسنا فى آسيا على حافة صحراء شاسعة المدى حيث كنا نرى جنوبًا وشرقًا سهولًا واسعة وقد تخللتها التلال والجبال المجردة من النباتات وقد صبغت بلون أصفر قاتم يبعث على الملل . ولقد كان ذلك آخر يوم من شهر نوفمبر حيث كانت كافة النباتات قد جفت بفعل فصل الصيف الطويل الشديد الحرارة . وسرعان ما هبت رياح شمالية نشيطة أحاطتنا بسحابة من الغبار . وكان البحر الأحمر عن يميننا أو بعبارة أصح خليج السويس المتفرع منه ، حيث تبلغ سعة الخليج فى هذه النقطة أميالا قلائل ولكنه عميق تشع من مياهه زرقة السماء - ويقع على مقربة منه وعلى طول خط المياه جبل عتاقة الذى يبلغ ارتفاعه حوالى ۳۰۰۰ قدم مجردة من كل نبات وماء . ولم يكن على يسارنا إلا الصحراء التى تحف بها الجبال لمسافات بعيدة .

وتحتوى عيون موسى على ماء آسن أجاج والبعض منها على سطح الأرض والبعض الآخر على قمم الروابى على شكل مخروطات ناقصة . وأكبر عين فيها تمثل بركة يبلغ عرضها حوالى ١٥ قدمًا . وكانت عند زيارتنا لها محاطة بحديقة قد ازدادت بشجر النخيل وجوز الهند وكأنها واحة صغيرة . هذه هى العيون التى قيل عنها إنها تستمد عذوبة مياهها من فرع شجرة أراه الله لموسى .

ولطالما شاهدنا أكواخًا بنيت من الطين يسكنها العرب الذين يزرعون بقاعا محدودة من الأرض . وأغلب الربى العامرة بآبارها المائية كانت قليلة نادرة فوق أرض الصحراء ، إلا أن إحداها كانت تلفت الأنظار بسبب اتساع رقعتها وارتفاعها الذى يبلغ ثلاثين قدمًا - ولقد كانت منسقة تمام التنسيق فى منظرها العام تعلوها بركة ماء قليلة الغور لا تزيد عن ٥ أو ٦ أقدام حيث تنحدر مياهها من مختلف جوانبها . هنالك وقفت على القمة لأكتشف الينبوع الذى يحتمل أن يكون مصدرًا لهذه المياه التى تمد تلك العين ، فلم يقع نظرى إلا على « جبال الرحا » التى تمتد من ١٠ إلى ٢٠ ميلا نحو الشرق ، ومنها تمتد الصحراء تدريجيًا نحو الغرب حتى تصل إلى البحر على بعد ميل أو ميلين من تلك الجبال .

وكانت عبارة عن كتلة صخرية أو رملية جامدة تكونها المياه الجيرية باختلاطها بالرمال التى يجرفها التيار ، كما أن المياه التى تنحدر على جوانبها تجمع جزئيات الرمال حيث تتجمد وتزيد من حجم الربوة .

ولقد أوضح عالم من علماء الجيولوجيا أخيرًا أن عنصر التجمد فى الربوة إنما هو قشرة كلسية لحشرة شفافة وجد منها عشرات الآلاف فى الماء . ومهما يكن من ذلك العنصر الذى يجمد الرمل ويحيله صخرًا فإن من الظاهر الجلى أن الربوة تكونت وما زالت تتكون بنفس الوصف الذى ذكرناه .

وطبقًا لما ترويه الأساطير ، هذه هى البقعة التى اجتمع فيها بنو إسرائيل بعد مرورهم بالبحر ، المكان الذى ألقى فيه موسى عليه السلام نشيد النصر مع تلاميذه من بنى إسرائيل – وبهذه المناسبة حملت مريم الرسولة أخت هارون الدف في يدها وخرج وراءها جميع النساء بدفوفهن مغردات راقصات .

وكان لابد لنا من الإقلاع من السويس فى صباح اليوم الثالث من حصول التعاقد ، ولقد تأخرنا كما هى العادة عند الأعراب . وقبل أن نعد أنفسنا كانت أشعة الغروب قد اختفت وكان يهب علينا ريح شمالى شديد هو الذى يغشى البحر الأحمر فى ذلك الفصل من السنة . هذا وقد حضر قنصلنا إلى السويس مع بعض أصدقائه لتوديعنا . وكان على وشك الرحيل لولا أن الكابتن قد حضر إلى وطلب إرجاء الرحيل حتى الصباح خوفًا من اشتداد الريح علينا فى تلك الليلة .

هذا هو ما كنت أتوقعه ، فالكلمة الشائعة فى مصر دائمًا هى « بكرة » وبعد أخذ ورد تحركنا من الميناء . ولقد كان الطقس جميلًا رائعًا والنجوم ساطعة إلا أنه لم يكن هنالك قمر وكان الجو رطبًا باردًا ، والرياح تستجمع قواها ، ولم تبد أن رحلة الليلة تبشر بالخير سواء من حيث الراحة أو النوم .

فى ذلك الأوان كانت الزوابع على غير العادة . وكان البحر الأحمر

بسبب ما استقر على جوانبه من الصخور المرجانية فى منتهى الخطورة على المراكب الشراعية الكبيرة المسافرة إلى الهند والبلاد الشرقية عن طريق رأس الرجاء الصالح ولقد كان هذا الجانب من البحر ضيقا . وعندما كنا نسير فى أثر السفن التجارية التى تمر بقناة السويس كانت الحراسة لنا قائمة كما يجب . فشكرًا للريح وشكرًا لحركة القارب المستمرة ، ولذا لم يكن أمامنا خطر يذكر ، رغم الحراس الغافلين أثناء نوبتهم .

ولقد كان البحارة العرب على جانب من الحرص ، والخوف ويخشون أقل المغامرات – فقد كانوا لا يبعدون بقواربهم الصغيرة عن الشواطئ – حتى إنهم إذا ما وجدوا البر الهادئ المطمئن لجأوا إليه وقضوا ليلتهم عليه .

هذا الطريق البحرى كان هو الطريق التجارى الوحيد المؤدى إلى الشرق على ممر العصور ، ولقد كانت سفنه حتى عصر اكتشاف السفن التجارية الحالى تنافس الجمال « سفن الصحراء » .

أما من جهة القارب الذى كان يقلنا فلم يكن خيرًا من تلكم القوارب التى بعث بها سليمان مع خدم « هورام » فى رحلاته إلى « تارشيش » لاكتشاف الذهب والفضة والعاج والبخور والمعادن النفيسة ، ولا خيرًا من تلكم التى أرسلتها الملكة « حتشبسوت » فى حملتها المشهورة إلى بلاد بنط ، ولا خيرًا من تلكم التى كان يستخدمها الفراعنة والبطالمة والرومان والعرب الذين غزوا مياه هذه البلاد على التوالى .

قضينا ليلة شاقة ، ولكن ما إن أصبح الصباح حتى صفا الجو وسرنا فى رحلتنا على ما يرام . وكان قاربنا خفيفا وقلاعه المثلثة كبيرة الحجم ، وريح الشمال لا يزال قويًا ، فلم نكن لنرى سحابًا بل أشرقت الشمس على الجبال ساطعة دافئة حيث أظهرت لنا وجوه البحارة لأول مرة ... ولقد كان القبطان والبحارة عراة الأقدام والسيقان بقمصان قطنية زرقاء قد ربطت من الوسط بحزام – كان هذا هو رداؤهم الخارجى – كما كانوا يرتدون طاقية الرأس

وعمامتها العادية . وخففت حرارة الشمس تلك الرطوبة التى طغت على ما لدينا من بطاطين وملابس ، كما أراحنا من إعيائنا وأعاد إلينا نشاطنا فنجان القهوة الذى أعد على موقد كنا قد أحضرناه معنا .

وكنا نشاهد فى بحر النهار تلك السلاسل الجبلية على جانبى الطريق ، كما كانت البواخر تصادفنا من وقت لآخر . وقبيل غروب الشمس بقليل ظهرت لنا تلك القرية المعروفة باسم « الطور » ، ظهرت لنا بنخيلها ، وسرعان ما رسونا فى مينائها ، ومن السويس إلى الطور على جانبى البحر لا ترى إلا صحراوات لا نبات فيها ولا ماء اللهم إلا النزر اليسير من النباتات الشتوية . فإذا ما أصيبت سفينة بالغرق على هذه الشواطئ فهيهات أن تجد على طول الشاطئ وجبة واحدة من الغذاء أو جرعة ماء .

وبينما كان الرجال ينصبون الخيام ويعدون الغذاء استدعيت الحاكم وقدمت له الخطاب الذى نحمله معنا من شريف باشا وأبديت له رغباتنا ، فقال لى إنه يوجد مخيمان للأعراب لا يبعدان كثيرًا عن المدينة وإنه سيرسل اليوم رسولًا يطلب منهم العدد المطلوب من الجمال .

والطور ميناء طبيعى تحيط به الصخور المرجانية ويمثل المرفأ الوحيد للسفن فى هذا الخليج بجانب ميناء السويس . ولا تعدو أن تكون قرية صغيرة قد بنيت منازلها من الطين . ولقد أعدت لأن تكون محطة للحجر الصحى عند عودتهم من جدة ، ميناء مكة .

ويباشر عملية الحج كل مسلم طيب النفس ولو مرة فى حياته يتوجه فيما إلى تلك المدينة المقدسة « مكة » . هذا وإن الجزء الأكبر من سكان البحر الأبيض من مراكش إلى تركيا يعتنقون عقيدة الإسلام ولذا يقوم بفريضة الحج عدد كبير جدًا منهم فى كل عام ، وأغلب هؤلاء الحجاج يفضلون الحج بطريق البحر عن طريق الصحراء .

ولقد حدث مرارًا أن حجاج الهند والعجم قد نزلوا إلى مكة ومعهم مرض الكوليرا أو بعض الأمراض الأخرى الخطيرة ، تلك التي تغلغلت فى مصر وبعض دول أوربا بشكل مخيف ، ولهذا السبب أصبح حجز الحجاج فى السنين الأخيرة ببلدة الطور أمرًا لابد منه . وذلك لفحصهم طبيًا وحجزهم هنالك متى رأى القسم الطبى ضرورة لذلك .

وفيما عدا هذا فإن الطور ليست إلا بلدة صغيرة خاملة .

وعند عودة الحجاج من مكة ترسو السفن فى مينائها حيث ينصب عدد كبير من الخيام فى رمال الصحراء على مقربة من شاطئ البحر . ويقيم فى هذه الخيام الآلاف من المغاربة والعرب والترك من مختلف أنحاء مراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر وسوريا وتركيا ، ويقوم الجنود المصريون على حراستهم . وترتدى هذه الجنسيات المختلفة والقبائل المتنوعة رداءً خاصًا يسمى « البُرْنُس » . وهو رداء فضفاض . كما يرتدون على رءوسهم العمامة . ولكن بالنسبة للون الرداء ومميزاته الأخرى فتوجد فى الغالب أنواع متضاربة بحيث تزيد من بهاء المنظر .

هذا وإن الرهبان فى سيناء قد يتولون عهدة استيراد المؤن وتوزيعها وبأيديهم عهدة أحراش النخيل الواقعة على مقربة من القرية . كما توجد هناك ينابيع وفيرة المياه تروى بمياهها الحدائق الغناء ، إلا أن هذه المياه غير كافية لإطفاء ظمأ الحجاج ، ولذلك فإنهم كانوا يسدون هذا النقص ، فى الأيام السالفة ، بمياه ترد إليهم من السويس ، ولكنها تصلهم الآن مقطرة مرشحة .

وفى الصباح التالى وجدت عند مجيئى من الخيمة جماعة من البدو تنتظرنا بجمالها ، ولقد قضينا طوال النهار فى اختيار أجود الجمال والمساومة عليها وعمل بعض الاستعدادات الأخرى . وتختلف جمال الصحراء فى جنسها عن الجمال الشائعة الاستعمال فى مصر ، فهى أخف وأسرع وأسهل خطى ، بيد أنه يجب اختيارها بدقة حيث إن الراحة التامة فى أى حال رحلة صحراوية

تتوقف إلى حد كبير على الجمل الخفيف الحركة السهل القياد .

وأثناء النهار كان لدينا الوقت الكافى للنزهة على طول الشاطئ حيث كنا نجمع كمية كبيرة من الأصداف والمرجان ونأتى بها معنا فى القارب ، فالبحر الأحمر غنى بأصدافه الجميلة الرائعة .

ثم تحركنا خارج البلدة حوالى الساعة الرابعة صباحًا . ولقد كان معنا تسعة جمال وحمار واحد ، وكان يصحب كل جمل أحد الجمالين ويصحب كل حمار مكارى . ولقد حمّلنا بمختلف لوازمنا من أوتاد وقوائم للخيام وأسرة حديدية مطوية وكراسى للجلوس عليها وكافة أدوات الطبخ وغير ذلك من المؤونة اللازمة بما فيها بعض الطيور والدجاج . ولقد خصصت أربعة من الجمال للمتاع والباقى للركاب .

أما بالنسبة للريح الشمالى السائد فى تلك المنطقة وما يترتب عليه من صعوبة العودة بطريق البحر فكان لابد للقارب من أن يرتد إلى رأس أبى زنيمة (حوالى منتصف الطريق إلى السويس) لينتظرنا هنالك وكلمة «Ras» معناها رأس بارزة من الأرض ، ورأس أبو زنيمة إنما هو ذلك الرأس الذى يرسوا خلفه السفن لتتقى شر الريح الشمالية . وكان لابد للقارب أن يسير حوالى اثنى عشر يومًا حتى يصل إلى هذا المكان ، ولكننا إذا لم نجد القارب عند وصولنا كان لابد لنا أن نصل السويس على ظهور الجمال . ولذا كان ينبغى علينا أن نشحن المئونة الكافية لمدة تزيد على أسبوعين .

ولقد تقدمت جمالنا فى نظام هندسى على مسافات بعيدة ، بحيث يخيل للناظر إليها أنها قافلة كبيرة ، ولقد سرنا نحو « أم سعد » على مسيرة ساعة فى اتجاه الشمال الشرقى حيث وضعنا رحالنا وقضينا الليل هناك .

فى ذلك المكان توجد عين من الماء العذب محوطة ببعض النخيل وقطعة صغيرة من الأرض المنزرعة التى تروى بماء العين . وكانت هذه آخر بقعة

خضراء رأتها أعيننا قبل وصولنا إلى حدائق سيناء .

وفى اليوم التالى فى ساعة مبكرة كنا فى الطريق ، وقد أضفنا إلى متاعنا قرب الماء المصنوعة من جلد الماعز ، وقد علقناها فى رقاب الحمال وجعلناها تستند على صدورهم ، كما كان معنا « زمازم » لمياه الشرب كنا قد أحضرناها من القارب ، وذلك لأن المعروف عن الآبار الارتوازية أن مياهها ليست لذيذة شهية كمياه النيل ، إذ لا تخلو من الأملاح المعدنية التى تغير من طعمها وتجعله غير مقبول .

بدأنا وقتئذ رحلة شاقة عبر الصحراء التى ترتفع تدريجيًا والتى يمتد سهلها وراء جبال « العرابة » الواقعة على الشاطئ والتى تمتد شمالاً من الطور حوالى ٤٥ ميلًا ، وتمتد جنوبا بمحاذاة الشاطئ ٤٥ ميلًا نحو الجزء الجنوبى من شبه جزيرة طور سيناء . وفى مواجهة الطور يبلغ اتساعها حوالى عشرين ميلًا ، وتحد شرقًا بجبال سيناء . وبعد أن قطعنا مسافة قصيرة فى الرمال وجدنا الصحراء قد غطيت بأحجار صغيرة تزداد فى الحجم كلما تقدمنا حيث نصل إلى أقصى درجة فى الحجم عند سفح سلسلة الجبال .

وفى عام ١٨٦٣ زار عباس (والى مصر) جزيرة سيناء ، ولمس الحاجة إلى إنشاء طريق من بلدة الطور إلى الجبل المقدس . ولكنه اغتيل فى العام التالى ولم يتم إنشاؤه . وكل ما فى الأمر أنهم أزالوا الأحجار عن قارعة الطريق الذى كنا نسير فيه . ولقد كان هذا تحسينًا من التحسينات الهامة حيث كان الحجر يغطى الأتربة فى كثير من الأماكن فيعرقل سير الجمال .

أما من الوجهة الجيولوجية فإن الأرض التى تقوم عليها هذه الصحراء إنما هى أرض طباشيرية ترجع إلى العصر الثلاثى .

وبعد الشاطئ الذى كنا نسير بجواره لم تقع أعيننا على نبات أو حيوان ، ومن الغريب أنها لا تمطر هناك حوالى ثمانية شهور . والنباتات النادرة الوجود

التى تنمو فى الصحراء قد اختفت أو جفت وذوت ، فلم تكن لترى حيوانًا أو طائرًا ، أو حشرة ، أو وريقة نبات تقطع هذه الوحشة المطلقة ، ولم تكن ريح الشمال كافيًا لإثارة الرمال ، ولكن حرارة الشمس وضوؤها الساطع المنعكس من الصحراء والسهل المنبطح المغطى وقد كساه اللون الأحمر واللون الأسود بفعل حرارة القرون والأجيال ، وتلك السلسلة الجبلية ذات الصبغة الصفراء التى كنا نقصد سفحها قبل أن ينتهى النهار ، كل هذا إنما كان سببًا فى ارهاقنا طوال رحلة ذلك اليوم . ولقد كانت الجبال المحملة تقطع ميلين أو ميلين ونصف ميل على أرض الصحراء فى الساعة .

وتعلمت كيف أتحاشى التعب الذى يتسبب عن تلك الحركة البطيئة غير المنتظمة فى سير الجمل ، تلك التى تلقى بجسم الراكب إلى الوراء وتدفع به إلى الأمام بصفة مستديمة وبحركة متعبة . ولذا كنا نضع اللفائف الخفيفة على جانبى السرج مغطاه بالبطاطين التى نظمت بشكل مقعد مسطح مريح يساعد الراكب على الجلوس فى أى اتجاه شاء . فإذا ما شعرت بالتعب حثثت الجمل على السير مسرعا ، وإذا ما قطعت مرحلة كافية بعيدة عن القافلة ترجلت وانتظرت وصول الآخرين . ولقد رأيت أن عَدو الجمال أكثر راحة من سيرها البطىء .

وصلنا سفح الجبال قبل الليل بقليل ثم استأنفنا السير حوالى ساعتين فى طريق منخفض ضيق قد غطته الصخور يسمى « وادى حبران » حتى عثرنا على طريقنا على عين مائية وضعنا عندها رحالنا وكانت على وشك أن تجف ، بل كانت مياهها أول مياه وجدناها فى طريقنا إلى سيناء . وكان على مقربة منها بعض أشجار النخيل المتوقفة عن النمو ، وقد كان الممر ضيقًا إلا أن به الاتساع الكافى للمرور . وكانت صخور الجرانيت التى تكتنفه ترتفع ارتفاعًا فجائيًا إلى علو شاهق .

واستأنفنا الرحيل فى ساعة متأخرة من صباح اليوم التالى فى نفس هذا

المضيق ، حتى بعد الظهر ، وكان الطريق سهلًا إلا أنه وعر المسالك فى بعض الأماكن ، وقادنا الممر إلى كتل كبيرة من الجرانيت مهدت أماكن منها لأقدام الجمال العريضة . وكانت الجمال تمر فى هذا الطريق الوعر المسالك بكل تؤدة وثقة . وفى بعض جهات هذا الممر كان منظر الراكب على ظهر جمله يصور للإنسان خطرًا واهمًا ، ولكن الواقع أنه لم يكن ثمة خطر .

وبعد الظهر بقليل لمحنا طيرا يكاد يكون هو المخلوق الحى الوحيد الموجود فى هذا الطريق . على أنه توجد فصائل مختلفة من الحيوانات فى هذه الجبال ، إذ يقال إن الأرنب وابن آوى والملك الوحشى والضبع والفهد من سكان هذه المنطقة ، ولكنها نادرة لا تكاد ترى .

سرنا فى الوادى بعد ظهيرة ذلك اليوم حتى وصلنا إلى وادى الجاوى ثم الوادى الذى يليه ويسمى بوادى « سولاف » وهو طريق من طرق الجمال العادية المؤدية إلى السويس . وعند ملتقى هذين الطريقين ، وقع نظرنا على عدد من الأكواخ الحجرية القديمة لا يعرف لها أصل . وتسمى « النواميس » (منازل الناموس) عند البدو ، وكان يلجأ إليها الهاربون من بنى إسرائيل من مرض الطاعون الذى ينقله الناموس كعقاب لهم من الله وكانت هذه الأكواخ على شكل دائرة منحرفة يبلغ قطرها ما بين ١٥ ، ٢٠ قدمًا . وكانت مبنية على الوضع الآتى : جدار سميك يقام عموديًا لحوالى ثلاثة أقدام ، ثم ينسحب إلى الداخل حتى يكون سقفًا دائريًا به فتحة من الوسط مغطاة بحجر مسطح .

فى هذه البقعة كنا على ارتفاع يزيد على ثلاثة آلاف قدم من صحراء « الكاع » وكانت قمم الجبال تشاهد من كل جانب . وإلى الغرب خلفنا مباشرة كان يرتفع « جبل سربال » رمزًا مقدسًا للمسيحيين القدماء ، ذلك الجبل تتمثل فيه قداسة سيناء ، والكثير من العلماء ما زالوا متحمسين لنفس الرأى الذى يقول بقداسة هذا الجبل بناء على أدلة قوية .

ولقد وجدنا أنفسنا أمام قطعة أرض مهيأة لوضع رحالنا ليلًا وهى هضبة

رملية تكسوها بعض الأشجار الشوكية وكثير من نباتات الصحراء الجافة ، فوضعنا رحالنا وأرحنا جمالنا مما كانت تحمله من أثقال وتركناها ترعى العشب والكلأ ، وإذا بالخيام قد ضربت فورًا كما أعد الغداء ، ولقد جمعت كميات كبيرة من النباتات الجافة والأشجار والجذور الميتة الكافية لإبقاء النار ليلا ، ثم أعدت المائدة فى أكبر خيمة .

وكان الغداء من أفخر ما يكون ، حيث تناولناه بشهية منقطعة النظير - شاكرين الفضل لأيام هذه الرحلة وهواء الجبل الجميل العليل - ولقد أشعلت نار كبيرة حيث أحضرنا الجمال وجعلناها تبرك حول النار فى شكل دائرة ورءوسها متجهة نحو الداخل وسيقانها مطوية تحتها كما هى الحال مع فصيلة الجمال . ولقد أعطى كل جمل من الفول الذى استحضر من السويس ، كما قدم للجمال بعد ذلك بعض الفروع من أشجار الشوك . أما الأعراب فقد تناول كل منهم وجبته من الخبز السن والعدس وبقايا مائدة الغداء . ولما كان عملهم اليومى قد انتهى وقاموا بكافة الاستعدادات الخاصة بالليل ، جلس هؤلاء الرجال أبناء الصحراء حول النار على الرمال على شكل دائرى .

ثم بدأ البعض منهم من أرباب المواهب يقصون الروايات والحوادث التى تشبه قصص ليالى العرب التى تسر الأطفال . ولقد استمر الرواة ، حتى منتصف الليل حيث كنت أسمع تهليلهم بالاستحسان (الله .. الله .. الله ..) .

واحتفظت النار بقوتها إلا أن الإعياء كان قد أخذ منهم مأخذه فاستولى النوم عليهم ، الواحد تلو الآخر . هذا وفى الهزيع الأخير من الليل كان دوى الأصوات قد سكن واستقر المسافرون فى خيامهم ، وقد عم الصحراء سكون الليل الرهيب .

هذه العزلة والوحدة إنما تولدان شعورًا غريبًا ، فهؤلاء الأعراب إنما يعيدون إلى ذهن الإنسان البطاركة القدماء الذين كانوا يعيشون فى دورهم الصحراوية

بعيدًا عن المناطق والأماكن المزدحمة بالسكان ، وقد أحيطوا بعائلاتهم وقطعانهم فقط منعزلين عن العالم حتى إنهم أصبحوا على اتصال وثيق بالطبيعة ومالك الكون .

ويبلغ عدد هؤلاء البدو حوالى الخمسة الآلاف بدوى يسكنون جزيرة سيناء ويعرفون باسم الطوارة (ساكنى الطور) . ولقد كان الاسم القديم للجزيرة « توث » فاشتق منه اسم الطور الذى شاع استعماله . يعيش هؤلاء الأعراب على المحاصيل البسيطة التى تنتجها الواحات كلبن الجمال والماعز والغنم ، وما يتناوله من السياح أجرًا للجمال التى تحمل لهم المدد من السويس والطور إلى الدير فى سيناء ، كما تحمل أحجار الطواحين وغيرها من الأدوات من سيناء إلى مصر ، كما يستخدمهم بعض الناس أحيانًا بجمالهم على حدود الدلتا ، وقد تتاح لهم فرصة بيع أحدها ، إلا أن لديهم عددًا قليلًا من الغنم والماعز لا يعرض للبيع غالبًا ، وهم يعيشون فى الخيام اللهم إلا بعض الأكواخ المقامة على مقربة من الطور أو فى واحة فيران ، التى مررنا عليها عند عودتنا إلى البحيرة .

يوجد فى تلك الأماكن قطع صغيرة من الأراضى المنزرعة وأحراش النخيل الموزعة ملكيتها على عدة أشخاص يقيمون بعيدًا عن تلك المنطقة . هذا ولا يخلو كل بدوى من أن يمتلك ولو شجرة نخيل واحدة ، كما يشتهر هؤلاء البدو بالأمانة حيث يقال إنه ما من أحد منهم يجرؤ على اختلاس بلح الآخر أثناء غيابه .

وكانت القبائل المختلفة التى يطلق عليها اسم « الطوارة » تحمي رهبانها منذ قرون ، وبالتالى كان لهؤلاء الرهبان الفضل على أطفال ورجال هذه القبائل فيما يقدمونه من غذاء إلى العجزة منهم والمرضى والطاعنين فى السن غير القادرين على إقامة أود أنفسهم .

وعند وصولنا إلى محطة الرحيل وجدنا « حسن » مريضًا وحرارته مرتفعة ، فأعطيته نباتًا صحراويًا فشفى فى اليوم التالى ، ومن ثم استأنفنا الرحيل . وأصبح

حسن بعد ذلك يعتقد تماما فى مقدرتى الطبية .

وأعد عند ذلك طعام الإفطار حيث تناولناه بسرعة ، ثم حلت الخيام وحزمت الأسرة بعد تنظيفها من حشرات الصحراء كما فكت عقال الجمال وحملت كافة لوازمنا ثم امتطى كل جمله ، وتحركت القافلة فى طريقها .

وكان طريقنا بمحاذاة سفوح الجبال . وعند الظهيرة تركنا وادى سولاف ، وعندما ألقينا آخر نظرة على الطريق المؤدى إلى جبل سربال دخلنا « نقب الهواء » وكان لا بد لنا عند ذلك من صعود حوالى ألفى قدم لمسافة خمسة أميال . هنالك كان المنظر قفرًا موحشًا بشكل لا يمكن وصفه حيث ترى جبال الجرانيت قائمة على الجانبين بصخورها المهشمة على ارتفاع ما بين ثمانمائة وألفى قدم . ولقد كان هذا الممر الوعر الضيق الذى تنحدر منه سيول الشتاء مغطى بالصخور الضخمة المتصلة اتصالاً وثيقًا بصخور الجبال . وكانت هذه الصخور تغطى الطريق تاركة فى كثير من الأماكن مسالك ضيقة لمرور الجمال . وفى طريقنا كان يقع نظرنا على شجرة قد وقف نموها وقليل من النباتات ، فكانت تخفف من حدة منظر ذلك الممر الجبلى المرتفع الوعر .

ولقد قام المسيحيون الأوائل بفتح طريق الجمال بين تلك الكتل الصخرية الضخمة ، والواقع أنه عمل شاق ، فقد أزيلت بعض الصخور ووضعت صخور أخرى إلى جانب صخور لكى يقيموا طريقًا فوق بعض الكتل التى لم يمكن إزالتها .

وقد كان هذا أقصر الطريقين بجانب ذلك الجبل الضخم الذى ارتفع فى بعض الأماكن إلى سبعة آلاف قدم فوق سطح البحر . وكان على مسافة بعض الأميال شمال غرب سيناء . ولقد استمرت الجمال تحرك أقدامها بكل حرص حوالى ساعتين ونصف ساعة من الزمان . وعند وصولنا إلى القمة كنا على ارتفاع ميل فوق سطح البحر ، وعند مدخل ذلك السهل المتسع « سهل الراحة » .

الفصل الثامن

جبل سيناء

على حين فجأة وعلى غير ما كنا ننتظر وجدنا أمامنا منظرًا رائعًا للغاية ، فقد كان أمامنا سهل يبلغ اتساعه ما بين ربع ونصف ميل ، ويبلغ طوله حوالى ميلين . وهوينحدر بالتدريج إلى قاعدة « رأس الصفصاف » وهي عبارة عن جدار صخرى عار ظهر أمامنا فجأة وقد ارتفع فى الفضاء حوالى ألف قدم . يمثل هذان الجبلان الجزء الهام من سيناء ، وتبعد قمة كل منهما عن الأخرى حوالى ميلين تقريبًا .

وعلى اليسار من هذه المجموعة يوجد وادى الدير وفى أسفله « دير سانت كاترين » بجدرانه العالية وحدائقه وأشجاره ، وفى مواجهة هذا الدير على الجانب الآخر من الوادى الضيق توجد سلسلة جبلية تبلغ نفس الامتداد ويبلغ ارتفاعها نفس ارتفاع جبل سيناء .

وعلى يسار سهل الراحة يوجد جبل الأسقف ، وإلى اليمين يوجد « جبل الغبشة » .. كل هذه الجبال إنما هى كتل صخرية عارية من الجرانيت . والمفروض أن تلك الهضبة الرملية القفرة العالية المستقرة عند أقدامنا وسط جدران ذلك الجبل المحيط بنا كانت معسكرًا للإسرائيليين قبل الجبل المقدس .

ذلك الجبل الذى ظهر أمامنا كان مسرحا لمظاهر الجلالة الإلهية ومحط ميلاد الشرائع الربانية ، كما شاهد قصف الرعد ووميض البرق و « الرياح العاتية التى مزقت الجبال وفتت الصخر أمام الرب » .

وعند وصولنا إلى الدير قدمنا ما لدينا من الخطابات فكان اللقاء بكل ترحاب ثم دعينا إلى الداخل ونصبت الخيام فى الحديقة المحاطة بأسوار عالية ، ولقد بقيت الجمال والأعراب فى الخارج معسكرين فى الصحراء حتى آن وقت الرحيل . وتشغل هذه الحدائق بضعة أفدنة ، وتروى فى فصل الصيف الطويل العديم المطر من خزان يملأ عادة فى فصل الشتاء . وتقع فى سطح الجبل وقد سورت من جانبها الأعلى بجدار لحمايتها من السيول التى تسببها أمطار الشتاء . وهى تكون واحة صغيرة تسر رائحتها الزكية كل سائح عابر للصحراء ، كما تنتج الخضر على اختلاف أنواعها من الفاكهة ، وتنتج البرتقال والسفرجل واللوز والبرقوق والليمون والتين والرمان .

كما ترى هنالك العنب والكروم تتسلق الأسوار وعددا من أشجار السرو الطويلة التى تفىء الناس بظلالها إبان فصل الصيف .

وكان الجو مكفهرًا بعد ظهيرة ذلك اليوم ثم أظلمت السماء تمامًا بعد غروب الشمس ، وعند المساء جاءنا راهب عند خيامنا ليقول لنا إن رئيس الدير أرسله يدعونا للحضور إلى الدير ليلًا قائلًا إنه يحتمل أن تمطر قبل الصباح . كان هذا التغيير يتطلب نقل أسرتنا وكل ما يلزمنا إلى مقر الدير داخل الغرف ، وهذا ما لم نكن نميل إليه . وبعد المشاورات قر رأينا على البقاء فى خيامنا مع توجيه شكرنا إلى رئيس الدير على رعايته وعطفه .

وحوالى الساعة الثانية استيقظنا على إثر دوى الرعد ثم أخذ القصف يلى القصف وينتقل من جبل إلى جبل ، وكان الصوت يرتفع ويشتد نتيجة ترديده بين الصخور العالية المحيطة بنا ، وقد أصبحت خيمتنا مضيئة كما لو أشرق عليها النهار . وعند خروجنا من السرادق شاهدنا أروع مظهر من مظاهر الطبيعة ، فقد كانت السماء ملتهبة ، وخيوط الأشعة تضرب فى كل اتجاه بين الصخور مضيئة تلك الجبال والوديان بشكل رائع . أعقب ذلك قصف رعد شديد اهتزت له الجبال كأنما كانت على وشك أن تنشق وتتفتت . ولقد كان

صدى هذا الدوى والاهتزازات شديدًا رائعًا فى أول الأمر كدوى الصخور الساقطة على جانب الجبل .

هذا وإن زوابع الرعد لها تأثير على النفس ، وعلى الأخص فى سن الطفولة ، فالبرق والريح العاصف والمطر ومثل تلك المناظر الرائعة تظل عالقة بالذاكرة .

على أننى لم أشهد فى حياتى أشد وحشية وأروع قوة من رعد طور سيناء حيث يتجاوب قصفه بين جوانب الجبال وكأنه سيطير بقممها ويلقى بصخرها بين ما حولها من الوديان .

هنالك عادت بى الذاكرة إلى ذلك المنظر الشامل المقدس الذى ذكر فى التوراة منذ ٣٢٠٠ سنة عندما كان الرعد والبرق والسحاب الكثيف يطغى على تلك المنطقة الجبلية « عندما نزلت روح الله المقدسة تحيط بها النار ويكللها الدخان وزلزلت الأرض والجبال جميعًا » .

أعقب ذلك مباشرة هبوب الريح وسقوط المطر وإذا بنا نسمع زئير السيول المندفعة على جانب الجبل ونرى الأرض وقد غمرتها المياه . أما خيمتنا فقد بدأت تخضع لقوة العاصفة رغم متانتها . وكان حسن والبستانى يحاولان بمطارقهما تثبيت الخيمة فى مكانها .. وكانت الساعة الثالثة حيث دقت أجراس الدير تدعو الرهبان إلى الصلاة . وكان البلل قد غمرنا والوقاية الوحيدة لنا على وشك أن تزول .

بدأنا عند ذلك نفكر فيما إذا كان من الأفضل لنا قبول دعوة رئيس الدير ، إلا أن « الجنرال لورنج » تمسك تمسكًا شديدًا ببقائه فى الخارج . ولكن رئيس الدير لم يهمل شأننا ، فقد أرسل لنا راهبا ليجدد الدعوة قائلًا : إنه يخشى احتمال سقوط الجدار التى كنا نعسكر تحته . وهذا ما ألزمنا البت فى الرحيل والانتقال إلى الدير وسط العاصفة الهوجاء .

وفى الصباح كانت كل الجبال بيضاء ناصعة وقد غطيت بطبقة رقيقة من الجليد . وإذا بالصيف الطويل الجاف قد تبدل شتاء ، فبقينا بالدير يومنا الأول فى راحة ودعة تامتين ، نشاهد كل ما يثير الاهتمام .

ولقد كانت جبال شبه جزيرة سيناء تعتبر مقدسة قبل عهد موسى بزمن طويل ، وقد ظلت كذلك حتى الوقت الحاضر عند الكثير من الناس . ومنذ عصر المسيحية الأولى وربما فى القرن الأول منها شرع المتعبدون والنساك يقيمون فى تلك الجبال والوهاد من تلك المنطقة الصحراوية الغابرة ، فقد أقاموا بعض المبانى الحجرية الصغيرة ونحتوا الغرف فى الصخور وبحثوا عن المغارات الطبيعية ليعيشوا فيها معيشة النساك .

ولقد ازداد عددهم حتى وصل فى العصور الوسطى إلى ما لا يقل عن ستة آلاف نسمة من هؤلاء المتعبدين بين تلك الجبال . ولقد كانوا يسرقون ويقتلون بأيدى الأعراب . ولكن تلك الاضطهادات لم تقلل من غيرتهم وحميتهم الدينية . كما أنها لم تمنع غيرهم من المهتدين الجدد من شغل أماكنهم ، وفى كثير من الأحوال كانوا يفرون من الاضطهادات داخل حدود ديارهم وقد تسلطت عليهم الفكرة الدينية المنتشرة فى مختلف الممالك الأوربية وهى حياة العزلة والقداسة . هذه الصحارى الجبلية الموحشة بتاريخها الحافل بالمعانى المقدسة كانت الملجأ المفضل لدى هؤلاء الأشخاص الذين يميلون إلى مثل هذه النزعة الدينية . ولقد قل عدد الرهبان منذ زمن بعيد حتى أصبح عددهم اليوم لا يزيد على أربعين راهبًا يقيمون فى شبه الجزيرة وعلى أنه لا تزال توجد بقايا معابد وأديرة وكهوف كانت تسكن قبل ذلك فى أماكن مختلفة بين هذه الجبال . وتوجد هذه المعابد فى الوديان العالية وبعض الأحيان فى صخور لا يمكن الوصول إليها . ومنذ زمن بعيد كان الكثير من الرهبان يتخذون محل إقامتهم على مقربة من جبل سيناء ، وانتحلوا له اسم « حورب » أو « جبل الشريعة » .

وفى عام ٥٣٠ بعد المسيح أنشأ الامبراطور جستنيان كنيسة فى سيناء محاطة بحصن لحماية الرهبان الذين كانوا يعيشون فى عزلة بتلك الكهوف الطبيعية والصناعية ، كما أنشأت الامبراطورة « هيلانة » عند موقع « الشجرة المحترقة » برجًا وكنيسة داخل أسوار الحصن ، وكان الموقع الحقيقى « للشجرة المحترقة » غير معروف ولكنه اكتشف أخيرا بمعرفة ناسك تقى كان قد أتاه أحد الملائكة فى منامه ، ويقال إن قلعة جستنيان هى مقر الدير الحالى وهى تحتل ما يزيد على الفدان من الأراضى التى تشغلها الآن مبانى الدير وأبهاؤه .

وإنك لترى على الأسوار الجراتينية السميكة العالية قبابا بهيجة ورياضًا فيحاء تهيىء للرهبان صيفًا رطيًا عليلًا ، كما ترى منافذ قديمة تطل على تلك المنطقة وعددًا قليلًا من المدافع التى لا جدوى منها ولم يكن يسمح للأعراب بالوجود داخل الأسوار ، وحتى وقت قريب لم يكن يسمح للزوار بالدخولإلا من باب قد أعد لذلك يبلغ ارتفاعه حوالى ٣٠ قدمًا عن سطح الأرض . وكان يوجد وقت زيارتنا باب جانبى ضيق للغاية يفضى إلى حديقة موصلًا إلى أرض المبانى . كما كان يوجد نفق تحت الأرض يوصل إلى مبنى الدير بالحديقة .

ولقد دمرت بعض مبانى هذا الدير مرارًا بسبب الحريق ثم أعيد بناؤها مع إحداث بعض التغييرات والإضافات التى تستلزمها حياة القساوسة هنالك . وبهذا الدير مجموعة من المبانى قد وصلتها متاهة مكونة من عدة ممرات صغيرة لا بد للسائح أن يقوده أحد فيها . ولقد لاحظنا أن مبانى هذا الدير ومحتوياته مثيرة للاهتمام ولكنها ليست مغرية إذا قارناها بمثيلاتها .

وكانت الكنيسة التى أنشئت فى نفس العصر الذى أنشئت فيه القلعة – على الطراز الرومانى ضخمة رائعة – وبها أعمدة من الجرانيت بين ممراتها . وتضم هذه الكنيسة عدة كنائس صغيرة وهياكل وزخارف لا عدد لها ، وآثار من الموزايكو ، ترجع إلى القرنين السابع والثامن ، كما تضم شمعدانات ومصابيح بالمئات وكثيرًا من الهدايا الثمينة التى منها هدايا كاترين قيصرة روسيا

والإسكندر الثانى . كما توجد بها آثار مقدسة منها جمجمة ويد سانت كاترين الفيلسوفة التى نفذ فيها حكم الإعدام فى الإسكندرية عام ٣١٢ بعد الميلاد ، وهى التى حمل الملائكة جسدها منذ ثلاثمائة عام بعد استشهادها ، ومن تلك المدينة إلى قمة جبل كاترين ، وللتدليل على هذه الحقيقة كثيرًا ما يشير الرهبان إلى منخفض فى أرضية معبد قديم مقام على قمة ذلك الجبل ، مؤكدين أنه حدث بواسطة ذلك الجسم فى المكان الذى وجد فيه . هذا وأنه لتوجد عدة معجزات فوق هذا الجبل المقدس تكفى لكتابة مجلدات .

وفى معبد « الشجرة المحترقة » طبق فضى يدل على المكان الذى استقرت فيه الشجيرة ، كما أشار الملاك إلى القش ، كما يوجد فوقها هيكل به مصابيح معلقة تضىء على الدوام .

وعند الدخول من الكنيسة إلى هذا المعبد يجب أن تنزل بضعة سلالم مما يدل على أن المعبد قد احتفظ بمكانه الأصلى وأن الكنيسة وغيرها من المبانى أعلى من المنشئات التى أقيمت من قبل ذلك . ويشاع أن هذا المعبد هو أقدم مبنى فى هذا الدير والبعض يقول أن تاريخ إنشائه يرجع إلى عصر الإمبراطورة هيلانة .

وقبل أن تدخله لا بد أن تخلع نعليك كما كان يفعل موسى عليه السلام ، وذلك لأن الرهبان كانوا قد كسوا أرضيته بأبسطة فاخرة . ولقد أزيح الطبق الفضى إكرامًا لنا تاركًا فتحة فى الأرضية حتى يمكننا أن نرى بالضبط المكان الذى تستقر فيه الشجيرة : « ولقد ظهر له الملاك فى شكل لهب من النار من بين الشجيرة حيث نظر فرأى النار تشتعل فى الشجيرة دون أن تتقد » .

كما يوجد هنالك مسجد صغير على مقربة من الكنيسة يقال إنه قد بناه الرهبان ليحولوا دون تدمير الدير فى عصر غزو مصر ، على يد العاهل العثمانى السلطان سليم ، وهو يشتمل على مئذنة واحدة ، ولكنه لا يحتوى على شىء يثير الاهتمام .

وبالدير مكتبة بها مجموعة قيمة من الكتب التى تشتمل على المئات من الكتابة القديمة باللغة اليونانية والعربية والفارسية والسورية واللغات الأخرى ، وقد زخرف بعضها زخرفة جميلة ، ولقد اشتهرت هذه الدار بأنها تحوى أكبر مجلد للإنجيل يرجع إلى القرن الرابع . ويوجد هذا المجلد الآن فى سانت بطرسبرج كان قد اشتراه إمبراطور روسيا الإسكندر الثانى .

وتقع مقابر القسس والرهبان الذين قضوا نحبهم فى سيناء على مقربة من وسط هذه الحدائق ، وتتصل بالدير بسراديب مظلمة تحت الأرض حيث يوجد قبران ومعبد صغير ، ففى الأول منهما بقايا الرهبان العاديين ، حيث توجد كتلة كبيرة من العظام والجماجم فى كومة والعظام الأخرى فى كومة أخرى ، وفى القبر الثانى منهما بقايا القسس والمطارنة والقديسين فى توابيت بسيطة . كما يوجد عدد قليل من الهياكل بجوار الجدران .

وعلى باب هذا القبو يوجد الهيكل العظمى لقسيس الضريح ، سانت ستيفن - الذى مات سنة ٥٨٠ ورأسه مغطى بقبعة من القطيفة البنفسجية وقد لف هيكله بعباءته .

وكان عدد سكان هذا الدير عند زيارتنا له حوالى ثلاثين من الرهبان والقسس . ويقوم الرهبان بمهمة الإنشاء والتعمير بما فى ذلك الطهو والنظافة والغسيل إلى غير ذلك من صنع الملابس وإصلاح المبانى . كما يعملون كمرشدين للسياح الذين يقومون بزيارة تلك المنطقة النائية التى يعيش فيها الرهبان عيشة الزاهد فى الحياة .. غذاؤهم الرئيسى هو الخبز السن والخضر والفاكهة . وهم لا يشتركون معنا فى تناول لحم أو خمر - وفى حالة صيامهم الطويل يمتنعون عن تناول اللبن والزيت - وهم تابعون للكنيسة اليونانية ويقومون بأداء الصلوات والطقوس ثمانى مرات كل أربع وعشرين ساعة ، حيث يكلف كل قس منهم بالحضور مرتين على الأقل أثناء النهار ، ومثلهما أثناء الليل .

ومن العسير أن يفهم الإنسان تلك الغيرة والحمية الدينية التى تحمل رجالًا أشداء على هجر منازلهم وأولادهم ليقضوا حياتهم فى ذلك المكان القفر النائى ، وإنهم ليخضعون هنالك لنظام شديد يشبه فى شدته نظام السجن على وجه التقريب ، وليس لديهم أية متعة من متع الحياة أو أى مطمع من المطامع الدنيوية ، وهم لا يأملون إلا أن يقضوا حياة طبيعية على نسق واحد مضيفين بذلك عظامهم بعد الوفاة إلى تلك الأكوام المتراكمة على بعضها فى مقابر الرهبان .

هذا وإن عناءهم اليوم بسيط إذا قارناه بعناء تلك الأيام التى كان الجبل فيها عامرًا بالرهبان ، فهم يقاسون فى الحياة مشجعين غيرهم ، بدلًا من أن يثبطوا هممهم ، ليحلوا محل المتوفين منهم وليأخذوا على عاتقهم القيام بأعباء المهمة نفسها ويتحملوا الحرمان نفسه الذى احتمله أسلافهم من قبل .

الفصل التاسع

ارتقاء جبل سيناء

في اليوم الثانى قمنا بصعود جبل موسى المعروف لدى الرهبان « بجبل الشريعة » . وبمؤخر الدير يوجد ممر فوق الجبل يطلق عليه اسم « درج الحجاج » وقد صفت كتلٌ ضخمة غير منتظمة من الجرانيت مختلفة الأحجام ، لكى تكون سلمًا ، وفى الأجزاء الوعرة من هذا المرتقى البالغ ارتفاعه قدمان فى بعض الأحيان يضطر الإنسان إلى التسلق والقفز – وهى عملية شاقة كصعود الهرم إذ يبلغ ارتفاعه أربعة أمثال الهرم – فلابد من ثلاث ساعات من الجهد الشاق لصاعد الجبل المتمرس حتى يصل إلى قمته . ويقال إن هذا الطريق قد أنشىء فى القرن السادس أو القرن السابع ، ومع حالته السيئة لا يزال صالحاً للاستعمال ، وهو يوصل بشكل منحرف على جانب الجبل فى ظرف نصف ساعة إلى عين باردة تنبع من تحت صخرة جراتينية هائلة . وطبقًا لما يرويه الأعراب ، كان موسى عليه السلام يروى من هذه العين قطعان « جثرو » ، ولذا فقد سموها « عين موسى » ، هذا وإن ما يشيع على ألسنة الرهبان هو أن مياه هذه العين إنما تفجرت تلبية لصلوات قسيس طاهر فى وقت كانت فيه عيون الدير قد جفت ، وأن عين موسى الحقيقية التى كانت تروى ظمأ قطعان « جثرو » إنما كانت تقع على مقربة من الدير .

ولما لم يكن هنالك أى إلهام منسوب إلى قس طاهر أو أى مرسوم صادر من الكنيسة يحسم المسألة الهامة ، فإن السائح له الحرية فى أن يصدق إحدى

الشائعتين الإسلامية والمسيحية ، هذه العين تدر مياهًا عذبة ، ولها أن تفخر بأنها قد أمدت بمياهها فى هذه المنطقة الصحراوية إما موسى أو ماشية جثرو أو الرهبان الأطهار .

وبمجرد أن استرحنا بضع دقائق وأخذنا نصيبنا من مياه تلك العين المقدسة عاودنا السير والتسلق فوق ذلك الممر الذى سار عليه الحجاج لعدة قرون . لم تكن هنالك حاجة إلى أماكن هادئة للراحة ، ففى وقت قصير كنا أمام كنيسة مهداة إلى العذراء مريم ، وهى بناء صغير قد بنى من الحجر الجبلى . ولا نزاع فى أن هذا المكان قد خلد ذكرى تلك المعجزة وكل الكتب تؤيد ذلك ، وليس لنا إلا أن نرضخ لصدق هذه الرواية .

هنالك فى عصر من العصور المظلمة الأولى كان مرض الطاعون الذى تحمله البراغيث قد انتشر فى ناحية الدير وأصبح لا يطاق حتى أن خيرة القسس هنالك وأقواهم عزيمة قد هجروا صوامعهم وفروا إلى الجبل . فى هذا المكان بالذات قابلت العذراء المقدسة أفراد ذلك الموكب الحزين وأمرتهم بالعودة ، ووعدتهم بإغاثتهم ، فأطاعوا كمسيحيين أخيار ، وعند عودتهم وجدوا أن معذبيهم قد اختفوا ، وسواء بقيت هذه البراغيث بعيدة عنا أو لا فإنى لا أستطيع أن أقيم الدليل على ذلك حيث إننا كنا ننام فى أسرتنا ونتخذ كافة الاحتياطات ضد هذا المرض الفتاك .

ولقد واصلنا صعودنا حتى وصلنا إلى ممر ضيق يوجد به منحنى وعر تقيه بوابة ، وعلى مسافة منها بوابة أخرى ، هنالك أثناء قدوم الحجاج يتجمع القسس فى ذلك المكان ليتلقوا الاعترافات ويقدموا العشاء المقدس .

وصلنا بعد ذلك إلى سهل صغير كسته الخضرة وقامت فى وسطه شجرة سرو ضخمة هائلة على مقربة منها عين ماء . وكان هذا المكان محوطا بصخور جرانيتية ضاربة إلى الحمرة قائمة على شكل كتل حجرية ضخمة وأقبية عالية . وبعد تسلقنا بضع صخور كبيرة وصلنا إلى مبنى حجرى صغير يوجد به معبدان

«أليجا» و «أليشع» ، وكذلك الكهف الذى كان يسكنه الأول منهما عندما فر هاربا من جيزابل (هنالك قام فأكل وشرب وظل معتمدًا على هذا الطعام أربعين يومًا وأربعين ليلة حتى وصل إلى «حورب جبل» الإله حيث وجد هنالك كهفًا فأقام فيه) .

ولقد قمنا بتسلق الجبل فى مدة تزيد على ساعتين وكان الجنرال «لورنج» يسير بمساعدة خادمه الأسمر ولكن قواه قد انهكت فبقى فى المؤخرة على مسافة منا ، إذ كان من العسير على رجل مثله مبتور الذراع بلغ من العمر أرذله أن يتسلق مثل هذه الصخور الجرانيتية الضخمة . وكنت أخاف أن تنزعج أرواح الرهبان الراحلين التى ما زالت تطوف هذه الأماكن المقدسة ، ولما كان حسن بدينًا لم يتعود الرياضة البدنية فى طقسه الحار فقد أخذ يكافح وهو يتأفف ويزمجر حتى أصبح عاجزًا عن إخفاء تعبه وإعيائه بسبب هذا التسلق العنيف .

وإذا بنا قد وصلنا إلى ارتفاع يساعدنا على الإشراف على مناظر جذابة من الجبال المحيطة بنا إذ كنا عند بضعة أميال على الجانب الآخر من وادى الليجا كانت تقع «سانت كاترينا» أعلى نقطة فى شبه جزيرة طور سيناء حيث ترتفع عن البحر بحوالى ٨٥٠٠ قدم .

وإلى الغرب على مقربة منا يقع أخدود طويل يصل جبل موسى برأس الصفصافة ، وحينما واصلنا صعودنا على جبل موسى شاهدنا على مقربة من قمته منخفضًا من الجرانيت الصخرى يعد لدى المسلمين أثرًا لجمل «محمد» الذى ركبه عند زيارته المعجزة لجزيرة سيناء ، كما رأينا على القمة معبدًا صغيرًا ومسجدًا قد بنى وسطه بقايا دير قديم . وفى أسفل هذا المسجد كانت توجد مغارة يقال إنها المكان التقليدى الذى كان يقيم فيه موسى على الجبل : «وكان موسى يسير وسط سحابة حتى يصل إلى الجبل حيث يقضى أربعين يومًا وأربعين ليلة ، وكانت هنالك فتحة فى صخرة على مقربة من ذلك المعبد

الصغير حيث كان يقف ذلك المشرع العظيم حين مرت به الروح الربانية : ولسوف تمر حين يمر بك مجدى ولسوف أضعك فى شق فى الصخور وأسترك بيدى حينما أمر بك » .

لقد كان الجو صحوًا والريح باردة ، وكانت الجبال ما زالت مغطاة بالجليد عدا تلك الصخور الماثلة التى لم يكن بها ما يحتمل استقرار هذا الجليد . أما المنظر العام لهذه المنطقة فكان موحشًا قفرًا عبارة عن سلاسل جبلية متعاقبة وراء بعضها فى كل اتجاه من اتجاهات البوصلة تقريبًا .

ولم نكن لنرى واديًا واحدًا فى تلك المنطقة المحيطة بنا فقد كانت الجبال تحجب عنا مناظر الوديان .

وكان على الجانب الشرقى من جبل موسى منحدر وعر يبلغ طوله حوالى ألف قدم ، ولكن لم يكن هنالك مكان أو مجال يسمح لجموع الإسرائيليين أن يلتقوا فيه أو يشاهدوا تلك المناظر التى وصفها الإنجيل . ولقد هبطنا هذا المنحدر فى تؤدة حتى نستطيع التمتع بالمناظر الجميلة الجبلية الأنيقة الممتدة ذات الشمال وذات الغرب .

وفى الصباح التالى كان الجنرال لورنج قد ضاق ذرعًا بتسلق الجبل فقرر بقاءه فى الدير ، كما أراد المستر « فانديك » أن يزور جبل كاترينا وطلب أن يرافقه فى ذلك حسن فجهزا نفسيهما وخرجا فى ساعة مبكرة ، أما أنا فقد امتطيت جملًا مع قس كمرشد لنا متجها إلى رأس الصفصافة .

كان هذا القس يونانيًا فى حوالى الثلاثين من عمره يزيد طوله على ستة أقدام وعلى وجهه وقوامه سيماء الجبابرة . ولقد سرنا نحو الجنوب الشرقى إلى وادى شعيب الذى يمتد من دير « وادى الدير » ثم ينحدر بالتدريج نحو الجنوب الغربى أولًا ثم إلى الغرب مارًا بالطريق الذى تركناه فى يومنا السابق عند ذلك السهل الصغير الذى تظلله شجرة السرو . هنا أرسل الجمل مع

الجمال إلى الدير ، وواصلنا السير على الأقدام ، فى طريق وعر على المنحدر الشمالى للسلسلة الصخرية التى تصل قمتى الجبل ببعضهما . ولقد مررنا فى طريقنا على بقايا ذلك المعبد القديم (معبد « يوحنا المعمدانى ») وعدة كهوف كان يشغلها بعض القسس ، كما وجدنا صهريجا قديما ، ولقد وصلنا بالتدريج إلى معبد « حزام العذراء المقدس » حيث كان يوجد بعض الأشجار التى من بينها شجرة الصفصاف التى سمى الجبل باسمها « جبل الصفصافة » .

وتقول الأساطير إن موسى عليه السلام قد قطع عصاه من هذه الشجرة المباركة . والحقيقة أن هذه الأسطورة لا تتفق مع قصة الإنجيل فى شىء ولم يكن لعمر هذه الشجرة أى تأثير يضعف تلك العقيدة العمياء عند المؤمن الساذج ، وبسبب نكبة ما لم يكن من المتيسر صيانة هذه العصا التى كانت دليلًا شاهدًا على معجزاته . ولسوف نرى فيما يلى كيف ضرب الصخرة بعصاه . وقد يشفينا ذلك من إلحادنا هذا ، وقد قضينا ما يزيد على ثلاث ساعات فى مسيرنا من الدير ولم يبق أمامنا إلا مرتقى قصير وعر للوصول إلى قمة جبل الصفصافة . وجدنا أمامنا هنالك بعض الدرج ولكننا اضطررنا بعد ذلك للزحف على جانب الجبل المائل . وعند وصولنا إلى القمة حصلنا على ما نروم من المناظر عن طريق وقوفنا على شق صخرة متسع قد أحكم رتاجه بقوس أحكمت بنيانه يد الطبيعة . ولقد كان تحت أقدامنا على بعد ألفى قدم سهل الرهبان الذى قررنا فيه يوم وصولنا . هنالك ألقينا نظرة على هذا الجبل الشامخ بواجهته العمودية . ولقد أصبح السهل بمنظره الكامل تحتنا بجباله الشامخة التى تحيط به من كل جانب .

وبغض النظر عن المشاكل التاريخية كان المنظر العام لهذه البقعة رائعًا مهيبًا . أما تلك الموضوعات التاريخية فهى : هل كان حقيقة هذا هو « جبل الشريعة » ؟ هل كان هذا الوادى وتلك السهول المنبطحة أمامنا مزدحمة يوما ما بمعسكرات الإسرائيليين الذين رأوا وهم يتطلعون إلى المكان الذى كنا نقف

فيه مجد الله وعزته كنار ملتهبة فوق قمة ذلك الجبل ؟ .

إن الكثيرين من علماء اللاهوت يعتقدون فى صحة ذلك ، أى صحة كونه جبل الشريعة على خلاف ما تحمله إلينا أساطير الرهبان .

هذا وإننى لا أقصد أن أبدى رأيًا بشأن العقائد الخاصة بجزيرة سيناء ، تلك التى كانت تشغل بال المسيحيين ، وإنما أريد أن أستعير هنا كلام أحد الذين اعتقدوا فى أن هذا المكان إنما كان مسرحًا للمشاهد التى وردت فى كتاب الخروج والرحيل : « هنا تقع أرض سهلة تكفى لعسكرة الشعب بأجمعه حيث يقوم فى وسطها الجبل الذى يستطيع أن يقترب منه ويمسه الخامل والشجاع كما تشرف منه قمة يمكن أن ترى منها السحب الكثيفة ووميض البرق وكل ما حولنا إنما هو من مشاهد الطبيعة الثابتة التى لا تتغير ، فهنالك الجبال وهنالك الوهاد والوديان التى كان يرعى فيها بنو إسرائيل ، هنالك القمم العالية التى طالما ظللت بالغمام لتخفى وجه الله عن أعين القوم المذهولين ، تلك السحب التى أثارها وميض البرق والتى رددت صدى ذلك الصوت المروع المنبعث من السماء الذى نادى بمجيء الله جل وعلا » .

وإلى جنوب المكان الذى كنا واقفين فيه أكمة مستديرة ورابية من الجرانيت الرمادى الضارب إلى الحمرة وقد ارتفعت فوقنا حوالى مائتى قدم وعلى قمتها كومة مخروطية الشكل من الأحجار المفككة التى تدل على أن البعض قد زار هذا المكان ، فوجدت أن لا داعى للاقتراب منه ، ولكن سرعان ما حاولت الصعود وقد دفعتنى رغبة كبيرة للوصول إلى أعلى نقطة فى تلك المنطقة .

ولم يكن مرشدى اليونانى يجيد أى لغة استطيع فهمها اللهم إلا بضع كلمات من اللغة الفرنسية . ولقد نجحت فى أن أعلم منه أن كومة الحجارة المخروطية الشكل إنما أقامها رجل انجليزى يدعى كابتن « بلمر » .

لقد سألته عما إذا كان من الممكن أن نصعد فأومأ برأسه قائلًا : « السيدة

الأمريكية » وعن طريق الإشارات أمكنني أن أفهم أنه صعد مع هذه السيدة . وهكذا أدخل في نفسي الشجاعة فلم أبال بالبرد ولا الريح الشديدة ولا الجليد الذي انتشر في كثير من أزقة الجبل ، بل سعيت معه للوصول إلى القمة غير مبال بأي خطر أو عقبة تعترضنا في الطريق .

وتسلقنا زاحفين على جانب حافة الجبل للوصول إلى قمته . هنالك جلس الراهب الذي يرافقنا وخلع نعليه وأومأ إلى بحركة فهمت منها أن أخلع نعلي كذلك فتركنا وراءنا وواصلنا الصعود إلى القمة وهو حافي القدمين وأنا مرتد جوربي .

ولقد اعتاد الرهبان كما اعتاد الأهالي أن يطأوا هذا المكان حفاة الأقدام وقد يرتدون في بعض الأحيان صنادل أو أحذية لتسلق الجبال ، ولكنهم يشعرون بالراحة عند سيرهم حفاة الأقدام . وهم يثقون في قوة أقدامهم وفي مقدرتهم على تسلق الصخور بمهارة تامة . هذا وإن التغيير في حالتي أوجد الشك في مقدرتي على الصعود . ولقد قادنا الراهب وتبعته في ذلك على قدر المستطاع فوق تلك الصخور الجرانيتية الحادة محاولًا الاحتفاظ بتوازني دون أية دراية بما يحيط بي أو بالمكان الذي أنا ذاهب إليه .

وبمرورنا فوق الحافة كنا على الجانب الغربي الخارجي للجبل حيث وجدنا أنفسنا فوق طريق ضيق كالرف الذي لا يزيد اتساعه على اثنتي عشرة أو أربع عشرة بوصة ، ويسير محازيا للصخور . هنالك أخذ المرشد بيدي وقادني دون أن يسمح لي بلحظة أتصور فيها تلك الهوة السحيقة المروعة البالغة حوالي ثلاثين فدانًا حتى نهاية هذا الطريق حيث كان هناك ارتفاع حوالي أربعة أقدام . ولقد تسلق بخفة وثبات عجيبين وقادني وراءه حتى وصلنا إلى الربوة الجرانيتية التي كنا نراها من أسفل الجبل على بعد بضع مئات من الأقدام من القمة .

وكان الطريق ما زال مائلًا ولكن ليس به عقبات تذكر . في تلك اللحظة بدأت أتحقق تمامًا من الموقف . وقد مررنا تحت ذلك الرف الضيق حيث رأينا

منحدرًا يكاد يكون عموديًا يبلغ طوله ١٥٠ قدمًا كما هو ظاهر لنا . وكانت الريح تهب بشدة أثناء صعودنا إلى القمة وقد بلغت شدة الرياح منتهاها حتى إنها كانت تضطرنا إلى الوقوف فى أماكننا أو الجلوس أثناء لفحات الريح الشديدة ، ذلك لأن أقل زلة قدم أو فقدان للتوازن أثناء مرورنا بهذا الممر الضيق بجانب الصخور إنما كان يطيح بنا من هذا الارتفاع المخيف إلى تلك الوهاد السحيقة . ولقد كانت الصخرة القائمة فوق ذلك الممر عمودية تقريبًا وهى الممر الوحيد الذى يمكننا أن نمر منه إلى المرتقى الذى كان فوقنا .

تقدمنا نحو القمة التى لم تكن إلا كومًا من الحجارة كما لم تكن المناظر خيرًا من تلك التى مرت بنا - ولقد كنت أفكر باهتمام فى أمر النزول فوق ذلك المنحدر المائل المؤدى إلى حافة الهوة ، حيث ينزلق الإنسان من واجهة الصخرة إلى الممر الضيق .

ولقد عرفت بالتجربة أن تسلق الصخور المائلة أسهل بكثير بل وأقل خطورة من نزولها . ففى حالة النزول يجب أن تنزل بظهرك دون أن تستطيع أن ترى مقر وضع قدمك وفى هذه الحالة لم يكن هنالك شىء يمكنك أن تمسكه بيديك . وأخيرًا عدت إلى نفسى لأرى أى طريق آخر يصلح للنزول ، وتساءلت فكان الرد هزة من الرأس . وعندما اقتربنا من حافة الجبل أصبح مَيْل الصخور أشد من ذى قبل حتى إننى بدأت فى الزحف ، وكنت مضطرا إلى الجلوس ، وفى هذا الوضع كنت قريبًا من المكان المخيف . أما الراهب فقد سبقنى وزحف نازلًا بكل سهولة واعتداد بالنفس اعتداد القط بنفسه فى هذا البروز الصخرى الضيق حيث وقف مستعدًا لمعاونتى . وعندما اقتربت منه بدأت أزحف ولم يكن يسندنى إلا بقبضة يده .

وقد كان وادى الليجا وسهل الراحة ممتدين أمامنا على مسافة ألفى قدم تحت أقدامنا حيث كنت جالسًا على حافة الصخور وقد أمسك بى الراهب اليونانى كالطفل الذى لا حول له ولا قوة .

ولست بحاجة إلى القول بأن الرعشة قد تملكتنى وأن حلقى كاد ينسد . ولقد مضى الآن سنين عديدة ولا يزال موقفى فى تلك اللحظة على حافة تلك الصخرة المنحدرة مقترنة بذلك الوادى الفسيح والجبال المحيطة بنا صورة حية عالقة بذاكرتى . وكلما تذكرتها أصابتنى رعشة حتى إننى أثناء كتابتى الآن يتملكنى إحساس غريب .

ولقد حاول الراهب أن يطمئننى ويساعدنى على النزول إلى ذلك الممر الضيق الممتد على جانب الصخور ولكننى لم أستطع ، وأخيرًا ضمنى إليه وأمسكنى بذراعيه حيث سار بى فى الممر بكل ثبات حتى النهاية حاملًا إياى وكأنه يحمل طفلًا حتى زال الخطر .

وفى كل هذه الظروف كانت تصحبنا خفة رياضية هيهات أن يكون لها نظير ، ولو أن وزنى لا يزيد عن ١٥٥ رطلًا . وإذا كان قد قادنى بشىء من المرح إلا أنه فى الحقيقة قد أنقذنى من هذا الموقف ببطولة يستحق عليها الثناء .

وبعد أن تبعنا بما قمنا به من تسلق ومخاطرة أثناء النهار بدأنا نبحث عن أحذيتنا ثم نزلنا من الجبل مباشرة إلى وادى الدير . ولقد كان ممرًا وعرًا إلا أنه قد أتحفنا بكثير من المناظر لتكوينات صخرية مروعة . عاد بعد ذلك كل من المستر فانديك وحسن فى وقت متأخر من ذلك المرتقى الوعر لجبل كاترينا .

الفصل العاشر

واحة فيران والعودة إلى البحر

استمر الطقس متغيرًا ومنذرًا بعواقب وخيمة . ولما كان فصل الشتاء متقدمًا (فقد كنا في أوائل ديسمبر) استقر رأينا أن نُعِد أنفسنا للعودة – هنالك ظهرت صعوبات لم تكن منتظرة . وإذا ببعض الأعراب قد وصلوا إلينا معلنين أنهم أتوْا ليرتدوا بنا إلى البحر عن الطريق الشمالي . ويظهر أن تلك المنطقة كانت مقسمة بين الأعراب فالبعض منهم كانت مهمته حمل البضائع في الشمال والبعض الآخر يقوم بحملها في الجنوب من شبه الجزيرة ، وبعد لغط مرتفع وعراك بين العرب ، لعب فيه الجنرال لورنج دورًا كبيرًا بهراوته تم الاتفاق على إعداد أحسن جمال لنا بدلاً من الجمال الأخرى . وبمجرد أن قدمنا التبرعات اللازمة للدير ودعنا هؤلاء الرهبان الأتقياء مع إبداء أسفنا في عدم إمكاننا البقاء بينهم لدراسة تلك الأماكن التي يعتبرها السواد الأعظم من المسيحيين أكبر مسارح لأهم الحوادث في تاريخ الديانة المسيحية .

ولقد أرسلنا الجمال التي تحمل أمتعتنا إلى وادى الشيخ – مستبقين معنا مرشدنا الراهب الأمين – ذلك الوادى الذي كان يتصل بوادى غرب الدير . سرنا بعد ذلك في اتجاه مضاد لنقطة الاتصال هذه متجهين نحو مقر رأس الصفصافة ، المكان التقليدي الذي كان يجتمع فيه بنو إسرائيل . وهنا أمكنهم لمس الجبل ومشاهدة ما حدث فوق قمته ، وهنا نزل موسى عليه السلام حيث وجد العجل الذهبي الذي أعده الناس ليعبدوه من دون الله . هنا ألقي موسى

غضبًا بلوح الوصايا العشر » من يده فسقط مهشمًا أسفل الجبل .

هنا حدد القس الأماكن المختلفة المتصلة بتاريخ الإنجيل والتي كان من بينها تلك الفتحة في الصخرة التي كانت تستخدم قالبًا لصب الصورة المصهورة .

وعندما اقتربنا من هذه النقطة استطعت أن ألحظ بالنظر إلى واجهة الصخور التي تقع فوقنا مباشرة مدى ذلك الدوار الذي يعترى الإنسان بسبب روعة ارتفاع هذه الصخور التي كانت مسرحًا للمغامرة التي خضناها في اليوم السابق حيث توجد الصخرة بفتحتها وقدُ غطاها القوس الطبيعي .

وعندما قطعنا مسافة طويلة في ذلك الوادى حول سفح الجبل وصلنا إلى تلك الصخرة « الينبوع العجيب وهي « صخرة حُورب » ، تلك الصخرة الجرانيتية الضاربة إلى الحمرة البالغ ارتفاعها حوالي عشرة أقدام والبارزة من بين الصخور ، حيث يجرى في وسطها عرق فسفورى مائل تجرى فيه شقوق أفقية صنعتها عصا موسى عليه السلام عندما ضرب الصخرة بها فتدفقت منها ينابيع المياه .

وإننا لم نعرف مصدر هذه المعجزة إلا عن طريق الأساطير اليهودية . ولقد أكد لنا الرهبان أن الصخرة قد رافقت بنى إسرائيل في جولتهم وعادت أخيرًا إلى مكانها في سفح الجبل المقدس « ولذلك كانوا يشربون من هذه الصخرة الروحانية التى تبعتهم : تلك هي روح المسيح » .

في هذه المنطقة ، كما في غيرها من المناطق التي مررنا عليها ، كنا نشاهد على الصخور آثارًا من الكتابة القديمة . وقد أخذنا نتعقب خطانا بعد أن أعفينا المرشد من مهمته وتعقبنا أثر الجمال التي كانت تحمل أمتعتنا حتى لحقنا بها عند الظهيرة . ثم اتخذنا طريقنا نحو الشمال الشرقي ثم نحو الشمال حوالى عشرة أميال واتجهنا بعدئذ نحو الغرب مخترقين ذلك الممر الضيق المسمى باسم « الواتية » مستأنفين السير في ذلك الطريق .

واصلنا السير في نفس الوادى حوالى يومين ولكن نزولنا كان ببطء . وكانت توجد بعض الجبال على جانبي الطريق يرتفع البعض منها في صخور مائلة ضخمة . وكانت الأماكن المقدسة ظاهرة من بين الصخور ، أما الخضرة فكانت نادرة الوجود . هنالك تكون مجرى عظيم من المياه في ليلة عاصفة . وقد سببت المياه بعد انحسارها وجود كثير من الأماكن الزلقة .

وكانت الجمال ثابتة الأقدام هيهات أن تزل سواء كانت ذلك بين الصخور أو في الصحراء الرملية . ولكن أينما توجد الأماكن الزلقة ، وعلى الأخص الزلق الناشيء من المياه الطينية ، إذا ما زلت قدم جمل فيها يسقط بسرعة عجيبة وقوة هائلة . وفي اليومين الأولين من رحلة عودتنا مررنا ببعض التجارب من هذا النوع حيث كان الراكب منا وما لديه من الأمتعة يظل باقيًا بين الوحل والطين في حالة حرجة للغاية . وكنت ترى « حسن » ، ذلك الرجل الممتلىء ، وقد لفه الوحل هو وجمله وصناديقه وأعمدة خيامه . وجدنا بعد ذلك مكانًا جافًا رمليًا لوضع رحالنا . وفي اليوم الثاني كنا على مقربة من واحة فيران عند الظهيرة ، تلك الواحة الواقعة في واد سحيق ، قامت الجبال على جانبيه . هنا اخترقنا طريقًا مغطى بشجر « الطرفاء » – تلك الشجيرة التي تنتج المن والتي يغلب على فصيلتها صغر الحجم . وهى لا توجد في غير هذا المكان . هنالك تقوم حشرة بعمل شقوق صغيرة في جذع هذه الأشجار ولبها حيث تسيل منها قطرات من السائل تسقط وتجف في الرمال فتكون صمغًا ، ومن ثم يجمع الرهبان في سيناء هذا الصمغ ويضعونه في صناديق صغيرة للبيع ويشاع أن هذا الصمغ له مميزات طبية خاصة .

ولقد وصلنا واحة فيران بعد الظهيرة . وقد سمعت وقرأت كثيرًا عن خصوبة هذه الواحة ، وتوقعت أن أجد فيها جنة عدن الحقيقية ولكن خاب ظنى . ومع أن زيارتنا هذه كانت في آخر فصل جفاف طويل ولم يكن في ذلك الوقت الذي يمكن مشاهدة خضرتها الجميلة – إلا أننى ملت إلى الاعتقاد بأن شهرتها قد نشأت عن الفارق الكبير بينها وبين ما يحيط بها من الأراضي الرملية .

في واحة كهذه ، مهما بلغ صغر رقعتها الخضراء يرحب السائح الظمآن بأقل شيء ولو نخلة واحدة أو خصلة من العشب ، إذ إنه يعرف على الفور أنه قد أصبح على مقربة من الماء بل إن رائحة الخضرة لتكون بالنسبة له متعة عظيم .

ولقد كانت الدهشة تعترى المسافرين في فلسطين عندما كانوا يسمعون أن هذه الأرض الجافة الصخرية القاحلة يطلق عليها اسم « أرض اللبن والعسل » .

وقد أبدى بعض الكتاب رأيهم في ذلك وهو أن هذه الأرض كانت أكثر خصوبة عما عليه في الوقت الحاضر ، فقد كانت بلا شك تصلح في بعض الأوقات للزراعة أحسن من أي أوقات أخرى . ولكننا إذا نظرنا إلى حالتها الطبيعية لرأينا أنه لا يُعقل أن تكون مثمرة في الأزمان الغابرة أكثر مما عليه في الوقت الحاضر ، فما كان يتوفر من هذه التربة ، عدا القليل من المرعى ، كان يرجع ، كما هو الحال الآن ، إلى كثرة العمل والري الصناعي . والواقع أنه بالنسبة للمتجولين في الصحراء المتعطشين إلى الماء الذين لم يستنشقوا البتة غير هواء الصحراء والذين لم تقع أعينهم على حقول خصبة نضرة لم تكن هذه الواحة في نظرهم إلا أرضًا تفيض لبنًا وعسلاً .

و « فيران » واحة كبيرة ولكنها لا تزيد عن مائتي فدان من الأرض الصالحة للزراعة . وهي واد عميق ضيق يبلغ اتساعه حوالي ٣٠ ياردة . وتكتنفها من الجانبين جبال عالية ، كما يخترقها جدول دائم يجرى في وسطها حتى يختفى بين الصخور . وينبع هذا الجدول في فصل الشتاء الغزير المطر من سفح جبل سيناء ويسير في الطريق الذي جئنا منه حيث يفيض في بعض الأحيان على الوادى بضع ساعات . وفي غير هذا الوقت يفيض هذا الجدول من منابع أخرى على بعد خمسة أميال من هذه المنطقة حيث تتوارى بعد ذلك . والمطر ليس مستديمًا في تلك المنطقة حتى يكون ذا أهمية في زراعة هذه الأراضي التي تروى بالطنبور أو الشادوف من ذلك الجدول .

كما يوجد في هذا الوادى عدد كبير من النخيل الذي يجود بأحسن أنواع الثمر ويمتلكها العرب الرحل الذين ينزلون واحة فيران .

ولقد شاهدنا في ذلك المكان أعرابيًا ينسج قماش خيمته بمساعدة زوجته على الطريقة البدائية الأولى . وعندما كان ينتهى من قطعة النسيج كانت لاتزيد على عشرة أو اثنى عشر قدمًا . وكانت سدة النسيج تربط من أطرافها إلى أوتاد صغيرة مثبتة في الأرض حيث كان يلف الغزل على عصا ويمرر من بين خيوط السدة التي كانت تفصل عن بعضها بواسطة طاقم خشبي يتحرك باليد وذلك بعد إدخال خيوطها في كل خيط من خيوط الغزل . ولقد كانت خيوط الغزل تضم إلى بعضها بواسطة خطاف من العظم .

وكانة واحة فيران تحتوى على عدد كبير من الخيم والقليل من الأكواخ . ولقد حاولنا شراء كبش صغير أو بعض الدجاج ولكننا لم نستطع الحصول على شيء .

وقد قالت لنا أعرابية إن لديها دجاجة للبيع وعند البحث عنها لم تتمكن من الحصول عليها . وكان المنظر العام المحيط بنا رائعًا للغاية ، فقد كانت جبالها العارية بصخورها المتباينة الأنواع وأبراجها الشامخة القائمة على تلك القمة المستطيلة لجبل سربال والتي تطل على ذلك الوادى الضيق الذي يمتد على مسافة أميال إنما تمثل منظرًا قل أن يضاهيه في صورته وروعته منظر آخر في جبل سيناء .

وكانت الصخور تتكون من الجرانيت الأحمر الجميل تتخللها عروق من الفوسفات المختلف الألوان الذي يشع ببلوره من حجر الكوارتز وغيره من الأملاح المعدنية الأخرى .

في هذه المنطقة يوجد كثير من آثار الأديرة القديمة المتهدمة ، كما تشاهد العديد من النقوش القديمة على الصخور . ويرجع ذلك إلى الحقيقة التي يفقدها

القوم وهي القائلة بأن جبل سربال هو جبل سيناء الذي ذكر في الإنجيل .

ولقد كانت واحة فيران حتى القرن الخامس مركزًا لنفوذ الكنيسة المسيحية في جزيرة سيناء بل ومقرًا لمختلف المظاهر الأسقفية . ولم يكن يمكنك أن ترى صوامع في أي مكان آخر أكثر عددًا من تلك التي يقيم فيها الرهبان بين تلك الجبال .

وكانت واحة فيران مدينة للعمالقة في قديم الزمان ، ويشاع أنهم هم الذين حاربوا في هذا الوادى قوم موسى ، فقد خرجوا لملاقاة بنى إسرائيل دفاعًا عن هذه البقعة المحدودة المساحة التي لايجف عنها الماء وسط تلك الجبال الصحراوية ويطلق على الواحات اسم « جزر الصحراء » . وهي لاتشبه الجزر بالمعنى الصحيح في ظهورها فوق محيط الصحراء كما تظهر الجزر فوق محيط الماء .

وتوجد دائمًا الوديان أو البقاع المنخفضة بالصحراء حيث تتوفر الرطوبة التي يقوم عليها النخيل الذي يرسل جذوره البالغ طولها عشرون أو ثلاثون قدمًا للبحث عن الغذاء ، وحيث تتوفر المياه الكافية لري قطعان الغنم وري بقعة محدودة من الأرض . وفي بعض الأحيان تؤخذ المياه من الآبار العميقة أو من العيون أو من الجداول التي تجرى لمسافة محدودة ثم تختفى بعد ذلك كما هو الحال في واحة فيران .

ولا يعنى التعريف : السهول الرملية الواسعة التي تطلق على هذه الأماكن أنها صحراوات ، كما يمكن أن يستنتج من هذا التعريف ، بل تتكون من التلال والوديان والنجود المرتفعة الممتدة على مسافات وكذلك من المنخفضات العميقة وسلاسل الجبال الشاهقة . ولكن يطلق عليها صحارى لأنه لايوجد بها مطر ، وإذا وجد فهو غير كاف لنمو النباتات فيها .

ولكي تفهم ماهية هذه الصحارى يكفيك أن تنظر إلى حالة بلادنا إذا

ما أصبحت بلا مطر ، فإذا ما انقطع المطر بضع سنين فلابد من توقف نمو النباتات ، بل ولابد من أن تجف العيون والجداول والأنهار العظيمة ، وتختفي معها الخضرة من الوجود .

أما قمم الجبال فإنها تصبح مجردة من كل خضرة كما تسود صخور الجبال العارمة وحصى السهول والوديان من تأثير حرارة الشمس المحرقة . وحينئذ سوف نرى في المناطق الرملية فقط الرمال المتحركة ، أما في الأماكن الأخرى فلن تجد إلا سهولاً صحراوية قاحلة لا شجر فيها ولا ماء . ولقد أخبرني الدكتور شوينفورث Dr, Schweinfurth الرحالة العظيم الذي قضى أعوامًا في صحراوات أواسط وشمال شرقي أفريقة لدراسة علم النبات الصحراوي إنه لم ير البتة مثل هذا السهل الرملي الشاسع الذي ليس له نظير اللهم إلا في جنوب الجزائر .

وبمجرد أن قضينا بضع ساعات في واحة فيران استأنفنا المسير حتى عسكرناعلى مسافة قصيرة منها بالقرب من الحصوة : الاسم الذي يطلق على أول بقعة منزرعة على مقربة من واحة فيران من الجهة الغربية . وبعد ظهيرة اليوم التالي وصلنا إلى مناجم الفيروز القديمة في « مغارة » في وادى مغارة ووادى الكهف . ولقد قمنا برحلتنا نهارًا في وديان قاحلة عميقة الغور مكونة من صخور متنوعة الألوان ملفتة للأنظار . وفي بعض الأماكن كانت الجوانب المنحدرة للجبال مشققة بحالة تشبه منظر الجدران المصدعة التي أصبحت على وشك الانهيار . ولقد كنا ننشد الراحة خلال أيام رحلتنا مما كنا نلاقيه من وحشة تلك الجبال والوديان القفرة في خيمتين من خيم الأعراب . وقد حاولنا في تلك الليلة شراء حمل ولكن عبثًا حاولنا ، فقد ادعى العرب أن ذئبًا قد زارهم الليلة الماضية واختطف عنزًا صغيرة .

ولم تكن مناجم « مغارة » تستغل في ذلك الوقت إذ لم تقع أعيننا هنالك على كوخ أو خيمة أو أي كائن حي في ذلك المكان الذي كان حافلاً بالنشاط

في يوم من الأيام . ولقد ظهر لنا من الكتابة الهيروغليفية المنقوشة على الصخور أن هذه المناجم كانت تستغل بمعرفة الفراعنة منذ ستة آلاف سنة . وكانت الكتابة الهيروغليفية عن سنفرو ، وهو أول ملك عظيم في عهد الأسرة الرابعة الفرعونية ثم عن خوفو مؤسس الهرم الأكبر . ولقد تعاقبت عليها الفراعنة وجددوا فيها العمل مدى ٢٥٠٠ عامًا . وكانت أكوام الحجارة الصغيرة وآبار المناجم تدل على ضخامة الإنتاج في تلك المنطقة . وقد كان المحكوم عليهم من المجرمين والعبيد والأسرى مسخرين في العمل بهذه المناجم - حيث تؤخذ كنوزها إلى ممفيس وطيبة ليتمتع بها الفراعنة وأتباعهم ، وكانت الصخور خليطًا من الجرانيت والطوب الأحمر الرملي ، وإنك لتجد كسرًا صغيرة من الفيروز تغشى ذلك الحجر الأحمر الرملي وهي ملساء وقليل القيمة . كما تجد بلورات صلبة تبين لنا بعد إزالة قشرتها أنها فيروز أزرق براق من نوع فاخر ، ويمكن استخراجها من الصخرة بمطواة ، ولقد شاهدت الكثير من البقع الزرقاء إلا أن كل ما استخرجته من الفيروز كان ناعمًا عديم القيمة اللهم إلا إذا كان لأغراض بسيطة . في تلك الليلة عسكرنا بالقرب من هذه المناجم - ولقد جاءنا بعض الأعراب يحملون إلينا الفيروز ، وفعلاً اشتريت منهم ما ظهر لي أنه ذو قيمة . وكان من بينها عدة قطع قمت بتقطيعها فيما بعد حيث ظهر لي أنها من نوع جيد . ولقد أعدت للاستعمال كحلي فكانت لها قيمتها بين أفراد العائلة التي قدمت لها على سبيل الهدايا التذكارية . ولم يحصل أي تغيير في لونها الأزرق الصافي الجميل . أما القطع الباقية فقد وضعتها ضمن مجموعتي من المعادن .

وكان معدن النحاس يستخرج بكثرة من هذه المناجم حيث كان يحمل إلى مصر في عهد الفراعنة . وبجانب النقوش المصرية القديمة يوجد الكثير من الكتابة السيناوية الشبيهة بغيرها من الكتابات المنحوتة في مختلف أنحاء شبه جزيرة سيناء . كما توجد في تلك البقعة بعض آثار قديمة وجد فيها نوع من الأسلحة المصنوعة من حجرالصوان .

واستأنفنا الرحيل في الصباح متجهين إلى البحر في واد قد أحيطت جوانبه بالصخور الجرانيتية الحمراء . ولم نر مطرًا منذ عاصفة الجبل المروعة التي هبت في أول ليلة وصلنا فيها جزيرة سيناء وكنا على ارتفاع ١٢٠٠ قدم فوق البحر حيث كان الطقس مُنعشًا دافئًا أثناء النهار مناسبًا بالمعسكر ليلاً . وكانت الساعة حوالي العاشرة قبل الظهر عندما وصلنا إلى تلك القمة حيث وجدنا أنفسنا فجأة أمام ذلك الممر الوعر « ممر نقب » البوديرة أو ممر حد السيف ، الذي نزلنا منه إلى البحر فورًا ، ويقع خلفه على مسافة بعيدة نحو الشمال رأس أبو زنيمة . حيث كنا ننتظر وجود القارب المعد لنا هنالك . ولقد حاولنا أن نمتد ببصرنا لنراه ولكننا لم نشاهد غير تلك البقعة الرملية الممتدة على مسافة بعيدة في البحر . وكان لابد لنا من المسير ساعتين فوق هذا السهل وساعتين أخريين على الشاطىء وبالمسير ساعتين فوق هذا السهل وساعتين أخريين على الشاطىء الرملي كان لابد أن نجد أنفسنا عند غايتنا المقصودة .

وعند نزولنا إلى البحر شاهدنا سلسلة من التكوينات الصخرية الجيولوجية تختلف عما قبلها في طبيعتها وتلفت الأنظار . هذا وقد تركنا المنطقة الجرانيتية والممر المكون من الحجر الرملي الملون . وكان المنحدر سريعًا ، وعند مرورنا من واد إلى آخر كنا نشاهد سلسلة من المناظر الصخرية من مختلف الأشكال والألوان الجذابة .

وفي بعض العصور حينما كانت الجبال الجرانيتية تقذف بها من أتون باطن الأرض كانت تتكون الشقوق التي يبلغ اتساعها مابين عشرة وخمسة عشر إلى عشرين قدمًا في الصخور الأولى للمنطقة ، ثم ملأت هذه الشقوق بالمقذوفات البركانية المنصهرة التي كانت عندما تدب فيها البرودة تتحول إلى أنواع مختلفة من الصخور النارية .

وقد كان أغلبها مسودًا بفعل الشمس ويشبه الشظايا البركانية . وتمتد هذه الصخور شمالاً وجنوبًا ، وهي أصلب من الحجر الرملي .

وبمرور الزمن ذوى النوع الأخير تاركًا الصخر الأكثر احتمالاً بارزًا فوق سطح الأرض . وكان يبلغ ارتفاع هذه العروق البارزة في بعض الأحيان عشرين أو ثلاثين قدمًا ، وإنها لتمتد على مسافة أميال على مدى البصر متخللة الوديان وفوق سفوح الجبال ، وهي تبدو بمظهر الجدران الكثيفة ، على أنه لم يكن هناك صخرة واحدة أو اثنتان . بل كانت هناك صخور متعددة من هذه التكوينات .

وهي تأخذ شكل القصور والمعاقل والحصون ، وكان من الصعب على الإنسان أن يعتقد أن أمامنا أعمالاً ضخمة من صنع بنى الإنسان .

هنالك كنت ترى صخورًا وقممًا ومناظر غريبة غير عادية ، بل وصخورًا من مختلف الأشكال والألوان . هذه الألوان المتلألئة إنما كانت تنجم عن المواد المعدنية التي يشتمل عليها ذلك الحجر الرملي وعن درجات الحرارة المختلفة التي كانت تتعرض لها .

والحقيقة إن الصخور التي من هذا النوع في الشكل والتكوين الممتدة على مسافات شاسعة والعارية تمامًا إنما تكون منطقة تثير اهتمام الجيولوجى وتخلب لب المسافر . هذا وإن التسهيلات المتيسرة والمشاهدات تكاد تتوفر في مختلف المناطق الجبلية لتلك الجزيرة .

أما من جهة جمالنا البالغ عددها عشرة يرافقهم نفس العدد من الجمالة فقد تحركت ببطء إلى ممرات الجبل السفلي مخترقة ذلك السهل الرملي الصخري على طول الشاطيء - وعندما أصبحت الشمس على وشك الغروب وراء الجبال على الجانب الغربي للبحر كنا قد وصلنا إلى رأس أبو زنيمة ، هنا كان القارب والبحارة العرب في انتظار وصولنا - وهذا هو المكان التقليدي الذي عسكر فيه بنو إسرائيل ، على مقربة من البحر .

هنالك عقدنا مجلسًا عاجلاً لتقرير ما إذا كنا نستأنف المسير بالقارب أو

بالجمال أربعة أيام حتى نصل السويس وكان الريح مستمرًا في الشمال . وقد عمل البحارة ثمانية أيام متوالية حتى وصلوا إلى هذا المكان ، وذلك لأن القبطان كان قد أخبرنا بأن الأرض في هذه المنطقة إنما تغمرها نسائم البر ليلاً وإننا يمكننا أن نصل إلى السويس مبكرًا بواسطة القارب دون الجمال .

على أنه لم يكن هناك منزل واحد أو خيمة واحدة في ذلك الفصل من السنة ، بل ولا مياه مقبولة الطعم في تلك المنطقة . وكان طريقًا مطرد النسق شاقًا على طول الطريق .

ولذا وطدنا العزم على أن نسلم أنفسنا للبحر والبحارة . ولقد أنزل الجمالة حمولة جمالهم وقبضوا أجورهم حيث أسرعوا إلى الرحيل إلى منازلهم الصحراوية ، وفي بضع دقائق اختفوا في الظلام الذي كان يحيط بنا . هنالك أعددت النار . وبعد تناول الغداء ركبنا القارب بكافة معداتنا ثم أبحرنا . وكان البحر هادئًا والطقس مواتيًا ، ولكن بمجرد أن جاوزنا المنطقة هب علينا ريح شمالي عاصف وهاجت أمواج البحر وماجت حتى عكّرت على ذلك القارب الصغير صفو المسير .

واصلنا السير في البحر على قدر المستطاع وسط هبوب الريح حتى الساعة الثانية صباحًا عندما أصبحنا على مقربة من الشاطىء الغربي فأدرنا دفة القارب إلى الجهة الشرقية الشمالية منتظرين أن نقطع عشرة أميال خلف هذه النقطة شمالاً من المنطقة التي أبحرنا منها . ولقد قاومنا الأمواج وصارعناها حيث كان يتطاير علينا رشاش الماء طول الليل حتى وجدنا أنفسنا عند الفجر على مسافة قريبة جنوب المرفأ المقصود وعلى مقربة من جدار صخري مرتفع ، إذ لم نكن على مقربة من الشاطىء . وكان الريح يشتد كلما قرب الصباح ، ولم يكن لنا بد من المسير أمام الرياح .

وعلى إثر تناولنا طعام الإفطار في ميعاد متأخر ألقينا المرساة في نفس المكان الذي أبحرنا منه في المساء السابق .

هذا ولو كانت معنا الجمال لكنا قد هجرنا البحر وركبنا سفن الصحراء . وأخيرًا بعد ثلاثة أيام بلياليها ، وبعد عدة خبرات مختلفة مع كل من الريح والأمواج وصلنا السويس .

هذا وإن السفن المجهزة بمعدات حديثة لا تجد مشقة كبيرة في مقاومة الريح في تلك المنطقة البحرية ، ولكن الأمر ليس يسيرًا بالنسبة لقارب يرجع إلى عهد القديس بول .

ولو أننا قد وصلنا سالمين إلا أننا قد قررنا بالإجماع ألا نقوم برحلة في منطقة البحر الأحمر بعد ذلك على مركب شراعية . كانت الرحلة بجزيرة سيناء ثقافية ممتعة ، وكانت في الواقع رحلة صحراوية كافية لدراسة حالة تلك السهول الواسعة وشيئًا عن حياة ومعيشة سكانها البدو .

إننا لم نر شيئًا من تلك الحياة الوحشية القاسية ، حياة الصحراء التي كانت دائمًا موضوعًا للروايات التي يلذ للسياح أن يتحدثوا عنها ويرووا في ذلك قصصًا عجيبة . والواقع أن العرب العصاة للقانون لا وجود لهم إلا في الكتب . ولقد تأكدت من هؤلاء الذين قاموا برحلات صحراوية واسعة وخالطوا الأعراب شهورًا واستصحبوا خادمًا واحدًا منهم أنهم لم يكونوا معرضين للخطر أكثر من تعرضهم له في البلاد الأوربية . وقد أضافوا إلى ذلك قولهم إنهم لم يظهروا شيئًا من الملبس أو النقود التي تثير غريزة الجشع حيث إنه لا يخلو الحال من عرب لصوص كما هو الحال عند بعض المسيحيين الأشرار الذين قد تسول لهم أنفسهم السلب والنهب . هنالك قد تقوم حروب بين القبائل ليقتصوا للسرقات وبعض الأخطاء ، كما توجد عصابات في بعض الأماكن تقطع الطريق ، وهؤلاء هم الذين يعيشون على النهب والسلب ، سلب العرب الآمنين وكذلك الأجانب العزل الذين يلتقون بهم في الطريق بطريق الصدفة . وربما كان هؤلاء هم الشواذ الذين لايمكن اعتبارهم أسوأ من قطاع الطرق عندنا في البلاد الغربية – مثلهم في ذلك مثل اللصوص عندنا

بمدن الولايات الشرقية .

والعرب بصفة عامة قوم على جانب من الهدوء يعيشون في فقر مدقع في حالة شبيهة بالمجاعة ، وحين يلتقطون كسرة من الخبز أو العظام المتبقية من السياح على الرمال فإنهم يلتهمونها بشراهة ، ووجبة كاملة تعتبر لديهم متعة نادرة .

هذا وإن الخمسة آلاف عربي المقيمين بجزيرة سيناء لا يستطيعون العيش على ما تنتجه زراعة كل فدان من الأرض ترويه مياه العيون أو الآبار أو على ما تنتجه الحيوانات التي تعيش في الجبال ، بل لابد لهم من غذاء يُجلَب لهم من مصر ينصب أغلبه على القمح والذرة العويجة .

هنا يتساءل الإنسان كيف كان حال بنى إسرائيل أنفسهم أثناء إقامتهم القصيرة بتلك المنطقة لو لم تزودْ إقامتهم بالغذاء الذي نزل بأعجوبة . لا يوجد أي دليل يبرهن على أن طبيعة هذه المنطقة قد تغيرت من الوجهة الطبيعية أثناء الخمسة آلاف سنة الأخيرة ، فشبه جزيرة العرب أرض صخرية رملية وليس بها الأمطار الكافية التي تغير من طبيعتها الصحراوية .

وبالنسبة للقصة التي وردت في الإنجيل فإن بنى إسرائيل كان يزيد عددهم على مليونين . ومن الصعب أن يفهم الإنسان كيف كان حتى واحد في المائة من هذا العدد يعتمد في حياته على محاصيل هذه المنطقة . وفي فصل الجفاف كانت كمية المياه لمثل هذا العدد الجسيم من الناس غير كافية بالمرة . حتى إنه إذا دخل هذه المنطقة السيناوية ألفان من الناس وانقطع عنهم المدد من مصر وغيرها من البلاد الأجنبية كما كان الحال مع الإسرائيليين فلا بد وأن يموت أغلبهم جوعًا . ولذا فإن مسألة الخروج كلها بالنسبة للذين لا يعتقدون في العناية الإلهية لا يزال الغموض يكتنفها .

الفصل الحادى عشر

بحيرة المنزلة وجنة الطيور المائية

أثناء حرارة الصيف التي تشتد في أواخر مايو قمنا برحلتنا الطويلة عن طريق بحيرة المنزلة إلى صان وهي موقع مدينة « زون » التي ذكرت في الإنجيل والتي أطلق عليها اليونانيون اسم « تانيس » نظرًا للوقت اللازم لها والصعوبات التي تعترض الوصول إلى هذا المكان . كان هنالك عدة طرق يحتاج كل منها إلى عتاد من الخيام والمئونة والجمال والقوارب والمترجمين . واخترت الطريق المتجه إلى المنصورة فدمياط فبحيرة المنزلة ، وقد ذهبت من الإسكندرية إلى المنصورة مسافة حوالى ١٥٠ ميلاً بالسكة الحديد . هذا الطريق من أوله حتى طنطا يشبه الطريق الموصل إلى القاهرة ذلك أنه من طنطا إلى المنصورة يخترق أخصب أراض بالديار المصرية .

وكانت الأراضي وقت انخفاض النيل مشققة بفعل الرياح الجنوبية الحارة الجافة وبفعل الشمس المدارية الشديدة الحرارة فيما عدا تلك الأراضي التي كانت قد رُويت منذ وقت قريب . وكانت سحب الغبار ترافق كل قطار متحرك ، وكانت العربات بحالتها المتهدمة مغلقة النوافذ على قدر المستطاع بحيث لم تكن في حاجة إلى تجديد الهواء . وبعد الركوب بضع ساعات كان من الصعب عليك أن تعرف لون السائح الطبيعي . ومع أن الذباب ، ذلك الوباء المستديم وغيره من الحشرات الصغيرة المؤذية كانت تعكر صفونا ، إلا أن السرور والمرح كانا يغمراننا في حالة الرحيل بالسكة الحديد على طول الطريق

في هذه المنطقة الفريدة .

كان المنظر العام عبارة عن سهل ممتد ولكن كنت ترى مناظر مختلفة لحياة الفلاح المصرى التي لا تفقد سحرها قط .

ولقد وصلنا المنصورة عند الغروب منهوكى القوى من حرارة الشمس والأتربة ومشاهدة المناظر المختلفة طوال النهار . وكانت المحطة على الجانب المواجه للنهر من المدينة ، وكان الطريق الوحيد لعبور النهر ، إنما هو طريق القوارب الصغيرة مع أنه كان يوجد في هذا المكان في القرن الثالث عشر أيام الصليبيين جسر محصن تمام التحصين ، وقد عثرت على مأوى مريح في منزل القنصل المفوض للولايات المتحدة إبراهيم داود .

والمنصورة ولو أنها مدينة يبلغ تعداد سكانها ٣٠ ألف نسمة إلا أنها خالية من الفنادق وتقع على الشاطىء الأيمن من فرع دمياط على مسافة ٦٠ ميلاً من مصب النيل . وهي مدينة يرجع أصلها إلى القرون الوسطى . ولقد عرفها التاريخ بتلك المعركة الهامة التي خاضها لويس التاسع ملك فرنسا . وسرعان ما هزم الصليبيون في نفس المكان وأخذ لويس التاسع أسيرًا . ويقال إن هذا النصر للمسلمين هو الذي سمى هذا المكان باسم « المنصورة » أي المنتصر أو ميدان النصر . وفي الصباح التالي أعدت الخيام والحرس والمئونة وغيرها من مستلزمات الرحلة حيث عبرنا النيل واستأنفنا سياحتنا بطريق السكة الحديد إلى دمياط بعد خمسة أميال من البحر وعلى مقربة من بحيرة المنزلة . ودمياط التي كانت في وقت من الأوقات مدينة فاخرة وميناء مصريًا هامًا هي الآن في حالة انحلال .

ولقد أنشئت الحواجز الرملية عند مصب النيل بحيث لا يمكن المرور لغير السفن ذات الغاطس الخفيف ، ولذا انتقلت تجارتها إلى الإسكندرية وبورسعيد . هذا وإن المنائر العديدة للمدينة وقباب جوامعها ومبانيها العالية الممتدة على شاطىء النيل لا تزال تضفى عليها منظرًا رائعًا له أهميته .

ويشهد فن العمارة الذي يتمثل في مبانيها المتهدمة برخاء وثروة أيامها الأولى . وتعداد سكانها يبلغ حوالي ٤٠ ألف نسمة ويردها سنويًا بضع مئات من القوارب الصغيرة التي تأتي من سوريا وبلاد اليونان . ولها أسواق هامة منظمة تمام التنظيم بل وتجارة في الأرز مربحة ، ذلك الأرز الذي يزرع في تلك المنطقة من القطر ، كما تتجر في الأسماك من البحيرة المجاورة « المنزلة » . وكان لابد من قارب وقبطان وبحارة للقيام برحلة نقطع فيها حوالي أربعين ميلاً على بحيرة المنزلة . ولم تكن القوارب والرجال متوفرة هنالك ولكنني عرفت بالتجربة أنه لابد من وقت كاف لإعداد جميع ما يلزم للقيام بهذه الرحلة . إلا أنه بضمان مكتب الحاكم وبنشاطه وحصافة التابع المخلص الأمين حسن أعد لنا قارب بعد ظهيرة اليوم التالي .

هنالك دعيت للإقامة بمنزل أحد أعيان المدينة حتى أعدت على الشاطىء الخيام والمئونة وقارب شراعى كبير للاستعمال إذا دعت الحاجة إليه . وعندما أعد كل شيء وركبت السفينة لاحظت انحرافًا ظاهرًا في مزاج البحارة الذين ينشرون القلاع للرحيل . فكنت ترى أصواتًا عالية وإشارات تهديد تبدو جدية بالنسبة لشخص لا يعرف شيئًا عن أخلاق وعادات هؤلاء القوم . ولقد علمت أن البحارة لم يكن لهم رغبة في الرحيل إلا باكرًا ، أي « بكرة » .

ولما كان من الضروري الرحيل فقد أصررت على الإقلاع . وبعد مزيد من الحديث المرتفع وإشارات التهديد ، كما لو كانوا على أهبة القتال ، هدأ روعهم فجأة ونزل الجميع إلى القارب حيث نشرت القلاع وشاهدنا على الفور ذلك الشاطىء الرملي المنخفض والمنائر والقباب شيئًا فشيئًا .

وكان برفقتي رجل مثقف من أهالى المنصورة يعرف البلد ويتكلم القليل من الفرنسية ، ثم حسن والقبطان وأربعة من البحارة . وكان البحارة يرتدون زي الفلاحين فكانوا حفاة الأقدام عراة السيقان يرتدون ذلك القميص الخارجي القطني الأزرق اللون وعلى رءوسهم القلنسوة والعمامة . وكان القبطان يمتاز

بقميصه الأبيض ، وتصنع العمامة من ثلاث ياردات من الشاش الأبيض الرفيع حيث تطوى وتلف ثلاث مرات حول الرأس فوق اللبدة (الطاقية) ويدس أطرافها بين لفة العمامة واللبدة بشكل تثبت معه العمامة فوق الرأس تثبيتًا عجيبًا .

وإن هذا الطاقم البهيج للرأس هو أهم رمز لزي الفلاح حيث إنه يقيه حرارة الشمس ولفحاتها وهو زي رأس الفلاحين العادي ، ولذا لم أعهد ضربة شمس واحدة أثناء وجودى بمصر .

وكانت الشمس عندما أبحرنا على سطح البحيرة على مقربة من الأفق الغربي مصحوبة بريح جنوبي غربي شديد . وفي المساء ساد الظلام الحالك .ولما كان هنالك جزر كثيرة منخفضة وأماكن قليلة الغور فقد ألقينا المرساة طوال الليل . وبعد ذلك سرعان ما جاء قارب آخر من نفس حجم القارب الذي كنا نركبه وألقى بمرساته على مقربة منا .

وعندئذ علمت أن الحاكم قد أرسل لنا هذا القارب ليصحبنا وبطبيعة الحال على نفقتى . ولم أفهم الغرض من هذا القارب الإضافي ولكن لما ثبت لى أن البحارة الجدد ذوو نفع لى وأجورهم معقولة لم أبدِ أي تذمر . ولما كان الحاكم على دراية تامة بحالة البحيرة واتجاهات الريح فقد استنتج أن زيادة البحارة معنا أمر واجب منعًا للأخطار .

استأنفنا بعد ذلك الرحيل عند أول شعاع من الفجر حوالي الساعة الرابعة من الصباح التالي . وكان الريح الجنوبي لا يزال قويًا حتى إن القوارب سارت بسرعة وكأنها في سباق . وكانت زوارق مفتوحة تبلغ حمولتها ثلاثين طنًا ذات قيعان مسطحة لا تسير إلا في المياه الضحلة ، ولها أشرعة عريضة يخيل للناظر إليها على مسافة أنها طيور ضخمة بأجنحة مُحْدَودَبة محلقة فوق سطح البحيرة .

ولقد كان الصباح جميلاً والسماء صافية . هذا وإن اللون القرمزي الداكن الذي كان يحيط بقرصى الشمس والضوء الأصفر الذي يسير في ركابها ، وذلك الطقس الهادىء الجميل الذي لا تشوبه أتربة جعل من ذلك الرحيل في الصباح المبكر منظرًا ممتعًا وآية في الجمال . وأجمل من ذلك أنه لم يكن هنالك أمواج مع أن الريح كان شديدًا بحيث كان يمكن أن يغير من حالة البحر . أما البحيرة فقد كانت غير منتظمة شكلاً ، ولكنها كانت حوالى أربعين ميلاً في الطول وعشرين ميلاً في العرض ، وتغطى مساحة حوالي ثمانمائة أو ألف ميل مربع . وأنها لقليلة الغور على قدر امتدادها حتى ليقال إنه يمكن للإنسان أن يخوضها من جانب إلى آخر لولا قاعها الموحل . ولقد كان عمق المياه فيها ، كما رأيت ، حوالي ثلاثة أقدام ، أما على مسافة عدة أميال من الشاطىء فكانت أقل من ذلك بكثير ، وعلى العموم فمياهها ضحلة للغاية . وفي وقت فيضان النيل تكون أعمق غورًا حيث يغمر الفيضان الكثير من الجزر الرملية والحاجز الرملي الضيق المنخفض الذي يفصل ما بين البحر والبحيرة .

هذا وإن قاع البحيرة مغطى بطبقة كثيفة خشنة من الأعشاب التي تنمو في أغلب نواحيها إلى ارتفاع يبلغ بضعة أقدام . وتوجد بعض بقايا المباني القديمة في هذه الجزر وسط البحيرة . ويشاع أن الجزء الأكبر من سطح البحيرة المغطى الآن بالماء كان في الأزمنة القديمة يشبه قاع بحيرة مريوط ، غنى بثروته الزراعية . وبسبب قلة غور مياه البحيرة وقاعها المغطى بالحشائش فإن الريح المستمر الشديد بدلاً من أن يحرك الأمواج ويحرك المياه من أحد جوانب البحيرة إلى الجانب الآخر ، تختفي المياه الضحلة ، كلما اتجهت إلى الشاطىء الواقع في اتجاه مهب الريح .

وتمتد مياه الشاطىء إلى البحيرة حيث ترتد بعد ذلك بحسب تغير اتجاه الريح . ولذا فإن التغير الحادث لمياه الشاطىء يغطى بعض الأحيان ميلاً أو ميلين . وكلما كان القارب يتحرك بهدوء وبسرعة فوق تلك المياه المليئة بالأعشاب ، كان السمك يقفز من تحت مقدمة ذلك القارب ، مما يدل على كثرته .

ولقد مررنا ما بين المطرية (الواقعة على رأس من الأرض ممتدًا من الغرب إلى البحيرة على بضعة أميال) وبين مجموعة من الجزر تمتد في مواجهتها من جهة الشرق . هناك شاهدنا رجالاً يخوضون فى الماء على مسافة بعيدة من الشاطىء يصيدون السمك بشباكهم ، وكانت قواربهم على مقربة منا .

والمطرية هي بلدة الصيادين : فكلها سمك وصيد سمك وليس لديهم حرفة سواها .

هذا وإن مهمة الآباء قد انتقلت إلى الأبناء من جيل إلى جيل منذ قرون ، وربما منذ فجر العصور التاريخية الأولى . وسكان هذه البلدة ومن حولهم من سكان شواطىء البحيرة يكونون سلالة من الصيادين . ولهم وجوه محدودبة ، وخدود بارزة العظام وأفواه شامخة وأعين صغيرة ، ينم شكلهم عن الجمود بخلاف شكل المصري الأصيل الذي ينم عن الرقة والظرف . ويقول علماء الآثار المصرية إنهم من أصل سامي ويرى بعضهم أن أصلهم يرجع إلى الهكسوس أو الرعاة .

ويرجع هذا الرأي إلى وجه الشبه بين الهكسوس القدماء حيث يشاهد هذا الشبه على تماثيل الهكسوس وغيرها من التماثيل وعلى الأخص الموجود منها بمدينة « صان » وأهالى المنزلة من الصيادين . وهناك مثل شائع في هذه المنطقة هو أن من يحترف الصيد لأول مرة يبقى صيادًا على الدوام . ويحترف هذه المهنة حوالي أربعة آلاف رجل ، وليس لديهم أي حرفة أو عمل آخر بجانبها . وقد فرضت هذه المهنة عليهم بسبب الموقع والظروف المحيطة بهم مثلهم في ذلك مثل الفلاحين الروس واضطرارهم إلى الاشتغال سابقًا بزراعة أراضيهم .

والترخيص بالصيد في هذه البحيرة يحصل بمعرفة الحكومة ويبلغ قدره حوالى ٣٠٠٫٠٠٠ دولار سنويًا وذلك أن العقد كان يتضمن سابقًا الخدمات الإلزامية للصيادين مقابل نسبة مئوية بسيطة من النقود التي يحصلها هؤلاء الصيادون من بيع هذه الأسماك ، وأنه ليمكن القول الآن أن هذا العمل ليس

ملزمًا للصيادين ولكنهم مضطرون للاستمرار في مزاولة نفس العمل على أساس نفس النسبة المئوية ، وذلك لإقامة أودهم .

هذا وإن حق الصيد في أغلب المياه المصرية لابد وأن تحصل عليه ضريبة تتناسب مع كمية السمك التي يمكن صيدها . وإذا ما صيد السمك في أي مكان بدون تصريح يؤخذ الصياد إلى السلطة المختصة ، ويلزم بدفع غرامة تساوى أضعاف الضريبة التي تدفع للحكومة .

وبحيرة المنزلة ليست مشهورة بسمكها فحسب بل هي جنة الصياد الماهر ، فهي مزدحمة بطيورها المائية على اختلاف أنواعها ، وهي كثيرة جدًّا حتى إنه لا يمكن إحصاء عددها ، إذ أن هذه البحيرة هي أول مياه داخلة في الأرض تصل إليها الطيور عند رحيلها من الشمال عابرة البحر الأبيض أو مجتازة البحر من الغرب إلى الشرق .

هذا وإن جو هذه البحيرة الهادىء الجميل ومياهها الضحلة وسمكها الكثير وغير ذلك من وسائل المعيشة يجعلها مشتى جميلاً لكافة أنواع الطيور المائية التي يبقى الكثير منها بهذه البحيرة طوال أيام السنة .

هناك تشاهد الطيور الوفيرة الفارعة تخوض في الماء كطير البشروش بريشه الأحمر المتوهج والملك الحزين واللقلق وأبو حديج والرهو . وكل هذه الطيور يدل وجودها هناك على قلة عمق هذه المياه . أما البجع والأوزالمصري والأوز العراقي والحوصل الأبيض الرشيق فإنه يسبح فوق سطح الماء وسط غيره من الطيور الصغيرة في كبرياء وعظمة في الأماكن الأعمق غورًا . كما أن هناك أسرابًا من مختلف أنواع البط قلما يخلو منه مكان من شواطىء هذه البحيرة .

وتقول السلطات المختصة إن الطيور المائية في هذه البحيرة تستهلك يوميًّا ما لا يقل عن ٦٠٫٠٠٠ رطل من السمك بجانب غيره من الأطعمة ، وهي كثيرة جدًّا لدرجة أن المياه تغطى بها فعلاً في أماكن كثيرة ، وذلك خلال

الشتاء وحتى شهر مايو . وتبدو للناظر إليها على مسافة وكأنها جزر منخفضة ، كما تبدو عندما ترتفع في الفضاء وكأنها سحب تغطى السماء .

منذ عدة سنوات كانت الملايين من الحمام تبنى أعشاشها في تلك الغابات العظيمة الواقعة شمال نيويورك . وكانت كلما طارت كل صباح للبحث عن الطعام تغطى السماء لمدة ساعة أو ساعتين ، كما يحدث ذلك عند عودتهم في المساء . وقد شاهدت في بحيرة صغيرة تقع شرق مدينة المكسيك وعلى مقربة من السكة الحديد المؤدية إلى « بويبلو » و « فيراكروز » ، شاهدت أعدادًا وفيرة من البط كانت تغطى المياه لمسافة بعيدة .

ويعتبر تجمع أسراب كبيرة من الطيور في الأماكن غير الآهلة بالسكان أمرًا مألوفًا . وفي بحيرة المنزلة يعتبر هذا الميل للتجمع من جانب هذه المجموعات الغفيرة من الطيور منظرًا رائعًا . ذلك أن عددها الكبير واختلاف أنواعها وجمال ريشها ليكون منظرًا لا يعتبر فريدًا فحسب بل لا نظير له من حيث أهميته لعلم الطيور . و يوجد لكل مجموعة من هذه الأسراب قائد من بينها يحذو الباقي حذوه في كل حركاته ، فلا يرتفع طير فوق الماء إلا إذا فزع قائدهم إلى الطليعة ، وفي اللحظة التي ينشر فيها جناحيه ويصيح صيحة يحلق السرب كله في الفضاء . ويعتبر حق الصيد للطير كحق الصيد للسمك ، أي لابد من التصريح به ، والصيد بضرب النار ممنوع في القوارب إلا أنه يمكن التصريح به للأجانب بصفة عامة . ويحترف صائدو السمك اقتناص الطير كذلك بواسطة الشباك وبوسائل أخرى مختلفة يمكن بها الحصول على أكبر عدد ممكن من الطير .

وهناك طرق بدائية وغاية في الغرابة لصيد الطيور تتمثل فيما يلي : يعد واحد من الأهالى خوذة لرأسه تغطيها تمامًا على شكل طائر ، وتصنع في بعض الأحيان من قشرة بطيخة وتختار عادة الليالي المضيئة وخاصة عندما يكتمل القمر ، ثم يخفى نفسه تمامًا ما عدا رأسه التي تستتر داخل الخوذة القائمة على

شكل طائر فوق الماء ، وعندما يتأكد عن طريق فتحة في الخوذة من مكان قائد السرب يقترب منه بكل مهارة حتى يمسك به من سيقانه ثم يسحبه تحت الماء ويذبحه على الفور . فإذا ما فعل ذلك بكل خفة ورشاقة لمنع الطير من الصياح أمكنه اقتناص السرب بأكمله طيرًا بعد طير بنفس الطريقة . ولكن إذا بدر أقل صياح من قائد السرب سرعان ما يلوذ الآخرون بالفرار .

وفي بعض الأحيان تشاهد خنازير برية ذات حجم كبير وجاموس في المستنقعات المجاورة .

ولقد كنا نقلع بسرعة طيلة الصباح ، وكنا نضطر إلى تغيير مجرى اتجاهنا من وقت لآخر إذ أن طريقنا كان تجاه الجنوب وفي الغالب ضد الريح . وذلك بعد أن مررنا بالمطرية . وكانت المياه قليلة الغور في بعض الأحيان . وقد رسونا حوالي الساعة العاشرة صباحًا ، وكنا لا نزال على مسافة عدة أميال من الشاطىء الذي تتخلله المستنقعات ومن مدخل المجرى القديم لأحد فروع النيل كان علينا أن نسير فيه بضعة أميال . واستفسرت عما يجب عمله عن طريق حسن فأجبت بأنه يجب الانتظار حتى يتغير اتجاه الريح . ولم يكن هذا مشجعًا حيث إن الريح في مثل هذا الفصل من السنة قد يهب من الجنوب لعدة أيام . ولكي ننتظر ريحًا يهب من الشمال معناه أن نبقى كما كنا لمدة عشرة أيام . ولم أدرك كذلك كيف يمكن لهذا التغيير أن يساعدنا .

وربما كانت هذه الظاهرة الجوية تبدو لسكان هذه البحيرة ظاهرة يومية بسيطة ومعروفة جيدًا بحيث لا تحتاج إلى إيضاح . ولو أنك سألت هذه الطبقة من العرب عن بعض الحقائق يندر أن تتلقى إجابات صحيحة . لم يكن هناك باعث سيء ، إنما كانوا يردون عليك في أدب الشرقي بإجابة يعتقدون أنها سوف تدخل السرور على نفسك . وقد أحطت القبطان علمًا بأنه يتعين على أن أكون في الإسكندرية في ميعاد معين فأقترح أن يسير بالقارب نحو الغرب الذي يغلب الظن في أن المياه في هذا الاتجاه كذلك أكثر غورًا .

وحينئذ أمسك بحار بطرف حبل طويل في يده وعمود قصير في اليد الأخرى ثم خطا فوق مقدمة السفينة ونزل في الماء حيث تقدم إلى الأمام بضع خطوات ساحبًا الحبل وراءه ملقيًا العمود في قاع البحر . هنالك بقى ممسكا بالعمود في مكانه ، وأخذ الرجال القائمون فوق سطح القارب يسحبون الطرف الآخر من الحبل ، فأخذ القارب يتحرك ببطء فوق القاع المليء بالعشب نحو المكان الذي فيه العمود ، وتقدم البحارة على هذا المنوال إلى الأمام ، ولكننا لم نحرز سوى تقدم بسيط .

أما القارب الثاني فقد تركنا في الصباح المبكر وتوجه إلى المطرية لاستحضار خبز للبحارة الذي دفعتهم الحاجة إليه ، كما علمت حينئذ ، إلى المناقشة الحادة التي جرت عند وقت رحيلنا . وفي حوالي الساعة الحادية عشرة ظهر هذا القارب متجهًا إلينا ولكن من جهة الغرب حيث كنت أظن أن المياه أعمق غورًا . وعندما وصل إلى المكان المواجه للنقطة التي رسونا فيها ألقى بمرساته وضم الرجال الشراع ثم قفزوا بزكائبهم المملوءة بالخبز إلى قاربنا . ولم نكن بحاجة إلى معجزة لكي نجعلهم يسيرون فوق المياه .

بهذه القوة الإضافية تحركنا أسرع من ذى قبل . ولقد تجمع الرجال بعد ظهر ذلك اليوم على سطح القارب ليتناولوا وجبتهم من الخبز الجاف حيث كنا لا نزال على بعد ميلين من الشاطىء . وبعد أن انتهوا من الغذاء بدأوا يباشرون عملهم بكل هوادة . وكانت الساعة حوالي الثانية عشرة ظهرًا ولم نكن قد قطعنا أكثر من ميل منذ أن تحركنا من الشاطىء في تمام الساعة العاشرة . وكان الريح قد توقف تمامًا قبل الظهيرة . وعلى حين فجأة هب نسيم خفيف من الشمال أخذ يشتد بالتدريج . وكان يبدو أنه نسيم بحري عادى ، ذلك الذي هب من البر عبر البحيرة – أي حوالى عشرين ميلاً – ومن ثم نشر الشراع وخاض الرجال الماء ، أربعة على كل جانب ، واضعين أكتافهم بجانب القارب دافعين به إلى الأمام . حينئذ ملىء الشراع بالهواء ، وبفضل الريح وقوة الرجال بدأنا نتحرك . وتقدمنا ببطء في بادىء الأمر ولكن ما لبثت الريح أن اشتدت .

وفي ظرف نصف ساعة صعد الرجال فوق القارب ، الواحد تلو الآخر وسرعان ما سرنا بسرعة معقولة .

وبعد زمن وجيز دخلنا مجرى النيل الضيق المتعرج وكنا نسير فيه بسرعة لا بأس بها ، وكانت المياه قليلة الغور والشواطىء منخفضة ومسطحة لدرجة أن الأمواج التي كان يحدثها قاربنا كانت تغطي الشواطىء لمسافة بعيدة . ولم يمض وقت طويل حتى وجدنا أنفسنا جانحين فوق الأرض مرة ثانية . وبمساعدة ثمانية مناكب قوية وبمساعدة الريح الشمالي سرنا فوق تلك المياه الضحلة ، ولكن سرعان ما وجدنا المياه قليلة الغور إلى حد لا يسمح لقاربنا الكبير بالتقدم . هنالك أمكننا إخراج القارب الصغير ووضعنا فيه الخيمة والمواد الغذائية وواصلنا سيرنا في النهر .

وفى المساء وصلنا إلى سد هو عبارة عن حاجز مقام عبر مجرى النهر القديم لكي يحتفظ بالمياه التي تصفى من القنوات لكي تستعمل في الري . ولم يكن هناك سوى كمية قليلة من المياه على جانبي السد ، ولم يكن من المستطاع المرور في أي الجهتين ولذا نصبنا خيمتنا وأعددنا غداءنا .

الفصل الثاني عشر
زون القديمة

شرعنا في المسير إلى صان في فجر اليوم التالي على ظهور الحمير التي حصلنا عليها من القرية المجاورة . ولقد استغرقت هذه الرحلة ساعتين فقط . وكانت الأرض منخفضة تتخللها المستنقعات وتغمرها مياه الفيضان . هذه الأراضي المغمورة بمياه المستنقعات لا تصلح للزراعة ولكنها تنبت الأعشاب الطويلة التي لها بعض الفائدة إذ أنها تكون المراعي الدائمة الوحيدة في مصر . وكانت هذه المنطقة تنبت ورق البردى بكميات كبيرة إلا أنه اختفى كلية بعد ذلك . ونفس القول ينطبق على معاصريه من التماسيح وعجول البحر التي انسحبت من مصر إلى شواطىء النيل الأزرق والأبيض . ولقد كانت صناعة ورق البردى لها أهمية كبيرة في مصر لأمد طويل . فقد بدأت منذ أوائل حكم الفراعنة واستمرت حتى عصر الخلفاء ، وفي عصر اليونان والرومان كانت مصر تصدر هذه السلعة إلى مختلف جهات العالم المتمدين وتحصل على إيرادات ضخمة من وراء تصديرها .

وقد خصصت أراضي الدلتا الرطبة – التي كانت تغطى في الماضي بهذا النبات – اليوم لزراعة الأرز والتيلة والقطن . وعلى سبيل الذكر قد اشتققنا كلمة Paper من « بابيرس » وكلمة Bible من الكلمة اليونانية « بيبلوس » .

وكان نبات البردى يستعمل في أغراض شتى غير الورق الذي كان يكتب عليه القدماء ، إذ كان يستخدم في حشو ما بين ألواح سفنهم ، ولعمل الشراع

والحبال . كما استخدم المصريون أسلاكًا من ورق البردى لإنشاء جسر يعبر عليه جيش « زركسيز . وحينما هبت عاصفة وحطمت هذه الأسلاك ، إلى جانب الحبال البيضاء التي كان يصنعها الفينيقيون من القنب . قام المصرين بإنشاء جسر آخر من القوارب . وفوق هذه القوارب كانت تمتد الأسلاك من شاطىء إلى آخر وهي مسافة طولها ٧/٨ ميل ، وكل سلك مصنوع من حبلين من القنب وأربعة حبال من البردى . وفوق هذه الأسلاك التي تدعمها القوارب أنشىء الطريق الذي عبر عليه جيش زركسيز والذى كان قوامه ١٫٧٠٠٫٠٠٠ جندى إلى أوروبا في سبعة أيام . وكان الجزء الأسفل لنبات البردى يستخدم أيضًا كغذاء .

هذا وتحدد مواقع مدن الدلتا القديمة بالآكام التي ترتفع على مستوى الأرض في بعض الأحيان بثلاثين أو أربعين قدمًا والتي تمتلىء بقطع « الشقافة » الأثرية التي تخلفت عن الأجيال المتتابعة التي كانت تسكن هذه الأماكن .

وتمتاز آكام زون أو تانيس الأثرية بارتفاعها وامتدادها الذي يغطى حوالي ميل مربع . ولقد أجريت عدة حفريات واستخرجت آثار عديدة قيمة . وأهم هذه الآثار من الوجهة التاريخية هي آثار الهكسوس أو الملوك الرعاة .

وهذه الأراضي التي أجريت فيها عمليات الحفر في موقع المعبد العظيم محاطة بآكام يبلغ ارتفاعها عشرون أو ثلاثون قدمًا .

وكانت مباني المعبد محاطة فيما مضى بسور طوله ٣٤٠٠ قدم وسمكه سبعون قدمًا وارتفاعه خمسة وأربعون . وحينما نلقى نظرة علي تلك المنطقة الآن نرى كتلة مختلطة من الخرائب وعددًا كبيرًا من قطع المسلات والأعمدة والتماثيل وقواعد التماثيل وأجزاء من جدران متصدعة . ومعظم هذه الآثار مبنى من الجرانيت الأحمر . وهناك بعض الكتل الحجرية السوداء أو ذات اللون القاتم ، كما يوجد إلى جانبها قطع من الحجر الرملي . أما الحجر الجيرى الذي بنى منه المعبد منذ زمن طويل فقد وجد طريقه إلى القمائن التي يمتلكها أهل البلد .

وقلما توجد مدينة محاطة بالأسرار التاريخية القديمة كمدينة زون وكانت عاصمة للوجه البحري إبان عصر الهكسوس أو الملوك الرعاة ، أو على الأصح « الملوك الرحل » . وبعد طردهم من مصر عادت مملكة واحدة تحكمها حكومة واحدة . ثم جاء بعد ذلك ملوك الأسرة التاسعة عشرة ، سيتي وابنه رمسيس الثاني (سيزوستريس) وسيتي منفتاح الذي يفترض أنه « الفرعون الذي خرج إبان حكمه الإسرائيليون من مصر » ، واتخذوا من زون إحدى عواصمهم ، إذ كانت عاصمتهم الأخرى في طيبة .

وكانة هذه المدينة تقع على فرع النيل الشرقي وفي الجزء الشمالى الشرقي من مصر ، غير بعيد من حدودها الشرقية . ونظرًا لموقعها أصبحت مدينة تجارية عظيمة ، كما كانت ملتقى ونقطة بداية الحملات العسكرية العظيمة التي خرجت من مصر في تلك الأيام واجتاحت غرب آسيا ، وكانت نتيجة هذه الغزوات جزية سنوية تدفع على شكل ثروات ضخمة من العبيد والعاج والذهب والفضة والأحجار الكريمة والحيوانات المستأنسة .

وكانت مدينة هامة ذات آثار عديدة أيام حكم الهكسوس . وكان لها معبدها الفخم في عصر رمسيس الثاني ، كما كانت مسلاتها وكثير من المنشآت الأخرى الضخمة مصنوعة من الجرانيت . ولم يكن يقل عدد المسلات على جانبي الطريق المؤدى إلى المعبد العظيم عن عشر مسلات . وقد حطم عدد من هذه المسلات ، كما أن هناك أعمدة وتماثيل مشوهة ملقاة على الأرض في المكان الذي أقيمت فيه بادىء الأمر . أما الآثار الأخرى لمدينة زون ، ومن بينها التماثيل التي يشبه بعضها تمثال أبي الهول ، وهي التماثيل التي بقيت بحالة جيدة ، فمن الممكن رؤيتها في القاهرة أو في متاحف أوربا .

وحتى في العصر الغابر أيام الأسرة التاسعة عشرة ، كانت زون مدينة قديمة بلغت من العمر أكثر من ألفي عام . ولقد أعيد بناء معبدها في عهد رمسيس الثاني الذي يرجع تاريخه إلى الأسرة السادسة على الأقل ، أي منذ ٣٣٠٠ سنة قبل

الميلاد . ولابد أن هذه البلدة قد أنشئت على أثر الفيضان الشهير ، كما أن الإشارات العديدة التي وردت في الإنجيل بشأنها تزيد من أهميتها التاريخية بالنسبة للشعوب المسيحية :

« بنيت عبرون قبل زون في مصر بسبع سنوات » « ولقد أتى بأشياء عجيبة أمام ناظرى آبائهم في أرض مصر ، في أرض زون » ، « كيف خلف أمارته في مصر ، وحقق معجزاته في أرض زون » « لقد أصبح أمراء زون جماعة من الحمقي » ، « إذ أن الأمراء كانوا في زون » ، « ولسوف أجعل باثروس أرضًا قفرًا ، ولسوف أشعل النار في زون » .

هذه الأرض ، أرض النور والخيرات ، والذي سميت بأرض رمسيس كذلك ، كانت مقرًا لاخوة يوسف وأحفادهم . كانوا قومًا من الرعاة ، ولذا يحتمل أن يكون قد وقع اختيار يوسف على هذه الأرض يعمل فيها نظرًا لملائمتها مع طريقة حياة قومه ، ولأنه كان يمكنه الإقامة فيها دون أن تنشأ عداوة من جانب المصريين الذين كانوا يعتبرون « كل راع رجسًا » .

ولقد اختلفت الآراء بالنسبة إلى المكان الذي استقر فيه الإسرائيليون أثناء إقامتهم في مصر . فهؤلاء الذين يتمسكون بنظرية مرورهم بالفعل من المكان الذي يعتبر الآن جزءًا من البحر الأحمر يقولون إن هذا المكان في أقصى الجنوب ، بينما يعين آخرون ذلك المكان في أقصى الطرف الشمالي الغربي من البلاد .

وتدل القرائن الأثرية واللغوية على أنه من المحتمل أن يكونوا قد احتلوا الجزء الأكبر من الإقليم الواقع فى شمال الدلتا وشرق فرع دمياط من النيل عندما أصبح عددهم كبيرًا . ويشمل هذا الإقليم أخصب الأراضى المصرية إنتاجًا ، وكان كافيًا لإقامة مليون نسمة ، ولقد أصبح الجزء الأكبر من هذه الأراضي صحراء غطتها المستنقعات بعد أن كانت من أغنى الأراضي زراعة .

وكان يوجد بالمنطقة المجاورة لبحيرة المنزلة أراضي وطيئة رطبة تنتج الحشائش الرديئة التي تتغذى عليها الماشية . وكانت تحد شرقًا بالصحراء التي تنتج من النباتات في كثير من الأماكن في فصل الشتاء ما يكفى لتغذية عدد محدود من الماعز والأغنام . وكان يبلغ عدد ذرية يعقوب (إلى جانب زوجات أبنائه) وقت نزولهم مصر ستة وستين نفسًا . ولقد أقاموا خيامهم في بقعة صغيرة من الأرض الخصبة المجاورة للصحراء مثلهم في ذلك مثل أعراب الوقت الحاضر ، كما أنهم ضموا إليها جزءًا من الأراضي الرطبة المجاورة للبحيرة ، وكان هذا بالنسبة إليهم اختيارًا موفقًا ، فهي حديقة فيحاء وكان هذا هو الواقع إذا قورنت هذه الأراضي بالأراضي الصخرة الوعرة التي هاجروا منها . كانت هذه الأرض ملائمة تمامًا لحياة الرعاة ، ولحفظ قطعانهم التي أحضروها معهم ، ولو أنها لم تكن مرغوبة لدى المصريين .

وبلدة زون ، وإن لم تكن في أرض الخيرات ، إلا أنها كانت تقع على حدودها ، كما كانت المدينة الرئيسية في هذا الجزء من الدلتا . أضف إلى ذلك أن رمسيس الثاني منحها اسمه ، كما يتضح من النقوش الهيروغليفية على الآثار الموجودة في خرائبها ، وهو ذلك الملك الذي يعتبر من أشد حكام الفراعنة صرامة في معاملته للإسرائيليين ، ولابد أن زون كانت أحد المسارح الرئيسية لهذا العدوان . « ولذا عينوا عليهم رؤساء لكي يثقلوا كواهلهم بالعمل ، ولقد قاموا ببناء مدن عامرة لفرعون ، بيتوم ورمسيس » .

وقد أقيم الجزء الأكبر من آثار زون خلال حكم رمسيس الثاني ، وكانت الكتل الجرانيتية الضخمة المطلوبة للعمل تقطع بآلات حادة من محاجر أسوان وتنقل لمسافة تبلغ حوالي سبعمائة ميل حيث تنحت وتوضع في أماكنها بواسطة المساجين والعبيد في مصر .

وليس هناك من شك في أن الإسرائيليين كانوا يستخدمون في هذه الأعمال كما كانوا يسخرون في أعمال أخرى أقل من هذه . ولقد خرجوا من

البلاد وقد درسوا فن الكتابة بطريقة النحت ، كما كان يزاولها المصريون وهكذا تمكنوا من تدوين شرائع موسى على ألواح حجرية . ويمكن رؤية ألواح من نفس النوع وترجع إلى نفس العصر في متحف القاهرة .

وعندما نلقي نظرة على الآثار المتهدمة التي لاتزال في صان أو على بعضها الذي احتفظ بكيانه في متحف القاهرة أو على غيرها من الآثار الفخمة لذلك العصر فإننا نتصور أننا نشاهد عظمة الإنشاء ورشاقة التنفيذ والبناء ، بل ومهارة الصناعات اليدوية لتلك الأجناس السامية نتيجة للجهود التي كان يطلبها منهم رؤساء العمل المعينون من قبل الفراعنة .

كانت زون عاصمة ذلك الجزء من مصر الذي حكمه الهكسوس في عصر سيدنا يوسف ، وربما كانت المدينة مقرًا لإقامته في ذلك العصر الذي كان يخدم فيه فرعون ، وإذا كان الأمر كذلك فلابد أنه « أعد مركبته هناك وتوجه بها لمقابلة أبيه إسرائيل » في الطريق الرئيسي المؤدي إلى سوريا ، وعند عودته قدم أباه إلى الملك العظيم .

وفي منطقة زون شاهد فرعون – الذي خرج الإسرائيليون أثناء حكمه – الأعمال المدهشة التي قام بها العبرانيون ، نتيجة للأعمال العدوانية التي قام بها هو وأبوه . وهنا اجتمع الشعب المضطهد متأهبًا للرحيل ، وهنا أظهر فرعون ضعفه وقد أبدى موافقته على الرحيل ، حينما دخل في نفسه الرعب بتنفيذ أحكام الإله . وحينما بدا أن الخطر قد زال سحب موافقته مرة أخرى . ومن هذا المكان كذلك شرعوا أخيرًا في الهروب فأعد فرعون « مركباته المائة » و « أخذ يقتفي أثرهم » .

وكل ما يعرف عن مصر أثناء السبعة القرون السابقة على غزو قمبيز عام ٢٢٥ ق.م وتدميره للجزء الأكبر من الآثار إنما هو سوء الطالع والهزيمة وعزل الملوك الضعاف كما هو مدون في تاريخ الغزاة الذين ألحقوا بهم الهزيمة .
ما أهمية صان اليوم بعد أن كان لها كل هذا التاريخ المجيد الحافل بجمالها

وعظمتها وأهميتها الاقتصادية والتجارية ؟ كان الحد الغربي للمدينة يومًا ما نهرًا عظيمًا قد غشت مياهه الأشرعة ، وغصت شواطئه بضوضاء الحياة التجارية ، فكنت ترى الكتل الضخمة من الحجارة التي نقلت من سيناء وقد رصها عدد غفير من المساجين والعبيد ، بينما كانت الجماهير المحتشدة تصعد إلى السفن وسط هذه الأعداد المصطفة ورهبة الموظفين الملكيين .

كانت مدينة قوية تزدان بعظمة آثارها المنقوشة وتفوق غيرها من المدن ثروة وقوة . ولكنها اليوم ليست سوى قرية صغيرة قذرة بائسة يقيم فيها الصيادون الذين ينتمون إلى نفس الجنس الذي ينتمى إليه صيادو بحيرة المنزلة . حتى مساكن المشايخ ، التي تعتبر أفخم مساكن القرية ، ما هي إلا مساكن متواضعة ، أما المساكن الأخرى فهي خصاص ذات أرضية غير مفروشة . ولقد ملىء نهرها بالرواسب وحلت محله الآن مياه راكدة لتلك القناة التي تستخدم في الري والصرف . وتعرف باسم قناة صاالحجر . وهي تمر في أراض مغطاة بالمستنقعات ينمو فيها الغاب ونباتات المستنقعات .

وتتمثل تجارة هذه المدينة في قارب صياد يأتي من وقت لآخر ، كما حل محل الحياة الصاخبة ودوامة الأعمال السابقة فيها سوق يقام في الأسبوع مرتين لبيع الأسماك التي يتم صيدها من القنوات إلى المزارعين في القرى المجاورة .

أما عظمتها في فن المعمار وفخامة آثارها وروعتها فقد دفنت تحت أنقاضها ، وليس هناك معنى أعمق من تلك العظمة المنهارة والسلطة الزائلة التي لا نظير لها في أي مكان آخر ، كما أنك لاتجد انهيارًا تامًا كهذا يترك أثرًا كبيرًا في النفس . ولا يستطيع إنسان أن يضرب مثلاً كهذا على وقوع القدر المحتوم الذي ينتظر كل أعمال الإنسان .

عدنا إلى المعسكر بعد الظهيرة ، فاعترتنا الدهشة عندما وجدنا القارب الكبير الذي تركناه ، على مسافة بضعة أميال من المجرى القديم في اليوم السابق . وحينما استفسرنا عن الأمر علمنا أن الريح قد استمر يهب من الشمال

حيث رفع منسوب المياه بشكل ساعد البحارة على المسير إلينا . وعندما قمنا بفحص المكان وجدنا أن منسوب المياه أعلى بكثير من الليلة الماضية . وكان الشاطىء بحالة لا يسمح للمياه أن ترد من أعلى .

ولما أصبح كل شيء على أهبة الاستعداد ربط حبل في أعلى الصارى وبدأ اثنان من البحارة ، بدلاً من ثمانية ، يرفعان الحبل على أكتافهم سائرين بمحاذاة الشاطىء ساحبين القارب من ورائهم . وعندما اقتربنا من البحيرة تحول المجرى إلى الشرق حيث أتيحت لنا الفرصة أن نستفيد من اتجاه الريح . فصعد الرجال إلى سطح القارب ونشر الشراع ، وعند غروب الشمس كنا فوق مياه البحيرة على نفس الطريق الذي سرنا فيه في اليوم السابق بكل تؤدة وصعوبة . وأصبحت المياه غزيرة في هذا الجزء ، فأقلعنا بمحاذاة القارب الراسي الذي تركناه وراءنا ، ومن ثم وضعنا بحارته فوق ظهره وواصلنا رحلتنا . وفي صباح اليوم التالي ، حوالي الساعة العاشرة ، شاهدنا ذلك الشاطىء الرملي المنخفض الذي يقع بالقرب من مدينة دمياط ، والذي ركبنا منه ، واستمر الريح يهب من جهة الشمال وكنا نظنه أول الأمر نسيم البحر . وكان نسيمًا لا يساعد على السير ، ولكنه لم يصل إلى قوة العاصفة . ومع هذا أصبحت المياه ضئيلة بينما كانت مياه البحيرة غزيرة في الليلة التي أبحرنا فيها . ولم نكن نبعد عن مكان وصولنا سوى أربعة أميال . وبعد جهد شاق وبعد السحب والرفع بنفس الطريقة التي اتبعناها على الجانب الآخر من البحيرة لم نصل إلى مقصدنا إلا في وقت متأخر بعد الظهر .

الفصل الثالث عشر

طريق الخروج

لقد قدمنا وصفًا دقيقًا عن سياحتنا حول بحيرة المنزلة لنبين تأثير الريح على مسافة كبيرة من المستنقعات القليلة الغور التي تحيط بمدخلها وجوانبها ، وذلك نظرًا لما قد تقدمه لنا من عون في توضيح قصة التوراة الخاصة بمرور بني إسرائيل من البحر الأحمر .

إن هبوب الرياح القوية المستمرة بعيدًا عن شاطىء بحر أو بحيرة يرفع دائمًا من منسوب المياه بمحازاة الشاطىء ، ولكن انحسار وعودة المياه التي على طول الشاطىء إلى درجة تقرب من تلك التي نشاهدها (فيما عدا حالة المد) هي ظاهرة غير معروفة في أي مكان آخر . والسبب في ذلك هو قلة غور المياه ووجود الأعشاب التي تمنع السحب . ويبدو أن هذه الظاهرة لها تأثير قوى على النظرية التي قال بها بروجش بك (بروجش باشا فيما بعد) أخيرًا بشأن نقطة الرحيل والطريق الذي سلكه الإسرائيليون أثناء الخروج .

ولقد حددت هذه النظرية البقعة التي رحلوا منها في زون أو صان التي وردت في النقوش باسم رمسيس – وهي التي يرجح أنها رمسيس التي ذكرت في التوراة . ومن ثم اتجه الطريق شرقًا غير بعيد من بحيرة المنزلة إلى سكوت إيتام وبقعة تقع قبل باى حاحيروت في مواجهة أفاريس (بعل زيفون) ما بين ميجدول والبحر الأبيض المتوسط .

وقبيل حفر قناة السويس كانت بحيرة المنزلة تمتد شرقًا أكثر مما هي عليه في الوقت الحاضر ، فقد كانت في أول الأمر تمتد إلى البلوز ، أي أبعد من حدها الشرقي الحالي بخمسة عشر ميلاً ، وعلى ما يحتمل في ذراع ضيق بمحاذاة الشاطىء إلى داخل بحيرة سيربونيس .

ولقد شقت القناة في الشاطىء الرملي على البحر الأبيض في الموقع الذي توجد فيه بورسعيد الآن ، ثم تستمر جهة الجنوب ثمانية وعشرين ميلاً في بحيرة المنزلة ومستنقعاتها . هذا الجزء من البحيرة يبلغ عمق المياه فيه من قدم إلى ثلاثة أقدام .

ولقد حفرت القناة بواسطة الكراكات حيث تكونت شواطىء ضخمة من الأتربة على الجانبين قطعت وصول مياه النيل التي ترد إلى البحيرة من قنوات الري . ونتيجة لذلك أصبحت المنطقة الواقعة شرق القناة صحراء تتخللها في بعض المواضع مستنقعات لا يمكن عبورها . كما أنه لايوجد سكان بالمرة بمنطقة شرق القناة ، أما مواقع المدن القديمة والأماكن المحصنة فلا تحدد أمكنتها إلا عن طريق الخرائب الموجودة .

وكانت أفاريس (بعل زيفون) تقع شرق بلوز وعلى بعد خمسة وعشرين ميلاً شرق القناة . أما باى – حاحيروت فكانت أبعد من ذلك بمسافة قصيرة ، وتقع على مقربة من الطرف الغربي لبحيرة سيوبوينس . كانت هذه البحيرة تمتد في الأزمان الغابرة حوالي ٥٠ ميلاً شرق هذه النقطة حيث كان يفصلها عن البحر الأبيض برزخ رملي ضيق لايزيد اتساعه على بضع مئات من الياردات . وتبلغ المسافة بين بحيرة السيربوينس وبين فرع دمياط حوالي سبعين ميلاً حيث يوجد برزخ رملي ضيق مماثل للبرزخ السابق كان يفصل بين البحر من جهة وبين البحيرات والمستنقعات من جهة أخرى حتى وقت إنشاء القناة .

ويوجد غرب بورسعيد برزخ رملي مماثل بين البحر الأبيض وبحيرة المنزلة .

وكان الطريق الرئيسي العظيم أو طريق القوافل من مصر إلى سوريا يأتي من الجنوب الغربي مارًا بميجدول وبعل – زيفون ، ويعبر هذه المستنقعات بالقرب من باى – حاحيروت عند الطرف الغربي من سيربوينس ، ثم يستمر شرقًا على شريط الأرض الذي يقع بين البحر وهذه البحيرة مارًا بجبل كاسيوس الذي يبعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً باى – حاحيروت . وكانت كل هذه البحيرات والمستنقعات الضحلة تستمد مياهها من النيل ، كما كانت مليئة بالحشائش والغاب وغيرهما من النباتات المائية . هذا ولم يحاول بروجش باشا أن يثبت في مذكراته الأخيرة مكان الكارثة التي حاقت بجيش فرعون على وجه الدقة ولكنه أشار إلى أنها قد حدثت – إذا كانت نظريته سليمة – على مقربة من أقصى الطرف الغربي من بحيرة سيربونيس أو في مكان ما على هذه البحيرة . وكانت باى – حاحيروت « ملتقى الخلجان » – أو كما تدل الكلمة في معناها « مدخل الخلجان » – تقع على الطريق إلى سوريا ، كما كانت تقع على مقربة من نقطة عبور المستنقعات من وإلى شاطىء البحر . وكان القدماء يعتبرون هذا المعبر وبحيرة سيربونيس في غاية الخطورة ، وإذا صدق قولهم ، فإن جيوشًا برمتها قد ضلت وفقدت في مستنقعاتها الغادرة .

وكان مصب الفرع التانيتي للنيل يقع إلى الغرب قليلاً من مدينة بورسعيد الحالية ، كما كان يقع الفرع البلوزى عند مدينة بلوز . ويقول سترابو « إن بين المصبين التانيتي والبلوزى توجد مستنقعات ممتدة كبيرة يقع في وسطها كثير من القرى . ولقد كانت بلوز نفسها محاطة بكثير من المستنقعات يطلق عليها البعض اسم باراثرا Barathra أي الحفر المائية والمستنقعات . وتقع على بعد أكثر من عشرين قضيبًا (والقضيب يزيد قليلاً على الميلين) من البحر . ويبلغ محيط دائرة هذه المنطقة عشرين قضيبًا . ولقد اشتقت اسمها من الوحل الذي يغمر المستنقعات . في هذه المنطقة يصعب الدخول إلى مصر ، أي من الجانب الشرقي المتجه ناحية بلاد الفينيقيين وجنوب فلسطين ، وعلى الجانب الذي تقع عليه بلاد العرب المتاخمة لها ، تلك البلاد التي يمر خلالها الطريق إلى مصر .

ويقول ديودورس في معرض الحديث عن الحملة التي قام بها أرتاكسيركيس أوخس على مصر سنة ٣٤٩ قبل الميلاد .

عندما وصل إلى البحيرة العظيمة (سيربوينس) ، نتيجة لجهله بهذه الأماكن .

فقد جزءًا من جيشه في المستنقعات التي تعرف باسم باراثرا . ولكن حيث إننا قد تحدثنا في الكتاب الأول عن طبيعة هذه البحيرة والأشياء الغريبة التي تحدث هناك فلا حاجة بنا إلى تكرار هذه الأشياء . وبعد أن عبر هذه الخلجان وصل إلى بلوز عند مصب الفرع الأول للنيل حيث يصب في البحر .

وهاك وصف ديودورس لهذه البحيرة :

« إن المناطق الواقعة شرق مصر محدودة جزئيًا بالفرع البلوزى ، ومحاطة جزئيًا بالصحارى والمستنقعات التي تسمى باراثرا . وتوجد بحيرة تقع بين سوريا ومصر وهي ضيقة للغاية ولكنها عميقة لأقصى درجة إلى حد يثير الدهشة ويبلغ طولها مائتي فرلونج[1] ويطلق عليها اسم سربون (سربونيس) . وإذا ما اقترب شخص منها يجهل طبيعتها فإنه يضل دون رجعة ، ذلك لأن القناة ضيقة للغاية ، ومحاطة بأكوام ضخمة من الرمال التي تلقيها الرياح الجنوبية – التي تهب باستمرار – في البحيرة فتغطى المياه وتكسبها لون الأرض الجافة ، حتى إنه ليس من المستطاع تمييزها عنها ، ولذا فالكثيرون ممن كانوا يجهلون طبيعة هذا المكان وضلوا الطريق قد هلكوا جميعًا ، ذلك أنه عندما يطأ الإنسان الرمل يهبط ويهوى من تحته شيئًا فشيئًا ، وكأي خداع شرير ، يغرى ويخدع هؤلاء الذين يطأونه حتى يفوت الوقت . وحينما يرون الخطر الذي يحتمل أن يقعوا فيه يشرعون في مساعدة بعضهم البعض ، ولكن دون أي أمل في العودة أو تجنب الخطر ، وذلك لأنه عند هبوطهم في الخليج يفقدون المقدرة

---

(١) الفرلونج يساوى ١/١ ميل أو ٢٣٠ ياردة .

على السباحة حيث توقف الأوحال كل حركة من حركات الجسم ، كما لا تكون لديهم المقدرة على الخوض إلى خارج المستنقعات بسبب عدم وجود شيء ثابت يركنون إليه لهذا الغرض . كما أن اختلاط المياه بالرمال يغير من طبيعة كليهما حتى إنه ليتعسر التجديف أو المرور بالقوارب فوقها . وعند وصولهم إلى هذا المضيق دون أي احتمال للمساعدة من أحد يغوصون مع الرمال إلى قاع الخليج عند حافة المستنقع ، ويطلق على هذا المكان المناسب لطبيعته اسم باراثروم .

هذا الوصف لاشك مبالغ فيه ولكنه يعطينا مع غيره من كتابات المؤرخين القدماء فكرة عن حالة البحيرة والمستنقعات والرمال اللينة في هذا الطريق الممتد ما بين مصر وسوريا . ويشير ميلتون Milton إلى هذا المكان الخطر في الأبيات التالية من ملحمة « الفردوس المفقود » :

خليج عميق يشبه ذلك المستنقع السربوني

ما بين دمياط وجبل كاسيوس العتيق

حيث غاصت جيوش برمتها

ومن النادر جدًّا أن يكون قد مر أوروبي من هذا الطريق في الأزمنة الأخيرة . ولقد قام مستر جريفيل ج. تشستر Greville Chester برحلة في شهر فبراير سنة ١٨٨٠ تحت إشراف (صندوق اكتشاف فلسطين) . ويقول في تقريره بشأن بحيرة سيربونيس :

« لقد حاولت مرارًا أن أقترب من البحيرة لأغمس يدي في مياهها ولكن عبثًا حاولت . ذلك أنه عندما كنت أقترب من الرمل الغادر وأصبح على مسافة ثلاث أو أربع ياردات سرعان ما يهوى تحت ثقلي فأضطر إلى الانسحاب خوفًا من أن يبتلعني الوحل من تحتي .

وفي مخطوطات التوراة القديمة كانت الكلمات التي ترجمت بالبحر

الأحمر هي (يم سوف) وتعني (بحر السوف) والكلمة العبرية (سوف) كما يقول اللغويون ، تعني « الأعشاب والبوص وسمار الحصر ونبات البردى » وهي تشير إلى منطقة صالحة للملاحة مغطاة بالنباتات المائية مثل بحيرة المنزلة ، وكانت تطلق على البحيرات والمستنقعات الواقعة في شمال شرق مصر ، كما يقول بروجش باشا ، وهو حجة في اللغات المصرية القديمة ولغات الأقطار المجاورة . وقد صنع تابوت موسى من السوف ، أي من السمار والبردى .

وكان البحر الأحمر يعرف في وقت خروج بنى أسرائيل باسم (يوما كوت) و (يوما سكوت) ولكنه لم يعرف باسم يم سوف في أي حقبة من الحقب . وفي الإنجيل الألمانى الحديث يعرف في الشرح الهامشى باسم « بحر الأعشاب » .

وكان المرحوم الدكتور فانديك المدرس بالكلية الأمريكية بسوريا من أعظم الباحثين العرب وأبرزهم . وتستخدم ترجمته للإنجيل في جميع البعثات البروتستانتية في البلاد التي تتكلم العربية . وقد أخبر مؤلف هذا الكتاب خلال حديث له في هذا الشأن أنه تتبع النسخة القديمة فوجد أن (يم سوف) قد ترجمت إلى العربية بكلمات معناها (بحر الأعشاب) أو (بحر البوص) رغم أن مسألة مرور الإسرائيليين بأي طريق آخر سوى طريق البحر الأحمر لم تكن قد أثيرت في ذلك الوقت .

وقد أصبح من المعروف جيدًا أنه في المواضع التي تذكر فيها كلمة البحر بمفردها في القصة أو الحديث فإنها تعنى البحر الأبيض المتوسط . وإذا أخذنا من التوراة كلمة (البحر الأحمر) لن يكون هناك شيء تقوم عليه النظرية القائلة بمرور بنى إسرائيل من هذا البحر المعروف بهذا الاسم ، وتصير لنا الحرية في تحديد أي طريق تدل عليه الحقائق . هذا والبحر الأحمر يمتاز بمياهه الصافية العميقة دون أي نباتات عشبية أو بوص أو سمار .

وإذا افترضنا أن بروجش محق في تحديده للمواضع التي ذكرت في التوراة

فإن المصريين يكونون قد لحقوا ببنى إسرائيل حينما كانوا معسكرين على مقربة من باى – حاحيروت، «الدحل إلى الخلجان» «ما بين ميجدول والبحر» (الأبيض).

ولقد كان هذا المكان يبعد قليلاً عن غرب الطرف الغربي لبحيرة سيربونيس وعلى مقربة من « الأماكن الخطرة » أي الخلجان أو الحفر التي ذكرها الجغرافيون القدماء . ولقد كان من العسير الاقتراب منها حتى في هذه الأيام التي انقطعت عنها مياه النيل عدة سنين ، إذ أن من الصعب الاقتراب من آثار بلوز القديمة .

وتعتبر تجارب مستر تشستر في زيارة هذا المكان عملاً بطوليًا نادرًا قلما يحاول القيام به إنسان ، كما أن وصفه المستنقعات المترامية الواقعة في الشرق على مقربة من البحيرة تؤكد إلى حد ما الأقوال التي وردت في كتابات ديودورس الذي يقول : « إن سطح المستنقع الذي يمتد لمسافة أميال كان مغطى برمال جارفة كانت تغوص فيها الأقدام كما تغوص في كعكة .. لقد غُصت حتى ركبتاي تقريبًا في الوحل » .

وكانت البحيرات الضحلة ، كما بينت سابقًا ، ممتدة على طول الساحل وكان هناك ذراع أو فرع من هذه المياه الضحلة يمتد شرقًا من البلوز إلى المنطقة المسماة « بالخلجان » وهي الموضع الوحيد الذي يمكن العبور عليه من الداخل إلى شاطىء البحر . ولما كان فرعون يعلم بالموضع الذي لجأ إليه عبيده الفارون فقد قال : « لقد وقعوا في أحبولة الأرض » ذلك أن الصحراء كانت في الجانب الذي كان يقترب الجيش منه ، وكان البحر أو المستنقع في الجانب الآخر .

وحينما شعر بنو إسرائيل بأن الجيش يتعقبهم « تملكهم الفزع » ، و « تضرعوا إلى الله » ثم « مد موسى يده فوق البحر ، وجعل الله البحر ينحسر بواسطة ريح شرقية قوية هبت طوال الليل وأحالت البحر أرضًا يابسة تشق المياه » .

ولو أن رياحًا شرقية قوية هبت طوال الليل لكانت قد حركت مياه ذلك الذراع الضيق جهة الغرب ولكانت قد خلفت أرضًا يابسة فقط إذ كانت المياه ضحلة بطبيتها في هذا المكان . ولم يكن هناك مكان في البرزخ فيما عدا المكان الذي يقع بمحاذاة شاطىء البحر الأبيض لا تستطيع رياح شرقية أن تحدث فيه هذا الأثر . ولم يكن من الممكن في أي من الأماكن التي ذكرت بعد ذلك ، فيما يختص باكتشاف الأماكن التي يحتمل مرور الإسرائيليين منها – وأحدها يقع بالقرب من شالوف جنوب البحيرة المرة الكبرى والآخر يقع بين هذه البحيرة وبحيرة التمساح – لم يكن من الممكن أن تحدث رياح شرقية مثل هذه النتيجة ، إذ إنه في كلتا الحالتين كانت تهب مباشرة عبر جزء ضيق من المياه .

ولم يكن ثمة سبب في استخدام عبارة : « جعل البحر ينحسر بواسطة ريح شرقية قوية » ، إذ لم يكن لهذا الريح أثر فعال في إحداث هذه النتيجة ، كما لم يكن له أي أثر في المياه الشديدة الغور في ذراع البحر الأحمر الذي يمتد إلى السويس حيث يحدد مفسرو التوراة ، حتى وقت قريب ، مكان مرور بنى إسرائيل .

أما العبارات ، « وانشقت المياه » ، و « وكانت المياه جدارًا لهم على يمينهم وعلى يسارهم » ، ومثل هذه العبارات يمكن تفسيرها بسهولة . ولو أنه لم يمكن تفسيرها لما أصبح لها أهمية كبيرة في أذهان هؤلاء العلماء الذين يدركون طبيعة اللغات الشرقية المليئة بالمجاز ، كما يدركون الطريقة التي يعبر بها الناس عن أنفسهم .

حينما جرفت الرياح الشرقية تلك المياه من الفرع الشرقي لتلك المساحة المائية الكبيرة عند لوز التي تعتبر الآن كذراع لبحيرة المنزلة ، أمكن لبنى إسرائيل ، الذين لم يكن لديهم عربات ينتقلون بها ، أن يختاروا المكان المناسب ويمروا منه سالمين ، فقد كانت المياه منشقة في موقع كانت فيها ضحلة

لدرجة أنها تركت مكانًا يابسًا يمكن العبور منه .

« وكانت المياه جدارًا لهم » تعني ببساطة أنها كانت وسيلة دفاع لهم لا سدًّا مرتفعًا في وجههم . وبسبب هذه المياه ، بل بسبب قيعانها الموحلة ذات الرمال اللينة ذات اليمين وذات الشمال ، لم يستطع المصريون أن يقتربوا من كلا الجانبين . وهكذا كانت هذه المياه بالنسبة للإسرائيليين جدارًا يدافع عنهم .

وفي الصباح الباكر توقفت الرياح عن الهبوب وبدأت المياه في الرجوع .

ولقد تعقب المصريون المزودون بقوة قوامها ستمائة عربة ثقيلة صغيرة بني إسرائيل ليلاً حيث ضلوا الطريق في الظلام ووقعوا في خطر الأوحال والمستنقعات الغادرة الواقعة في « الخلجان » ، وقد نزع الله عجلات عرباتهم فأخذوا يجرونها في صعوبة ومشقة ، ثم عاد البحر إلى قوته ، أي إلى العمق الطبيعي للمياه ، فغلب المصريون على أمرهم وقضي عليهم كجيش منظم .

ووصف نزع العجلات وصعوبة جر هذه الأدوات الحربية الثقيلة إنما ينطبق على جيش قد تلطخ بالأوحال أكثر مما ينطبق على جيش قد غلب على أمره بواسطة كميات هائلة من المياه تتساقط عليه مما تجمعت في كلا الجانبين حتى وقت نزول الكارثة . كما تصوره دائمًا القصص والمواعظ الدينية القديمة .

وقبل وصول المصريين كان الإسرائيليون قد عبروا مرحلة الساحل الرملي ما بين البحر والبحيرة عند الطرف الشرقي حيث كان هناك حصن في الأزمنة القديمة . وحينما واجهتهم هذه العقبة أو حينما شاء ألا يمروا عن طريق فلسطين كان لابد لهم أن يرتدوا إلى الجنوب ويعبروا البحيرة في بعض أماكنها الضحلة . في هذه الحالة كان لابد من حدوث نفس النتائج التي تمخضت عن هبوب الرياح الشرقية على مكان رحيلهم .

وكانت بحيرة سيربونيس في بدايتها تمتلىء منذ عهد بعيد من مياه فرعي

النيل البلوزى والتانيتي حيث كانت بطبيعتها بحيرة جافة لا تحتوى إلا على بعض المستنقعات . وفي حوالي عام ١٨٧٦ توجه بعض صيادى بحيرة المنزلة إلى تلك المنطقة الصحراوية الموحشة والخالية تمامًا من السكان وحفروا بها قناة من البحر الأبيض إلى مقر البحيرة القديمة عند طرفها الشرقي بقصد استعمالها بحيرة للصيد . كان هذا المكان في الأزمان الغابرة منفذًا للبحر كما هو الآن بالنسبة لبحيرة المنزلة . أما بحيرة سيربونيس فقد عادت إلى مجاريها بعد أن جفت زمنًا طويلاً ، وهي بحيرة يبلغ طولها حوالي أربعين ميلاً ، كما يبلغ عرضها في بعض الأماكن حوالي خمسة أميال . وهي ضحلة للغاية كغيرها من البحيرات الواقعة على الشاطىء .

ولقد وجد مستر « تشستر » أثناء زيارته للبحيرة أنها مليئة بالمياه الملحة التي لا تحتوى على نباتات المياه العذبة ، ولم يجد سوى القليل من النباتات البحرية ، كما أشار إلى حفر القناة وإلى حقيقة جفاف البحيرة في الأزمان السالفة ، ولكنه يتجاهل كلية النتائج التي ترتبت على ظروف البحيرة التي طرأت عليها . وهو يفترض أن حالة البحيرة في العصور الماضية كانت بنفس الحالة التي وجدها عليها ، ولذا فهي لا تشتمل على نباتات المياه العذبة ، ولا يمكن أن تكون هي « يم سوف » أو بحر العشب والبوص والسَّمار . ولقد عثر على أخطاء في الخريطة التي رسمها بروجش للبحيرة وذلك لأنها أخذت عن الخرائط القديمة ولم تكن صحيحة بعد أن امتلأت البحيرة بالمياه مرة ثانية .

ولقد أرسل تشستر إلى الخارج للحصول على حقائق تثبت خطأ نظرية بروجش باشا التي أذهلت بعض مدارس اللاهوت القديمة وجلت من عدد كبير من المواعظ الدينية التي كانت تعطى صورًا حية عن ابتلاع مياه البحر الأحمر العميقة الغور لجيش فرعون ، جعلت من هذه المواعظ قصصًا لا قيمة لها . وعلى كل فإن الحقائق التي أوردها تؤيد رأى بروجش فيما يختص بالطريق العام الذي سلكه الإسرائيليون في الخروج .

لم ينتظر بنو إسرائيل إعادة تنظيم القوات المصرية المغلوبة :

« وهكذا أتى موسى ببنى إسرئيل من البحر الأحمر « يم سوف » وخرجوا إلى صحراء شور[1] وساروا ثلاثة أيام في القفار ولم يعثروا على ماء » . وشور هذه تعنى جدار بينما إيتام هي عبارة عن قلعة . ولذا فإن صحراء شور أو إيتام هي صحراء الجدار أو القلعة . ويقول بروجش إن هذه الصحراء تقع في الشمال الشرقي من مصر حيث تصل بحيرة سيربونيس بالطرف الشرقي من بحيرة المنزلة ، ولكن لم يعرف أي جزء من الصحراء الممتدة إلى الشرق أو المجاورة للبحر الأحمر بهذه الأسماء . كما يقول إن الغرض من كتابته هو « أن يلفت نظر الناس إلى النتائج التاريخية التي ترتبت على سجلات الآثار والكتابات الموجودة على ورق البردى والتي تتعلق بهذا الموضوع » .

ولقد وجهت انتقادات عديدة إلى بحث بروجش الخاص بطريق الخروج . ومن النتائج التي ترتبت على فحص هذا الموضوع ومناقشته أن كل الأشخاص المختصين الذين درسوا هذا الموضوع على ضوء الاكتشافات الحديثة قد أقلعوا تمامًا عن النظرية القديمة القائلة بمرور بنى إسرائيل خلال أي بقعة من البقاع التي تكون البحر الأحمر الآن .

ويمكن الاعتراض على أي طريق من الطرق المقترحة . وعلى كل فإن أي طريق من الطرق الأخرى مؤيد كذلك بأسانيد مقنعة كتلك التي أوردها هذا الباحث المخلص المنصف . ولا يوجد ما يجزم بأن طريق الخروج المذكور في التوراة هو طريق بيتوم ، وهي المدينة التي قام ببنائها بنو إسرائيل لرمسيس .

فهذه المدينة تقع في أقصى الجنوب بحيث لا تناسب الطريق المزعوم . ولقد عثر على كلمة بى – توم أو بى – أتوم . وتوم أو أتوم كان إلهًا ، وهو إله الشمس الذي كان يعبد في هليوبوليس وفي كل الجزء الواقع شرق الدلتا .

---

(١) أو كما ذكر في السفر الثالث والثلاثين صحراء إيتام .

وكلمة بى معناها المسكين أو البيت ، ولذا فإن بى - توم وبى - أتوم أو بيتوم تعنى بيت توم . وحيثما كان يعبد توم كان هناك بيت توم ، فالعبارة كانت تستخدم بنفس الطريقة التي كان يستخدمها الناس في البلاد المسيحية عند قولهم « بيت الرب » ، وقد تكون المدينة التي تتحدث عنها هي مدينة بيتوم التي ذكرت في الإنجيل ، أو قد تكون مكانًا كان يعبد فيه توم أي مبنى أو مكان أقيم للرب .

هذا وإنني لم أقم بسرد الحقائق الرئيسية التي ذكرها بروجش باشا ، كما لم أقصد إبداء أي رأي فيما يتعلق بطريق الخروج ، وإنما أشرت فقط إلى الحقائق الضرورية لإظهار علاقة هذا الموضوع بزيارتي لبحيرة المنزلة . ولقد قمت بذلك نظرًا لأنني لم أعثر على أي إشارة في مختلف الكتابات لانحسار ذلك الخط الساحلي العجيب وعن تلك الأذرع الجافة لتلك البحيرات الضحلة المليئة بالأعشاب بسبب هبوب رياح قوية بصفة مستمرة . ومن الواضح أن الموضوع لم يجذب انتباه بروجش باشا قط . ولكن ما من شك في أن الحقائق التي قام بسردها تعتبر ذات أثر هام فيما يتعلق بمسألة طريق الخروج ، وخاصة إذا أخذنا في الاعتبار القصة الواردة في الإنجيل .

وكل الطرق الأخرى تحتاج إلى الافتراض بأن خليج السويس في ذلك الوقت كان يمتد شمال نقطة انتهائه الحالية . ولسنا نملك الدليل على هذا ، وليس هناك من أساس معقول يمكن أن نبنى عليه هذا الافتراض . ولو فرض وجود مثل هذا الامتداد لكان امتدادًا مباشرًا نحو الشمال ، وفي هذه الحالة أي مفعول كانت تقوم به الرياح الشرقية في إظهار تلك النتائج الواردة في القصة المقدسة ؟ وأي سبب يمكن إبداؤه في تفسير هذه الكلمات : « لقد جعل الرب البحر يرتد بسبب رياح شرقية قوية طيلة تلك الليلة » ؟ زد على ذلك أن هذا الذراع من البحر لابد أنه كان مالحًا لاينبت الأعشاب لضرورية لتكوين بحر من الأعشاب « يم سوف » .

هذا ولا يمكن اعتبار مسألة طريق الخروج محلولة . وعلى كل فإن الاعتراض الوحيد على الطريق الشمالي هو الاعتراض المبنى على افتراض اكتشاف موقع بيتوم . أما الادعاءات الأخرى الخاصة بالطرق الأخرى ، فليست مبنية على افتراضات بعيدة الاحتمال فحسب بل هي محل اعتراضات أخرى لا يمكن الإجابة عليها .

ولقد طلب من المستر وليام هـ . فاندربلت William H. Vanderbilt أن يرأس الاكتتاب ولكنه تطوع بمحض إرادته أن يقوم بكافة النفقات اللازمة للقيام بهذا العمل- وبعد تبادل بعض الرسائل مع المستر ديكسون عن المبلغ المطلوب لذلك قبل المستر « فاندربلت » كتابة العقد مع المستر ستبنز لهذا الغرض . ولم تمض ثمانية أيام على نشر التصريح الخاطىء حتى أرسل المستر ستبنز الخطاب التالي إلى وزارة الخارجية بواشنطن .

نيويورك في ١٥ أكتوبر سنة ١٨٧٧.

إلى السيد المحترم م . افارتس وزير الخارجية .

سيدى ..

أتشرف بأن أرفق طيه نسختين من الخطاب الموجه اليوم إلى سمو خديوى مصر بشأن موضوع المسلة التي تشرفت بلفت نظركم إليها أمس .

أرجو أن تتكرم بإرسال نسخة منه إلى قنصل الولايات المتحدة بالإسكندرية مصحوبة بالتعليمات اللازمة لانتظار ممثل المستر ديكسون المذكور في الخطاب حاملاً معه نسخة من الخطاب ، وعند وصول هذا المندوب أن يصحبه إلى حضرة الخديوى أو يتبع أي طريقة أخرى مناسبة لكي يشهد على صحة الخطاب وعلى صحة حامله .

المخلص

توقيع هنرى .ج. ستبنز

وعند تسلم هذا الخطاب وجه إلى مستر افارتس وزير الخارجية الرسالة التالية ونسخة من خطاب مستر ستبنز ، ونسخة أخرى من الخطاب الذي اقترح تقديمه إلى سمو الخديوى .

وزارة الخارجية ..

واشنطون في ١٩ أكتوبر ١٨٧٧..

رقم ٨٥

السيد المحترم ا. ا. فارمن .. الخ

سيدى ..

تلقت الوزارة خطابًا من المستر هنرى . ج. ستبنز مدير مصلحة المتنزهات العامة لمدينة نيويورك فيما يختص بالمسلة التي ترغب حكومة الخديوى في إهدائها لمدينة نيويورك بالشروط المناسبة لنقلها وإقامتها في أحد الميادين العامة . ولقد ضمن المستر ستبنز في خطابه نسخة من خطاب سوف يقدم الأصل إلى الخديوى عن طريق ممثل معتمد من المستر ديكسون المهندس الموكول إليه عملية نقل المسلة المعروفة بمسلة كليوباترا إلى انجلترا ، وهو يطلب الإذن من هذه الحكومة في تقديم هذا الخطاب .

وهذه نسخة من خطاب مستر ستبنز ومحتوياته . وبالنظر إلى تحقيق هذه الخدمة العامة فإنك مكلف باستخدام كل الوسائل الممكنة لتحقيق الرغبة التي أبداها مستر ستبنز في خطابه .

خادمكم المطيع

امضاء م. افارتس

المرفقات : خطاب مستر ستبنز إلى مستر افارتس المؤرخ ١٥ أكتوبر سنة ١٨٧٧ مع مرفقاته .

نسخة من خطاب المستر ستبنز المقترح إرساله إلى الخديوى

إلى سمو الخديوى ..

إن السرور العظيم الذي عم العالم المتمدين إزاء خبر انتقال المسلة المعروفة

باسم « مسلة كليوباترا » إلى انجلترا تحت رعاية حكومة سموكم قد أثار في الولايات المتحدة الأمريكية وعلى الأخص لدى أهالي مدينة نيويورك شغفًا عميقًا زاد منه التلميح لشعب مدينة نيويورك عن طريق مستر ديكسون الذي يقطن في لندن بأن سموكم سوف تنظرون بعين العطف إذ قدم طلب خاص بمسلة أخرى معبرًا عن سمو إرادتكم النبيلة وعواطفكم الصادقة بإهداء مدينة نيويورك المسلة المناظرة لها القائمة الآن بالإسكندرية لإقامتها في أحد الميادين العامة العظيمة . وأملاً في أن مثل هذا الطلب سوف يقابل من سموكم قبولاً حسنًا فإن أحد كبار أعيان نيويورك قد أبدى رغبته في تمويل هذا المشروع بكافة اللوازم الضرورية له فيما يتعلق بنقل هذه المسلة عبر المحيط الأطلنطى ووضعها في الموقع اللائق بها . وذلك لتبقى شاهدًا ينطق بلسان روحكم الحرة المستنيرة التي أشرفتم بها على أعمال المملكة الجليلة القديمة التي استؤمنتم عليها بما أوتيتم من سطوة ونية صادقة نحو أحدث الدول العظيمة في العالم .

ولقد طلب منى هذا المواطن الكريم الذي يسعى للمصلحة العامة والذي أتحدث عنه بصفتى مديرًا لإدارة المتنزهات العامة بمدينة نيويورك لعدة سنين ، طلب منى أن أتقدم بهذا الطلب الرسمي عن طريق معالى وزير خارجية الولايات المتحدة ، وذلك لكي أبلغ سموكم أنه إذا كان يسركم أن تعتمد نقل المسلة وإقامتها هنا فإننى على استعداد لأن أوكل مستر جون ديكسون في الحال لكي يباشر العمل . وإنى لعلى يقين بأن سموكم ستسمح لى بأن أقول لكم إن إنجاز مثل هذا العمل سيحييه كل فرد من أفراد نيويورك ، بل كل شعب الولايات المتحدة ، كدليل جديد على الحكمة والكياسة التي تبديها سموكم في رعاية هذا المشروع القوى الذي ربط البحر الأبيض والبحار الهندية ، وكرابطة جديدة تثير الاهتمام وتربط بين جمهورية الولايات المتحدة بحكومة سموكم وبالشعب المصرى ومملكته .

ولى الشرف في أن أكون خادم سموكم المطيع ..

توقيع : هنرى ج. ستبنز

نيويورك في ١٥ أكتوبر سنة ١٨٧٧

هذا ولقد أذهلتنى رسالة الوزير . فلقد بلغنى ما نشر في نيويورك خاصة بالمسلة ولكننى كنت أدرك أن المسألة جديدة تمامًا في مصر . ولذا أرسلت في الحال الرسالة الآتية إلى المستر افارتس ، كما أرسلت إليه في نفس الوقت خطابًا خاصًا وضحت فيه اقتراحاتى الخاصة بالوسائل الواجب اتباعها في هذا الموضوع :

رقم ١٩٦

وكالة الولايات المتحدة وقنصليتها العامة ..

القاهرة في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٧٧

إلى السيد المحترم وليم م. افارتس وزير الخارجية

واشنطن د. س.

سيدى ..

أتشرف بأن أحيطكم علمًا بأننى قد تسلمت رسالتكم رقم ٨٥ التي تتضمن نسخة من خطاب المستر هنرى ستبنز مدير إدارة المتنزهات العامة لمدينة نيويورك المرسلة إلى سمو الخديوى وكذلك نسخة من الخطاب المرسل من نفس الشخص إليكم بشأن المسلة المقامة في الإسكندرية والمرغوب نقلها من الإسكندرية إلى نيويورك .

وعند وصول وكيل المستر ديكسون لن أعدم أن استخدم ، حسب تعليماتكم ، كل الوسائل الممكنة لتنفيذ رغبات مستر ستبنز .

وعلى كل فإننى أخشى أن تكون هناك معارضة جديدة إزاء نقل هذه المسلة من الإسكندرية ولو أن الخديوى يرغب شخصيًا في إرضاء رغبات أهالى مدينة نيويورك إذ أنه لا يفكر في رفض هذه المنحة لهم . هذا وقد كانت المسلة التي نقلها الإنجليز ملقاة منذ سنين ومغطاة بالرمال ، بل كانت عديمة القيمة

لدى أهل مدينة الإسكندرية . أما المسلة القائمة الآن والأثر المعروف باسم « نُصُب بومبى » فهما الأثران الباقيان في المدينة ولهما أهمية كبرى لدى السائحين .

وإذا كان من العسير الحصول على مسلة الإسكندرية فمن الأفضل أن تقدم طلبًا خاصًا بأحد الآثار الموجودة بالأقصر أو الكرنك .

أما المسلة الشبيهة بهذه المسلة والتي نقلها الفرنسيون عام ١٨٣٣ وأقاموها في باريس في ميدان الكونكورد فكانت تقع على بعد خطوات قليلة من شاطىء النيل بمدينة الأقصر . كما توجد مسلتان أخريان عند الكرنك ، على بعد ميلين جنوبى الأقصر وعلى بعد خمسين خطوة من شاطىء النيل . وأمر نقل إحدى هاتين المسلتين قد يكون عمليًا . وفي حالة الفشل في الحصول على المسلة القائمة بالإسكندرية فلا أقل من أن يأخذ المهتمون بالأمر في نيويورك في اعتبارهم هذه المسألة .

ولى الشرف في أن أكون خادمكم المطيع ..

توقيع : ا. ا. فارمن

وفي نفس الوقت كان المستر ديكسون قد أحيط علمًا بالخطوات التي ستتخذها الأطراف المعنية بنيويورك والعمل الذي ستقوم به وزارة الخارجية . ولقد أدهشته الكيفية التي استخدم بها اسمه .

فلقد ذكر اسمه مباشرة في خطاب مستر ستبنز الذي اقترح تقديمه إلى الخديوى على أنه لمح بأن سموه قد يقبل إهداء مسلة إلى مدينة نيويورك . هذا ولم يخاطب المستر ديكسون الخديوى البتة في هذا الموضوع كما ذكرنا سابقًا . و كان ملمًا بالأمور الدبلوماسية وآداب السلوك بحيث يدرك أنه لا يليق به كمواطن إنجليزى له صفة شخصية فحسب أن يطلب من الخديوى صنيعًا بالنيابة عن مواطنى أي دولة ، حتى ولو كانت دولته .

ولو كان لدى الخديوى أي نية لإسداء صنيع إلى شعب الولايات المتحدة لما لمح بهذه الحقيقة إلى أحد رعايا دولة أخرى بدلاً من التلميح بها إلى الممثل المعتمد لهذه الدولة لدى حكومته . ولقد اتخذ المستر ديكسون إجراءات عاجلة لإبلاغ الأطراف المعنية في نيويورك بخطئهم ، وخشية أن أقوم بتنفيذ التعليمات التي تلقيتها من وزارة الخارجية كتب إلى الخطاب التالى :

1 – لورانس بولتن هـ شارع كانون

لندن أ. س.

١٦ نوفمبر ١٨٧٧

إلى جناب القنصل العام للولايات المتحدة

مصر ..

سيدى ..

أعتقد أنه قد وافتكم رسالة من السيد الوزير مستر افارتس يطلب منكم فيها التأكد من حكومة سمو الخديوى عما إذا كانت مستعدة للموافقة على نقل إحدى المسلات إلى الولايات المتحدة ، وتقوم بإهدائها لهذا الغرض .

كل هذا لا غبار عليه ولكن اسمى قد اقترن بهذه المسألة كما لو كنت متعهدًا لتوريد المسلات لدى سموه !! وإنى لأعتقد أن هذه المسألة قد بنيت على ملاحظة عابرة بأنه إذا كانت الولايات المتحدة ترغب في إحدى المسلات فإنني أظن أنه من الممكن الحصول على واحدة . وقد تعهد مستر فاندربلت بالقيام بكافة المصاريف .

وإنك لترى أن رسالة مناسبة من وزير خارجية الولايات المتحدة قد توفى بالغرض المطلوب ، إلا أن اسمى أو اسم أي شخص آخر لا ينبغى أن يذكر .

ولقد كتبت إلى الولايات المتحدة موضحًا اقتراحاتي ، ولسوف تصلك رسالة معدلة . وفي هذه الأثناء لو استطعت الحصول على إحدى المسلات كان بها ، ولكننى أتوسل إليك ألا تذكر اسمى على أننى أنا الذي اقترحت هذه الفكرة . لسوف يسرنى أن أتعاون معكم في المشروع الجديد بيد أن سمو الخديوى قد عاملنى بكل احترام لدرجة أنه لا يمكن معها أن أسمح لنفسى ، مهما كان الثمن ، أن أجازف بالإساءة إليه ، وهو الأمر الذى أخشى أن تحدثه الرسالة المشار إليها .

ولى الشرف أن أكون خادمكم المطيع ..

توقيع : جون ديكسون

ولقد تسلمت خطاب مستر ديكسون . الذي أرسلت نسخة منه إلى المستر افارتس . عقب إرسال خطابي إلى المستر افارتس في ٢٤ نوفمبر . كما انتظرت أن تصلنى تعليمات أخرى ولكننى لم أتلق أية تعليمات أو اتصال بهذا الموضوع من أي مصدر .

وعند تسلم رسالة المستر ديكسون المرسلة إلى السلطات المختصة في نيويورك صُرف النظر عن مسألة المسلة برمتها . ولقد ساد صمت عميق بعد نشر هذا الموضوع في الصحف في أكتوبر سنة ١٨٧٧، فلم يشر إليه بعد ذلك في أي صحيفة من صحف نيويورك لمدة سنة ونصف سنة ، وحتى بعثت برسائلى في مايو سنة ١٨٧٩ إلى وزارة الخارجية أبلغها انتهاء المفاوضات التي أجريتها شخصيًا بنجاح . ولم يصل المستر ديكسون أو وكيله أو نسخة من خطاب مستر ستبنز .

ولقد فحصت أثناء رحلتى مع الجنرال جرانت بالوجه القبلى تلك المسلة القائمة بالأقصر ومسلة الكرنك فيما يتعلق بإمكان نقلهما . وكان قرارى هو أن المسلة الوحيدة التي يمكننا الحصول عليها من مصر إنما هي المسلة الكائنة بمدينة

الأقصر . ولم يكن ليفكر أحد في نقل المسلة الموجودة بهليوبوليس التي أقيمت قبل مسلة كليوباترا بنحو ألف عام والقائمة في مكانها الأصلي - وهي أثر قائم يدل على موقع تلك المدينة الشهيرة في الأزمان السالفة ، مدينة زون .

هذا وأكبر المسلتين بالكرنك هي أكبر مسلة معروفة في الواقع وتقع في المكان الذي وضعتها فيها حتشبسوت منذ ثلاثة آلاف وأربعمائة سنة ، وتقع المسلة الصغرى على مقربة منها ، وهي مسلة تحتمس الأول الذي نقلت مومياؤه إلى متحف القاهرة . وهذه المسلة قد كسر أحد أركانها ، كما أنها كانت مشقوقة بشكل لا يسمح بنقلها دون تعرضها لضرر آخر . أما المسلات الأخرى في مصر ، فيما عدا تلك التي تهشمت ، فهي مسلةالإسكندرية ومسلة الأقصر .

ولقد أخبرت الجنرال جرانت عن الرسالة الخاصة بالحصول على إحدى المسلات وطلبت منه إبداء رأيه في موضوع محاولة الحصول على إحداها ، ذلك لأن أهالى نيويورك قد ضربوا صفحًا عن التفكير فيها ، فأجابنى بأنه لا يرى مانعًا من أن أجد للحصول على إحدى هذه المسلات إذا كان هذا ممكنًا .

وفي ٤ مارس تحدد ميعاد مقابلتي مع الخديوى في قصر عابدين لعرض المسألة عليه . وكنت أعرف أن طلبى لن يرفض بطريق مباشر ، فإن أهل الشرق وعلى الأخص الطبقات المستنيرة فيه على جانب كبير من الأدب وليس لديهم الطريقة الانجلو سكسونية العامة في المعاملات . ونادرًا ما يكون رفضهم باتًا في أي طلب أو مسألة . وتقضى المجاملة في معاملة ممثل دولة من الدول الأجنبية أن يؤخذ طلبه في الاعتبار وألا يتلقى إجابة سريعة ما لم تكن إجابة ملائمة .

ولقد أحطت سموه علمًا بأن الشعب في الولايات المتحدة يرغب في الحصول على إحدى المسلات القديمة من مصر وأن رجلاً ثريًا من نيويورك على استعداد تام للقيام بكافة مصاريف نقلها وإقامتها في تلك المدينة .

ثم ذكرت مسلة باريس ومسلة لندن ورغبة الجمهور الملحة في نقل إحدى هاتين المسلتين إلى عاصمة ديارهم . ولقد أوضحت إبان المناقشة أن أمتنا كانت صغيرة وأن ما تقوم به من الأعمال حديث العهد ، ولذا فإن أثرًا واحدًا من الآثار المصرية سوف يكون له قيمة أكبر في الولايات المتحدة عنها في إنجلترا وفرنسا . ولفت النظر إلى مسلة الإسكندرية على أنها أنسب المسلات للشحن ، ثم أضفت قائلاً إنه إذا كان سموه سيطوق عنقنا بمثل هذه الهدية فإنه ليسرنا أن نتقبل أية مسلة يقع اختيار سموه عليها .

ولقد وجدت أن المسألة حديثة العهد بالنسبة للخديوى إذ اعترته الدهشة عند سماعه الاقتراح لأول مرة . وعلى كل فقد قال ، بعد توجيه عدة أسئلة وإبداء عدة ملاحظات ، إنه يسره كثيرًا أن يحقق رغباتي وأن يعمل ما في طاقته لإرضاء شعب الولايات المتحدة . وبدا لى أن المسألة قد دخلت في طورها الجدى . أما فيما يختص بمسألة الإسكندرية فلم يفكر في ذكرها وذلك بسبب معارضة أهالى المدينة في إزالتها إلى أي مكان آخر ، فلم أذكرها بعد ذلك في حضرة سموه ولو أنها كانت هي المسلة التي أعطيت لنا أخيرًا . وعندما استأذنت الخديوى في الانصراف قال لى إنه من الممكن لفت نظره إلى الموضوع في وقت آخر مقبل .

وأرسلت في الحال رسالة إلى المستر افارتس أبلغه بالموضوع وتاريخ هذه المقابلة . ولقد جرت محادثات أخرى مع الخديوى بشأن هذه المسألة دون أن نتوصل إلى نتائج محددة . وبعد ذلك بفترة وجيزة كنت حاضرًا وليمة عشاء لدى الخديوى بقصر عابدين ، وفي هذه المناسبة صدرت منه أول إشارة بالموافقة على المسلة . وكان عدد الحاضرين يبلغ ما بين ثلاثين وأربعين شخصًا من بينهم المسيو فرديناند دلسبس . وبعد تناول العشاء أخذ المدعوون يتجاذبون أطراف الحديث في جماعات . وكان الخديوى الذي كان يتنقل من مكانه على الدوام يبدو عليه أنه في حالة نفسية أحسن مما كان يبدو عليه عادة في أيام الضائقة المالية المحزنة . فاقترب مني ودعاني إلى الجلوس ، وكانت أول كلمات يوجها

إلى : حسنًا ، يامستر فرمان ، أو ترغب في الحصول على مسلة . فأجبت بأنه يسرنا كثيرًا الحصول على واحدة .

ثم أخذنا نتجاذب أطراف الحديث في الموضوع لبضع دقائق دون أن يبدى سموه أقل إشارة تفصح عن نواياه ، وجاء شخص لينضم إلينا فنهضنا ثم افترقنا بعد ذلك بقليل .

وبعد ذلك ببضع دقائق كنت أتحدث مع المسيو دلسبس . وكان هذا قبيل إقدام الخديوى على تكوين لجنة تحقيق لمعرفة صافي إيرادات الدولة بقصد تحديد سعر الفوائد التي يمكن دفعها للدين العمومي . وكان هناك نقص ذريع في محصول الشتاء في حيز كبير من الوجه القبلى ناشئًا عن انخفاض النيل الذي لم يسبق له نظير في السنة الماضية . وكان هذا هو السبب في استحالة دفع الفوائد بسعر ٧ على دين يقرب من مائة مليون جنيه مصرى ، وكان هذا هو رأى الخديوى . ولذا دعا سموه المسيو دلسبس لرئاسة اللجنة . ولقد انضم إلينا الخديوى أثناء محادثتنا . والتفت المسيو دلسبس نحوه وكرر عليه ما كنت قد ذكرته عن أفضل الطرق لتحديد قيمة الإيرادات ، إلا أن سموه لم يسمع أو بعبارة أخرى لم يرغب في أن يناقش هذا الموضوع ، فقطع المناقشة بقوله « إن المستر فارمن يرغب في الحصول على مسلة » . فأجاب المسيو دلسبس فورًا . وكان محدثًا لبقًا مؤدبًا ، حسن الطبع ، سريع الإجابة – « إن ذلك سيكون شيئًا رائعًا بالنسبة لشعب الولايات المتحدة » . وبعد برهة من التردد أضاف الخديوى قائلاً : « إني لا أرى مانعًا من إعطائهم واحدة وأن ذلك لا يضرنا في شيء ، ولسوف يكون شيئًا عظيم القيمة لديهم » . ولقد قضى المسيو دلسبس في مصر مدة طويلة حتى أصبح يعد نفسه واحدًا من أهلها . ولذا عندما كان يتكلم عن الشئون المصرية كان يقول « نحن » و « شئوننا » . ثم قال الخديوى ببساطة : « إننى أفكر في المسألة » ثم استدار لكي يتحدث مع شخص آخر كان يقترب منا .

وحينما قمت بزيارته لتناول العشاء على مائدته بعد يومين أو ثلاثة ، ذكرت مسألة المسلة مرة ثانية ، فقال سموه إنه قد عزم على أن يمنحنا واحدة ، ولكن ليست مسلة الإسكندرية ، ثم أضاف قائلاً إنه سيعمل اللازم للحصول على المعلومات الضرورية ، ثم يخبرني بعد ذلك بقرار . هنالك دعا سكرتيره الخاص فورًا وكلفه بكتابة مذكرة إلى بروجش بك الذي أصبح فيما بعد بروجش باشا يطلب فيها قائمة ببيان جميع المسلات الباقية في مصر مع إبداء الرأي في أي المسلات يمكن الاستغناء عنها . وحينئذ شكرت سموه بحرارة . وحينما كنت على وشك الانصراف قال لى إنه في خلال وقت قصير سيتصل بى سكرتيره لكي يخبرنى أي المسلات سوف يمكننا الحصول عليها .

ولم تمض أيام قلائل عقب هذه المقابلة حتى أقيم حفل استقبال وحفلة راقصة في القصر . وتقابلت مصادفة مع بروجش باشا ، وبعد أن تبادلنا بضع كلمات قال لى في لهجة عاتبة : « إني أعلم أنكم تحاولون الحصول على مسلة لنقلها إلى نيويورك » . فأجبت : « ولم لا ، إن هناك واحدة في باريس ، وواحدة في لندن ، ويرغب شعب نيويورك أن يكون لديه واحدة كذلك » فأجابنى : « إنك ستخلق شعورًا عدائيًا ضخمًا ، ذلك أن كل علماء أوروبا سوف يعارضون هذا العمل . ولقد طلب منى الخديوى أن أوافيه بمعلومات عن المسلات الباقية في مصر وأن أبدى رأيي في المسلة التي يمكن الاستغناء عنها . ولقد أرسلت بالفعل وصفًا شاملاً للمسلات القائمة في مصر ، ولكننى لن أعين واحدة منها يمكن أخذها خارج القطر ، إذ إننى أعارض فكرة نقل أي واحدة منها .

ولما كنت لا أرغب في الدخول في مناقشة بشأن هذا الموضوع فقد أجبت بطريقة ودية إن الأمر ليس بذات أهمية كبيرة ، وإن ثمة عددًا كبيرًا من المسلات في مصر ، وإن نقل إحداها لن يزيد أو ينقص من الأمر شيئًا . فأكد لى إننى سوف ألاقي كثيرًا من العنف والعداء . وكان هذا هو بدء المعارضة التي تسببت في تأخير الوفاء بالهدية التي استقر رأي الخديوى عليها ، عامًا كاملاً .

ولو كانت هذه المعارضة صادرة من بعض المصريين ذوى المراكز الذين يحق لهم أن يبدوا رأيهم لكنت قد توقفت في الحال عن بذل مجهودات أخرى في هذا الشأن بدافع الذوق والمجاملة . ولكن هذه المعارضة كانت صادرة من الأوروبيين المقيمين في مصر بصفة مؤقتة والذين مهما كانت آراؤهم ومهما كانت استنتاجاتهم مبنية على أسس سليمة لم يكن لهم أي حق في حماية مصر ضد الولايات المتحدة ، ولذا لم يكن لآرائهم أي اعتبار . والواقع أنه كان يعتبر عملاً خاصًا بيننا وبين مصر .ومادامت لم توجد هناك معارضة من جانب مصرى حقيقى فلم أشعر بأي التزام نحو هذه المعارضة ولم أتورع عن استخدام كافة الوسائل الممكنة للتغلب عليها .

وقد أحاطنى القنصل العام الإنجليزى علمًا بأن المسلة القائمة بالأقصر ، وهي المسلة التي كنت أتعشم في الحصول عليها ، تخص شعبه هو ، ثم أكد أن هذه المسلة قد أعطيت لهم في نفس الوقت الذي أعطيت فيه المسلة القائمة بباريس إلى فرنسا ، وأعلن أنه يطالب بها وأنه يعترض على نقلها بواسطة أي شخص آخر . وقد اعترف القنصل العام أنه لم يعرف أنه ينبغى عليهم أن يأخذوها ، ولكنه أصر على حقه في أخذها . وقد قال لى الخديوى فيما بعد إن مسلة الأقصر قد منحت بالفعل إلى الإنجليز في نفس الوقت الذي منحت فيه زميلتها إلى فرنسا ، فلم يأخذوها من مكانها ، ولكنهم يعترضون الآن على أن يأخذها أي إنسان آخر . ونظرًا لهذه الظروف لم يكن من الملائم التدخل في هذا الأمر . وكان هذا تعقيدًا جديدًا وغير منتظر بالنسبة لهذه المسألة . ذلك أن مسلة الأقصر قد منحت إلى الإنجليز بواسطة محمد على منذ خمسين عامًا ، وذلك لأنه لم يكن يود خلق أي شعور بالاستياء بسبب هديته لفرنسا . ولم تقبل هذه المنحة في ذلك الوقت ، ولم تكن هناك نية في أخذها . وفي هذه الأثناء قبلت مسلة أخرى ونقلت إلى لندن . وكان من الواضح أن الإنجليز طالبوا بهذه المسلة . مسلة الأقصر . لكي يمنعوا ببساطة نقلها إلى الولايات المتحدة .

الفصل الخامس عشر

إهداء المسلة

مضت أسابيع دون أن تصلنا مذكرة من الخديوى ، على أننى علمت في هذه الأثناء من سكرتيره الخاص بأنه لم تعين مسلة بعد لإهدائها إلى الولايات المتحدة ، والسبب في ذلك هو أن بروجش بك لم يبد بعد رأيه فيما يتعلق بالمسلة التي يمكن الاستغناء عنها . وعرفت أنه قد قامت بعض الاعتراضات الخاصة بالنسبة لكل مسلة ، وذلك لأن النفوذ الأوروبي قد تكتل ضدى ، وأن مطالبة الإنجليز بمسلة الأقصر لم يكن إلا نتيجة لهذا التكتل .

وذات مرة في ربيع ١٨٧٨ ذكر الخديوى هذه المسألة ، وتحدث عن مطالبة الإنجليز بمسلة الأقصر ، كما قال إنه لم يحدد بعد مسلة لنا . وإنه سيحددها فى ميعاد ليس ببعيد . إلا أنه اعترضت مصر صعوبات وأزمات في ذلك الوقت ، فقد حدثت مضايقات ومتاعب للخديوى بطرق شتي . ذلك أن المسيو دلسبس كان يعلم أنه لا يستطيع أن ينصف مصر ، وأن يسر خاطر أصحاب البنوك بباريس في آن واحد ، ولذا سافر إلى فرنسا دون أن يباشر واجباته بشأن تكوين لجنة التحقيق . وعلى كل نظمت اللحنة ، وتكونت من أشخاص اختيروا على أساس أصحاب مصالح الأسهم ، وسارت أعمال اللجنة بسرعة كبيرة .

وكان من بين الإجراءات التي طالبت اللجنة باتخاذها طرد عدد كبير من موظفي الحكومة ، ومن أول الذين يستغنى عنهم هم الأمريكيون الذين يعملون في الخدمة العسكرية للخديوى . ودون سابق إنذار أبلغوا بأن مدة خدمتهم قد

انتهت . وكانت لهم مبالغ كبيرة متأخرة لدى الحكومة .

وطالب البعض بالتعويض ، مما أدى إلى تعقيد علاقاتهم بالحكومة وجعل الوصول إلى تسوية لحساباتهم أمرًا عسيرًا . ولقد دعيت على الأثر لمساعدة مواطنىّ حيث وجدت نفسى فجأة أمام نزاع غير سار . ونظرًا لسوء حال الديار المصرية والأزمات التي كانت تحيط بالخديوى نفسه لم يكن لديه وقت للتفكير في المسلة ، كما أننى لم أطق أن أذكر شيئًا عنها . ولذا غادرت مصر في أوائل يولية ، دون أن أذكر شيئًا عن الموضوع ، في إجازة بعد أن استأذنت في زيارة الولايات المتحدة .

وفي أوائل شهر أكتوبر ، قبل أن أسافر من نيويورك عائدًا إلى مصر ببضعة أيام ، تقابلت مع المستر افارتس حيث قمت بإبلاغه عن نتيجة المفاوضات الخاصة بالحصول على مسلة . فقال أنه يسره كثيرًا إذا أمكننى الحصول على واحدة وأنه على استعداد لعمل ما في وسعه لمساعدتى .

وعند وصولى إلى مصر في شهر نوفمبر وجدت تغييرًا كبيرًا في الشئون الحكومية . فقد شكلت وزارة جديدة كانوا يطلقون عليها اسم الوزارة الإنجليزية الفرنسية برئاسة نوبار باشا . وقد نظمت على أساس نظرية « المسئولية » . فالوزارة مسئولة طالما أنها تباشر سلطتها أمام الحكومة التي تتبعها ، ولكن المفروض أنها مسئولة أمام شخص أو مجموعة أشخاص . وكان المفروض أن تعمل هذه الوزارة مستقلة عن الخديوى ، كما تعمل الوزارة الإنجليزية مستقلة عن الملكة ، إلا أنه يوجد في إنجلترا برلمان يسأل أمامه الوزراء ، على الأقل إلى الحد الذي يجب أن يحصلوا على تأييده أو يقدموا استقالتهم .

أما في مصر فلم يكن ثمة برلمان ، بل كانت كلتا السلطتين التشريعية والتنفيذية مركزتين في شخص الخديوى ، إلا أنه كان بمصر مجلس الأعيان ، يعقد في بعض الأحيان ليقوم بالتصويت على المسائل الخاصة بفرض ضرائب

غير عادية . وقد عقد هذا المجلس في ديسمبر سنة ١٨٨٧ أو في يناير الذي يليه إلا أن الوزارة كانت تتجاهله ورفضت أن تقدم له تقريرًا خاصًا بسير الأمور في وزارة المالية . وكان الوزراء ، حسب نظريتهم هذه ، مستقلين ولا يخضعون لأي قيد . وكما ظهر بعد ذلك لم يكن في مقدور أحد أن ينحيهم عن أماكنهم . وهذا ما ثبت على الأقل .

هذه كانت الوزارة التي كان لابد أن تأتي عن طريق المسلة إذا كان الخديوى فاقد السلطة كما قيل .

ولقد وصل مريت بك الذي كان يقضي الصيف في معرض باريس ، وكنت أعلم أنه يعارض إهداء المسلة بشدة . وكان في ذلك الوقت رئيسًا لمصلحة الآثار وكان في وسع معارضته أن تعوق وتؤخر المفاوضات .

وعند وصولي إلى مصر قمت بالزيارة المعتادة للخديوى ثم اجتمعت به عدة مرات بعد ذلك دون أن أذكر شيئًا عن المسلة لعدة أسابيع . وأخيرًا أظهر رغبته في إتمام منح الهدية ، ولم يتردد في أن يلمح إلى بما كنت أعرفه تمام المعرفة ، وهو أن موضوع المسلة إنما كان في يد الوزراء .

ورغم أن ثقتي بدوام الأمور على حالها ضعيفة إلا أننى انتهزت الفرصة في أن أعرض موضوع المسلة على معالي نوبار باشا الذي لم أره حتى وقت متأخر من وصولى إلى مصر . ولم يكن يحظى بعطف الخديوى وأقام في أوروبا منذ سنة ١٨٧٥ ، ثم استدعى ليرأس الوزارة القائمة بناء على طلب بعض الدول الأوروبية .

وجدت أنه قد فهم المسألة سلفًا ، لا عن طريق الخديوى ، بل عن طريق هؤلاء الذين كانوا يعارضون في الهدية . وعلى كل فقد أخذ فكرة طيبة عن الموضوع ثم قال إذا كان الخديوى قد عبر عن رغبته في إعطائنا إحدى المسلات فإنه يعتبر أن الوضوع منته وأن ليس هناك ما يدعو إلى معارضة الوزراء لهذا

الأمر . ثم وعدنى أن يقابل الخديوى ويحيطه علمًا بما تم في هذا الشأن ثم ينفذ رغبات سموه . وعلى كل فقد أضاف قائلاً إنه إذا كان الموضوع جديدًا وفيه مجال للمناقشة فإنه سوف يعارض في الأمر .

وقد أبلغني بعد ذلك بمدة وجيزة أنه قابل الخديوى وأن سموه أخبره أنه أعطى وعدًا بمسلة وأنه يرغب في الوفاء بوعده . ثم أضاف سعادته قوله أنه سيتخذ الوسائل الضرورية لتحقيق هذا الغرض .

وفي هذا الوقت قدم مريت بك مذكرة بالموضوع إلى مجلس الوزراء أظهر فيها معارضة شديدة فيما يتعلق بنقل أية مسلة من مصر وأشار بصفة خاصة إلى قداسة المسلات الموجودة بالكرنك وهليوبوليس . وكانت هذه المذكرة وتصريحات مريت هي التي حددت فيما بعد أي المسلات ينبغي أن تعطى لنا . ولاشك في أنه ظن أنه سوف تكون هناك معارضة كافية من مصادر أخرى بحيث تمنع نقل مسلة الإسكندرية ، وأن الإنجليز سوف يتولون أمر مسلتهم القائمة بالأقصر ، وأنه إذا استطاع أن يمنع اختيار أي واحدة من المسلات الموجودة في الكرنك أو في هليوبوليس فإن المشروع سيخفق تمامًا [1] .

هذا ولقد أبلغنى نوبار باشا في شهر فبراير أن الإنجليز قد طالبوا بمسلة الأقصر وأن مريت بك قد عارض في إزالة كل من مسلتي الكرنك وهليوبوليس وأنه – أي نوبار باشا – صمم على أن يعطينا المسلة الموجودة في الإسكندرية وهي « مسلة كليوباترا » . ولقد أعد في نفس الوقت مذكرة سلمها إلى كاتبه لإرسالها إلى وزير الأشغال العمومية الذي كان يمثل فرنسا في الوزارة يطلب منه القيام بكافة الإجراءات اللازمة لتسليمها إلينا . ولست أعلم إذا ما كانت هذه الرسالة قد أرسلت أو لا ، ذلك أنه عقب ذلك بيومين أو ثلاثة توالت

---

(١) قبل أن يعين مريت في الحكومة المصرية أخذ إلى باريس أجمل مجموعة من الآثار التي نقلت من مصر ، وقد حصل على أكبر جزء وأكثره قيمة من هذه الآثار عن طريق الضغط الدبلوماسي الشديد والمتواصل وبالاحتفاظ بسرية الآثار التي عثر عليها أثناء المفاوضات ، وما زالت المجموعة التي يبلغ عددها حوالي سبعة آلاف قطعة موجودة في متحف اللوفر .

الأحداث التي ألقت بمصر في اضطراب شديد حمل نوبار باشا على الاستقالة .

ولقد فصل عدد كبير من الضباط والجنود المصريين دون تسلم باقي استحقاقاتهم المتأخرة ، وكانت توافينا في ذلك الوقت تفاصيل المجاعة التي حدثت في الوجه القبلي إبان شهري نوفمبر وديسمبر السابقين ، وكان الشعور العام قد اشتدت عداوته نحو ما عرف باسم الوزارة الأوروبية . ولقد بلغ هذا الاضطراب أشده في ١٨ فبراير عندما فاجأ الضباط المفصولون المستر ريفرز ولسن ونوبار باشا في أحد الشوارع وذلك عندما غادرا وزاراتيهما متوجهين إلى منزليهما لتناول وجبة الغداء . ولقد طالب هؤلاء الضباط بمرتباتهم واستحقاقاتهم المتأخرة . وعندما رفضت مطالبهم عادوا بالوزيرين إلى وزارة المالية واحتجزوهما هناك حتى وصلت الأخبار إلى الخديوى الذي جاء بنفسه لنجدتهما . ولم يعد النظام إلا بكل صعوبة وبعد أن أطلقت عدة أعيرة نارية .

استقال نوبار باشا في صباح اليوم التالي . أما باقي الوزراء سواء منهم الإنجليزي أو الفرنسي فقد بقوا على حالهم مستندين على حكوماتهم ، وبعد ثلاثين يومًا من المفاوضات الدبلوماسية أعيد تنظيم الوزارة ولكن بشرط أن يتولى الوزيران مقاليد الوزارة في الواقع . ولكن هذه الوزارة المعاد تنظيمها لم يقدر لها أن تدوم طويلاً . وكانت عجلات الخطر تدور كثيرًا في مصر ، وعادة ما تقع الأحداث على غير انتظار . وإن مصر لتسمى بلد المفاجآت ، وهناك مثل شرقي معناه أن ما تحسبه مؤقتًا قد يدوم طويلاً .

وكان المفروض أن يدوم عهد الحكومة الجديدة . وقد تبودلت البرقيات بكثرة واستخدمت الكياسة الدبلوماسية لدولتين من أعظم دول أوروبا . وقد وضعت الشروط وأمليت بغرض أن تضمن تثبيت أقدام الوزراء .

وحينما تم العمل ، كان المفروض أن هناك على الأقل نظامًا واحدًا ثابتًا في مصر ، فقد كان المفروض أن تصبح الوزارة المعاد تشكيلها من الأوضاع الثابتة

في الأداة الحكومية . ولكن المثل العربي كان صحيحًا إذ أن هذا البناء الذي قام العمل فيه على مفاوضات شاقة استغرقت ثلاثين يومًا لم يبق أكثر من ثمانية عشر يومًا . وفي السابع من أبريل حدث ما عرف باسم « قلب » الخديوى إسماعيل باشا .

ووجد إسماعيل باشا أنه من الضرور بعد ذلك من أجل سلامة البلاد أن تظل مقاليد الحكم بيده ، ويكوّن وزارة كل أعضائها من المصريين ، فطلب أن يشكل شريف باشا وزارة جديدة يكون هو على رأسها . فحازت الوزارة الثقة وأصبح الخديوى رئيس الحكومة الفعلي والإسمي ، مما جعل الدوائر الدبلوماسية والسياسية في أوروبا يسودها حالة من الانفعال ، وكان أشدها استياء من الخديوى دوائر باريس حيث كانت تطالب بخلع الخديوى عن العرش .
وكانت معرفتي لشريف باشا تعود إلى وقت وصولي إلى مصر ، وكانت جميع الأطراف تشهد له بأنه رجل شريف ، على جانب من الأمانة والعدل ، لا يعرف المؤامرات أو المضاربات . وقد تلقى تعليمًا أوروبيًا لا بأس به . وبدأ حياته العملية ضابطًا في الجيش حتى وصل إلى رتبة أميرالاى ، ثم تقلب بعد ذلك في الوظائف الحكومية في مختلف وزارات الحكومة ، ولما كان يمتاز بالصراحة والإخلاص ، كان يتمتع بثقة الناس أكثر من أي شخص آخر كان في خدمة الخديوى .

ولم يمض وقت طويل حتى عادت الأمور إلى مجاريها في كل ما يختص بالحكومة المصرية حيث لم تبق أية صعوبات عدا ما كان يجرى في باريس ولندن ضد الخديوى بما كان لهما من نفوذ واقتدار . أما في مصر فكان يتملك الناس إحساس الكراهية ضد الحكم الأجنبي . وكان من نتائج هذا الإحساس أن تكوّن حزب في ذلك الوقت يسمى « الحزب الوطني » شعاره « مصر للمصريين » ، وكان هذا الحزب صغيرًا في عدده ومتمكنًا في عمله إلى حد كبير ، ولكن شعور العداوة الذي يسود أفراده كان يتفق مع الشعور الوطني عامة .

في ذلك الوقت كانت بعض الحكومات الأوربية تطلب الاشتراك في الحكومة المصرية وينافس بعضها البعض في التفوق في النفوذ والسلطان . أما حكومة الولايات المتحدة فلم يكن لها أغراض سياسية تسعى وراء تنفيذها في هذا القطر ، فلم تدع لنفسها الحق في التدخل ، ونظرًا لهذه الظروف فإن المصريين كان يسودهم شعور طيب نحو حكومتنا وشعبنا .

وكان شريف باشا على علم بالمفاوضات الخاصة بالمسلة ، ولو أن الوزارة الجديدة قد شكلت على أساس نظرية المسئولية كتلك التي حلت محلها إلا أنه كان لدي من الأسباب ما يحملنى على الاعتقاد بأن سعادته لن يضع أية عراقيل في طريق تنفيذ الرغبات التي أبداها الخديوى في هذا الشأن .

وبعد مضى شهرين على ما يسمى باسم « الانقلاب » هدأت الحالة السياسية وبدا لنا أن الدول الأوربية قد أذعنت للنظام الجديد . وعندما سنحت أول فرصة اقترحت على شريف باشا إنهاء مهمة المسلة ، فقال لي إنه سينتهز أول فرصة للتحدث مع الخديوى ، وأنه لابد من تنفيذ رغباته أيًا كانت . وبعد ذلك بأيام قلائل عندما كنت في زيارته لغرض آخر أخبرني بأن موضوع المسلة قد تقرر واستقر فيه الأمر على نحو تحقيق مصلحتنا ، ولكنه يرغب في التحدث مع الخديوى بشأنها مرة أخرى . ثم أضاف أنه سوف يرى الخديوى ذلك المساء ولو أنني توجهت في الصباح حوالي الساعة الحادية عشرة صباحًا لسوف يعطينى ردًا حاسمًا . وفي اليوم التالي توجهت إلى الوزارة في الساعة المحددة حيث بلغت أن شريف باشا قد توجه إلى القصر لمقابلة الخديوى .

وفي طريق عودتي إلى القنصلية توقفت لزيارة الباشا الذي كان يشغل وظيفة حامل الأختام وله غرف خاصة في أحد أجنحة قصر الخديوى . ولقد وجدت هناك اثنين من الأمراء هما أخا توفيق باشا . هنالك دار الحديث بيننا وقدمت القهوة حسب العادة المتبعة في الشرق . وفي ظرف دقائق قليلة دخل شريف باشا . وبعد تبادل التحية تكلم قليلاً مع حامل الختم بلغته الخاصة .

وعندما شرع في الخروج دعاني لمرافقته بعد أن ودع الآخرين . ثم خرجنا معًا .

وعندما صافحت شريف باشا باليد لاحظت أنه كان متأثرًا للغاية وارتبت في أنه ربما وصلت أخبار مثيرة من رئاسة الوزارة بباريس ولندن . وبمجرد وصولنا إلى القاعة بدأ سعادته الحديث معى قائلاً إنه يأسف لعدم وجوده بالوزارة لأنه تأخر لدى الخديوى بسبب أعمال هامة .

وكنا قد مررنا خلال قاعة طويلة ونزلنا السلم وكنا على وشك الانصراف من الباب الذي تنتظر عنده عرباتنا حينما قال الباشا :

« أظنك تفضل مسلة الإسكندرية ، أليس كذلك ؟؟ » .

فأجبت قائلاً إن هذه المسلة تقع في مكان يسهل معه نقلها عن المسلات الأخرى .

فأجاب الباشا : « حسنًا ، لقد قررنا أن نعطيها لكم ... » .

وبعد أن شكرته قلت له إنه ينبغي أن يكون لدي شيء مكتوب يؤكد منح المسلة لكي أقوم بإرساله إلى وزير الخارجية في واشنطن . وأضفت قولي إنه ولو أن الحديث كان يدور حول نقلها هدية إلى الولايات المتحدة ، كان من المفهوم أنها ستقام في نيويورك ، ولذا فكرت أنه من الأفضل أن تمنح لهذه المدينة مباشرة ، وإلا فلسوف يكون هناك بعض التعقيدات التي تحتاج إصدار قرار من الكونجرس .

فأجاب شريف باشا : « سنمنحكم المسلة ، وافعلوا بها ما تشاءون » ثم أضاف قائلاً : « اكتب إلي مذكرة توضح ما تود أن تفعل بها مبينًا فيها أن كل مصاريف نقلها سوف تتكفل بها الولايات المتحدة أو مدينة نيويورك نفسها إذا كنت تفضل ذلك ، ثم سلم هذه المذكرات إلى سكرتيرى العام وبلغه إعداد رد بشأن البت في موضوع الهدية حسب المقترحات التي تبديها ، ثم يحضرها إلي

للتوقيع عليها . وبعد ذلك بساعتين سلمت إلى السكرتير العام لوزارة الخارجية خطابًا ، وأخبرته في الوقت نفسه بما قاله لي الباشا . وهاك ترجمة الخطاب من الفرنسية :

« الوكالة والقنصلية العامة للولايات المتحدة بالقاهرة

١٧ مايو سنة ١٨٩٧

يا صاحب السعادة

« بالإشارة إلى المحادثات التي تشرفت بإجرائها معكم وأبلغتني فيها بأن حكومة سمو الخديوى قد عزمت على إهداء مدينة نيويورك مسلة الإسكندرية ، وصرحت بنقلها إلى هناك ، يسرنى أن تتعطف بتأكيد منح هذه الهدية كتابة بصفة قاطعة ، ومن المفهوم أن نقلها سوف يتم على نفقة بعض مواطنى مدينة نيويورك » .

« واسمح لي أن أؤكد لسعادتكم مقدمًا شكر حكومتى الحار على استجابتكم للطلبات التي قدمتها لحكومة سمو الخديوى حسب التعليمات التي تلقيتها في هذا الشأن . وإني لأعتقد تمام الاعتقاد أن الأثر التذكاري الذي سينقل ويقام في مدينة نيويورك سوف يكون دائمًا تذكارًا ورمزًا للصداقة الدائمة بين حكومتى الولايات المتحدة وسمو الخديوى » .

وتفضلوا ياسيادة القنصل العام بقبول فائق احترامى .

توقيع

ا. ا فارمان

إلى سعادة شريف باشا وزير الخارجية ورئيس مجلس الوزراء » .

وفي اليوم التالي تسلمت الرد الآتي الذي قمت بترجمته من اللغة

الفرنسية :

« القاهرة في ١٨ مايو سنة ١٨٧٩ إلى المستر فارمن القنصل العام للولايات المتحدة

سيدى الوكيل والقنصل العام

أحطت علمًا بالرسالة التي تكرمت بكتابتها إليَّ يوم 17 مايو الجاري ، وردًّا عليها أحيطكم علمًا بأن حكومة الخديوى قد أخذت في اعتبارها طلباتك والرغبة التي أبديتها باسم الولايات المتحدة الأمريكية ، ووافقت على إهداء مدينة نيويورك المسلة المعروفة باسم « مسلة كليوباترا » القائمة في الإسكندرية لى شاطىء البحر .

هذا وستقوم السلطات المحلية بعمل اللازم لتسليم هذه المسلة إلى ممثلي الحكومة الأمريكية بل ستعمل كافة التسهيلات الخاصة بهذا الأثر التي ستتكفل مدينة نيويورك بكافة مصاريف نقله طبقًا للشروط الواردة في رسالتكم .

هذا وإنه ليسعدنى ياسيادة القنصل العام أن أبلغكم هذا القرار الذي يقضي بمنح مدينة نيويورك العظيمة أثرًا تذكاريًّا مصريًّا له أهمية تاريخية حقيقية ، ولسوف يكون تذكارًا آخر ورمزًا للصداقة التي دامت بين حكومة الولايات المتحدة وحكومة الخديوى .

وتفضلوا ياسيادة القنصل العام بقبول فائق احترامى .

التوقيع

شريـــف

والواضح من هذه المذكرات أن المسلة أهديت مباشرة إلى مدينة نيويورك وليس إلى الولايات المتحدة كما هو منقوش على أحد مخالب السرطان الذي ترتكز عليه المسلة الآن .

وفي ٢٢ مايو أرسلت البرقية التالية إلى المستر افارتس .

« لقد منحت حكومة الخديوى مدينة نيويورك مسلة الإسكندرية المعروفة باسم مسلة كليوباترا » ثم بعثت كذلك برسالة في اليوم نفسه أرفقت بها نسخًا من المذكرات التي تبودلت بين شريف وبيني .

وهكذا ضمنا الحصول على المسلة ، ولكن تعقد الأمور في مصر كان مازال قائمًا . ففي ٢٧ يونية تنازل الخديوى إسماعيل عن العرش إلى نجله محمد توفيق باشا الذي نودى به في اليوم نفسه « خديويًا » على مصر . ولم تجر محاولة تأليف وزارة أوربية مرة أخرى حيث استمر شريف باشا على رأس الوزارة طيلة الصيف ، إلا أنه في أوائل الخريف تشكلت الوزارة المعروفة بوزارة رياض .

ولقد سارت المفاوضات النهائية التي أحرزت المسلة بمقتضاها في هدوء تام بحيث إن أول نبأ يذاع على الجمهور في مصر بشأن الهدية ورد من نيويورك عن طريق الصحف الإنجليزية . ولم تذكر الجرائد المحلية شيئًا عن الموضوع ، ولكن بمجرد أن تشكلت وزارة رياض حاول البعض – تحت تأثير بعض الأوربيين – أن يعكسوا عمل الحكومة الأخيرة . ولقد نظر الأمر مرتين أو ثلاث مرات في مجلس الوزراء ، وقامت بعض الصحف الأوربية التي تصدر في مصر بالتعليق عليه . ولما تبين للوزراء أن المنحة قد تأيدت بالكتابة عن طريق تبادل المذكرات الرسمية قرروا فيما بينهم أن الوقت قد فات بالنسبة لاتخاذ أي إجراء في الموضوع .

ولقد وصل القومندان جورنجز في أكتوبر عام ١٨٧٩ لكي ينفذ عملية نقل المسلة ، وأصدرت الأوامر الضرورية للسلطات المحلية في الإسكندرية لتسليمها .

وعند تسلم رسالتي المؤرخة بتاريخ ٢٢ مايو المرسلة إلى الوزير افارتس والتي

أبلغه فيها بإنتهاء المفاوضات بنجاح ، كتب إليّ خطابًا خاصًا وكذلك رسالة رسمية في نفس الوقت بتاريخ ١٣ يونية سنة ١٨٧٩ حيث قال فيها :

« أفيدكم بتسلم رسالتك المؤرخة ٢٢ الحالي بمرفقاتها والتي تبلغ فيها الوزارة بأن المفاوضات قد تمت بشأن نقل المسلة المصرية إلى مدينة نيويورك وأن حكومة سمو الخديوى قد أهدت المسلة المعروفة باسم « مسلة كليوباترا » إلى هذه المدينة . وإنه لمبعث سرور عظيم لهذه الحكومة أن تحوز في القريب العاجل مثل هذا الأثر التذكاري العظيم بفضل كرم الخديوى . ولذا فأنت مكلف بإبلاغ سموه أن الجميل الذي أسداه إلى هذه الجمهورية بتقديمه هذه الهدية إنما هو محل تقدير عظيم وإننا نشعر بأن عملاً وديًا كهذا لا يسعه إلا أن يقوى من أواصر الصداقة التي تقوم بين البلدين ، وأن يجعل ذكرى الخديوى دائمة يقدرها الشعب الأمريكي كل تقدير .

هذا وقد اطلعنا على البيان التاريخى الذي شملته رسالتك عن المسلات في مصر بكل اهتمام » .

وينبغي ألا يدخل في الحسبان أن المسلات وغيرها من الآثار القديمة الموجودة في البلاد لا يقدرها المصريون المتعلمون حق تقديرها . بل على العكس من ذلك فإنهم يعرفون قيمتها ويقومون على حمايتها ويبدون غيرة عظيمة عليها . وإذا راعينا كافة الظروف ، فإن الخديوى لم يكن بوسعه أن يقدم دليلاً أقوى من دليل تقديم هذه المسلة على الاحترام الذي يكنه لحكومة الولايات المتحدة وشعبها .

كما أن لدي الدليل الكافي على الإعجاب الشديد الذي كان يبديه الخديوى نحو أنظمتنا ، رغم أنه كان يعلم أن شيئًا من هذا القبيل يستحيل حدوثه في الشرق .

أما المسلات الأخرى التي نقلت من مصر فقد حصلت عليها الدول تحت

تأثير ظروف تختلف تمامًا عن ظروفنا الحاضرة ، فقد نقل أغلبها على يد الغزاة من الرومان ، ولم يكن هناك بجوار مسلة كليوباترا غير مسلتين قد نقلتا في العصور الحديثة ، إحداهما إلى باريس والأخرى إلى لندن . أما الأخيرة منهما فقد منحت إلى إنجلترا عام ١٨٢٠ في عصر كانت مصر تختلف تمام الاختلاف عما هي عليه في الوقت الحاضر . زد على ذلك أن هذه المسلة ظلت قرونًا طويلة مدفونة تحت الرمال والقمامة . ولقد شوهت كثيرًا بحيث إذا قارناها بغيرها من المسلات وجدناها قليلة القيمة ، إلا أنها كانت تعتبر هدية تستحق أن تقدم لجلالة الملك جورج الرابع في مقابل المجاملات والهدايا التي تلقاها من محمد على باشا الذي كان والي مصر في ذلك الوقت .

أما تلك المسلات القائمة الآن بباريس فقد منحت إلى فرنسا بعد ذلك بعشر سنوات (عام ١٨٣٠) ، ولقد طلبت على أساس الخدمات التي قامت بها فرنسا للحكومة المصرية . وهذه المسلة كانت قائمة بالأقصر على مقربة من قرية صغيرة مكونة من الأكواخ المبنية بالطين ، وتبعد عن النيل بنحو ستمائة ميل حيث يسكنها بضع مئات من الأهالى .

وعلى مقربة من هذه المسلة كانت هناك ثلاث مسلات أخرى وبقايا كثيرة ضخمة من أروع وأهم الآثار الموجودة في العالم . وعلى كل ، كان من النادر أن يقوم الأوربيون بزيارة هذا المكان في ذلك العصر ، ولذا كان إزالة إحدى هذه المسلات لم يكن بالحدث الذي يخلق أية معارضة ومع هذا فإن هذا الأثر كان يعتبر من أهم المعالم التي تزين مدينة باريس .

وفي خريف ١٨٧٩ تعرضت الصحف الأوربية التي تصدر في مصر لموضوع نقل الآثار المصرية ، فعلقت أهمية كبيرة على حقيقة أن مسلتي لندن وباريس قد منحتا بسبب الخدمات التي أسدتها حكومات الدول التي أهديت لها هاتان المسلتان ، على حين أنه لم يكن هناك أي ادعاء بذلك فيما يختص بمنح مسلة كليوباترا إلى مدينة نيويورك .

وهذا دليل على أن الحافز لهذا الكرم إنما هو الإحساس العاطفي والاحترام المتبادل بيننا وبين حكومة صديقة مجردًا عن أيٍ مصلحة شخصية تمس مصالحها الشخصية أو مصالح شعبها .

وبقبولها لهذه المسلة وضعت مدينة نيويورك في عنقها واجبًا مقدسًا نحو الأجيال المقبلة ونحو كل تلك الملايين من مواطني الجمهورية الذين سوف يقومون بزيارة العاصمة العظيمة في القرون القادمة . هذا الواجب هو صيانة الأثر الذي اؤتمنت عليه . ولقد نقلت إلينا بعد أن مضى عليها خمسة وثلاثون قرنًا من الزمان . وبعد كل هذه الأحداث التي مرت عليها لاتزال في حالة سليمة . وإنه لمن الإهمال الفاضح الذي يكون بمثابة تدمير طائش من جانب هؤلاء الذين في أيديهم حفظ هذا الأثر النبيل أن يتسببوا في أن يصيبها أذى إن لم يبذلوا أقصى ما يمكنهم من العناية في سبيل المحافظة عليها .

أما الأضرار التي أصابتها في رأى هؤلاء الذين تصدوا لدراسة الموضوع دراسة طفيفة فإنما ترجع إلى وجودها على مقربة من البحر مدة طويلة ، ولكن هذا الرأي بعيد عن الصواب وذلك لأن الأضرار التي أصابتها لم تكن في جوانبها المواجهة للبحر . ولقد لاحظت أن هذه العيوب إنما يرجع سببها إلى المواد القلوية التي تفرزها التربة التي كانت المسلة ملقاة فيها لأجيال عدة ، وقد تكون هذه الأضرار بسبب النار ، ومن المحتمل أن الإصابات الرئيسية في المسلة قد تسببت عن هذا العامل الأخير .

ومن المعروف جيدًا أن حجر الجرانيت المصقول يقاوم كل المؤثرات الجوية في المناخ البارد أو الدافىء على حد سواء ، ولكن إذا ما زالت هذه الطبقة اللامعة وبدا السطح الخشن غير المصقول ، فإنها تتأثر ببعض المؤثرات الجوية الخاصة .

الفصل السادس عشر

نقل المسلة والرموز الماسونية

مسلة كليوباترة عبارة عن ساق من الجرانيت الأحمر التي استخرجت من محاجر أسوان التي تقع عند الشلال الأول للنيل على بعد سبعمائة ميل من البحر الأبيض المتوسط . ويبلغ ارتفاعها حوالي ٦٨ قدمًا وعشر بوصات ويبلغ عرضها عند القاعدة ثمانية أقدام وبوصتين . ويستدق طرفها بالتدريج كلما اتجهنا إلى أعلى فتصل إلى ٦ أقدام وبوصة واحدة وتبلغ زنتها حوالي مائتين وعشرين طنًا ، وهي مقامة على شاطىء الإسكندرية على ارتفاع خمسين قدمًا من سطح الماء أما قاعدتها فهي مدفونة في الرمال والأتربة التي تكدست على مر القرون .

وعندما كشف عن قاعدة المسلة كانت مستديرة بعض الشيء ، وتستند على دعامتين من النحاس على شكل « السرطان البحري » ، وكان هناك حجر تحت الركن الثالث ، أما الركن الرابع فكان لايستند على شيء ، وقد ترك هذا بين المسلة وقاعدتها مسافة حوالي ثماني بوصات وكان هناك اسفين حديدي رفيع متأكسد تمامًا على قمة الدعامة الحجرية . أما طول كل من تلك الدعامتين فكان حوالي اثنتي عشرة بوصة إذا قيست من الخلف ، ويبلغ عرضها حوالي ست بوصات ، وارتفاعها حوالي ثمانى بوصات . ويزيد كل منها عندما تكون سليمة أكثر من خمسمائة رطل . وتمتد قضبان مصنوعة من نفس مادة

الدعامتين في داخل المسلة والقاعدة . وكانت هذه القضبان تزيد على ثلاث بوصات في العرض وتسع بوصات في الطول وهي تكوّن الأسياخ التي تساعد على تثبيت المسلة في مكانها ، وكانت هذه الأسياخ محاطة ومثبتة في أماكنها بمعدن الرصاص .

وكان هناك أصلاً أربع قواعد على هيئة « السرطان البحري أزال الأهالى منها اثنتين طمعًا في معدنهما ، على أن القاعدتين الأخريين كانتا قد شوهتا تشويهًا شديدًا ، فقد أزيلت مخالب وسيقان أحد هذه « السرطانات » ، أما القاعدة الثانية قد احتفظت بساق واحد هي الساق اليسرى ، على أنها لم تلبث أن كسرت عند وضع المسلة وضعًا أفقيًا . ومن المحتمل أن هذه القواعد قد وضعت بصفة دعامات لها عندما قام الرومان بإقامتها مرة ثانية ، ونظرًا لاستدارة قاعدتها . ويظن أحد الكتاب أن شكل « السرطان البحري » قد وقع عليه الاختيار ارضاء لعقائد كل من المصريين والرومان .

وكانت هذه المسلة تقوم على كتلة صخرية من حجر جرانيت سيناء ، ويستدق طرفها كلما اتجهنا إلى أعلى بنفس النسبة التي صنعت بها المسلة تقريبًا .

ويبلغ ارتفاع هذه الصخرة حوالي سبعة أقدام ، وتزن ثمانية وأربعين طنًا ، وقد بلغ ارتفاع الأساس الذي أقيمت عليه أربعة أقدام وتسع بوصات . وكان السطح السفلى لأول درجة من درجات المسلة يبلغ ارتفاعه ثماني عشرة بوصة فوق سطح البحر .

وفي الوقت الذي أنشئت فيه مسلة الإسكندرية ، أي منذ حوالي ١٩٠٠ سنة كان سطح الأرض عند هذه النقطة تحت مستوى أسفل درجة لهذه القاعدة . وكانت الرمال والحصى تغطى الدرجات السفلى لهذا الأثر التذكاري إلى ارتفاع يبلغ حوالي ١٧ قدمًا . وفي خلال تلك المدة كان هناك تغير ملحوظ في الارتفاع النسبي بين سطح الأرض والبحر . أما المقابر التي كانت

محفورة في الصخر والمطلة على البحر فقد غمرتها مياه البحر الآن وزالت بفعل الأمواج . وكان ارتفاع المسلة من أسفل درجة فيها ٨١ قدمًا وبوصتين .

هذا ولقد منح القومندان جورنجز إجازة للقيام بمهمة نقل المسلة إلى الولايات المتحدة . وكان يصحبه الملازم سيتون شرودر وهو برتبة يوزباشي الآن ، وكذلك محافظ بلدة جوام السابق ، وكان مساعدًا له قيمته . ولقد أقيمت إنشاءات ضخمة في الولايات المتحدة لكي تساعد في إنجاز العمل .

وعندما انتهت الحفريات حول المسلة غلفوها بألواح خشبية كما أعدوا لها عقودًا حجرية لكي تقوم عليها الإنشاءات التي تستخدم في وضع المسلة وضعًا أفقيًا . وهذه الإنشاءات كانت تتكون من إطارات من الصلب على جانبين متقابلين من جوانب المسلة ، تشبه في شكلها العقود التي تستخدم في إقامة الكبارى ، كما ثبتت إلى جوانب المسلة صفائح ثقيلة بواسطة قضبان طويلة تمتد من طرف إلى آخر . وقد امتدت أربعة أزواج من القضبان الثقيلة من الألواح إلى أسفل حيث تتصل بأطراف أحزمة ثقيلة تمر من تحت المسلة . وهذه الأحزمة كانت مزدوجة ومثبتة بالقضبان بواسطة صواميل . وعندما تحركت قاعدة المسلة بواسطة روافع الأثقال المائية مالت بثقلها على القضبان الحديدية ، ثم تأرجحت في وضع أفقي وهي تدور على محاورها كما يدور المدفع على محاوره .

وبسبب خطأ في تقدير وزن الأجزاء العليا والسفلى للمسلة وضعت المحاور منخفضة عما ينبغى ، مما جعل الجزء من المسلة التي فوقها أثقل من الجزء الأسفل ، ولذا عندما تحركت المسلة ، تأرجحت بسرعة جدًا ، واصطدمت بقوة شديدة بالألواح التي أقيمت لملاقاتها . ولحسن الحظ لم تصب بأي كسر ولو أن الحشد الكبير من الناس الذي كان حاضرًا أثناء العملية أصيب بذهول من جراء صوت تهشيم الألواح . وبعد إزالة القاعدة والأساسات أنزلت المسلة تدريجيًا بواسطة الروافع المائية ليتلقاها صندوق كان قد أعد لذلك .

وزج بالصندوق في البحر وسحب حول جزيرة فاروس القديمة حتى وصل إلى الميناء . وهنا وضع في الباخرة « دسوج » في حوض جاف عائم وقد أغلق الحوض وسحبت منه المياه بواسطة الطلمبات ، وأدخلت المسلة إلى الباخرة خلال فتحة في جانبها على مقربة من مقدمة السفينة . وكانت المجارى التي حركت عليها المسلة مصنوعة من القضبان الحديدية الثقيلة استخدمت عليها كرات حديدية كبكرات تتحرك عليها المسلة ، ولمنع أية إصابة تلحق بالمسلة ولتغطية سطوحها غير المتساوية ، وضعت قضبان مشابهة مقلوبة تحت المسلة وفوق الكرات . وعند وصول الباخرة إلى نيويورك استخدمت نفس الوسائل التي استخدمت في الإسكندرية لانزال المسلة من السفينة وإقامتها .

ولم تبحر الباخرة « دسوج » من الإسكندرية إلا في يوم ١٢ يونية عام ١٨٨٠ حيث استغرقت عملية إنزال المسلة وشحنها حوالي ثمانية شهور بمساعدة مختلف الوسائل الحديثة التي أعدت سلفًا لهذا الغرض . وقد احتاجت إلى ستة شهور أخرى بعد وصولها إلى نيويورك لإنزالها إلى البر وإقامتها هناك .

وإذا ما قارنا هذا العمل بغيره من الأعمال التي كانت تنجز على شواطىء النيل منذ ٣٥٠٠ سنة لعجزنا عن وصف مايخالجنا من الدهشة لمهارة القدماء المصريين . هذا وإن أجمل مسلة وأروعها إنما هي المقامة عند الكرنك ، ويقدر وزنها بضعف وزن مسلة كليوباترا . وطبقًا للكتابة الهيروغليفية المنقوشة على جدرانها ، فإن هذا النصب الحجري قد قطع من مرقده في أسوان ، ونقل لمسافة مائة وأربعين ميلاً ، ثم أقيم على القاعدة حيث تقوم حاليًا . وكل ذلك في سبعة شهور . ويبدو أن العمل كان يجرى على عجل وذلك حتى يمكن لإقامة هذه المسلة أن يخلد الذكرى السنوية لتتويج الملكة . وإنه لا يسعنا إلا أن نستميح عذرًا لغرور وكبرياء وأثرة هذه المرأة العجيبة ، الملكة حتشبسوت من أجل هذا العمل الرائع ، كما هو مبين في هذه النقوش التالية التي قامت بحفرها على قاعدة المسلة :

« هذا هو ما ألقنه للأحياء الذين سيعيشون في الأجيال القادمة والذين سيتساءلون عن الآثار التي أقمتها من أجل والدي .. حينما جلست على العرش في القصر كنت أفكر دومًا في ذلك الذي أنجبنى ، فأهاب بي قلبي أن أقيم له مسلتين من الكهرمان تصلان بقمتهما إلى عنان السماء قبل البوابة العظيمة التي تقع بين معبدي الملك تحتمس الأول العظيم .. وعندما يشاهدون آثاري بعد مرور الأعوام والسنين ويتحدثون عن أعمالي المجيدة فليحذروا أن يقولوا : لست أدرى ، لست أدرى لم افتقد العزم على أن تطلى هذه الآثار بالذهب ، فهكذا صنعت لكي أخلد اسمى ويعيش إلى الأبد . ولقد اقتطعت هذه الكتلة الفريدة الحجرية بناء على رغبتى ما بين اليوم الأول من الشهر الثاني من بيريت من السنة الخامسة واليوم الثلاثين من الشهر الرابع من شومو من السنة السادسة ، وهي مدة تبلغ سبعة شهور من اليوم الذي بدأ العمل في قطعها من الحجارة » .

على أننا إذا صدقنا السجلات القديمة لوجدنا أنه قد أنشئت مسلات في العصور الأولى تزن أضعاف أكبر المسلات الموجودة في الوقت الحاضر . هذا ويزن تمثال رمسيس الثاني المهشم المقام في طيبة حوالي ٩٠٠ طن تقريبًا ، كما يورد هيرودوت ذكر أحد المعابد وهو معبد لاتونا في الساحة المقدسة في « بوطو » وتبلغ مساحته حوالي أربعين ذراعًا مربعًا ، وهو « مصنوع من حجر واحد » كما يغطى سقفه حجر واحد يحيط به إفريز يبلغ ارتفاعه حوالي أربعة أذرع . ولقد شاهدت بنفسي حجرًا واحدًا اقتطع ولا يزال موجودًا بمحجر بعلبك يزن ألف طن . ويعتبر الجزء من الحائط الذي يشتمل على هذه الأحجار من الآثار المجهولة ، إلا أنه يحتمل أن يكون معاصرًا لبعض الآثار العظيمة في مصر التي تشتمل بقاياها على أحجار ذات أحجام ضخمة .

ولقد عرفنا من الرسوم القديمة والكتابة الهيروغليفية أن هناك تماثيل هائلة قد جرت على زلاقات ، كما أن هناك مسلات قد نقلت على قوارب في مياه النيل أو القنوات . أما الوسائل التي كانت تستخدم لوضع هذه المسلات العظيمة فوق قواعدها في دقة تامة ودون أن يصيب أطراف قواعدها الحادة أقل

تشويه ، فإنه أمر متروك للحدس والتخمين كلية .

وكانت المسلات تصنع أصلاً بقواعد مسطحة ترتكز مباشرة فوق القاعدة . ولقد سقط الكثير منها إبان الغزو الفارسي وبقيت على الأرض حوالي خمسمائة عام حتى عصر غزو الرومان . وكانت مسلة كليوباترا مقامة أولاً في هليوبوليس ، ثم نقلت إلى الإسكندرية في عصر أوجسطس قيصر . وسواء كانت قائمة في هليوبوليس أو في غيرها فإن أركان قاعدتها كانت مهشمة حتى أن سطحها السفلى أصبح مستديرًا بعض الشيء .

أما « السرطانات» المصنوعة من البرونز فيبدو أنها قد وضعت أسفل أركانها الأربعة حتى يمكن للمسلة أن ترتكز عليها في ثبات . ولقد اكتشفت هذه الأركان الأربعة القائمة على شكل « السرطان البحري » عام ١٨٧٧ على أثر الحفريات التي قام بها مستر ديكسون وقت نقل المسلة الشبيهة بمسلة كليوباترا إلى لندن . ولقد وجدت نسخًا من الكتابة التي وجدت على الساق الباقية لأحد السرطانات في كتاب نشره الدكتور نيروتسوس بك ، وهو أحد علماء الآثار بالإسكندرية ، ثم غطت الأتربة بعد ذلك السرطانات وقاعدة المسلة .

أما النقوش التي نشرت حينئذ ونقلها القومندان جورنجز فقد ضمنها في كتابه ونقشت على أحد السرطانات الموجودة الآن أسفل المسلة . وقد ورد فيها خطأ تاريخ إقامة المسلة فى الإسكندرية على أنه السنة الثامنة من حكم أوجسطس قيصر ٢٣ - ٢٢ ق.م وذلك بدلاً من السنة الثامنة عشرة أى من ١٣ - ١٢ ق.م. ولقد أدى ذلك إلى الكثير من المناقشات بين علماء الآثار والمؤرخين في أوروبا وأمريكا نظرًا لتباين هذه التواريخ مع حقيقة تاريخية ثابتة ، وهي أن باربروس Barbarus (بوبليوس روبريس Publius Rubrius) لم يكن حاكم مصر في ذلك الوقت ، رغم أنه ولي حاكمًا على مصر بعد ذلك بعشر سنوات . وهذه الحقيقة ثبتت عن طريق كتابة يونانية

وجدت على آثار جزيرة فيلة تقول : « إلى الامبراطور قيصر العظيم ، المنقذ ، والمحسن في السنة الثامنة عشرة . وقد أقيمت تحت رعاية بوبليوس روبريس باربروس » .

وفي سنة ١٨٨٣ رفعت سلطات متحف الفن العاصمي Metropolitan Museum of Art الأمر إلى جامعة كولومبيا ، ثم رفعه عميد الكلية بدوره إلى أستاذ اللغة اليونانية أوجسطس س. بريام . وبعد بحث طويل مضن ، وبعد أن عجز الأستاذ عن التوفيق بين الحقائق التاريخية وبين النقوش التي نشرت ، أمر بأن تنظف ساق السرطان من الأكسيد الموجود عليه .

وبالإضافة إلى توضيح بعض الحروف اليونانية واللاتينية التي تبينت من القراءة اكتشف أن التاريخ في الكتابة اليونانية كان السنة الثامنة عشرة من حكم قيصر بدلاً من السنة الثامنة ، وكذلك فيما يختص بالكتابة اللاتينية . ويمكن ترجمة النص الذي وجد منقوشًا فيما يلي : « في العام الثامن عشر (من حكم) قيصر أقام باربروس (أو أهدى) (هذا النصب) على يد المهندس المعماري بونتيس Pontius» .

أما الكتابة اللاتينية التي كانت منقوشة على الجانب الداخلي من المخلب فقد شوهت وطمس بعضها تمامًا ، وعلى كل فقد كان يمكن قراءة التاريخ وبعض الأجزاء الأخرى الضرورية . ويمكن ترجمة الكتابة اللاتينية على النحو التالي :

« في العام الثامن عشر (من حكم) القيصر أوجسطس ، أقام (هذا النصب) باربروس حاكم مصر على يد المهندس المعماري بونتيس » .

وكان الأساس الذي أقيمت عليه قاعدة التمثال يتكون أساسًا من كتل كبيرة من الحجر الجيري . وكان البناء كله الذي يقع أسفل القاعدة وفوق

السطح السفلى للدرجة السفلية مثبتًا بعضه ببعض بواسطة « قمطة حديدية » مغطاة بطبقة من الرصاص بنفس الطريقة التي تتبع لحفظ كيان الحديد الذي يستخدم لنفس الغرض في الوقت الحاضر . وكان الحديد من أجود صنف وفي حالة جيدة ، حتى في الأماكن التي تعرض فيها بعض الشيء للمؤثرات الجوية . وكان البناء بأكمله قطعة فخمة من المنشئات الفرعونية القديمة ، وقد دلت دلالة قاطعة على أن المهندس المعماري بونتيس يستحق حتى في هذه الأيام ، أن يتبوأ مكانه في الصفوف الأولى من مهنته .

ولقد وجدت بعض الرموز التي اعتبرها « الماسونيون الأحرار» اكتشافًا هامًا يتعلق بتاريخ طائفتهم ، ولكن آخرين غيرهم نظروا إليها من وجهة أخرى . وكانت الأساسات مصنوعة من حجر جيرى ذى لون رمادي فاتح . فيما عدا أربع قطع منها .

وعند إزالة القاعدة وجد تحت ركنها الشرقي كتلة كبيرة مصقولة من جرانيت سيناء على شكل مكعب إلا أن اتساعها كان أقل من القياس الجانبي . وكنت حاضرًا عند إزالة الطبقة الأولى من الحجارة . وكانت توجد أسفل هذا المكعب الجرانيتي مباشرة ، وعلى نفس مستوى الدرجة السفلية ، كتلة أخرى من الجرانيت قد قطع الجزء العلوى منها على شكل مسطرة البناء ، يبلغ ضلعها الطويل حوالي ٨ أقدام و ٦ بوصات وعرضه قدم واحد : سبع ونصف بوصة ، أما ضلعها القصير فيبلغ طوله حوالي أربعة أقدام وثلاث بوصات وعرضه قدم واحد وسبع وثلاثة أرباع بوصة .

وكنت تشاهد بين أضلاع هذه المسطرة قطعة من الحجر الجيري الأبيض يبلغ طولها حوالي أربعة أقدام وعرضها مترين كما يبغ ارتفاعها حوالي تسع بوصات . وفي أحد جوانب هذه المسطرة من ضلعها القصير كانت توجد قطعة ثانية من الجرانيت ، مسطحها العلوى على جانب من الخشونة ، وتختلف زواياها عن بعضها تمام الاختلاف ، فليس ثمة توازن بين جنبين من

جوانبها . هذا وفي الجانب الآخر من الحجر المكون لهذه المسطرة كانت توجد كتلة كبيرة من حجر الجير بسطحها العلوى الواقع أسفل المسطرة بحوالي أربع بوصات ، وكانت مغطاة بطبقة رقيقة حجرية . وعند أزالتها وجد مسطرين من الحديد وثقل أو ميزان من الرصاص .

أما « المسطرين الذي يشبه الملعقة المسطحة فيبلغ طوله ثماني بوصات وعرضه في جزئه المتسع خمس بوصات ، وكان متأكسدًا تمام التأكسد . وكان مقبضه يبلغ أربع بوصات في الطول ومن ٣/٨ إلى ١/٢بوصة في العرض . وقد حفرت مسافات في كتلة الحجر الجيرى حيث كانت هذه الأشياء مطمورة في الأسمنت . هذه الرموز – المسطرة ، المسطرين ، الميزان ، الكتلتان الجرانيتية التي كانت إحداها غير مصقولة على حين أن الأخرى كانت مصنوعة صنعًا دقيًا ، والحجر الأبيض ، ونسبة الأماكن التي وجدت فيها هذه الأشياء . يدعى بعض أعضاء « الإخوان الماسونيين » أن هذه الرموز دليل قوى على وجود طائفة من « الماسونيين الأحرار » في العصر الروماني ، انحدرت منها الطوائف الماسونية الحديثة . ولكن وجود كل هذه الأشياء فيما عدا المسطرين والميزان ، قد يكون بمحض الصدفة تمامًا وأنه من المحتمل أن يكون العمال قد وضعوا هذه الأشياء في مثل هذا البناء الشهير كرموز تعبر عن مهنتهم دون الإشارة إلى أي طائفة من الطوائف المنظمة .

لقد كانت الإسكندرية مدينة كبيرة منذ مايزيد على قرنين من الزمان . ولقد قامت الكثير من المعارك التي اشتعل أوارها بين ربوعها وكانت سببًا في وجود الكثير من الخرائب التي استعملت في المنشئات الجديدة ، كما يحتمل استخدامها في أساسات المسلة .

ولم يكن هناك شيء غير عادى بين تلك القطع المصنوع منها المسلة فيما عدا الحجر الذي كان على هيئة المسطرة ، فعندما استخرج هذا الحجر من مكانه سمكه يبلغ حوالي خمس وشرين بوصة ، وقد قطع منه الجزء الواقع بين

ضلعيه إلى عمق تسع بوصات . هذه المساحة ملئت بأحجار أخرى بما فيها الكتلة البيضاء . وعندما عثر على هذا الجزء بادىء الأمر لم يكن يرى منه إلا السطح العلوي ، أما الجزء الأسفل فقد كان متوازى الأضلاع قائم الزوايا . وإذا نظرنا إليه بمفرده نستنتج أنه كان جزءًا من حوض كبير (من فناء أحد المعابد أو القصور) من الأحواض التي كانت شائعة في العصر اليونانى الروماني ، وقد شطف أحد جوانبه مصادفة أو عمدًا وترك القاع والجانب الآخر على طبيعته الأصلية ، وكان داخل حافة هذا الحوض - إذا كان حقيقة حوضًا - عند اتصالها بقاعه ثلاث خرزات . أما في الخارج عند القاع فقد تأثرت الحواف التي كانت حادة أصلاً . ولم يكن هناك في مظهر الحجر ما يدل على أنه اقتطع على شكل مسطرة البنّاء بقصد وضعه في أساس المسلة . ولكن لما كان شكله مثل المسطرة حينما وضع في مكانه ثم ملئت المساحة الموجودة بين الأذرع فمن المحتمل أن يكون قد أوعز إلى العمال بفكرة إضافة المسطرين والميزان له .

الفصل السابع عشر

تاريخ المسلة
والنقوش الموجودة عليها

يرجع تاريخ هذه المسلة إلى العصر الذهبي لتاريخ مصر ، فقد استحضرت من محاجر سيناء وأنزلت في النيل حوالي ستمائة ميل حتى أقيمت في هليوبوليس إبان عصر تحتمس الثالث الذي يعتبر من ألمع وأشهر ملوك الفراعنة . وقد خصصت الأعمدة الوسطى من الكتابة المنقوشة على المسلة لمدحه والثناء عليه .

هذا وقد قاد أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة ، بعد أن طرد الهكسوس أو « ملوك الرعاة » الذين حكموا دلتا النيل لمدة خمسة قرون . قاد جيشه الظافر حتى بلدة شاروهين الواقعة على مقربة من حدود فلسطين الجنوبية التي أعطيت بعد ذلك لقبيلة سيميون ، هنالك أنشأ أحمس عدة تحصينات ليحمي بلاده من الغزاة ، وكان ذلك على الحدود الشرقية غير بعيد من خط قناة السويس الحالي ، كما أعاد الأمن داخل امبراطوريته وأخضع القبائل النوبية التي رفضت دفع الجزية . وعندما اقتنع بأكاليل النصر التي توجت رأسه وجه اهتمامه إلى إصلاح وتوسيع وتجميل المعابد التي أهملت أثناء حكم الأجانب الطويل المدى .

وكان تحتمس الأول هو أول من خلف أحمس وكان محاربًا عظيمًا حيث

امتدت فتوحاته إلى أبعد من فتوحات سلفه ، فقد قاد جيشه المظفر الذي اجتاح فلسطين وشمال سوريا إلى بلاد النهرين التي كانت تمتد من نهر اروتس الواقع فيما وراء الفرات ، ثم عاد إلى طيبة « متوجًا بأكاليل المجد » « محملاً بالغنائم » . وقد اغتنت مصر على يديه بفضل فتوحاته وبفضل الثروات التي كان يجلبها بصفة مستمرة من سوريا ومن أقاليمه الجنوبية .

ولم يطل أجله فخلفه في الحكم ولده تحتمس الثاني الذي حكم مصر باسم حتشبسوت أخته وزوجته التي كانت الحاكم الفعلي . وكانت من ناحية أمها من أصل أقدس من أصل زوجها ، ولكن الأمر احتاج إلى معجزة عند ولادتها حتى يتطهر دمها من اللوثة التي ورثتها عن أحد أسلافها – من ناحية أمها – الذي لم يكن من العائلة المالكة .

ولقد ادعى ملوك مصر أنهم من سلالة الآلهة وكانا يتلقون الطاعة من شعوبهم باعتبار أنهم آلهة . ولذلك كان نقاء الدم الملكي من أولى الاعتبارات الهامة . كان الملك ابنًا للإله « رع » ، وكان أبوه كذلك ابنًا لرع وجده وجد جده وهكذا أسلافه السابقون حتى يصلوا إلى الإله نفسه . ولذا لم يكن هناك أية عائلة أخرى تنحدر من سلالة الآلهة وتصلح لزواج العائلة المالكة ، فكان الإخوة والأخوات يتزوج بعضهم البعض حتى ينبت أطفالهم من أصل ملكي طاهر . وكان الطفل الذكر له حق اعتلاء الملك إذا كان من نفس الأم . وكان يحدث أحيانًا أن أميرًا من نسل امرأة عادية كان يخلف أباه في الحكم ، وكذلك بعض الأشخاص الذين لم يكن يعرف أسلافهم ، كأن يكونوا قد اعتلوا العرش عن طريق الظفر في الحرب أو بأي وسيلة أخرى ، فيصبحوا حكامًا حقيقيين ، ولكن هؤلاء لم يكونوا يعتبرون ملوكًا شرعيين لدى الجمهور والكهنة ، وكثيرًا ما كانوا يحاولون جعل حكمهم شرعيًا ويضمنون وراثة العرش لأولادهم وذلك عن طريق الزواج من أميرات من الأصل المقدس ، فكانوا يتوجون زوجاتهم ملكات ويحكمون في ظل ولايتهم . وكان الملك يشرك معه في الحكم أحد أنجاله ، وذلك عندما يكون هذا النجل وحيدًا لأنه

يكون أقرب إلى الدم الملكي الطاهر من جهة أمه لا من جهة أبيه ، ولم تكن هذه الوسائل تعتبر كافية لتنقية الدم وجعله صالحًا لتكوين شرعية الأسرة الحاكمة . ولا يمكن عمل هذا إلا بمعجزة من جانبّ الإله الذي ينحدر منه هذا النسل . ولقد تنازل « رع » إله الشمس ، أن يحل في الأب وقت الحمل ولذا أصبحت السلالة من نسل الآلهة وأصبح الملك « إبنًا لرع » .

ويوجد بجانب حتشبسوت مثلان آخران مدونان في التاريخ المصري وكلاهما دليل على امتزاج الروح المقدسة في دم العائلات الملكية ، وهما أمينوتيس الثالث ابن تحتمس الرابع وبطليموس قيصرون ابن يوليوس قيصر . وكان الكهنة يعتقدون أن هذه الاختراعات إنما هي من المستلزمات السياسية .

وقد حكم تحتمس الأول كذلك باسم زوجته ، فقد كانت أمه مجرد محظية . ولذلك لكي يصبغ حكومته الفعلية بصبغة شرعية ويستمر في اعتلائه العرش بصفة مقدسة جعل حتشبسوت شريكة له ولم تزل طفلة .

ثم مات تحتمس الثاني عقب حكم قصير الأمد غير مليء بالأحداث . وهو في سن الثلاثين ، وقد ترك وراءه نجلاً واحدًا هو تحتمس الثالث الذي كانت أمه ، إيزيس ، من أصل وضيع . وكان مازال طفلاً ، ولكن عمته الملكة حتشبسوت نادت به خليفة لها واستمرت تحكم باسمه كما حكمت سابقًا باسم زوجها . ولقد استمرت هذه الحكومة الثنائية حوالي ١٦ عامًا وانتهت في وقت وبطريقة لم توضحها لنا الآثار . وكان حكمًا زاهرًا يسوده السلام استمرت تجمع فيه مصر الثروات وتبني وتجمّل المعابد وتقيم آثارًا أخرى رائعة .

وكان تحتمس الثالث قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره حينما انفرد بالحكم . وسرعان ما بدأ سلسلة غزواته المجيدة . وكان قد مضى حوالى المائة عام على طرد « ملوك الرعاة » من مصر حيث أمكن إقامة الإمبراطورية على أساس منيع . إلا أن الفضل في ذلك يرجع إلى هذا الحاكم الذي ندين له بسلتنا والذي رفع مصر إلى مصاف الأمم العظيمة بين الدولتين اللتين كانتا

موجودتين حينذاك . وقد استمر حكمه حوالي خمسة وخمسين عامًا بما فيها المدة التي حكم فيها بالاشتراك مع حتشبسوت .

وكانت مدة حكمه كلها عبارة عن سلسلة من الغزوات المتتابعة كتب له فيها النصر والتي كان من نتيجتها امتداد حدود الإمبراطورية كما جلبت إلى مصر فيضًا عميمًا من الذهب والفضة والخيل والماشية والأغنام إلى غير ذلك من الحيوانات النافعة وكل أنواع الثروات التي كانت معروفة للتجار في ذلك الحين .

ولقد قام هذا الملك ابتداء من السنة الثالثة والعشرين إلى السنة الأربعين من حكمه بأربع عشرة غزوة ضد الشعوب الآسيوية . وقد قام بالفعل برحلات طويلة شاقة في بلاد غريبة معادية عبر الأنهار والصحاري والجبال وهو يقيم الحصون والاستحكامات بعد كل هجوم وحصار مدمرًا كل قبيلة أو شعب يعترض غزوات ابن الإله آمون المحبوب الظافر . وعلى حد تعبير اللغة الهيروغليفية امتدت فتوحاته في الجنوب إلى أقصى البلاد داخل أفريقيا وفي الغرب إلى ما وراء صحراء ليبيا وعلى طول شاطىء البحر وفي الشرق والشمال إلى أرض « النهرين » وأعمدة السماء الأربعة .

ولقد كان معروفًا بين معاصريه بالفاتح والحاكم للعالم ، وكان ينظر إليه رعاياه المخلصون بالهيبة والخشوع على أنه كائن مقدس . ففي عصره أصبحت مصر صاحبة النفوذ العالمي في كل من التجارة والحروب . وقد ساعده حكمه الطويل الأمد والأموال الطائلة التي كان يجمعها سنويًا من فتوحاته بصفة جزية على تنفيذ خططه ومشروعاته فيما يتعلق بزيادة عدد المعابد لآلهة مصر التي كان يعتبر نفسه من سلالتها وجزءًا منها .

ولقد تقدم الفن المصري في عصره وفي العصور التالية له حتى وصل إلى أقصى درجات الكمال . إلا أن القرون التي مضت لم تترك لنا في أغلب الأحيان سوى أكوام من الخرائب ، على أن هناك بقايا كافية تمدنا بمعلومات

مفصلة عن الآثار العجيبة لهذا العصر . وسواء نظرنا إلى عظمة الأفكار المبتكرة الأصيلة أو رشاقة الأشكال الضخمة ، أو تناسق وكمال التركيب ، أو جمال وقوة التصميمات الزخرفية ، أو جمال وصدق التنفيذ فإننا نستنتج أن فناني القرن السادس عشر السابق للميلاد قد أنتجوا أعمالاً فنية بديعة لم يتفوق عليها عمل من الأعمال منذ ذلك الحين . ذلك أن هذا العصر كان عصر مصر الذهبي في القوة والمجد ، في الحرب والتجارة ، في الثروة والفن حتى في المؤرخين والشعراء . والواقع أننا مدينون لهؤلاء بتلك المعلومات الوفيرة التي لدينا عن هذا الشعب العجيب .

وتحتل مسلات تحتمس الثالث مركزًا هامًا بين أعاله الأثرية وتعتبر مسلة القديس جون لاتيران بروما إحدى مسلاته ، على الرغم من أنه يبدو من النقوش المحفورة عليها أنها أنشئت وأقيمت بعد وفاته بوقت قصير بواسطة تحتمس الرابع . ولقد قصّرت قليلاً ، ولكنها لاتزال مائة وخمسة أقدام في الارتفاع ، وهي أكبر مسلة موجودة فيما عدا المسلة الناقصة الموجودة عند محاجر أسوان . وهي تزن خمسمائة طن ، إلا أن مسلة أسوان تزن فوق السبعمائة طن . وكانت إحدى اثنتين مقامتين أمام معبد آمون في الكرنك . وتنص الكتابة المنقوشة عليها على « أن الملك قد أقام لآمون هذه المسلات الضخمة في ساحة بيت الإله » .

كما أن الجزء الباقي من إحدى المسلات الموجودة الآن في استنبول كانت من عمله وتنسب إلى أوائل حكمه الانفرادي . وهي تشبه المسلات المصرية الأخرى فهي مصنوعة من حجر الجرانيت الأحمر اللون وقد نقشت كتابتها بالأسلوب الذي كان يمتاز به العصر . ويروى لنا الملك هنا قصة غزواته في آسيا : « لقد اجتاز الملك تحتمس الثالث كل أراضي ما بين النهرين فاتحًا ظافرًا على رأس جيشه . ولقد مد حدوده إلى قرن العالم وحتى حاجز ما بين النهرين .

أما مسلة كليوباترا وزميلتها القائمة بلندن الآن فقد أقامها تحتمس الثالث أصلاً عند إحدى بوابات معبد الشمس في هليوبوليس ، ربما في أواخر أيام حياته ، حوالي ألف وخمسمائة سنة قبل ميلاد المسيح . ولقد أعاد بناء المعبد القديم وزينه ، كما قام ببناء جدار حول المعبد في السنة السابعة والأربعين من حكمه ، كما يتضح من النقوش .

ولقد أطلق على مدينة هليوبوليس في بعض الأحيان مدينة المسلات وذلك بسبب المسلات العديدة التي كانت قائمة فيها . وقد كانت مدينة للمسلات لأمد طويل قبل عصر سيتي الأول ، ومع ذلك فإن اسم هذا الملك يذكر في الآثار على أنه قد « ملأ هليوبوليس بالمسلات لكي تضيء بأشعتها معبد الشمس » . وكانت المسلات ، أو على الأقل النقوش المحفورة عليها ، مطلاة بالذهب أو بغيره من المعادن .

وتدل الكتابة المنقوشة على معبد آمون بالكرنك على وجود بعض الأشياء التي وهبها الملك تحتمس الثالث لهذا الإله . ومن بين هذه الأشياء « قيثارة جميلة مرصعة بالذهب والفضة والأحجار الكريمة الزرقاء والخضراء وغيرها » ، وكذلك تمثال للملك يشبهه تمامًا « لم ير مثيله في مصر منذ أيام إله الشمس رع » بالإضافة إلى « مسلات قد ازدانت بالذهب والفضة والحديد والنحاس كانت تشرق بفخامتها فوق سطح الماء وتملأ الأرض بنورها مثل النجوم تتلألأ فوق جسد الآلهة المجيدة نت » .

هذه المسلات كانت تقام أزواجًا عند بوابات المعابد توصل إليها طرق رئيسية تصطف على جانبيها تماثيل أبو الهول . ولم تكن هليوبوليس إحدى المدن القديمة الشهيرة بآثارها وبعبادة العجل منفيس فحسب ، بل كانت مركزًا للعلم والمعرفة في مصر لعدة قرون . ولقد حضر إلى هليوبوليس الكثير من فلاسفة اليونان في سنواتها الأخيرة لكي يضيفوا إلى علمهم فيضًا من حكمة كهنتها .

ولقد انقضى تاريخ هليوبوليس الطويل المجيد على حين فجأة بغزو الفرس للديار المصرية عام ٥٢٥ ق.م. ولو أن الكهنة قد أعادوا فيما بعد عبادة إله الشمس الذي كان يتمثل في العجل المقدس منفيس ، إلا أن المدينة بقيت خاوية الوفاض .

ويروى هيرودوت أن قمبيز وعد والدته وهو في العاشرة من عمره أنه عندما يصبح رجلاً سوف « يقلب مصر رأسًا على عقب » . وقد نفذ وعده بحذافيره . وليس لدينا معلومات تاريخية عن تفاصيل تدمير المدينة المقدسة ، ولا يمكننا أن نحكم على الأعمال التي ارتكبت إلا بما كان عليه طابع الفرس الفظ التي انتهك الحرمات ودنس المقدسات وبالحالة التي وجدها اليونان والرومان فيما بعد . وعندما قام سترابو بزيارتها ، بعد ذلك بخمسمائة عام سنة ٢٤ ق.م. قبيل إنشاء مسلة الإسكندرية بحوالي ١٢ سنة لم يجد إلا مدينة قاحلة ، إلا أن الكهنة المخلصين كانوا لايزالون يتعبدون في معبدها الخرب ، وهم متمسكون بدينهم القديم :

هنا في هليوبوليس يمكن للإنسان أن يرى من فوق ربوة عالية معبد الشمس حيث يستقر في أحد هياكله العجل المقدس منفيس . وهم يعتبرونه إلهًا مثل عجل أبيس الذي يعبد في ممفيس . وتشاهد أمام هذه الربوة عدة بحيرات تغذيها قناة على مقربة منها . وقد أصبحت المدينة في وقتنا هذا مهجورة تمامًا . أما معبدها القديم المبني على الطراز المصري فيشتمل على الكثير من الآثار التي تدل على غضب قمبيز وروحه المولعة بتدنيس المقدسات ، فقد دمر المباني المقدسة وشوهها بالنار والقوة الغاشمة . وبهذه الطريقة ألحق أضرارًا بليغة بالمسلات ، أما المسلتان اللتان لم تصابا بسوء فقد نقلتا إلى روما . أما بقية المسلات سواء وجدت هنا أو في طيبة فالبعض منها لايزال قائمًا وقد أكلته النار والبعض الآخر ملقى عى الأرض .

من هذا الوصف يتضح السر في استدارة قاعدة مسلة كليوباترا وما أصاب

جوانبها من الأضرار . ولقد بقيت هي وزميلتها ملقاة على الأرض في هليوبوليس منذ عصر غزو الفرس لمصر حتى نقلها الرومان إلى الإسكندرية . ولم تكن ملقاة على الأرض فحسب بل كانت مشوهة بسبب فعل قمبيز ملك الفرس كما أنها لاقت الكثير من قلويات التربة والنيران التي كان يشعلها الأهالي من وقت لآخر على مقربة منها لإعداد طعامهم لمدة خمسمائة عام .

وهليوبوليس لاتبعد عن القاهرة إلا مسيرة ساعة بالعربة . وأول ما يصادفك فيها هي المسلة المنفردة في الحقول البعيدة ، كما تشاهد على مقربة منها بعض الآكام والآثار الناتئة من الأرض التي تكون هي والمسلة العلامات التي تميز موقع هذه المدينة التي كانت شهيرة فيما مضي . هذه المسلة هي أقدم المسلات الكبيرة التي اكتشفت . وقد أقامها أوسرتسن الأول أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة ، قبل عصر تحتمس الثالث بحوالي ألف سنة . وقبيل ميلاد إبراهيم بعدة قرون ، حتى قبل عصر الطوفان ، استطاع كهنة هليوبوليس أن يقرأوا النقوش المحفورة على عمق كبير على جوانب هذه المسلة والتي نقرأها اليوم . ونفس الكتابة مكررة على كل جانب . وفيما يلي ترجمتها :

حور الشمس

واهب الحياة لهؤلاء الذين يولدون

ملك الوجه القبلي والبحري

خفر قرع

رب التاج المزدوج

واهب الحياة لهؤلاء الذين يولدون

أوسرتسن

صديق روح عون

خالد على مدى الدهر

حور المجيد

واهب الحياة لهؤلاء الذين يولدون

الإله الخير

خفر قرع

قد أقام هذا البناء

في أوائل الدورة الثلاثينية

واهب الحياة إلى الأبد

وكان أوسرتسن أحد ملوك الأسرة الثانية عشرة العظام ، وكان عصره زاهيًا امتد خمسة وأربعين عامًا بما فيها العشرة الأعوام التي اشترك فيها مع والده في الحكم . وفي العام الثالث من حكمه أمر بعد التشاور مع كبار موظفيه بإقامة المباني لإله الشمس « رع » ، كما قام بتوسيع المعبد الذي كان قد حل فيه القدم حتى في ذلك العصر الغابر . وعندما أتم البوابة الكبرى أنشأ عند مدخلها مسلتين إحداهما المسلة القائمة الآن . أما المسلة الأخرى فقد ورد ذكرها كثيرًا في كتابات اليونان والعرب الأقدمين ،وبقيت قائمة مكانها حتى عام ١١٦٠ بعد الميلاد عندما سقطت وتهشمت . وكان الهيكل الهرمي الذي يعلو هذه المسلات مغطى بطبقة نحاسية ثقيلة الوزن عظيمة القيمة ، كما نقشت عليها أشكال مختلفة .

ولقد عمرت مسلة نيويورك قبل نقلها من المدينة المقدسة طويلاً ، فقد عمرت طوال عصر مصر الذهبي ، كما أطلت على موسى في صباه عندما كان يذهب يوميًا مع أولاد الأشراف لتلقى العلوم على يد كهنة معبد الشمس . وكان موسى من جهته ينظر بإعجاب إلى تلك النقوش الهيروغليفية

التي كانت مغطاة بطبقة ذهبية والتي حيرت علماء العصر الحديث ، والتي كان يقرؤها موسى كما يقرأ الطالب دروسه اللاتينية . كما شاهدت شعب الله المختار أيام اضطهادهم وشاهدت الاضطراب الذي تملكهم إبان الخروج - والكهنة يروحون ويغدون مسرعين بينما أخذت الجماعات من الناس في الأماكن العامة يناقشون ذلك الحدث العظيم .

كما شاهدت بعد ذلك مرور ثمانية قرون على حكم الفراعنة ، ولم تشهد هؤلاء الفراعنة فحسب بل شهدت كذلك الآلاف من طلاب العلم الذين جاءوا ينشدون المعرفة في مدينة العلم الشهيرة . وإلى جانب ذلك شاهدت غزو الفرس لمصر ورأت مدينة عون ومعابدها وهي تتقوض ، كما وقعت هي ورفيقاتها من المسلات فريسة انتقام جنود قمبيز المخربين .

وبقيت هذه المسلة ملقاة على الأرض حيث تركها الفرس ، وهنالك كانت تشاهد أفلاطون في جولاته اليومية تتبع دراسته للفلسفة وعلم الفلك ، كما شهدت بعد ذلك قدوم الإسكندر الأكبر إلى الآثار القريبة منها والاستقبال الحار الذي لاقاه به الشعب بصفته منقذًا لهم من نير الفرس ، ثم شاهدت بعد ذلك حكم البطالسة الذي دام ثلاثمائة عام .

وفي عصر القياصرة نقلت من بين الخرائب والأطلال التي كانت في تلك المدينة الداخلية إلى ذلك الميناء الكثير الحركة ، ميناء الإسكندرية . وهنالك أقيمت على شاطىء البحر وكأنها منارة للبحارة لمدى ألف وتسعمائة سنة ، كانت ترقب الأمواج المتلاطمة وغدو السفن ورواحها في جانب والمناظر المختلفة للأحداث البشرية في الجانب الآخر .

كم شاهد هذا النصب القديم وهو قائم على شاطىء الإسكندرية من الثورات والفتن والغزوات والفتوحات والصراع بين عبادة الأوثان والمسيحية وبين المسيحية والديانة الإسلامية والنضال الذي كان قائمًا بين مختلف الأسر العربية والتركية وعهود السلاطين والخلفاء والمماليك ، وغزو نابليون لمصر

والمواقع البرية والبحرية بين الإنجليز والفرنسيين . أما ما سوف تشاهده هذه المسلة خلال القرون القادمة في مقرها الجديد في العاصمة التى لم يكن لها وجود حينما كان عمر هذه المسلة ثلاثة آلاف عام ، فلا يمكن أن يقص نبأه إلا المؤرخون الذين سيولدون في المستقبل القريب .

وكان للقدماء المصريين آداب تفوق آداب أي شعب آخر من الشعوب القديمة ، ولم يصلنا منها إلا النزر اليسير . وقد حفظت المئات من الكتابة والنقوش على الأحجار وأوراق البردى . وكلما تعمق الطالب في دراستها ازداد إعجابه بها . ويتناول بعض هذه الكتابات الأحداث التاريخية بينما يتناول البعض الآخر العقائد الدينية .

أما النقوش التي وجدت على المسلات فهي أقل النقوش المصرية إثارة للاهتمام ، ذلك أنها كرست لمدح الملوك لأنفسهم والثناء عليها وتأكيد نسبتهم إلى الآلهة . والنقوش الموجودة على الشكل الهرمي ، وكذلك الأعمدة الوسطى لمسلة نيويورك إنما قام بتدوينها تحتمس الثالث . وقد استخدم رمسيس الثاني بعد ذلك بثلاثمائة سنة الفراغ الموجود على كل من جانبي العمود المتوسط . ولم يكن رمسيس الثاني مشهورًا بأعماله العديدة العظيمة فحسب ولكنه كان ينسب كذلك أعمال سلفه إلى نفسه ابتغاء الشهرة . والعمودان الخارجيان اللذان نقشهما على كل وجه من أوجه المسلة تنبئنا بأعوامه المليئة بالخير وعن انتصاراته الباهرة وأنه ابن إله الشمس « رع » قد انحدر من صلبه .

وبعد ذلك بأربعمائة عام ، وضع أوسركن الأول على مقربة من الحافة الخارجية لكل وجه من أوجه المسلة بالقرب من قاعدتها ، نقوشًا تبين للأجيال القادمة أنه كان ملك الوجهين القبلي والبحري ، ومن سلالة الإله « رع » . هذا الملك المعروف في التوراة باسم « زيرا » هو الذي هزمه « آسا » في معركة كبرى جنوب فلسطين .

وعلى الواجهة الشرقية من الشكل الهرمي أعلى المسلة رسم تحتمس الثالث

على هيئة أبي الهول وهو رابض على قاعدة ممسكًا بكلتا يديه وعائين وهو على وشك أن يقدم قربانًا إلى رع الذي له رأس صقر ، وهو إله عون (هليوبوليس) ويلقب تحتمس هنا « بالإله الخير » ، « رب الوجهين » ، « منخفر رع » ، « فحل النصر الذي ظهر في طيبة ، ابن الشمس ، تحتمس » . وأسفل الوعائين وسط النقوش التي تكاد تكون مطموسة يمكن قراءة هاتين الكلمتين : « يقدم النبيذ » .

وفيما يلي ترجمة العمود الأوسط المكتوب بالهيروغليفية والذي نقشه تحتمس الثالث على الواجهة الشرقية للمسلة :

* * *

الملك العلم

حورس المتوج

فحل النصر

الذي ظهر في طيبة

* * *

رب النسر ورب التيجان

دائم الملك

حتى كالشمس في سماواتها

سليل « توم » رب « عون »

ابنه من صلبه ، ذلك الذي

شكله « تحوت » ،

الذي خلق في المعبد العظيم

بكمال أجساد الخالقين

وهو يدرى ما عليه أن يؤديه

دوام مملكته على مدى الأجيال

ملك الوجهين القبلي والبحري

من - خفر - رع (تحتمس الثالث)

« توم » المحب ، الإله العظيم

بدورات ألوهيته

ذلك الذي يهب الحياة بحلوها ومرها

شأن الشمس إلى أبد الآبدين

* * *

أما ترجمة العمود الأوسط على الواجهة الشمالية فهي كما يلي :

الاسم العلم

حورس المتوج

ممشوق القامة تاج الجنوب

رع المحب

* * *

ملك الوجهين القبلي والبحري

من – خفر – رع « تحتمس الثالث »
حورس المجيد ، القانع بالظفر
الذي يقضي على حكام الأمم
مئات الآلاف ،
بناء على أمر رع
الصادر إليه
بإحراز النصر في كل أرض
فتجمعت الفتوحات
إن شجاعة السيف
مجمعة في راحتي يده
لكي يوسع حدود مصر
ابن الشمس ، تحتمس الثالث
الذي يهب الحياة إلى الأبد

* * *

نقوش رمسيس الثاني
ترجمة العمود الجنوبي للواجهة الشرقية :
الاسم العلم
حورس المتوج

فحل النصر
ابن خفر – رع

* * *

ملك الوجهين القبلي والبحري
أوسر – ما – رع (رمسيس الثاني) الذي اختاره رع ، حورس المجيد
سنواته حافلة بالخير ، وانتصاراته باهرة
ابن الشمس ، رمسيس الثاني
الذي جاء من الرحم
ليتقلد عرش رع
أعده الإله ليكون الحاكم المطلق
حاكم الوجهين
أوسر – ما – رع (رمسيس الثاني)
الذي اختاره رع ، ابن الشمس
راميسو ميامون (رمسيس الثاني)
الذي مجده أوزوريس
كالشمس يهب الحياة إلى الأبد

* * *

أما العمود الشمالي :

الاسم العلم

حورس المتوج

فحل النصر

رع المحب

* * *

ملك الوجهين القبلي والبحري

أوسر – ما – (رمسيس الثاني)

الذي اختاره رع

الشمس الذي أنجبتها الآلهة

من استولى على الوجهين

ابن الشمس

راميسو ميامون (رمسيس الثاني)

الشاب

المليح الذي يصلح للعشق

كمدار الشمس

حين تتلألأ في الأفق

رب الوجهين

أوسر – ما – رع (رمسيس الثاني)

الذي اختاره رع

ابن الشمس

راميسو ميامون

الذي مجده أوزوريس

الذي يهب الحياة مثل الشمس إلى أبد الآبدين .

* * *

كما توجد بعض النقوش الهيروغليفية المطموسة عند قاع المسلة ، ولقد ترجمت بهذه العبارة : « الإله الرحمن واهب الحياة ، رمسيس الثاني ، ولقد تكررت هذه العبارة عدة مرات أسفل المسلة من كل جانب .

أما النقوش الأخرى المرسومة على جوانب المسلة المختلفة فهي من نفس الطابع وتكرار إلى حد كبير للنقوش التي أوردنا ترجمتها .

وعلى جانبين من جوانب الشكل الهرمي يربض رمسيس الثالث على شكل أبي الهول وهو يقدم القرابين إلى إله الشمس « رع هرمخيس » (الشمس البازغة) وعلى الجانبين الآخرين يقدم القرابين إلى توم (الشمس الغاربة) .

الفصل الثامن عشر

ما فعلته مصر لأجل إنجلترا
قناة السويس

بمجرد وصولي إلى القاهرة عاد جيش الخديوى الذي كان على وشك القيام بغزو بلاد الحبشة إلى مصر بعد هزيمة منكرة . وقد أحيطت الأنباء الخاصة بالخسائر التي منيت بها الحملة بجو من التكتم .

ففي أغسطس من العام السابق أرسل الخديوى ألفي رجل إلى مصوع لغزو بلاد الحبشة بقصد الوصول إلى تسوية بشأن بعض المظالم المتكررة . ولقد أشيع أن الأحباش قد تخطوا حدودهم إلى السودان للبحث عن الغنائم مرتكبين مختلف أنواع السلب والنهب . وقد التقت فصائل الخديوى بجيش الوطنيين من الأحباش تحت قيادة الملك يوحنا البالغ عددهم حوالي ٣٠ ألفًا ، فأبادوا قوات الخديوى تمامًا ، ولم يبق منها سوى ثلاثين رجلاً نجوا من هذه المذبحة .

وسرعان ما أرسل الخديوى جيشًا مكونًا من ١٦ ألف مصرى لاسترداد هيبة المصريين الضائعة ، وكانت القيادة الاسمية معقودة للأمير حسن ، وهو ابن شاب للخديوى تربى تربية عسكرية في إنجلترا ، إلا أن القيادة الفعلية كانت للطيف باشا الذي أظهر بعض التفوق في خدماته في السودان .

ولقد رافقه في القيادة لورنج بصفة مستشار . وطبقًا للمعلومات التي أعطاها الجنرال للمؤلف أوصي الخديوى لطيف باشا بأن يلتزم نصائحه في كل

تحركاته العسكرية .

وكان الجنرال لورنج مواطنًا من فلوريدا . وعندما كان طفلاً حديث العهد بالحياة فر هاربًا من منزله متجهًا إلى تكساس حيث اشترك في الحرب التي كانت قائمة بين أهل هذه الولاية تحت قيادة الجنرال « سام هوستن » وبين المكسيكيين تحت قيادة سنتا آنا ، كما خدم كضابط تحت إمرة الجنرال سكوت في الحرب المكسيكية ، وأظهر تفوقًا في معركة نسف بوابات مدينة المكسيك ، تلك المعركة التي فقد فيها ذراعه ، كما اشترك بعد ذلك في حروبنا الهندية على الحدود الغربية ، ثم أصبح كولونيلاً في جيشنا عند بداية حرب الانفصال . واستقال بعد ذلك من منصبه والتحق بخدمة الحلفاء ، وأصبح جنرالاً . وكان ضابطًا مقاتلاً باسلاً ، ولكنه لم يظفر إلا بنجاح متوسط .

وبعد انتهاء هذه الحرب بعدة سنين ، وكان قد خرج من الخدمة ، التحق بجيش الخديوى برتبة جنرال . ولقد زعم أنه اشترك في حوالي ٧٥ معركة . وكان رجلاً مهذبًا أنيسًا حسن المعشر ، ولكن الدم الجنوبي الحار كان يجرى في عروقه كما كان ذا مزاج يصعب التحكم فيه ، وقد أدت هذه الصفة الشاذة فيه ، في رأي بعض كبار الموظفين المصريين ، إلى النتائج السيئة للحملة الحبشية .

بعد مسيرة بضعة أيام داخل بلاد الحبشة التقى الأحباش بالجيش المصرى وهزموه هزيمة منكرة . وقد تجوهلت نصيحة الجنرال لورنج تمامًا ، وكان من رأيه أنه لو اتبعت نصائحه لنجح الجيش في غزواته . على أن التجارب الحديثة للإيطاليين دلت دلالة واضحة على أن غزو بلاد الحبشة إنما هو عمل شاق .

أما نجاح الإنجليز عام ١٨٦٨ فقد كان يرجع إلى خلافات ومنازعات بين أهالي الحبشة والحاجة إلى وجود قوة مركزية حاكمة .

ولم تكن الهزيمة الثانية التي حاقت بالمصريين أشد من الهزيمة الأولى أو أشد

خسارة من تلك التي حاقت بالإيطاليين . وقد نزلت بالأحباش أنفسهم خسارة فادحة ، واستطاعت الحكومة المصرية أن تسحب جيشها ،وتعيد السلام على أساس ما سمى « بالشروط الشريفة » .

ومن المحتمل أن يكون الخديوى قد أرسل حملته الصغيرة الأولى إلى مصوع بقصد الاستيلاء على مديرية صغيرة كانت تقع بين هذا المكان وبين السودان . ولم يكن الشروع في غزو بلاد الحبشة أو جزء هام منها إلا ضربًا من ضروب الطمع مما عجل بإرسال حملة كبيرة أخرى باهظة التكاليف . فقد تكلفت هذه الحملة ، إلى جانب الخسائر في الأرواح ، ما يربو على خمسة ملايين دولار ، فقد نقل الجيش من مختلف أنحاء مصر إلى السويس ثم بطريق البحر إلى مصوع وهي مسافة تزيد على ألف ميل . كما نقلت معه كافة المواد الغذائية اللازمة ، وكافة وسائل النقل التي تصلح في بلاد وعرة معادية خالية من الطرق أو وسائل المدنية .

وكان الخديوى قد غزا وضم إلى ممتلكاته أقاليم فسيحة في أفريقيا الوسطى ، وفرض نفوذه من مصب النيل حتى منابعه في بحيرتى ألبرت وفكتوريا نيانزا ، وهي مسافة تزيد على ٣٠٠ ميل عن طريق النهر . وكان نفوذه على كل هذه الأقاليم لا منازع فيه . فكانت كلمته قانونًا ، وكانت حياة وحرية ستة ملايين نسمة من المصريين لا بأس بها ، بينما أكثر من هذا العدد في السودان وأفريقيا الوسطى كانوا خاضعين لسلطانه وإرادته . وكانت الحرب الحبشية أول عائق في سبيل مشروعاته الكبرى لتوسيع ممتلكاته ، ومن السهل إدراك شعوره بالفشل في هذا السبيل .

وإننا لنفترض الكثير إذا قررنا أن طبيعة الحاكم الشرعي تقابل الحقائق بروح طيبة ، ذلك أن ضباط إسماعيل الوطنيين ، لكي يتجنبوا شر فضيحتهم ، أخذوا ينحون باللائمة على الأمريكيين ، وبذلك بثوا في طريقهم العقبات حينما أرادوا تسوية حساباتهم عند استرداد ديونهم بعد ذلك بعامين .

ولقد وجهت عدة اتهامات إلى الجنرال لورنج والكولونيل داى رغم أنه لم يقاتل بشجاعة أو يتفانى في إنقاذ المصريين من الهزيمة سوى الكولونيل داى . ومع ذلك ، حينما لم يعثر على حقائق تدينه بأية تهمة ، صدر الأمر بالقبض عليه ومحاكمته أمام محكمة عسكرية لأنه صفع بيده أحد مرءوسيه من الضباط الوطنيين . وقد بلغت به الحال حدًا جعلته يلجأ إلى القنصلية العامة يطلب الحماية وظل هناك عدة أيام . وبعد عدة مقابلات مع الخديوى ، اعتبرت المسألة منتهية . وعند فصل الكولونيل بعد ذلك بسنتين حصلت له على مكافأة قدرها خمسة آلاف دولار تعويضًا له عن جرح أصابه في معركة الحبشة وكان لايزال يعانى منه . وقد حصلت على نفس المبلغ أيضًا للكولونيل كولستون نظرًا لضياع صحته في السودان .

وبعد مفاوضات طويلة مملة تقررت استحقاقات جميع الأمريكيين الذين خدموا كضباط في جيش الخديوى ويبلغ عددهم أربعين ضابطًا ، وقد سويت حساباتهم ودفعت بشكل مرض .

أما بالنسبة للمالية المصرية فقد كانت الحرب الحبشية هي « آخر قشة قصمت ظهر البعير » . وفي أثناء تنظيم شركة لإنشاء قناة السويس وبعد أن باع المسيو دى لسبس كل ما أمكنه بيعه في أوربا من أسهم الشركة البالغ رأس مالها ٢٠٠ مليون فرنك ، لم يبق إلا ١٧٧٫٦٤٢ سهمًا من عدد الأسهم البالغ عددها ٤٠٠ ألف سهم . وحينئذ اشترى سعيد باشا الذي كان حاكم مصر حينذاك الأسهم الباقية باسم الحكومة ودفع في ذلك مبلغًا يزيد على ١٧٫٥٠٠٫٠٠٠ دولار .

وعند تجهيز الحملة الثانية لغزو بلاد الحبشة أصبح مركز مصر المالي في منتهى الخطورة . ولم يقف الأمر عند حد دفع ١٠ أو ١٢ أو حتى ١٤ في المائة قيمة فوائد على المبالغ التي كانت الحكومة مدانة بها ، بل كانت تصل الفوائد إلى ٢ ٪ شهريًا على القروض المؤقتة وعلى الديون التي انتهى أجلها .

وحتى ذلك الوقت لم يقصر الخديوى عن التزاماته في دفع ديونه ، ولكنه وجد من العسير الحصول على الأموال اللازمة للإنفاق على الحملة الحبشية الباهظة التكاليف . وإزاء هذه المحنة ، أخذ يتفاوض بشأن قرض بضآلة نصيبه من أسهم القناة .

وظن أصحاب البنوك الفرنسيون أن الفرصة قد سنحت لهم للتعاقد على صفقة باهظة الربا ، فأخذوا يطالبون بفوائد قيمتها عشرة واثنتا عشرة في المائة . وجرت محاولة لتكوين نقابة في باريس لدفع المبلغ . وكان المبلغ المطلوب كبيرًا والحصول على الأموال أمرًا عسيرًا . كما كان لبعض أصحاب البنوك الذين طلبت مساعدتهم شركة في لندن . وتحت تأثير هؤلاء الشركاء « ألقوا ماء باردًا على المشروع » وعملوا على تأخير المفاوضات . ثم قدم طلب إلى الوزارة الفرنسية لبذل معونتها . وكان الرأي السائد أن ضمان أسهم قناة السويس يعتبر صفقة ذات أهمية وطنية بحيث ينبغي على الحكومة ألا تستخدم نفوذها فحسب بل أن تعاون ماليًا كذلك .

وكان هؤلاء الذين يحاولون تكوين نقابة من أصحاب البنوك يظنون أنهم عن طريق هذا القرض إنما سيصبحون أصحاب هذه الأسهم ، وأن القرض ما هو إلا عمليةشراء في الواقع . وكان المسيو دى كاز وزير الخارجية الفرنسي في ذلك الحين يخطب ود الإنجليز . وكان يرغب في توطيد الصداقة مع الإنجليز نظرًا لسوء العلاقات بين فرنسا وألمانيا ، ولم يكن يرغب في أن يخاطر بالإساءة إليهم مهما كانت الأحوال . ولذا قام بإبلاغ اللورد داربي وزير الخارجية الإنجليزية بأن الأنباء تفيد بأن الخديوى يتفاوض مع شركة مالية فرنسية لبيع أسهمه في قناة السويس ، وسأل عما إذا كان لدى إنجلترا أي اعتراض على هذا البيع وكانت الإجابة السريعة هي « أنه من المؤكد أن تعارض إنجلترا في أن تصبح هذه الأسهم في حوزة شركة فرنسية » .

ورأى دزرائيلي الفرصة واغتنمها ، فتشاور مع المسئولين ببنك روتشيلد

الذين وافقوا على أن يدفعوا المبلغ ويتسلموا الأسهم ثم ينتظروا الأوامر بتأييد الشراء عن طريق قرار برلماني . وفي أقل من ثلاثة أيام أصبحت أسهم قناة السويس في حوزة إنجلترا والشهادات الدالة على ذلك بيد القنصل العام الإنجليزي في القاهرة . وكان دزرائيلي يتصرف دون تفويض ما ، ولكنه كان في نظر الإنجليز بمثابة القائد الذي يتجاهل الأوامر أو يتصرف بدونها لكي يحرز نصرًا مؤزرًا . وكان من اليسير الحصول على قرار البرلمان . وقد وصلت عمولة بنك روتشيلد عن هذه الصفقة ، بالإضافة إلى الفائدة المستحقة على الديون إلى مبلغ نصف مليون دولار .

ولقد قال دزرائيلي للخديوى ، عن طريق ممثله الدبلوماسي في القاهرة « سوف نشترى أسهم قناة السويس وسنقدم لكم الأموال اللازمة . ولن نطلب سوى دفع فائدة مقدارها ٥ في المائة على المبلغ في الشراء خلال الفترة التي يكون لشركة قناة السويس فيها الحق في كوبونات الفوائد وحق امتلاك الأسهم » . وكانت هذه القيمة أقل من نصف أدنى نسبة لفوائد تدفعها مصر في ذلك الحين . وقد تشبث الخديوى بذلك العرض المغرى وتمت صفقة الشراء قبل أن يشتم الفرنسيون خبر المفاوضات ، « ضربة كبرى » وجهها دزرائيلي ، ولكنها كانت ضربة قاضية بالنسبة للخديوى ، وتعتبر أسوأ غلطة سياسية ومالية في حياته .

وفي إحدى التسويات لمطالب دى لسبس ، توقف دفع فوائد هذه السندات وانتقلت قيمتها إلى شركته حتى عام ١٨٩٥. وخلال المدة الباقية من تلك الحقبة اتفقت مصر على أن تدفع ، بل كانت تدفع بالفعل إلى إنجلترا ٥ في المائة سنويًا على المبالغ التي دفعت مقابل أسهم القناة ، أي حوالي مليون دولار سنويًا .

وكانت هذه الأسهم بعد هذه الفترة بحوالي سنة ، أي في نوفمبر سنة ١٨٩٦ تساوى ٢٣٫٨٤١٫٢٧٠ جنيهًا استرلينيًا . وكان المبلغ المدفوع

بالدولارات يساوى ١٦٫٢٥٦٫٦٦١ دولارًا ، وبلغت قيمتها في ذلك الوقت ١١٥٫٣٩١٫٧٤٦ دولارًا ، وكان نصيب إنجلترا الصافي من الربح ٩٦٫١٣٥٫٠٨٥ من الدولار ، وهو مبلغ يساوى التكاليف الأصلية للقناة . وقد تسلمت إنجلترا أيضًا حتى ذلك التاريخ فائدة قدرها ٢ في المائة على المبالغ التى دفعتها أكثر مما تدفع على التزاماتها الخاصة . ومنذ ذلك الوقت زاد دخل القناة الصافي بشكل كبير بحيث إن سعر الأسهم ارتفع في السوق إلى تسعة أضعاف قيمتها الأصلية ، مما أدى إلى أن يصل ربح إنجلترا أكثر من ١٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار إلى جانب النسبة الكبيرة من الفائدة ، وإلى جانب الأسهم التي تسلمتها منذ سنة ١٨٩٦، وبناء على بيان أصدره مجلس العموم في عام ١٨٨١ أدى هذا الفرق في الفائدة الذي كان يصل إلى ١ في المائة و٥ر١ في المائة إلى تصفية حوال ٥٠٠٫٠٠٠ دولار (٩٩٫٤١٤ جنيهًا استرلينيًا) من الدين الذي نجم عن شراء هذه الأسهم .

ولم يكن هذا الربح المالي الضخم سوى جزء صغير مما كانت إنجلترا تحصل عليه من هذه الصفقة . ذلك أنها قد حصلت على مصر نفسها ومديرياتها الواقعة في وسط أفريقيا . وكذلك السودان . وهي أراض تصلح لتكوين إمبراطورية . ومن اللحظة التي اشترت فيها إنجلترا الأسهم اعتبرت القناة ملكًا لها . ولكي « تحمى مصلحتها » كان من الضروري من وجهة النظر الإنجليزية أن تدير الدولة التي تمر فيها القناة . وكان هذا هو غرضها منذ تلك اللحظة فصاعدا . ولقد وضع السياسيون المهيمنون على الأمورفي إنجلترا هذا الغرض نصب أعينهم في كل حركة من حركاتهم على رقعة الشطرنج الدبلوماسية . ولم تقصر الهمة كذلك عن استخدام أية وسيلة من الوسائل التي تعين على تحقيق هذا الغرض .

ولقد حاولت فرنسا منذ غزو نابليون لمصر أن تحتفظ بتفوق نفوذها السياسي في البلاد ، إلا أن إنجلترا كانت العقبة الكئود في سبيل تحقيق هذا المطمح . ولقد نجحت شركة فرنسية ، بمساعدة نابليون الثالث الذي كان قويًا

في ذلك الحين ، في إنشاء القناة . وكان ذلك يتعارض مع رغبة إنجلترا فأبدت معارضة قوية سواء في مصر أو في القسطنطينية . ولقد اعتقد الفرنسيون على إثر إتمام هذا العمل العظيم أنهم قد تفوقوا على الإنجليز بصفة دائمة ، ولسوف تصبح مرسيليا ليفربول أخرى ، وتحتفظ فرنسا بتفوق نفوذها في أرض النيل .

أدركت بعد ذلك إنجلترا وشعرت أن القناة كانت ذات أهمية كبيرة وكسب بالنسبة لها أكثر من أي دولة أخرى . ومنذ أن تبينت هذه الحقيقة وضعت نصب أعينها الحصول على أسهم الخديوى في قناة السويس وكان لابد من التكتم المطلق لإحراز النجاح ، وإلا لاحتجت فرنسا وأتمت هي صفقة الشراء أو وقفت حجر عثرة في طريق بيع الأسهم إلى إنجلترا ، ولذا حينما سنحت الفرصة ، لم يضيع الإنجليز وقتهم .

ويقول هؤلاء الذين يدعون أنهم كانوا على معرفة بالحقائق أن مسيو دلسبس كان على علم بهذا السر وأنه ساعد الإنجليز سرًّا في عملية الشراء . وقد يكون هذا حقيقة ولو أنه غير محتمل الوقوع . ومن ناحية أخرى يقول البعض أنه كان يبذل مجهودات ضخمة في إنشاء جمعية لشراء الأسهم ، وعلى كل فقد كانت مصلحته في ذلك الوقت تنحصر في الدخل الذي ستجلبه هذه الأسهم وقيمتها المقبلة .

ولقد تنبأ بأنه إذا كان الإنجليز يبدون اهتمامًا بالموضوع فإن العمل في القناة والإيراد الذي سوف تدره سوف يزداد ، ومن المؤكد أنه لم يبد أي شعور عدائي ضد الخديوى بسبب هذا الضعف . وعلى كل ، فإن الشعب الفرنسي لم يصفح عن سموه قط ، ولم يرضوا عن أي عمل قام به بعد ذلك .

ولقد كان المسيو دلسبس محقًّا بلا شك في قوله عقب شراء الأسهم إن ذلك في صالح شركة القناة ، فإن اهتمام الإنجليز الذي تحقق بهذه الوسيلة أصبح عاملاً له قيمته في زيادة إيرادات القناة . ولم يكن هذا لينجم عن زيادة عدد الأطنان التي سوف تمر من القناة بسبب شراء هذه الأسهم بقدر ما ينجم

عن المعونة التي ستبذلها إنجلترا في سبيل تثبيت الرسوم والمحافظة عليها .

وبدون هذا الاهتمام الذي أبدته إنجلترا ، لم تكن تلتزم الصمت إزاء الرسوم التي تدفعها على حمولاتها الضخمة التي تمر بالقناة والتي ترتب عليها ارتفاع سعر السهم إلى تسعة أمثال قيمته الأصلية . وكانت سوف تجد منذ ذلك الحين « سببًا عادلاً » للجأر بالشكوى وطلب التخفيض بالقوة .

وثمة أسباب أخرى للارتفاع الاسمي في قيمة أسهم القناة ، ذلك أن قيمة القناة الاسمية بلغت حوالي ١٩٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ، خصص مبلغ ٣٠٠٫٤٠٠٫٠٠٠ فرنك للأسهم ، واقترض مبلغ ١٠٠ مليون فرنك بينما اغتصب مبلغ ١٢٤ مليون فرنك ظلمًا وعدوانًا من مصر بواسطة نابليون الثالث بناء على فتوى منه . وكان هناك مبلغ للفوائد يسد العجز في بداية التكاليف الاسمية للقناة . ولقد دفعت مصر نظير نصيبها من الأسهم ٨٨٫٨٠١٫٠٠٠ فرنك ، ولم يدفع المساهمون الآخرون أكثر من ١١١٫١٠١٫٠٠٠ فرنك . وهكذا ساهمت مصر في رأس المال الخاص بالأسهم بمبلغ ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار ، بينما دفع المساهمون الباقون ٢٢ مليون دولار ، أما مبلغ الـ ١٢٤ مليون فرنك (٢٤ مليون دولار) ، فقد أخذت من مصر بطريقة لا يمكن أن نوفيها حقها مهما قدحنا فيها ، فقد كانت خدعة وطنية مشينة .

وكان مشروع قناة السويس بكل نتائجه السيئة بالنسبة لمصر تركة ورثها إسماعيل باشا عن سلفه سعيد باشا . وكان منح الإذن الأصلي لإنشاء القناة والإمتيازات التي ذكرت في الإذن ، خاضعة لتصديق عظمة السلطان ، وبدون هذا التصديق لم تكن لتكون مشروعة . أما بالنسبة لعملية حفر القناة ، فما كان لها أن تبدأ إلا بعد استئذان الباب العالي . ولقد بدىء العمل فيها في ربيع عام ١٨٥٩ بدون تصريح من الباب العالي واستمرت على هذا الحال مدة أربع سنوات .

وعند منح الامتياز الأول بدأت إنجلترا تشن حملة معارضة قوية في

القسطنطينية والقاهرة ، وكانت أحد الأسباب التي تعللت بها إنجلترا لدى السلطان أن فرنسا سوف ترسل بفرق من جنود الزوارق متنكرين في زي عمال لكي يحتلوا مصر . ولكي يزيل مسيو دلسبس هذا الاعتراض الذي أبداه السلطان بإيعاز من اللورد بالمرستون أدخل فقرة في البند الثاني من الامتياز تنص على أن يكون « أربعة أخماس العمال من المصريين » .

وفي أحد بنود الامتياز منحت الشركة حق شق قناة أخرى توصل الماء العذب من النيل إلى قناة السويس . كما نصت فوق ذلك على أنه في حالة شق هذه القناة يجب أن « تتنازل مصر للشركة » عن جميع الأراضي الصحراوية – التي كانت خالية من السكان في ذلك الوقت – التي يمكن أن تروى بمائها كما منحت حق امتياز الملاحة في القناة وغيرها من الامتيازات التي كانت كلها رهنًا بتصديق السلطان .

وعندما كان المسيو دلسبس على أهبة الاستعداد للعمل قال للوالى إنه ينبغى أن يكون هناك اتفاق بشأن الأجر الذي سوف يتقاضاه العمال وأبرمت اتفاقية تحدد أجر البالغين بخمسين سنتًا في اليوم ، وأجر الصبية الذين يبلغون من العمر أقل من اثنى عشر عاما باثنى عشر سنتًا ونصف سنت ، مع صرف مبلغ خمسة سنتات لكل فرد من الطائفتين مقابل طعامه . وكان الأطفال يستخدمون إلى حد بعيد لحمل القاذورات وتفريغها على الشواطىء .

ولو أن العمل كان قائمًا في المناطق الزراعية وعلى مقربة من القرى التي يسكن فيها العمال لكان الأجر كافيًا ، ولكن نظرًا للظروف التي كانت سائدة بالفعل فقد كان أجرًا زهيدًا للغاية .

وقد أنشئت القناة وسط الصحراء على مسافة تتفاوت ما بين ، ١٥، ٦٠ ميلاً شرق الأراضي الزراعية . وخلال السنوات الأربع الأولى من العمل في حفر القناة كانت الأغذية والمياه اللازمة للعمل تنقل في عرض الصحراء على ظهور الجمال . وكان هناك أكثر من ألف وستمائة جمل أمدت بها مصر

الشركة لاستخدامها في هذا الغرض . وخلال هذه الفترة أمدت مصر الشركة بعشرين أو خمسة وعشرين ألف شخص يعملون بطريق السخرة في شق القناة . وكان يحل محلهم عمال آخرون على فترات تتراوح بين شهر وثلاثة أشهر .

وبناء على بعض المعلومات التي حصلت عليها من بعض المطلعين على الحقائق ، حتى المبالغ الضئيلة التي اتفق على دفعها للعمال لم تكن تدفع لهم في أغلب الأحيان بل إلى الوالي سعيد باشا . ولقد اتضح من القضايا التي رفعت بعد ذلك أن حوالى مليون دولار (٤٫٥٠٠٫٠٠٠ فرنك) من المبالغ الصغيرة المستحقة لهؤلاء الناس الذين كان من بينهم نسبة كبيرة من الأطفال ، لم تدفع لأي شخص منهم . والأدهى من ذلك أنها لم تدفع على الإطلاق . بل حجزت نظير الفائدة المستحقة على التعويضات الناجمة من عدم الاستمرار في توريد عمال السخرة .

وكان الوالي سعيد باشا والمسيو دلسبس زميلين في الصغر عندما كان والد الأخير ممثلاً لفرنسا في مصر . وقد أهديت بنود الإمتياز بهذا النص : « إلى صديقي المخلص سليل المجد ذي المكانة الرفيعة ، مسيو فرديناند دلسبس » ، وكان الباشا رجلاً متوسط القدرة العقلية ، كما كانت صحته قد تدهورت في أواخر أيام حكمه . وكان نفوذ المسيو دلسبس الذي كان يتسم بالقوة والأدب والجاذبية نفوذًا يكاد يكون لا حد له . وهذا يعلل إلى حد كبير وجود بعض الشروط الملفتة للأنظار الذي كان يجرى بمقتضاها العمل حتى بعد وفاته .

وأثناء القيام بالعمل طبقًا لشروط الامتياز الذي لم يكن قد صدق عليه بعد من السلطان كان السفير البريطاني يبذل جهودًا متواصلة لبث العقبات في طريق المشروع . ومن الأسباب التي أبداها السفير لكي يحث عظمة السلطان لا على أن يمتنع عن التصديق على الامتياز فحسب ، بل لكي يتدخل لمنع العمل ، أن الفرنسيين سوف ينشئون مستعمرة في الصحراء تروى من القناة

العذبة التي بدأت شركة القناة في حفرها ، وأن هذه المستعمرة سوف تعرض سيادة السلطان في مصر للخطر ، كما أضاف إلى ذلك أن عمال السخرة كانوا يعاملون بمنتهى القسوة وأنهم كانوا يموتون كالذباب .

وقد استغنت شركة القناة عن موضوع إنشاء مستعمرة فرنسية على الأراضي الصحراوية ، ومن المحتمل أن تكون مخاوف السلطان قد أبلغت إلى المسيو دلسبس عن طريق السفير الفرنسي في القسطنطينية وكان لها أثرها عليه .

وكانت هناك أسباب أخرى أكثر وجاهة دفعت الشركة إلى هذا العمل ، فقد كانت أموالها على وشك أن تنفد ، وكان من الواضح أنها لن تستطيع أن تنشيء قناة للمياه العذبة تكفى احتياجاتها ، وكان من الجلي كذلك أن قيمة الأراضي الصحراوية ، إذا أمكن الاستفادة منها على الإطلاق ، لن تزيد على قيمة التكاليف اللازمة لجعلها في حالة تصلح للزراعة .

وأصبح إسماعيل باشا واليًا ، وكان على الفرنسيين أن يجروا معه المفاوضات ، ولقد علم أن القناة العذبة يجب أن تصل إلى القاهرة بدلاً من أن تتصل بقناة أخرى للري بالقرب من الزقازيق إذا أرادت الشركة أن تحصل على ما يكفيها من المياه . وادعت الشركة أن ملكيتها لهذه القناة قد تؤدى إلى مشاكل مع الناس الذين يسكنون على طول القناة ومع الحكومة ، واقترحت أن تتنازل عن حقها في إنشاء القناة وحثت الوالي على أن يقبل هذا التنازل ويأخذ على عاتقه القيام بهذا العمل . وفي الوقت نفسه أعادت الشركة لمصر الأرض التي منحت لها والتي كان من المفروض أن تروى بهذه القناة .

وبعد ذلك ببضعة أيام ، أي في ٦ من أبريل سنة ١٨٦٣ بعث السلطان برسالة إلى الأطراف المعنية ، تتضمن نفس الشرط الذي سوف يصدق على أساسه على الامتياز ، وهو أن الفقرة التي تنص على أن « أربعة أخماس العمال الذين يعملون في حفر القناة ينبغي أن يكونوا من المصريين » يجب أن تلغى .

وقد قبلت الأطراف المعنية هذا الشرط .

وعلى هذا الأساس أوقف الوالي جمع العمال عن طريق السخرة نزولاً على إرادة السلطان . ولما كان قد تم التصديق على الامتيازات من السلطان وتم التنازل عن الأراضي وعن حقوق الشركة في إنشاء قناة المياه العذبة لا عن طريق التطوع فحسب بل بناء على طلب الشركة وتعبيرًا عن رغباتها ، فإن الوالي قد اعتقد ، وله من الأسباب ما يجعله يعتقد في ذلك ، أن الأمر قد انتهى .ولم يكن قد تعلم الوالي حينذاك كل دروس الدبلوماسية وعظاتها . أما مسيو دلسبس فقد كان بارعًا في هذا الفن إذ كان دبلوماسيًا محنكًا .

وكانت الشركة في حاجة إلى مزيد دمن المال وإلا أخفق مشروعها ،ولم يكن العمل قد أحرز تقدمًا كافيًا بحيث يسمح بعقد قروض تسمح لها باستمرار العمل . وكان سعيد باشا قد أنقذ الشركة من الفشل في أوائل عهدها بأن اشترى الأسهم التي لم يتسن بيعها في أي مكان آخر ، مضيفًا بذلك مبلغ ٨٨٫٨٠١٫٠٠٠ فرنك إلى أرصدة الشركة .

فلمَ إذن لا ينبغي على إسماعيل ، في أوائل حكمه ، أن يقوم بعمل أفضل ؟

وكانت الحرب الأمريكية على أشدها في ذلك الوقت ، وكان القطن المصري مرتفع الأسعار فكان المفروض أن مصر لديها ثروة لا يمكن التكهن بها . واعتقدت الشركة أنه مما لاشك فيه أن في قطر تتمخض فيه الأحداث عن نتائج غير متوقعة لابد أن تجرب فرص النجاح ، ولذلك بدأت الهجوم على الوجه التالي :

أولاً : طالبت بتعويض كبير نظير الخسائر التي لحقت بها من جراء عدم توريد عمال السخرة .

ثانيًا : طالبت بتعويض آخر نظير الأراضي الصحراوية التي استردتها الحكومة .

ثالثًا : تعويضًا آخر عن المبالغ التي أنفقت على القناة التي تنازلت عنها الشركة .

رابعًا : تعويضًا آخر عن المبالغ التي كان سيتكلفها إتمام القناة .

خامسًا : تعويضًا آخر كذلك عن قيمة المياه التي سوف ينتفع بها المصريون من القناة بعد إنشائها .

ولقد روع الوالي ، ولكن الشركة تجاهلت اعتراضاته كلية . وكان القنصل العام الفرنسي والمسيو دلسبس مصرين على طلباتهما . وأخيرًا أحيلت المسألة كلها إلى نابليون الثالث ليكون الحكم الوحيد فيها ، وكان أشد ملوك أوربا سطوة في ذلك الوقت ، فكان الوالي يثق في جلالة الإمبراطور ثقة مطلقة ، ولم تساوره أية شكوك عما سيترتب على ذلك من عواقب وخيمة . وبت المحامون الفرنسيون في الموضوع على وجه السرعة ، ووقع نابليون على الحكم الذي أذهل جميع محلفي أوربا ، ولو لم يكن هذا الحكم يحمل طابعًا خطيرًا لاعتبر أعجوبة من عجائب القضاء . ولقد قرر جلالته للشركة تعويضًا قدره ٣٨ مليون فرنك قيمة الخسائر الناجمة عن إيقاف العمل بالسخرة ، ووجد كذلك أن الشركة لا تعتبر متنازلة عن الأراضي والأرباح التي كانت ستعود عليها من قناة المياه العذبة ، إلا على أساس أنها ستعوض ماليًا عن هذه الأراضي والأرباح التي كانت ستعود عليها من هذا الامتياز . وعلى هذا الأساس حكم بإعطاء الشركة مبلغ ٣٠ مليون فرنك نظير ٦٠ ألف هكتار من الأراضي الصحراوية (حوالي ١٢٠ ألف فدان) التي كان من المفروض أن تروى بهذه القناة ، وعشرة ملايين فرنك ادعت الشكة أنها أنفقتها على القناة بما في ذلك نسبة من الفوائد على قيمة الخسائر . بالإضافة إلى مبلغ ٦ ملايين فرنك نظير المياه التي تعتقد الشركة أنها قد تباع إلى أطراف أخرى . وبلغ مجموع هذه المبالغ ٨٤ مليون فرنك .

كما قرر الحكم كذلك أن الشركة كان لها الحق في جميع الأرباح التي

كانت ستعود عليها من القناة لو أنها أنشأتها على حسابها ، مثل المكوس وحق الملاحة واستخدام المياه العذبة التي تحتاجها لنجاح مشروعها .

وحددت كمية المياه التي كانت ستمدها بها القناة بـ ٧٠٫٠٠٠ متر مكعب يوميًا ، إذ كانت القناة طويلة بالضرورة ويبلغ طولها حوالي مائة ميل . ولقد تكلف إنشاؤها ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك ، وكان على مصر أن تقوم بتنظيفها وإصلاحها على الدوام . وكانت الشركة تستمد مياهها من هذه القناة دون مقابل .

ومع ذلك كان على مصر أن تدفع ٣٠ مليون فرنك مقابل الأراضي العديمة القيمة التي كان المفروض أن تروى من مياه القناة ، وتبلغ ١٠ ملايين فرنك مقابل العمل الذي تم في القناة ، وفائدة معينة على الخسائر التي افترض حدوثها ، ومبلغ ٦ ملايين نظير المياه التي كانت تتوقع الشركة أن تبيعها لجهات أخرى .

ومعنى هذا أن مصر قد منحت الشركة حق إنشاء القناة دون مقابل والاستحواذ على كل ما يترتب عليها من فوائد ، كما منحتها أيضًا بعض الأراضي التي يمكن أن تروى بمياهها . ثم تنازلت الشركة عن المشروع وردت الأراضي دون شرط ، وعلى كل ، يجب على مصر أن تنشىء القناة على حسابها الخاص ، ولن يقتصر الأمر على أن تنتفع الشركة بمياهها ، بل يجب أن تتقاضي تعويضًا عن جميع الأراضي التي كان يمكن أن ترويها لو لم تستخدم الشركة مياهها لأغراض أخرى .

ولكن النهاية لم تكن قد لاحت في الأفق بعد ، ذلك أن النجاح الساحق الذي أحرزته هذه الضربة على مالية مصر شجعت القيام بهجوم آخر . وقد نسيت الشركة بعض « مطالبها العادلة » ، وأعدت هجومًا ثانيًا ، وكانت التعويضات التي طالبت بها هذه المرة ، مثل سابقتها ، قائمة على غير أساس . ولكن هذا لم يكن بذات أهمية . لقد كانت تعويضات ، وتعويضات يتقدم

بها شخص يعضده نابليون الثالث العظيم ذو السطوة لابد أن تعتبر التزامات . ولايمكن أن يكون أجنبي مخطىء قط ، إذ لم يكن هذا الشعب غير المسيحي قد تعلم بعد السبل القويمة التي كانت تنتهجها الأمم المسيحية المستنيرة المتفوقة ! ولم يكن مبلغ الـ ٨٤ مليون فرنك ، ومبلغ الـ ٥٠ مليونًا التي ستنفق على قناة المياه العذبة لكي تستخدمها الشركة ، بكافيين لسد احتياجات الشركة . أي إن رطل اللحم الذي اقتطعته الشركة من جسد مصر لم يكن كافيًا[1] .

ومن بين « المطالب العادلة » التي تم اكتشافها كان مطلب كبير خاص بمبان أنشئت من أجل العمال المصريين ، أطلق عليها اسم « المستشفيات والثكنات » ، وهي التي اعتبرت عديمة النفع بالنسبة للشركة نتيجة توقف عمال السخرة . وكان هذا اعترافًا في الواقع بأن الشركة لن تستخدم الأيدي العاملة في إنشاء القناة ، أي أن المصريين لن يستخدموا بعد ذلك . والواقع أن الجزء من العمل الذي كان يمكن أن يقوم به المصريون في إزاحة الأتربة كان قد تم تقريبًا أو كاد يتم في وقت التحكيم .

وكان عمق القناة ستة وعشرين قدمًا ، وعرض قاعها اثنين وسبعين قدمًا بينما يتفاوت اتساع خط المياه فيها ما بين مائتين إلى ثلاثمائة قدم .

وكانت شواطىء القناة التي تكونت من الأتربة في الأماكن الجافة تحفر بواسطة الكبار من العمال ويحملها أطفال السخرة إلى الشواطىء المنحدرة العالية . ولكن جزءًا كبيرًا من هذه الأراضي لم تكن جافة ، فقد أنشئت القناة من جانبها الواقع عند البحر الأبيض لمسافة أربعة وثلاثين ميلاً خلال المياه الضحلة لبحيرة المنزلة ومستنقعاتها . وكان عمق هذه المياه يبلغ ما بين واحد إلى ثلاثة أقدام . وكان المرفأ المحفور في هذه البحيرة عند بورسعيد يبلغ اتساعه تسعمائة قدم مقامًا على شريط ضيق من شاطىء رملي يفصل البحيرة عن

(١) يشير بذلك إلى مسرحية (تاجر البندقية) المعروفة . (المراجع) .

البحر . وكانت توجد أيضًا مستنقعات شاسعة على مقربة من السويس . وفي غير ذلك من الأماكن كانت الأرض ترشح بمجرد إزالة الطبقة الرملية السطحية . كما كانت المياه تتدفق إلى القنوات التي لم تتم بعد . وكان المصريون سباحون مهرة ، ولكن الأطفال لم يكونوا ليستطيعوا أن يغوصوا في الماء لإحضار الطين الناعم من القاع . وكان لابد من استخدام الكاسحات في إتمام هذا العمل .

وكان القائمون بالأمر قد تنبأوا بوقوع هذه الحالة واتخذوا الاحتياطات اللازمة ، فقاموا بشراء الكاسحات وتركيبها ، وكانت قد بدأت العمل بالفعل عندما عرض التحكيم . ومع ذلك ، فإن من بين الأسباب التي استند إليها المحامي الفرنسي في طلب التعويض الخاص بالعمل هو الزيادة المزعومة في تكاليف إنجاز العمل إذا استخدمت الآلات الميكانيكية .

وللدبلوماسية أساليب ملتوية غامضة ، إذ استطاع السفير الفرنسي في هذه الحالة أن يؤخر قرار السلطان الخاص بالسخرة لمدة أربع سنوات معتمدًا على نفوذ نابليون القوى حتى أصبح هذا النوع من العمل عديم الفائدة . وعندما حل هذا الميعاد ويصبح من الضروري العمل بالسخرة فإن السلطان يأمر بالكف عن العمل بطريق السخرة في سبيل الإنسانية وحرصه على رفاهية وسعادة رعاياه !

ومن بين « المطالب العادلة التي كانت منسية كان حق الصيد في مياه القناة العذبة الشهيرة . وكان هذا الحق سيكون وقفًا على شركة القناة لو أنها قامت بإنشاء القناة . على الرغم من أنها تنازلت عن حقها في هذا العمل وعلى الرغم من أن الحكومة المصرية ستقوم به على حسابها الخاص .

وقد قرر نابليون أن تنازل الشركة لا يعني التنازل عن المطالبة بحقوقها في الفوائد التي كانت ستنجم بمقتضى امتيازها الأصلي . وعلى هذا الأساس كان ضمن التعويضات التي نص عليها قرار جلالته مبلغ ٦ ملايين فرنك نظير المياه التي كان يمكن بيعها .

ولمَ لا تدفع مصر إذن تعويضًا في مقابل حق الصيد في هذه المياه الوفيرة السمك ؟ وحقوق الصيد في مصر تعتبر ذات قيمة كبيرة إذ أن الحكومة تحصل على دخل منها يصل إلى مبلغ كبير . وقد دخل في روع المحامى الفرنسي أن القناة سوف تموج بأنواع زاخرة من السمك . وهذه سوف تتزايد مثل تزايد السمك على شاطىء بحر الجليل ، وسوف يصطاد الأهالي في شباكهم البسيطة بكميات وفيرة .

وليس من الضروري هنا أن نتتبع تفاصيل هذه المطالب أكثر من هذا ، فقد كان الرعب يتملك الوالي ، وكان شأنه شأن جيش مدحور على استعداد لأن يخضع لأي شرط من شروط التسليم . ولكي يعفى الوالي من المزيد من الاكتشافات وافق على دفع مبلغ ٣٠ مليون فرنك مضافًا إليه مبلغ ١٠ ملايين فرنك قيمة قطعة من الممتلكات التي كانت الشركة قد دفعت ثمنًا لها مبلغ ١٫٠٠٨٫٠٠٠ فرنك منذ مدة وجيزة ، وبلغة الأرقام وصلت قيمة هذين البندين الأخيرين إلى مبلغ ٨ ملايين من الدولارات .

ولم يكن لدى الحكومة إذ ذاك أموال تدفع منها قيمة هذا العرض البسيط من أجل الصلح . وكان المسيو دلسبس الوديع يقول : ليس هناك أبسط من هذا . فبالنسبة للبند الذي يستحق مبلغ ٣٫٠٠٠٫٠٠٠ فرنك لن نطلب عنه مالاً ، فلسوف نحصل عليه من فوائد الكوبونات المستحقة لنصيبك من أسهم القناة (ومن الطبيعى أن يكون الخصم بسعر الفائدة الجارية التي كانت حينذاك تبلغ حوالي ١٠ في المائة) ولن نطلب منك أكثر من أن تلقى جانبًا بحقك من أرباح نصيبك من الأسهم . وكانت أسهم القناة تستحق فوائد مقدارها ٥ في المائة من يوم إصدارها . وهذه لابد أن تدفع قبل أن توزع أرباح الأسهم . ولم تكن القناة قد تمت ولم يكن ثمة إيراد ، ولذا لم يكن هناك أرباح ، ولن تكون هناك أرباح لعدد من السنين . ووافق الوالي بالقوة على هذه المقترحات . وعمل حساب الخصم الخاص بالكوبونات فوجد أن مبلغ ١٢٥ مليون فرنك الخاص بالكوبونات سوف يؤخذ في مقابل ٣٠٫٠٠٠ فرنك . وقد استنفدت هذه

العملية فوائد الكوبونات ، حتى عام ١٨٩٥.

هذا بيان موجز لأحد المشروعات التي كات « تذلل للمصريين » وهي خدعة لم ينطل مثلها كما انطلت على شعب كان المحتالون يبعثون إليه بالمبشرين لكي يلقنوا أفراده تعاليم المسيحية .

وبالإضافة إلى عمل السخرة الذي استمر أربع سنوات والمبالغ التي بيناها قدمت الحكومة المصرية عددًا كبيرًا من الجمال استخدمتها الشركة في أغراضها بلا مقابل يذكر .

هذا وإن المبالغ التي دفعتها الحكومة تلبية لهذه المطالب بما فيها منافع أعمال السخرة وقيمة المياه العذبة ، وتشغيل الجمال بلا مقابل تساوى ، على أقل تقدير ، ما يقرب من نصف قيمة القناة الأصلية . وليس هذا التقدير قاصرًا على رأي المؤلف فحسب ، بل أقره رجال آخرون مثل رياض باشا الذي تولى رئاسة الوزارة المصرية مدة طويلة تحت الإدارة الإنجليزية الفرنسية وغيره من الرحال الأكفاء المطلعين على دقائق الأمور .

ولو كانت القناة قد أنشئت في ظروف عادية عن طريق العمل الاختياري في مقابل أجور معقولة ، ولو أن الشركة قد قامت بإنشاء قناة المياه العذبة الخاصة بها ، لزادت النفقات عن ذلك زيادة كبيرة ، وكانت قناة المياه ستكلف الشركة ضعف ما تكلفته مصر في إنشائها ، أما عن الأرض الصحراوية فلم يكن لها قيمة تذكر .

ومن تفصيل ما ذكر يمكن إدراك أحد الأسباب الرئيسية التي أدت إلى زيادة قيمة أسهم القناة ، ذلك أن كوبونات الفوائد المستحقة لمدة تربو على ثلاثين عامًا والتي كان من المفروض أن تدفع سنويًا قد خصمت من حوالي ٧/١٦ من الأسهم ونقلت إلى الشركة . وهذه العملية وحدها اختصرت من قيمة المصاريف الثابتة على الشركة مبلغ مليون دولار سنويًا خلال هذه الفترة ،

كما أن الحق في الأرباح حتى عام ١٨٩٥ أي لمدة خمسة وعشرين عامًا من افتتاح القناة قد تنوزل عنه كذلك .

ولولا المعونة التي قدمتها مصر طواعية وأخذت منها قسرًا لتعذر إنشاء القناة في ذلك الوقت ، وكان المشروع سوف يثبت فشلاً ذريعًا ، ربما لم يكن يبلغ الحد المروع الذي وصلت إليه مغامرة إنشاء قناة « بنما » ولكنها كانت ستصبح شيئًا من هذا القبيل .

وبالرغم من كل هذه التضحيات وبذل المال لم تحصل مصر على أية منفعة ، فقد كلفت القناة مصر خسائر جسيمة أثرت على تجارتها ، إذ كانت لها تجارة برية واسعة فقدتها كلية ، وتمر السفن محملة ببضائع وفيرة خلال القناة التي تشق الصحراء شرق أراضيها الزراعية ، ولكنها لا تعود على مصر بالفائدة كما كانت تمر خلال البحر الأبيض المتوسط .

وإن الشروط التي وضعناها لإتمام قناة بنما إنما تضرب لنا مثلاً واضحًا على الفرق بين طريقة معاملتنا للدول الأمريكية الصغيرة وبين معاملة الحكومات الأوربية للدول الشرقية غير المسيحية ، إذ أننا بعد أن قمنا بدفع قيمة ما تكلفه الفرنسيون نظير العمل الذي أنجزوه ، دفعنا مبلغ ١٠ ملايين من الدولارات في مقابل حقنا في الإشراف على أراض كافية تمكننا من إتمام القناة وضمان صيانتها واستخدامها . ولم نطالبهم بمساعدة عن طريق عمال السخرة كما حدث في مصر ، ولم نطالبهم بأي تعويض عن رفضهم إمدادنا بهؤلاء العمال . كما أننا لم نطالب بنما بإنشاء قناة عذبة تتكلف مصاريف باهظة (كما قامت مصر بإنشاء قناة المياه العذبة التي لا غنى عنها) وذلك للانتفاع بمياهها ، وبأن تدفع لنا مبالغ لا عن جميع الأراضي التي يمكن ريها بهذه المياه فحسب ، بل عن جميع المنافع التي تنجم عن استخدام هذه المياه . بصرف النظر عن التعويضات الخاصة بحق الملاحة وبحق الصيد في هذه المياه .

ولم تكن إنجلترا مسئولة بحال من الأحوال عن الأسلاب التي اغتصبت من

مصر خلال إنشاء القناة ، ولكن فوائد هذه الغنائم كانت لها ، إلى حد كبير ، ولم يكن في نيتها أن تعيد أي جزء منها إلى هذا الشعب الذي اغتصبت منه . وكانت التجارة التي تمر بالقناة إنجليزية في الغالب ، وكانت تزيد من دخل الإنجليز ملايين من الدولارات بالإضافة إلى مبلغ المائة وثلاثين مليونًا من الدولارات قيمة القرض الخاص بنصيبها في أسهم القناة .

وكان القرض الأول الذي عقدته مصر بغرض الحصول على أمواله لشركة قناة السويس . ولقد دفعت فوائد ، باهظة عادة ، على هذا الدين لمدة أربعين عامًا ، وقدر لها أن تواصل دفع هذه الأقساط إلى أجل غير مسمى ، وترجع كل هذه الأعباء التى ألقيت على كاهل شعب مظلوم إلى الامتيازات التي كانت تبدو بريئة تمامًا في ظاهرها .

وقد نص صراحة على أن الشركة تتولى إنشاء القناة برمتها دون تحمل مصر أية تكاليف ، ولكن هكذا يكون مصير الأمم الضعيفة .

الفصل التاسع عشر

مأساة إسماعيل صادق باشا

بمجرد وصولي إلى مصر وقعت حادثة - من الحوادث التي يتميز بها الشرق - في مدينة القاهرة ، وكنت عائدًا حينذاك من أوربا إلى مصر في شهر أكتوبر على إثر انتهاء إجازتي التي دامت شهرين . وكان على الباخرة نفسها التي أقلتني المستر ج. ج. جوشن G.J. Goschn وهو أحد أعضاء البرلمان ، وأحد أعضاء وزارة مستر جلادستون السابقين ، والمسيو م. جوبير M.Jaubert من باريس . وكانوا قد جاءوا كممثلين لحملة السندات من الإنجليز والفرنسيين . وكانت مهمتهم هي التوصل إلى تسوية مع الخديوى إسماعيل باشا في صالح دائنيه أكثر من العروض التي تقدم بها سموه . وكان الخديوى يقول ما كان يقوله أي إنسان على علم بأحوال البلاد ، وهو أنه لا يستطيع أن يدفع فوائد أكثر من خمسة في المائة . وهذا لم يرض أصحاب البنوك في باريس ولندن الذين كانوا يتقاضون عشرة وعشرين في المائة ، بل أكثر من ذلك في أغلب الأحيان ، على القروض المصرية .

ولقد تسلمت مصر عن بيع نصيبها من الأسهم ستين في المائة فقط من قيمة الأسهم الإسمية . وقد تسلمت عن الإصدار الأخير سنة ١٨٧٣ الذي كان يبلغ قيمته ٣٢ مليونًا من الجنيهات الاسترلينية مبلغ ١٧ مليونًا فقط ، أي أكثر بقليل من خمسين في المائة من قيمتها . وقد أجبر الخديوى على هذا الإصدار تحت وقع التهديد بفضح حالته المالية ، وقد سددت ثلاثة أرباع الديون

الإسمية على أساس فائدة قدرها ستة في المائة عام ١٨٧٦ .

وطبقًا للوثائق الرسمية التي لا يمكن الشك في صحتها ، قامت مصر سنة ١٨٨٢ بتسديد المبالغ الأساسية التي تسلمتها فعلاً بالإضافة إلى فائدة قدرها ٦ في المائة سنويًا ، ومع هذا فإن دينها بقى وما زال باقيًا يقدر بمبلغ اسمي قدره خمسمائة مليون ٢١٩ دولار ، وعلى هذا المبلغ الذي كان ثلاثة أرباعه يتكون من الربا في ذلك الوقت ، أصر مستر جوشن ، مستندًا إلى تأييد حكومته المعنوى له ، على أن تدفع مصر فائدة بمعدل ٧ في المائة سنويًا ، كما طالب في الوقت نفسه بتكوين لجنة من المراقبين الأوربيين يفوض لهم جمع إيرادات الدولة ويقومون بدفع هذه الفائدة مباشرة إلى حملة السندات .

ولما كانت مصر بلادًا زراعية وليس لديها أية مؤسسات صناعية كان لابد من فرض ضريبة سنوية تتراوح ما بين ٦ و ٧ من الدولارات على كل فدان من الأرض ، وذلك لسداد الفوائد المطلوبة ، ولكي تغطى نفقات الأعباء الأخرى الثقيلة للبلاد ، إلا أن القسط الأكبر من هذه الأراضي لم يكن يغل محصولاً كبيرًا ، ولا يمكن جباية مثل هذه النسبة العالية من الضرائب مما تسبب في زيادة الضريبة اللازم تحصيلها على الأراضي ذات الإنتاج الوفير .

وكان مستر جوشن صيرفيًا ومرابيًا سابقًا ، وخير من يقوم بالمهمة التي عين من أجلها . وكان ينتمى إلى الشركة التي عقدت أول قرض أخذه الخديوى لكي يقوم بتسديد الديون التي تسببت عن إنشاء قناة السويس . وقد اختاره حملة السندات للقيام بهذا العمل نظرًا لأنه كان عضوًا بارزًا من أعضاء البرلمان وأحد الوزراء السابقين . وقد اعتبره الخديوى ممثلاً لحكومة جلالة الملكة ولم يجرؤ على أن يرفض طلباته الملحة . رغم أن الأموال اللازمة لاستجابة هذه الطلبات لم يكن في مقدوره أن يحصل عليها إلا إذا استخدم الوسائل التي كان يتبعها صادق باشا ، وحينما أصبحت الرقابة التامة بيد الإنجليز وجدوا أنه من الضروري أن يقوموا بتخفيض قيمة الفائدة إلى حوالي نصف القيمة التي كان

يطالب بها مستر جوشن .

وكان إسماعيل صادق باشا وزيرًا للمالية المصرية عند زيارة المستر جوشن لها . وكان معروفًا باسم المفتش إذ أنه كان يعمل مفتشًا لأملاك الخديوى الخاصة قبل أن يعمل وزيرًا . وكان أخًا للخديوى في الرضاعة .

وعلى الرغم من أنه كان ينتمي إلى طبقة الفلاحين وكانت تربيته ونشأته عادية للغاية ، ورغم أنه لم يكن يتكلم إلا العربية ، ولا يجيد كتابتها إلا أنه والخديوى كانا متلازمين في الصبا ، أي أنه منذ طفولته كان في حماية الخديوى . ومن ثم أصبح سكرتيرًا له في بادىء الأمر . وحينما بلغ سن الرجولة عين مديرًا لإحدى ضياعه . وفي سنة ١٨٦٩ اختير وزيرًا للمالية وهو المنصب الذي شغله حتى موته .

وكان رجلاً ذا مقدرة طبيعية فذة ، ومديرًا فطنًا ذكيًا له نفوذه العظيم على الخديوى . ولم يستطع أحد أن يقوم بالعمل الذي كان مسندًا إليه ، وهو رفع الإيرادات ، بمثل هذه اللباقة أو النجاح . ولما كان هو نفسه فلاحًا كان في مقدوره أن يحدد دخول وأرباح هذه الطبقة . وأخذ صادق يطبق نظرية الحكم المطلق أو الاستبدادى التي تقول إن الفلاح ليس إلا تابعًا للخديوى هو وعائلته وما ملكت يمينه ، وبذلك أخذ صادق باسم حكومة سمو الخديوى ، وبما له من سلطة فرض الضرائب وجمعها ، يجمع كل المبالغ الزائدة التي قد تتبقى بعد دفع الضرائب العادية . وكان يستولى على المحاصيل إذا لم تستجب مطالبه . وإذا دخل في روعه أن الفلاح يخبىء أمواله أو الأشياء القيمة . كما كان الحال في كثير من الأحيان . كان يلجأ إلى الحبس والجلد حتى يحصل على آخر شلن وآخر متاع ، وفي بعض الأحوال كان يحصل على كل ما يمكنه من رهونات من الفريسة المسكينة .

والجلد يعتبر وسيلة شائعة للعقاب في الشرق ، وينفذ بأن يلقى المحكوم عليه بالجلد على الأرض مطروحًا على صدره ، ثم يستخدم كرباج من الجلد

لضربه على باطن قدميه ، ويقال إن هذا الكرباج يسبب آلامًا بالغة ، ولكنه لايترك أي أثر للجروح الخطيرة . وكان الفلاح غالبًا ما يرضخ لهذا النوع من العقوبة مدة غير محدودة من الوقت خيرًا من أن يفرط في أمواله ، وقد يفعل ذلك أحيانًا اعتقادًا منه أنه إذا سلم ما عنده فإنهم سيستمرون في جلده افتراضًا منهم أن لديه أكثر من ذلك . وعادة ما يكون قد جمع ماله عن طريق إدخار مبالغ بسيطة من التي يحصل عليها بالكدح والنصب . وهو يضن بماله إذ أنه يدرك تمام الإدراك أن لا عون له حين يطرق شبح الجوع بابه سوى البضعة الجنيهات التي يكون قد دفنها تحت أرضية كوخه المتواضع .

وقد كان صادق باشا قاسيًا إلى درجة لايمكن تصورها في مختلف الوسائل الذى كان يتبعها في سبيل الحصول على هذه الأموال بالقوة سواء كان ذلك لزيادة ثروته ، كما تدل على ذلك أمواله التي جمعها ، أو للوفاء بمطالب دائني الحكومة الملحة . وعلى كل لم تحل صفاته السيئة بينه وبين التنبؤ بالمصاعب التي يخبؤها المستقبل ، فكان يعارض مشروعات المستر جوشن والمسيو جوبير معارضة شديدة . وربما كان قد مل من الطرق العاتية التي كان يضطر إلى الالتجاء إليها لكي يملأ الخزانة التي كانت خاوية الوفاض على الدوام . وكان يعلم جيدًا أن الحكومة لا يمكنها سد حاجاتها المتزايدة باستخدام هذه الوسائل القهرية ، وذلك لأن ازدياد موارد مصر قد توقفت إلى حد كبير بسبب توزيعها على المرابين في لندن وباريس ، وبسبب استخدامها في ملء خزانة السلطان .

ومن ثم لم يكن هناك سوى المحاصيل السنوية للبلاد للوفاء بهذه الطلبات المتزايدة ، وحتى المبالغ التي كانت تتحصل بهذه الكيفية ، مع الاقتصاد الشديد ، لم تكن لتفى لسد أود الحكومة ودفع أكثر من ٥ في المائة من الفائدة على الدين العمومي . وإني لأعلم أنه كان يقول دومًا في تلك الأيام ، حينما كان الدائنون يلحون في طلباتهم ، أن الأموال لا يمكن الحصول عليها ، وأن من اليسير أن يستمر الإنسان في جلد الفلاحين ، ولكن هذا لن يجلب المال ، فهم لا يملكونه ولا يمكنهم الحصول عليه . وكان المستر جوشن قد بلغه أن

المفتش كان معارضًا لدفع النسبة الكبيرة من الفائدة التي يطلبها حملة السندات . وأنه سوف يقف حجر عثرة في سبيل حصوله على الاتفاق الذي أوفد من أجله . وعند وصول المستر جوشن اجتمع بالخديوى وقام بزيارة جميع الوزراء فيما عدا المفتش الذي تجاهله تجاهلاً تامًا ، ثم أبلغ الخديوى أنه لن يكون له أية علاقة بوزير ماليته .

ولقد مضى حوالي شهر في مفاوضات غير مجدية ، ولكن الخديوى بدأ يضعف تحت تأثير القنصلين العامين الإنجليزي والفرنسي ظنًا منه أن الأفضل له أن يخضع بصفة مؤقتة ثم يفكر بعد ذلك في الوسائل التي تخلصه من هذه الورطة . وفي هذه الأثناء قام بعض الشعب في المديريات واتهم الإنجليز والفرنسيون « صادق » بمحاولة القيام بتمرد ، ومهما كانت حقيقة الأمور ، فإن الجمهور لم يكن يعلمها . وقد نشر علماء الإنجليز أنباء تفيد بأن « صادق قد هدد الخديوى . وليس هناك أقل احتمال لصحة هذه الأنباء .

وبعث صادق باستقالته ، وفي خطاب الاستقالة حذر الخديوى من اتفاق جوشن - جوبير الذي رفض أن يتحمل المسئولية . وبسبب هذا الخطاب والأنباء التي وصلت إليه ، ثار غضب الخديوى ، ولكنه استطاع أن يخفى غضبه مستعينًا بقدرته على تمثيل دوره تمثيلاً متقنًا . وفي اليوم التالي اختمرت الخطط في رأسه ، ومع هذا فقد بدا بحالته الطبيعية وروحه الطيبة . وقد أمضى الأمسية ، حسب قول الأشخاص الذين شاهدوه ، في أحاديث سارة وفي مرح مع هؤلاء الذين كانوا مجتمعين في عابدين . وكان معتادًا أن يأوى إلى فراشه في القيلولة بعد تناول طعام الغداء ثم يسهر حتى ساعة متأخرة من الليل تصل إلى الثانية عشرة بل إلى الواحدة والثانية صباحًا . ثم ينهض مبكرًا من نومه في الصباح ويأخذ في التنزه بعد ذلك بعربته بعض الوقت .

وفي الصباح التالي بعد قبول استقالة صادق باشا استيقظ في ميعاده وأرسل في طلب صادق باشا ليصحبه في نزهة الصباح . وكان هذا يحدث عادة

حينما يكون لديه بعض المسا ئل الهامة التي يرغب أن يناقش الوزير فيها ومن المحتمل أن « صادق » لم يفكر في أي شيء سوى في الصداقة . ولذا لبى طلب الخديوى وجاء إلى القصر حيث رافق سمو الخديوى في عربة مفتوحة وهما يدخنان ويتجاذبان أطراف الحديث كالمعتاد ، ثم عبرا كوبرى قصر النيل متجهين إلى قصر الجزيرة . ثم صعدات السلم ودخلا القاعة الفخمة التي كنت قد دخلتها عند أول زيارة لى للخديوى . هنالك أغلق وراءهما الباب ومعه كل خبر يقين عن إسماعيل صادق باشا ، الوزير المطلق السلطة الذي استمر سبع سنوات يمارس سلطته في جمع الضرائب . لا يعادلها سوى سلطة الخديوى ، إن لم تكن تتفوق عليها ، والذي أصبح يثير الرعب في نفوس الفلاحين بما عرف عنه من قسوة ، وخرج الخديوى على الفور من القصر ودخل عربته ثم استقلها عائدًا إلى عابدين .

وقد شاعت عدة أقاويل في فترات مختلفة بالنسبة لما حدث للوزير السابق ، وربما لم تصدق واحدة منها . وطبقًا للنشرة الرسمية فإن مجلسًا خاصًا قد دعى في الحال كان من بين أعضائه شريف باشا وتوفيق باشا ، الذي أصبح خديويًا فيما بعد . وقد حوكم صادق أمام هذا المجلس بتهمة الخيانة حيث أدين وحكم عليه بالنفي مع تحديد إقامته في دنقلة . وكانت هذه المحاكمة خاصة دون أن يحضرها المتهم ودون أن يعلم شيئًا عن سير المحاكمة . والحقيقة أنه عندما انعقد المجلس في اليوم التالي للقبض على المتهم ما كان يدور بخلده صدور أي قرار ضده . ولكن من المفروض في هذه الحالة أن التنفيذ كان سابقًا على الحكم .

ودنقلة هذه عبارة عن بلدة صغيرة في بلاد النوبة على الشاطىء الأيسر للنيل ، وعلى بعد ألف ميل من القاهرة ، وهي المركز الرئيسي لمديرية صغيرة تحمل نفس الاسم . ويقال إن بعض المساجين الآخرين قد نفوا إلى هذا المكان ليعملوا في المناجم . وعلى كل ، لم يكن هناك مساجين أو مناجم يعمل فيها أحد منذ مدة طويلة . وكان من المفهوم جيدًا في مصر أن النفي إلى دنقلة معناه

الحكم بالإعدام بواسطة الخنق أو السم أو أية وسيلة أخرى ، ولم يكن ينطلى على أحد أي تصريح من التصريحات الرسمية في هذا الشأن .

كان السجين يختفى في مثل هذه الأحوال دون أن يسمع عنه أحد شيئًا بعد ذلك كما كان الحال في عهد لويس الحادي عشر وغيره من ملوك فرنسا ، فكان السجين في فرنسا يدخل زنزانة خافية ثم ينسى أمره بعد ذلك . أما في مصر فكان المفروض أن السجين يقوم برحلة في أعالي النيل ، ثم لا يسمع عنه شيء بعد ذلك .

وبالفعل قامت باخرة من القاهرة بعد القبض على صادق وسارت في النيل جنوبًا حتى وصلت إلى الشلال الأول ، لكي توصل السجين في الظاهر . وواصلت باخرة ثانية المسير إلى الشلال الثاني ، ومن هناك أخذته قافلة صغيرة إلى دنقلة . ولم يكن يسمح لأحد بزيارة هذه البواخر أثناء سيرها في النيل ، وكانت العملية كلها محاطة بسرية تامة .

وكان صادق برتبة مشير ، مما يجعل له الحق في أن يقدم للمحاكمة في القسطنطينية . وعندما علم السلطان بالخبر طلب من الخديوى أن يرسل إليه السجين . وكانت الرحلة إلى دنقلة تستغرق حوالي ثلاثين يومًا ، وانتظر الخديوى وصول الأنباء من ذلك المكان . وجاءت الأخبار تفيد بأن المفتش قد توفى على أثر وصوله بسبب إفراطه في الشراب أثناء الرحلة .

وقد ظهرت بعد ذلك شهادة طبيب ادعى أنها قد صدرت من دنقلة تشهد بوفاته لهذا السبب . وكانت هذه هي الوفاة الرسمية .

أما عن الوفاة الحقيقية فقد أشيعت عدة روايات في القاهرة على أثر الحادث مباشرة ، وكانت الرواية الأكثر شيوعًا وصدقًا هي أن صادق باشا ترك في قصر الجزيرة في اليوم الذي قبض عليه فيه ، ثم أخذ في الليلة التالية إلى الباخرة التي ذكرناها وقامت برحلتها في النيل ، ثم خنق على مسافة قصيرة من المدينة

ووضع في غرارة مثقلة ثم ألقي في النهر ، واستمرت الباخرة في رحلتها كما بينا . وقد ذكرت كل التفاصيل حتى اسم الباشا الذي كان مسئولاً عن الباخرة .

وفي عام ١٨٧٩ عندما أبعد إسماعيل باشا وتولى الإنجليز والفرنسيون الرقابة التامة على مالية البلاد ، أسقط عدد كبير من أسماء الأشخاص الذين كانوا يتقاضون معاشًا بسيطًا من الحكومة .

ومن بين أرباب هذه المعاشات أعرابي من الصعيد يدعى إسحق بك ، وكان هذا الرجل يعمل جنديًا بالقاهرة في الوقت الذي اختفى فيه إسماعيل باشا المفتش ، وكان ضخم الجثة قوى البنية ، وكان قد فقد إبهامه ويتقاضى معاشًا بسيطًا ، ولست أدرى ما إذا كان به عاهات أخرى استحق من أجلها هذه المساعدة من الحكومة . وحينما انقطع عنه المعاش أخذ يروى ويعيد قصة جديدة لهذه المأساة الغامضة .

وقد روى المستر ج. س. ماك كون Mr. .J.G.Mecoan الكاتب الإنجليزي الذي كنت على معرفة وثيقة به في القاهرة ، روى هذه النسخة من قصة إسحق بك .

وبعد حوالي ساعة من القبض على صادق باشا طلب إسحق بك إلى الغرفة التي كان صادق معتقلًا فيها حيث وجد بها الأمير حسن والسجين وقد جرد من ملابسه . وهمس الأمير في أذنه وهو يصدر إليه أمرًا بقتل المفتش إما بطريق الخنق أو بأي طريقة أخرى مؤلمة للغاية دون أن تترك أي أثر من آثار العنف . وقد اختار الوسيلة الأولى ، إذ بعد أن طرح المعتقل على ظهره حاول أن يحبس صوته بيده اليسرى وأن يخنقه بيده اليمنى . وبالرغم من أن « صادق » كان رجلاً ضئيل الجسم ، إلا أنه قاوم من شدة الألم بقوة تعادل قوة قاتله . وحينما أمسك بإبهام الأعرابي الأيسر في فمه ، أخذ يعضه حتى فصله عن يده تمامًا . وفي الليلة التالية لُف جسده في قماش سميك وربط فيه بعض الثقل ثم حمل

على ظهر الباخرة التي كانت تنتظر ، ثم أبحرت جنوبًا في النيل حيث ألقت الجثة على بعد بضعة أميال من القاهرة .

وكان الأمير حسن إذ ذاك وزيرًا للحربية وإني لأتذكر أنه كان مقيمًا بقصر الجزيرة عقب عودتي من أوروبا في تلك السنة . وقد قمت بزيارته حسب المعتاد ، وجاء إلى من الجناح الذي يشغله الحريم ، وعبر الحديقة ، ثم استقبلنى في القصر .

وعلى كل تحوم شكوك كثيرة حول رواية إسحق بك وذلك لأنها لم ترد على الألسن إلا بعد نفى الخديوى إسماعيل وابنه الأمير حسن . وكان هؤلاء الذين يديرون مصر يعيرون أذانًا صاغية لكل نبأ يمس من سمعة إسماعيل ويسارعون بنشره في أوروبا . والأعراب على استعداد دائمًا لأن ينشروا مثل هذه الأنباء إذ يعتقدون أنها سوف تدخل السرور على نفوس سامعيهم ، ومن المحتمل أن إسحاق كان يأمل في الحصول على مكافأة ما ، وربما حصل عليها بالفعل . أما التفاصيل الخاصة بأنه وجد السجين مجردًا من ملابسه ومعه الأمير حسن ، وأنه أمره بقتله ، كل ذلك لا يمكن احتمال وقوعه . وكل الروايات تؤيد إلقاء جثة صادق باشا من الباخرة إلى النيل قبلي القاهرة بقليل في الليلة التالية للقبض عليه . ولا يهمنا كثيرًا أن نعرف الكيفية التي قتل بها أو المكان الذي قتل فيه .

أما الدافع لهذا العمل من جانب الخديوى فيكتنفه الغموض ، كما يكتنف تفاصيل العمل نفسه ، ذلك أن « صادق » كان صديق العمر للخديوى ومحل ثقته وخادمه الأمين ، كما كان معروفًا عنه . ولقد شاعت تكهنات كثيرة عن الموضوع ، ولكن ما من تفسير مقنع قد عرف . وقد ادعى البعض أنه كانت هناك مؤامرة فعلية ، كما ادعى البعض الآخر بأن « صادق » كان يعلم بعض الحقائق عن الخديوى الذي كان يخشى إفشاءها ، كما أشاع آخرون بأن المستر جوشن كان هو المسئول أدبيًا عن هذا العمل . ولكن مما لاشك فيه أن المستر

جوشن كان مسرورًا لإبعاد وزير المالية الأسبق عن طريق مشروعه المالي .

وفي اليوم التالي للقبض على صادق أرسل القنصل العام الإنجليزي مستر فيفيان Mr. Vivian رسالة إلى حكومته يتحدث فيها عن المأساة على أنها « إحدى الحوادث الأليمة التي تتميز بها الحياة الشرقية » ثم أضاف إلى ذلك قوله : « لقد كان أكبر حجر عثرة في سبيل أية فرصة للإصلاح المالي أو الإدارة المالية ، ومن الممكن اعتبار موته ، مهما كانت الكيفية التي حدث بها ، مصلحة عامة كبرى » . وقد أرسل في نفس اليوم بأنباء احتمال نجاح المستر جوشن والمسيو جوبير « ذلك النجاح الذي كان مشكوكًا في أمره نتيجة للموقف العدائي الذي كان يقفه وزير المالية المتوفي » . والواقع أن المسئولين وافقوا في اليوم التالي على مقترحات جوشن وجوبير .

والحقيقة أنه لم يأسف أحد على المفتش ، كما أوضحت في ذلك الوقت في تقرير أرسلته إلى حكومتي . وقد عم الفرح لإزاحته من الطريق ، ولم يأبه الناس بما إذا كان يستحق الموت ، أو بأية كيفية تم ذلك .

وفي مقابلة لى مع الخديوى في اليوم التالي للقبض على صادق وجدته مضطربًا للغاية . وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي شاهدته فيها فاقدًا أعصابه . وكان ثائرًا على المفتش ، ثم أخذ يروى لى كيف رفعه من فلاح عادي إلى أرفع منصب في مصر ، وكيف أخذ على عاتقه أن يشعل ثورة ضده . وأخذ يقص على مسامعي بعض التفاصيل التي زعم أنها حقيقة واقعة ، والتي علم بها من حكام المديريات ورؤساء المنظمات الدينية . ولما كنت على معرفة سابقة بأنظمة الحكومات الاستبدادية الشرقية فقد استنتجت من غضب الخديوى أن الوزير السابق قد أصبح في عداد الأموات ، ولو أنه لم يقل شيئًا يدل على هذه الحقيقة .

وكعمل متمم للخلاص من المفتش صدر الأمر بمصادرة أملاكه . وقد كان في ثروته مثل واضح على الفرص والامتيازات العجيبة التي يمكن أن يحظى بها

وزير من محاسيب حاكم استبدادى . وقد يكون لدينا مثل كذلك على الكيفية التي تسبب ثروة كبيرة في الإطاحة بمحسوب كهذا .

وبهذه المناسبة تتذكر فوكيه Foucquei ، وزير مالية لويس الرابع عشر الذي فقد مكانته لدى مليكه نتيجة للثروة الطائلة التي جمعها والقصور الشامخة اليت شيدها والحفلات الفاخرة التي كان يقيمها . ولقد قضى آخر أيامه في زنزانته بعد أن قضى في الحبس تسعة عشر عامًا .

ولا يستطيع أن يقول أحد اليوم ما إذا كانت ثروة الوزير المصري سببًا من الأسباب التي أدت إلى نهايته المفجعة ، فإن مركز خدام الملكية غير مستقر ، وكلما ازدادت الثروة ، حينما تكون المصادرة مسموحًا بها ، ازداد الخطر .

وفي هذه الحالة لدينا رجل من أدنى طبقة في مصر ، بدأ حياته فقيرًا ، ولم يكن لديه أية وسيلة لجمع ثروته عدا وظيفة رسمية ، إلا أنه عندما بلغ سن الخامسة والخمسين من عمره ، وبعد أن أنفق مبالغ كبيرة بطريقة البذخ الشرقية ، ترك ثروة يتراوح مقدارها بين ١٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار إلى ١٥٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار وكان يمتلك ثلاثين ألف فدان من أجود الأراضي ، كما خلف ثلاثة قصور كبيرة قد أثثت برياش فاخر وزينت أروع زينة ، كما ترك مئات من الجواري وكميات كبيرة من الحلى ، إلى جانب عدد من الضمانات والممتلكات الشخصية .

ولقد سنحت لي الفرصة في أن أمر على قصوره قبل نقل ما بها من أثاث ، وكانت مقامة على أراض متجاورة ، ولذا عندما تقترب منها لا يمكن رؤية شيء منها سوى الأسوار العالية التي تحيط بالحدائق والمباني . وكانت المداخل عبارة عن بوابات كبيرة تؤدي إلى دهليز يشتمل على مساكن الخصى والحرس . وكان كل قصر مفصولاً عن الآخر بسور عال حتى لا يمكن النظر من قصر إلى آخر ، إلى جانب أن منظر الشوارع كان محجوبًا كذلك . ولم يكن هناك ممرات موصلة لبعضها البعض إلا عن طريق باب صغير خلال

السور ، من المحتمل أنه خصص لسيد المكان . وكانت المباني كبيرة تحتوى على ما يقرب من مائتي غرفة . وكانت القصور كلها فخمة لا تفوقها في مصر إلا قصور الخديوى فحسب .

في هذا المكان كان يعيش المفتش مترفًا منعمًا مع زوجاته وجواريه اللائي كان يبلغ عددهن ، مع شيء من التحفظ ، حوالي ثلاثمائة . وكان غير مسموح لهن أن يبارحن جدران الحديقة ، وكن كلهن في حراسة الأغوات بصفة مستديمة . ومن بين حريمه كان يقال إن هناك عددًا كبيرًا من أجمل فتيات القوقاز وجورجيا . وكان هذا النوع الأبيض من العبيد يتكلف غاليًا ، وكانت ترتدى المحظيات أفخر الثياب ويتزين بأثمن المجوهرات .

وكان حريمه لهن أرستقراطيتهن المميزة . فقد كان العبيد يقومون على خدمة زوجاته ومحظياته ، وهؤلاء العبيد كانوا من الملونين في الغالب وتعاملهن سيداتهن بمنتهى القسوة . وأسوأ أعمال القسوة التي سمعت عنها أثناء إقامتي في مصر كانت الأعمال التي تصدر من النسوة حيال عبيدهن . وكان كل الأطفال الذين يولدون في الحريم أطفالاً شرعيين ويتمتعون بحقوق متساوية بصفتهم وارثين شرعيين . وكانت الأم عند إنجابها لمولود ، ترفع إلى درجة زوجة .

وقد امتصت القصور الأخرى جوارى المفتش . فوضعن في حريم الخديوى والباشوات والباكوات . وبالطبع كان للخديوى الأسبقية في الاختيار حسب مشيئته . وقد قيل إن عددًا كبيرًا منهن قد بيع . وإذا كان الأمر كذلك فإن عمليات البيع قد تمت سرًا . وعلى كل ، فقد اختفين جميعًا ، ولكن الجمهور لم يعرف قط ظروف اختفائهن ، وكانت الأنباء كلها ضرب من التكهن .

وبعد ذلك ببضعة أيام تم بيع الأثاث والمجوهرات التي لم يكن قد تخلص منها بعد ، وذلك بالمزاد العلني . ويقول البعض إن الخديوى قد وضع في جيبه حصيلة بيع الممتلكات المصادرة ولهذا وضع حدًّا لمأساة جذبت انتباه الناس في

مصر وأوروبا .

وقد قضى الممثلون الرئيسيون في هذه المأساة نحبهم – الخديوى وابنه توفيق ، والأمير حسن وشريف باشا . وعلى كل ، ليس هناك دليل ملموس على أن أي واحد من هؤلاء ، فيما عدا الخديوى ، كان مسئولاً عما حدث . ولما كان إسماعيل حاكمًا شرقيًا تتركز في يده كل السلطات الحكومية ، من تشريعية وقضائية وتنفيذية ، فإننا لا نستطيع أن نقول إن عمله كان إجراميًا ، حيث إننا لا نملك معلومات كافية عن الحقائق ، مهما أصدرنا حكمنا بإدانة مثل هذه الوسائل في محاكمة أشخاص متهمين بارتكاب جناية ما .

وإذا ما أردنا أن نحكم على أعمال الناس على اختلاف جنسياتهم واختلاف نظمهم الدينية والأخلاقية والحكومية ، ينبغي علينا أن نأخذ في اعتبارنا قوانينهم وإجراءاتهم الجنائية التي اعتادوا عليها منذ أمد بعيد . ولا تتردد الحكومات المسيحية ، في سبيل القصاص حينما تجده ضروريًا أو أن سيادتها مهددة بالخطر ، في أن تلجأ إلى أقصى العقوبات . وحتى لكى توطد سلطة مشكوكًا فيها ، كانت هناك أمثلة عديدة . خلال قرن من الزمان . على إقدام بعض الحكومات المسيحية على التضحية بأعداد كبيرة من الناس عن طريق تنفيذ الإعدام بأقصى وسيلة ممكنة ودون حتى تقديم المتهمين صوريًا إلى محكمة عسكرية .

وعند وصول المحامين الإنجليز الذين اختارهم مستر وليفورد Mr. Wilford Seawen Blunt إلى مصر سنة ١٨٨٢ لكي يدافعوا عن عرابي باشا وزملائه ضد تهمة الخيانة رفض رياض باشا أن يسمح لهم بالاقتراب من المسجونين ، ورغم أن هذا مناف للقانون المصري . ولم يسمح بأي اتصال بهم ، حتى ولا إبلاغهم بأن المحامين قد وصلوا إلى مصر وأنهم على استعداد لأن يبدأوا إعداد دفاعهم . ولم يسمح بالاتصال بين المحامين وبين عملائهم إلا بعد مفاوضات طويلة وبعد تدخل بعض النبلاء العقلاء من الإنجليز .

وعندما أثيرت مسألة تقديمهم إلى محاكمة عادلة ، كما اشترط السير جارنيت Sir Garnet (اللورد ولسلى Lord Wolseley الآن وعند تسليمهم لحكومة الخديوى أجاب رياض باشا : وما جدوى محاكمتهم إذا كنا نعرف جميعًا أنهم مذنبون ؟) ذلك أن أفكاره عن العدالة تجعل مثل هذا الإجراء غير ضروري بالمرة . وكان يرغب في تكوين محكمة عسكرية سرية دون أن يزعجها بحضور المتهمين ، وتنعقد هذه المحكمة المدة اللازمة لإصدار الأحكام الضرورية ، ثم ينفذ في المتهمين حكم الإعدام سريًا قبل بزوغ فجر اليوم التالي .

والخيانة الوحيدة التي ارتكبها هؤلاء المسجونون كانت تنحصر في ولائهم لشعبهم بدلاً من الخضوع للسيطرة الأجنبية التي فرضت على البلاد فرضًا . وإن أغرب واقعة في هذا التاريخ العجيب هو أن المتعصبين من الإنجليز في مصر كانوا يعضدون رياض باشا ، وقد استخدموا كل نفوذ ممكن لكي يحولو دون إتاحة الفرصة للدفاع عن زعماء الحزب الوطني عند محاكمتهم . وكان لوزارة جلادستون ، تؤيدها الطبقات الراقية في إنجلترا ، أثر كبير في قضية عرابي وصحبه .

وقد أظهر التحقيق أنه لم يكن مذنبًا في مذبحة ١١ يونية سنة ١٨٨٢ ولا في احتراق مدينة الإسكندرية ، كما أظهر براءته من تهمة الخيانة العظمى .

أما بصفته وزيرًا للحربية فقد أطاع أوامر كل من الخديوى والسلطان في معارضة الإنجليز ، كما وجدت حسابات الحكومة مصانة بكل نزاهة وأمانة .

ومنعًا للفضيحة التي كانت ستتمخض عن محاكمة علنية ، ودون أن تعدم الحكومة الإنجليزية وسيلة لضرب المثل على الخطر الذي يحيق بكل من يعترض سبيلها ، عملت الترتيبات بحيث ينفى المتهمون إلى جزيرة سيلان ، بدلاً من تنفيذ حكم الإعدام ، وكان على كل من رياض وعرابي أن يقنعا بهذا الحكم

رغم أنفهما . وبهذه المناسبة يمكن أن نشير إلى الأحكام الجائرة غير القانونية والتي كانت تقضي بإعدام الضحايا البريئة في بعض الأحيان من بين أفراد شعبنا والتي كانت أقسى وأكثر وحشية من الأعمال التي قام بها أي حاكم شرقي . وكانت هذه التصرفات الوحشية تجد من بيننا أناسًا كثيرين يحاولون تبريرها ، كل ذلك يحدث بينما نتفاخر بنظمنا المسيحية وبمدنيتنا الراقية .

ولقد وقعت حادثة في مصر في يونية سنة ١٩٠٦ تبين الإجراءات المتطرفة التي قد تتبع في بعض الأحيان في سبيل المحافظة على مبدأ حصانة السلطة الحاكمة .

كان هناك جماعة من الجنود الإنجليز متجهين من القاهرة إلى الإسكندرية . وانطلق خمسة من الضباط إلى قرية صغيرة على بعد أربعة أو خمسة أميال من معسكرهم حيث كانوا على يقين من أنهم سيجدون فرصة لصيد الحمام . وكانت هناك قرية ريفية تشتمل على مجموعة من الأكواخ المبنية باللبن والمتلاصق بعضها بجوار بعض . وفي بعض هذه الأكواخ توجد أبراج قام بينائها الأهالي لتربية أعداد كبيرة من الحمام تدر على أصحابها دخلاً بسيطًا . وكانت هذه الوسيلة هي المورد الوحيد للرزق بالنسبة لبعض الطاعنين في السن . وهناك عدد قليل من القرى تربى فيها الحمام بمثل هذه الأعداد الوفيرة ، ومن الطبيعي أن يختار الضباط إحدى هذه القرى ، وكانوا قد زاروا هذه القرية في العام الماضي لنفس الغرض ، مما سبب استياء الناس .

ويقول اللورد كرومر في إحدى تقريراته : « إن التعليمات الصادرة إلى جيش الاحتلال تقضي بألا يقوم أحد بصيد الحمام دون الحصول على إذن من العمدة المحلي » . وفي هذه الحالة لم يحصل الضباط على إذن من العمدة الذي كان متغيبًا حينذاك . وعلى كل ، لم يستطع الضباط أو حتى أجلوا صيد الحمام ، بل انقسموا إلى فريقين ، وبدأوا يطلقون الرصاص على الحمام الذي كان يطير بالقرب من القرية . وتصادف أن كان ضابطان من هؤلاء الضباط

يقفان على مقربة من جرن يذرى فيها القمح ، وسرعان ما اكتشف أن القمح قد اشتعلت فيه النيران ، وسمع الأهالي صياح امرأة ، وشاهدوا ألسنة النار تندلع فتجمعوا على عجل وأطفأوا النيران دون أن تحدث خسائر جسيمة .

أما عن مصدر الحريق فلم يقم عليه دليل أثناء المحاكمة التي عقدت فيما بعد ، فيما عدا شهادة زوجة صاحب القمح ، وهي امرأة في العشرين من عمرها ، فقد أدلت بالشهادة التالية : « كنت راكبة النورج ، وكان زوجي يجمع القمح المدروس ، وعلى حين فجأة أطلق عيار على النورج وأشعلت فيه النيران . ثم أصابتنى طلقة أخرى في ساقي فسقطت على الأرض ولم أدر مصدر الطلقات » . ولقد صار النورج رمادًا نتيجة لاحتراق القمح من حوله .

وكان هناك طبيبان قاما بالفحص رسميًا لتقديم نتيجة الفحص للمحكمة ، وكان أحدهما ضابطًا ومن بين الجماعة التي قاموا بالصيد ، أما الآخر فقد كان طبيبًا من أهالى القرية . وقد جاء في تقريرهما الذي استخدم بمثابة دليل على المحاكمة ، أن هذه المرأة قد أصيبت « بحوالى ستين جرحًا من جراء إطلاق النار » ، « ومازال في جسدها عدد كبير من الطلقات لم يستخرج بعد » كما أن « الأجزاء التي أصيبت في جسدها متورمة وتعانى ألمًا » . ومن المهم أن نلاحظ أن القرويين لم يكن لديهم أية أسلحة نارية ، إذ أن هذه كانت تعتبر من الكماليات التي لا يسمح للأهالى باستخدامها .

وبينما كان القمح يحترق ، أو بعد احتراقه مباشرة ، حاول صاحب القمح ، وهو زوج المرأة المصابة ، أن ينتزع البندقية من يد الضابط الذي كان يطلق النار على مقربة منه . وجاء آخرون على أثر اندلاع النيران لمساعدة الفلاح . وانطلقت البندقية ، كما زُعم بعد ذلك ، بطريق الصدفة . وفي المحاكمة قيل إنه كان من الممكن أن تصاب المرأة في مقتل ، رغم أنه لم يقم دليل على أن هذه هي الحقيقة . واستمر الصراع من أجل البندقية ، وحسب شهادة أحدهم أسرع بعض الضباط الذين كانوا يصطادون في الجانب الآخر

من القرية إلى مسرح الحادث . ثم أطلقوا بنادقهم مرتين أو ثلاثا ، كما قرر أحد الشهود الأربعة ، على الجمع من الأهالي الذين قدر عددهم من ثلاثين إلى مائة . وقد جرح ثلاثة من هؤلاء من بينهم شيخ الخفر وأحد الخفراء . وقد أخذت شهادة هؤلاء الأشخاص في جانب الادعاء ، ولم توجه ضدهم أية تهمة . وقد قرر شيخ الخفر في شهادته « أن الطلقة النارية التي أصابته كانت صادرة من إنجليزي آخر أي من أحد الضباط الذين جاءوا بعد أن اجتمع الحشد وليس من الضابط الذي كان يتصارع من أجل الاحتفاظ ببندقيته . ثمك أضاف قائلاً : « لم يحدث أي اعتداء على الضباط حتى أصيب هو » .

ولما لم ينكر واحد من الضباط في شهادتهم هذه الطلقة أو يذكر أي تفصيل عنها ، فإننا يجب أن نفترض أن ما قاله الشيخ كان صحيحًا . أما من جهة الضباط فإن زعمهم الرئيسي كان ينحصر في أن القمح أو القش لا يمكن أن تشتعل فيه النيران من جراء إطلاق النار .

ومهما كان من صحة الحقائق فإن زوج المرأة المصابة والأهالي الذين تجمهروا على حين فجأة بسبب صياحها وبسبب اندلاع النار اعتقدوا بطبيعة الحال مما شاهدوه وسمعوه أن الضباط قد أشعلوا النار في القمح وأصابوا المرأة ، فثارت ثائرتهم واحتدم غيظهم . وقد شهد أحد الضباط أن الأهالي الذين كانوا يتصارعون معه من أجل الاستيلاء على البندقية « كانوا في حالة الاضطراب والغيظ » . وفي هذه الفورة الطبيعية من الغضب تعقبوا الضباط ، بعد أن جردوهم من السلاح أو بعد أن ألقوا هم أسلحتهم ، وأخذوا يضربونهم بالعصي ويلقونهم بقوالب اللبن . ومما لاشك فيه أنهم عاملوهم بقسوة بلغت حد الوحشية شأنهم شأن أي جماهير ثائرة ، مع أن من الواضح أنه لم يحدث شيء مما قد يحدث في أي إضراب عمالي في الولايات المتحدة . وقد كسرت ذراع أحد الضباط وحدثت بعض الرضوض لعدد آخر منهم .

وفر اثنان من الضباط وهرعا إلى أحد معسكرات الجنود ، إلا أن الأهالي

استمروا في إساءة معاملة الآخرين ، فأخذوا إلى الجرن وأجبروا على الجلوس غير بعيد عن المرأة المصابة . ولم يكن هناك مترجم بينهم . وأشار الأهالى إلى المرأة وأطبق أحدهم بيديه على عنقه بطريقة فهم منها أنها تهديد مباشر بقتل الضباط . ولاشك أن الضباط الإنجليز كانوا في موقف حرج خطير وهم محاطون بهذا الجمع الثائر من الأهالى ، وعاجزون عن التفاهم معهم . وعلى كل لم تحدث أية أعمال عدوانية أخرى .

وكان الطقس حارًا للغاية ، ولذا أصيب أحد الضابطين اللذين حاولا العودة إلى معسكرهم بضربة شمس ومات بسببها بعد أربع وعشرين ساعة . أما فيما يتعلق بسبب الوفاة ، فقد قررت المحكمة أن « إحدى الضربات التي تلقاها سببت له ارتجاجًا في المخ ، ورغم أنها لم تكن كافية في حد ذاتها لإحداث الوفاة إلا أنها أدت إلى إضعافه مما جعله يتأثر بضربة الشمس بسرعة ، وهكذا ساعدت على وفاته » .

وصدر مرسوم خديوى ، استطاع الإنجليز أن يحصلوا عليه ، يقضي بمحاكمة المتهمين بالاعتداء على جيش الاحتلال . وطبقًا لهذا المرسوم شكلت محكمة خاصة لمحاكمة تسعة وخمسين من الأهالى بتهمة الاشتراك في مهاجمة الضباط . وكانت هذه المحكمة تتشكل من ثلاثة من الإنجليز وإثنين من الوطنيين كان أحدهم قاضيًا أهليًا أي أن وظيفته كانت خاضعة لمشيئة السلطات الإنجليزية . أما المواطن الآخر فقد نص في الدعوى على أنه وكيل وزارة العدل . وعلى كل ، فقد كان معه نائب المستشار القضائي الإنجليزى بصفته أحد أعضاء المحكمة .

وكان القنصل العام الإنجليزي يعمل مستشارًا للخديوى ، وكان يصدر التعليمات إلى سموه فيما يختص بواجباته ، وهكذا أصبح الحاكم المطلق لمصر . وكان كبار الموظفين الوطنيين لهم مستشارهم من الإنجليز يصدرون إليهم الأوامر الخاصة بما يجب عليهم عمله وأن يتأكدوا أنهم ينفذون هذه

التعليمات . وهكذا . بينما كان الموظفون الأساسيون في الدولة من الوطنيين اسمًا كان لهم نفوذ التابعين فحسب ، وهم عرضة للفصل إذا صدرت منهم أقل بادرة من بوادر العصيان للأوامر الصادرة إليهم من مستشاريهم الإنجليز .

وعندما عقدت المحكمة المشكلة بهذه الكيفية استمعت لمدة يومين إلى قراءة محضر الدعوى الذي دوّن معظمه دون حضور المتهمين أو من يمثلهم ، والحقيقة أن بعض المتهمين لم يلق القبض عليهم حتى انتهت المحكمة من سماع الشهود . وكانت الأدلة التي صدر بمقتضاها قرار الإدانة لا تختلف في طبيعتها عن الأدلة التي كانت تؤخذ في الولايات المتحدة قبل صدور الأمر بوجوب الحصول على قرار بالقبض على المتهمين . وكانت الأوامر تصدر من وقت لآخر بإلقاء القبض على الأشخاص الذين يرجح أنهم كانوا حاضرين أثناء المعركة واشتبكوا فيها .

ثم استمعت المحكمة إلى المدعى العام ، وبعد أن انتهت المحاكمة فعلاً سمح للدفاع أن يترافع عن المسجونين . وقد بعث المندوب الإنجليزي « وكان اللورد كرومر قد غادر مصر » يبلغ حكومته في لهجة الظافر بأن « الدفاع قد انهار تمامًا وأن كل ما استطاع الدفاع أن يقوله في صالح المتهمين انحصر عمليًا في طلب الرحمة من المحكمة » .

وبعد « المداولة » أصدر أعضاء المحكمة الخمسة حكمهم بإدانة واحد وعشرين شخصًا : الحكم بالإعدام على أربعة أشخاص: وعلى اثنين بالأشغال الشاقة المؤبدة ، وكان أحدهم زوج المرأة المصابة ، وعلى واحد بالأشغال الشاقة خمسة عشر عامًا ، وعلى ستة منهم بالأشغال الشاقة لمدة سبع سنوات ، وعلى ثلاثة منهم بخمسين جلدة مع الشغل لمدة سنة ، وعلى الخمسة الباقين بخمسين جلدة .

وكان الحكم غير قابل للاستئناف أو التصديق عليه من أي سلطة عليا . وقد نفذ حكم الإعدام وحكم الجلد على المحكوم عليهم على مرأى من الناس

في اليوم التالي لصدور الحكم ، وفي القرية التي قامت فيها المظاهرة . وقد شهد « الخبير الطبي الشرعي » بصحة الشنق والجلد . وهكذا انتهت هذه المأساة القضائية .

ولم تبذل أية محاولة للتعرف على شخصية الشخص الذي أصاب الضابط المتوفى ، كما لم يقم دليل قاطع ضد الأشخاص الأربعة الذين حكم عليهم بالإعدام . وقد ذكرت أسماؤهم مع آخرين على أنهم كانوا المتزعمين لحركة التمرد . أما الدليل الذي أقيم على هذه الحقيقة فكان مجرد إشاعة وبيانه فيما يلي : إن الموظف الذي دوّن الشهادة أوعز إلى شخص لم يكن حاضرًا وقت الحادث ولا يعرف شخصيًّا شيئًا عنه بأن يدلى بما يعلمه عن الحادث . ومن بين الأقوال التي أدلى بها سفويًّا دون أن يحلف يمين الشهادة أن بعض الأشخاص كانوا متزعمين للمعركة ، وأنه استقصى هذا النبأ من عمدة القرية . وكان العمدة غائبًا أيضًا أثناء الهجوم على الضباط ، ولكن عند سؤال العمدة عما إذا كان قد أدلى بهذه الأقوال أجاب بنعم . وحينما سئل عن مصدر هذه المعلومات ، قال : « قد أبلغنى الأهالى بذلك » . وقد حاول الموظف الإنجليزي في تقريره أن يبرر صحة هذا الدليل وغيره من الإشاعات زاعمًا أن هذا يتفق مع سير الإجراءات الفرنسية .

وكما كان متوقعًا ، أدانت كل الجنسيات الممثلة في مصر حكم المحكمة بقوة وشدة ، فيما عدا الإنجليز . ورفعت الكثير من الشكاوى في أوروبا وطلب تقرير عن سير المحاكمة ، وقدمته الوزارة الإنجليزية إلى البرلمان . وقد طبعت الأدلة التي تليت أمام المحكمة والتي أدين بمقتضاها المسجونون ، كما طبعت الحقائق الأخرى التي ظنت الوزارة أنه من الحكمة السياسية أن تنشرها على الجمهور ، في محضرين برلمانيين خاصين بمصر وهما رقما ٣ و ٤ لسنة ١٩٠٦. هذا وكل ما ذكرت قد اقتبسته من هذه الوثائق الرسمية .

ومهما بدا هذا الإجراء كله شنيعًا ، من المعلومات المبنية على أنباء رسمية ،

فإنه يبدو أكثر شناعة إذا أخذنا في اعتبارنا المعلومات التي تلقيناها من الأهلين أنفسهم ، ومن المقيمين الأوروبيين في مصر ، ونظرًا للاضطراب الذي تسبب عن هذا الحادث في مصر ارتفعت صيحات الإنجليز ضد تعصب المسلمين وطالبوا بمزيد من القوات الإنجليزية قائلين إن المصريين أناس جاحدون للصنيع الذي أسداه إليهم الإنجليز ، وذلك لما يبدون من كراهية نحو المحسنين إليهم .

وعلى كل . فليس من المحتمل أن الإنجليز الذين قاموا بهذه المحاكمة الغريبة قد قصدوا أن يظلموا أي شخص . حقيقة إن هذه المحاكمات قد لا يكون لها مثيل في تاريخ القضاء الحديث لأي دولة من الدول المسيحية المتمدينة في قسوتها وجورها ، ومع هذا كانت المصالح الإنجليزية وضرورة المحافظة على الهيبة والنفوذ والسلطة الإنجليزية التي أملت على المسئولين هذا التصرف . وفي اعتقادهم أن هذا الاستعراض الرهيب للسلطة ، ومناظر الإعدام والجلد كانت ضرورية لتكون مثلاً . وعلى المواطنين أن يدركوا مغبة إزعاج هؤلاء الذين ولتهم حكومة جلالة ملك إنجلترا عليهم ، بغض النظر عن صواب أو خطأ أي من الجانبين . لقد نظروا إلى المسألة كلها من وجهة نظر إنجليزية ، أي أن العبد يجب ألا يرد الضربة بمثلها مهما اشتد سيده في معاملته أو أهانه بغير وجه حق ، فإذا ما فعل فقد يقتله سيده لكي يحتفظ بسلطته دون أن يناله عقاب من القانون .

وفي الطريق ما بين المعسكر الإنجليزي والقرية وجدت جثة أحد الأهالى وقد هشمت جمجمته ، وكان ذلك في وقت متأخر من يوم الحادث . ويبدو أنه لم يجر أي تحقيق عن الكيفية التى لاقى بها حتفه .

الفصل العشرون

عهد حملة السندات

قبل الخديوى تعيين مراقبين من الأجانب لمختلف المصالح المالية نتيجة للضغط السياسي من قبل حملة السندات . ولم يقتنع الأجانب بهذه الامتيازات بل طلبوا على الفور وحصلوا فعلًا على مراقبة الوزارة كلها تاركين لسموه السلطة الإسمية . ولقد منى الخديوى بامتيازات اقتصادية هامة في مقابل التصديق على هذا الطلب الأخير . وحينئذ فُصل عدد كبير من الموظفين المصريين وعُين في أماكنهم موظفون من الأجانب بمرتبات ضخمة دون أن يكون لهم دراية بلغة البلاد ، بل كانوا عاجزين عن القيام بأي واجب سوى قبض مرتباتهم . وكان القنصل الإنجليزي العام يبلغ حكومته بكل ما يحدث أولاً بأول ففي الثاني عشر من يوليو سنة ١٨٧٧ كتب إلى حكومته يقول بشأن كوبونات السندات المستحق دفعها .

« إن المبلغ المطلوب وهو ٢٫٠٧٤٫٩٧٥ مليونًا من الدولارات ، قد دفع بأكمله أمس ، إلا أننى أخشى أن تكون هذه النتائج قد تمت على حساب تضحيات جسيمة سوف تلحق بالفلاحين نظرًا لإكراههم على بيع محاصيلهم النامية ، وعن طريق جمع الضرائب مقدمًا . كل هذه المبالغ يجب اعتصارها بطريقة أو بأخرى من قطر قد أنهكته الضرائب الباهظة . وفي نفس الوقت أخشى أن تبارك الإدارة الأوروبية انهيار الفلاحين الذين هم عماد الثروة في البلاد . مما يجعلنى أعتقد أن الإنجليز يجلبون لأنفسهم مسئولية خطيرة » .

هذه الرسائل وغيرها من الرسائل الهامة لم تخفف من حدة ضغط لندن وباريس رغم أنها كلفت القنصل العام استيياء دزرائيلي ونقله آخر الأمر .

وفي الثلاثين من نوفمبر عام ١٨٧٨ كتب إلى حكومته تقريرًا يقول فيه :

« إن الخزينة خاوية ولم تدفع مرتبات الجنود وموظفي الحكومة منذ عدة شهور ، وقد تفشي البؤس والشقاء بين أفراد الطبقة الأخيرة » . وكان ينبغي عليه أن يضيف قوله : « إن مئات الموظفين الأجانب الذين كانوا لا يعملون شيئًا كانوا يتقاضون مرتباتهم الباهظة كل شهر على الفور » .

وقد تعرض أحد الكتاب الإنجليز لوصف الموقف في أوائل سنة ١٨٧٩، ولم يحاول إخفاء شعوره بالفخر لما صادف إنجلترا من حسن الطالع في الاستيلاء على مصر :

« بدأ العام الجديد دون أن تطرأ أي تحسنات في الموقف المصري ، فإن الوسائل المالية العدوانية التي كان ينهجها العهد القديم مازالت قائمة على قدم وساق ، ومع هذا تجد الخزينة خاوية الوفاض ، كما أن الموظفين الوطنيين الذين لم يتقاضوا مرتباتهم ، إلى جانب أفراد الجيش والدائنين المحليين ، كل هؤلاء يقاسون ويصيحون كما كانوا يفعلون في الماضي ، إلا أن الجيش الحافل من الموظفين الأوروبيين هم الذين يشعرون بالرضا نظرًا لأنهم يتقاضون مرتباتهم الضخمة كاملة غير منقوصة . والحقيقة أنه إذا لم يكن هناك أسباب للشكوى ضد هذا النظام الجديد سوى وجود هذا العدد من الأجانب الذين يكادون لا يعملون ويتقاضون مثل هذه المرتبات بينما لم تدفع متأخرات الموظفين المصريين وكل أفراد الجيش على اختلاف رواتبهم لعدة شهور فإن هذا السبب وحده كفيل لتعليل هذا السخط العام الذي يزداد ويرتفع صوته كل يوم » .

وإزاء هذه الحقائق وإزاء الجوع المنتشر بين الآلاف من الأهالى في الوجه القبلي بسبب انخفاض النيل كانت الصحف الإنجليزية (والكتاب الإنجليز منذ

ذلك الحين) تنسب هذا الاستياء الوطنى إلى الخديوى مدعية أن هذا كله من جراء تصرفاته » .

أما بالنسبة لعام ١٨٧٧ الذي بلغ إيراده ٩٫٠٤٣٫٠٠٠ جنيه استرلينى فقد دفع مبلغ ٧٫٤٧٣٫٩٠٩ جنيهات فوائد لحملة السندات وحوالى مليون من الجنيهات لإنجلترا فائدة على نصيبها من أسهم قناة السويس ، بالإضافة إلى سداد الجزية التركية . ولم يبق سوى مليون من الجنيهات لكل المصروفات الخاصة بالحكومة ، بما في ذلك الجيش وكبار الموظفين الأجانب . والواقع أن نفس القول ينطبق على عام كذلك .

وينبغي أن نتذكر أنه لم يكن ثمة مجالس بلدية في مصر ، بل كانت جميع المصروفات بما فيها مصاريف المدن والقرى والجسور والقنوات ومصاريف المدارس تدفع من خزانة الحكومة . أما فيما يتعلق بالمبلغ المتبقى للمصروفات الجارية ، وكانت تبلغ ربع القيمة الضرورية ، فكان الخديوى مسئولاً بالإنفاق منه على الأمن العام وحسن سير العمل الحكومي ، ثم يعامل بعد ذلك كله على أنه مجرم لأنه لم ينجح في ذلك .

ولقد شاهدت بنفسي مالية مصر وإيراداتها وقت وصولي ، ومهما بلغت آثام الخديوى السابقة ، فإنه قد بذل ما في وسعه بعد أوائل سنة 1867 لكي يخفف من حدة الموقف المالي ، فلم يقم بعد ذلك بإقامة القصور أو مد خطوط السكك الحديدية أو أسلاك البرق أو شراء بواخر أو مصاريف شخصية أكثر من مصاريف أمراء أوروبا الصغار أو أكثر مما تسمح به ثروة الخديوى ، قبل أن يصير خديويًا .

هذا ولقد زعمت الحكومات الأجنبية ، على العكس مما يقول به الخديوى ، إن إيرادات الحكومة إذا أحسن التصرف فيها تكفى لتمكين الحكومة من دفع فوائد قدرها ٧ ٪ على ديونها . وعندما تولت الوزارة الأوروبية زمام السلطة أدركت أن هذا ليس بصحيح ، ومن ثم بحثت عن موارد أخرى

تساعد على الوفاء بوعودها لحملة السندات الذين مهدوا لها سبيل الحصول على هذه المراكز المربحة . ولو أمكن الوفاء بهذه الوعود لاستحقت السندات التي اشتريت أصلاً بمبلغ يتراوح من ٥٠ إلى ٧٠ سنتًا لكل دولار قيمتها الإسمية . وكان أول عمل قامت به الوزارة هو طلب قائمة بالممتلكات الشاسعة الخاصة بالخديوى وأسرته .

وكان إسماعيل باشا ، قبل أن يصبح خديويًا ، من أثرى أمراء الشرق وأكثرهم بذخًا وإسرافًا . ذلك أنه ورث ممتلكات ضخمة تشتمل على مبان بالإسكندرية والقاهرة ، وأراض زراعية مخصصة لزراعة قصب السكر بالوجه القبلي . وكانت هذه الضياع يقوم على إدارتها ناس أكفاء وتغل محاصيل وفيرة . وباعتلاء عرش الولاية على مصر ورث أموالاً طائلة أيضًا . وكان بلاشك مولعًا بالاقتناء ، وحينما أصبح حاكمًا مطلقًا على مصر ازدادت أراضيه زيادة كبيرة ، ففي خلال عشر سنوات بلغت مساحة أراضيه ٩٥٠٫٠٠٠ فدان . وقد حصل على جزء من هذه الأراضي عن طريق الشراء ، ولكن الجزء الأكبر قد استصلح عن طريق إنشاء قنوات الري وتسوية الأراضي وإعدادها للزراعة بمختلف الوسائل .

ونتيجة لإقتناء هذه المساحات الإضافية من الأراضي ، وجعلها في حالة تصلح للزراعة ، عرض الخديوى نفسه لاستدانة مبلغ ٤٣ مليون فرنك زيادة على صافي الأرباح التي كانت تدرها كل أراضيه . ويمكننا أن نكوّن فكرة عن قيمة هذه الممتلكات إذا عرفنا أنها كانت توازى حوالى خمس الأراضي المصرية وتنتج سنويًا ما يزيد على محصول مليون فدان . وكان يمتلك بالإضافة إلى هذه الأراضي خمسة عشر مصنعًا للسكر ذات مبان فخمة وفي حالة جيدة ، إذ كانت تحتوى على خمسين آلة لعصر قصب السكر ، كما كان يملك مصنعين قديمين غير صالحين للاستعمال ، إلى جانب مواد أخرى لإقامة ثلاثة مصانع أخرى . كما كان يوجد كذلك حوالى ٢٥٠ ميلاً من الخطوط الحديدية يسير عليها أربعون عربة وعدد آخر من معدات النقل وكلها مخصصة

لنقل القصب إلى هذه المصانع . ولم يمنع وجود هذه الخطوط الحديدية من استخدام عدد كبير من الجمال . ولقد شاهدت صفوفًا طويلة من الجمال لمسافة أميال وهي تقوم بحمل القصب إلى محطات السكة الحديد .

وكان الخديوى قد نقل ملكية جزء كبير من هذه الممتلكات إلى أفراد أسرته . وبناء على طلب الوزارة الأوروبية انتقلت ملكيتها جميعًا ، بالإضافة إلى ملكياتهم الخاصة ، إلى الدولة لكي تساعد في التخفيف من الضائقة المالية .

وكان بعض هذه الأراضي مرهونًا وفاء لمبلغ ٤٣ مليون دولار ، ولكن أكثر من ٤٥٠ ألف فدان كانت خالية من الموانع . وهكذا انتهت ملكية أثمن ضيعة فردية في العالم ، حينما كان الخديوى يمتلكها جميعًا . وكانت الهبة تتضمن ممتلكات عديدة شاسعة في القاهرة والإسكندرية .

وكان من بين المشروعات التي قدمها العضو الإنجليزي في الوزارة بصفة رسمية هو القيام برحلة إلى لندن . لكي يحصل على قرض مقابل رهن الأراضي الخالية من الموانع . وقد اجتمع بالمسئولين ببنك روتشيلد . وكانت هذه فرصتهم . فلم لا ينتفعون بها ؟ إن مصر في حاجة إلى نقود وكانت الضمانات كافية وسعر الفائدة مرتفعًا . والمسألة الوحيدة هي كمية الدم التي ينبغي أن يحصلوا عليها . أما بالنسبة للوزير فقد كان على استعداد لقبول الشروط التي يعتقدون أنها مناسبة . ولذلك حرر عقد بمقتضاه يتعهد هذا البنك بطرح سندات قيمتها ٨٫٥٠٠٫٠٠٠ جنيه استرلينى بفائدة قدرها ٧٣ ٪ بضمان رهن الممتلكات الخالية من الموانع التي تنازلت عنها أسرة الخديوى للحكومة المصرية . وهذه الممتلكات توضع تحت مباشرة مراقبين إنجليز وفرنسيين ؟ وفي حالة عدم كفاية الإيرادات للقيام بسداد الفوائد والقسط المستحق من القرض ، فإن الحكومة المصرية تقوم بدفع العجز . وكانت هذه السندات تساوى قيمتها الإسمية وقت إصدارها ، وكان الدائنون على استعداد

لتقبلها . ولكي يظهر المسئولون ببنك روتشيلد بمظهر السماسرة اشترطوا أن يتقاضوا ثلاثة في المائة من حصيلة البي ، مقابل خدماتهم . وقد وصلت قيمة هذه النسبة إلى مبلغ ٩٠٠٫٠٠٠ دولار . وقد طرحت السندات إسميًا في السوق ، ولكنها أخذت فعلاً بواسطة بنك روتشيلد والأصدقاء الذين يتمتعون بالحظوة لدى البنك . وبهذه الصفقة المالية خسرت مصر مبلغًا قدره ١٢٫٣٠٠٫٠٠٠ دولار ألقيت في خزائن ممولى لندن الأغنياء . وتعرف سندات هذا القرض باسم (الدومين) . وقد دفعت فائدة هذه الأموال في الحال كما دفع جزء كبير من أصل المبلغ من بيع الأراضي .

وبالرغم من الوعود التي أطيت للخديوى عندما تنازل عن هذه الممتلكات الشاسعة للحكومة ، وهي ألا تدفع سوى الديون السائرة ، وأنه سوف يتخلص نهائيًا من مضايقات الوضع المالي ، إلا أن هذه الديون لم تسدد ، ذلك أن القرض بمجرد أن تسلمته الإدارة الفرنسية الإنجليزية استخدمته في دفع الفوائد الباهظة على السندات . فقد كانت الوزارة الأوروبية تمثل على وجه الخصوص الدائنين الذين يمتلكون هذه السندات .

هذا وقد ازداد سخط الناس وقويت حدة المعارضة يومًا بعد يوم ضد تدفق الأجانب على البلاد ، هؤلاء الذين استحوذوا على أهم المناصب الرسمية والوظائف على اختلاف درجاتها ، كما سرح جنود الجيش المصري وقيد أسماء حوالى ٢٥٠٠ ضابط مصري في قائمة منفصلة . وكانت مرتبات الجنود والضباط ، طوال المدة التي كانت فيها الإدارة بيد حملة السندات ، متأخرة مدة تتراوح بين سنة وسنتين وكان الضباط قد تدربوا على الخدمة العسكرية دون غيرها ، ولم يكونوا على دراية بأية وسيلة أخرى من وسائل العيش ، فأصبحوا هم وعائلاتهم في حالة من الفقر يرثى لها . وأصبح الناس ثائرين للغاية . وعلى الرغم من كل الأموال والممتلكات التي أعطاها الخديوى وعائلته للحكومة ، إلا أن الدين القومي استمر في الزيادة زيادة مطردة . وقامت على أثر ذلك اضطرابات بالوجه القبلي ومبادىء ثورة القاهرة نظرًا لما

كان يقاسيه الشعب نتيجة فرض الضرائب الباهظة التي أصرت على فرضها الوزارة الأوروبية ، والاستيلاء على كل الأموال تقريبًا وإرسالها إلى باريس ولندن لسداد قيمة الفوائد البالغة ستة وسبعة في المائة على المبالغ التي زعم أن مصر مدينة بها . وكانت الإدارة الأجنبية تعتبر الخديوى مسئولاً عن حسن سير الأمور في البلاد وعن سلوك المواطنين دون أن يتيحوا له أية وسيلة يستطيع بها التخفيف عن متاعبهم .

وهكذا بدأت الاضطرابات السياسية ، إما طبقًا لخطة سابقة وضعت تصميمها الوزارة الفرنسية الإنجليزية ، وإما نتيجة لعجزها الإداري وتحمسها البالغ لمصلحة أصحاب البنوك في لندن وباريس ، هذه الاضطرابات التي انتهت بعد ذلك بثلاث سنوات بالمعارضة القوية التي قام بها شعب مضطهد تحت زعامة عرابي باشا . وقد تكهن الخديوى بالموقف في تصريح أدلى به إلى المؤلف في حضور اثنين من زملائه إبان بوادر الاضطرابات المدنية قائلاً : « إن بوسعى أن أحكم الشعب دون استخدام جندى واحد ، ولكن وزارة من الأجانب أو ينتمى أعضاؤها إلى دين مختلف لا يمكن أن تحكم إلا بالقوة العسكرية » . ولم تتكرر تجربة الحكم هذه منذ فشلها الذريع أول مرة .

ولم يكن هناك تحسن في الأحوال الحكومية ، فكان الوزيران الأجنبيان يزدادان قوة كلما تغيرت الوزارة ، حتى أصبح واجب الخديوى ينحصر في التوقيع على المراسيم التي يصدرها الوزيران الأجنبيان . وطبقًا لما زعموا أصبح الخديوى ينفذ ما يملى عليه بالنسبة لشئون الحكومة . وكان هذا يحدث رغم أنهم لم يكونوا على دراية بالأمور التشريعية أو التنفيذية أو الحكومية وتنقصهم المقدرة التي تتطلبها وظائفهم . وكان الأجدر بالخديوى أن يثور لأول وهلة كما فعل السلطان عندما طلبت الدول الأجنبية أن ينشيء إدارة أوروبية في القسطنطينية . ومع أن إجابته كانت مقتضبة إلا أنه لم يترك شكًا يتطرق إلى ما يعنيه جلالته ، فقد أجاب قائلًا : « قد أكون آخر الخلفاء ، ولكننى لن أوافق أبدًا على أن أكون خديوى آخر » .

وهكذا كان حملة السندات يملون سياسة مصر التي كان يديرها الإنجليز والفرنسيون . ولو كان الخديوى قد رفض بادىء الأمر رفضًا باتًا جازمًا السماح لهم بالتدخل في شئون دولته الداخلية بدلاً من أن يحاول إرضاءهم بمنحهم الامتيازات بصفة مستمرة لكان قد أنقذ عرشه من الضياع . ولكن كل امتياز جديد كانوا يحصلون عليه كان يطمعهم في مزيد من الطلبات حتى تنازل الخديوى فعلاً عن سيادته . ولابد أنه كان من المعروف في لندن أن الحكومة لا تستطيع الاستمرار تحت هذه الشروط المفروضة عليها . وليس من المحتمل أن دزرائيلى كان ينوى استمرارها ، بل كان يترقب وينتظر الفرصة السانحة للتخلص من التحالف الفرنسي الذي كان الإنجليز يبغضونه منذ البداية ، والذي دخل فيه الإنجليز لكي يمنعوا الفرنسيين من فرض إدارتهم على مصر .

وكان كلا القنصلين العامين الفرنسي والإنجليزي يعارضان تصرف الوزارة الأوروبية ، ولكن المساهمين في باريس نجحوا في التسبب في استدعاء القنصل الفرنسي فورًا . أما المساهمون الإنجليز فلم يتمكنوا بادىء الأمر من التخلص من القنصل الإنجليزي العام ، ولكن خطط دزرائيلى السياسية والمصالح المالية لبنوك روتشيلد وغيرها من بيوت المال كانت تتطلب هذه التضحية . ولم يسمح حتى لأحد أعضاء اللوردات المقبلين أن يقف في طريقهم ، واستدعى كذلك القنصل الإنجليزي العام ، المستر فيفيان ، بعد ذلك ببضعة أسابيع . وكان الابن الوحيد للورد فيفيان الذي كان ينحدر من عائلة عريقة نبيلة ، ولكنه كان من الوجهة السياسية أحد أعضاء حزب الأحرار .

ولقد مثل المستر فيفيان حكومته في عدة دول ، وأصبح أخيرًا اللورد فيفيان على أثر وفاة والده ، وقد وافته المنية عندما كان سفيرًا في روما . ولقد حقق العضو الإنجليزي في الوزارة غرضه . ولكن إدارته أثبتت فشلها بحيث لم يطل أجل رحيله . وكان من الممكن أن يحتفظ إداري حكيم مثل الحاكم الإنجليزي الحالى ، اللورد كرومر ، بمنصبه لأجل طويل ، ويصبح مفيدًا لمصر في نفس الوقت . وعلى كل ، فقد وصلت الحكومة إلى أسوأ حال تحت الرقابة

الأوروبية ، مما أدى إلى خلق مبرر لاتخاذ إجراءات عنيفة .

وكانت تبدو المسألة المصرية - في الأيام الأولى من الأزمة التي وقع فيها الخديوى - بالنسبة لهؤلاء الذين لا يعلمون بأسرار السياسة ، على أنها مسألة مالية فحسب .

وفي الوقت الذي تدخلت فيه إنجلترا في مالية الحكومة المصرية بصفة رسمية كان هناك حوالى عشرين دولة في مختلف أنحاء العالم أخفقت في الوفاء بالتزاماتها وكانت تدين للدائنين الإنجليز بمئات الملايين من الدولارات . ومع هذا لم تساعد الحكومة الإنجليزية واحدًا من هؤلاء الدائنين بصفة رسمية في تحصيل ديونهم ، بل كانت على النقيض لا تكترث بهم . ولم تقف عند مجرد عدم مساعدتهم فحسب ، بل كانت تبلغهم بصراحة بأنهم لو أرادوا إقراض أموالهم لجهات مضمونة ، لأقرضوها داخل بلادهم واقتنعوا بنسبة الفائدة الإنجليزية . ولكنهم ما داموا قد أقرضوها في الخارج على ضمانات أجنبية فإنهم قد فعلوا ذلك على مسئوليتهم الخاصة وعليهم ألا يتوقعوا أية مساعدة من قبل حكومتهم بشأن الضغط على تلك البلاد لتلبية طلباتهم ، سواء كانت عادلة أم غير عادلة . وكانت هذه سياسة إنجلترا الثابتة ، فلم تكن تنصب من نفسها (شريفًا) يجبر الدول الأخرى على دفع الديون التي يدفعها مواطنوها المخاطرون على ضمانات يتعاقدون هم عليها . ولم تبذل إنجلترا أي عون رسمى قط في جمع الديون الناشئة عن العقود الاختيارية مثل إقراض النقود أو شراء السندات الأجنبية . ولا تبذل هذه المعونة إلا في حالة المطالبة بديون نشأت عن بعض أعمال خاطئة ، ارتكبتها بعض الحكومات أو ارتكبها بعض مواطنيها ، أو نشأت عن إهمال خاطىء .

ويتضح من هذه الحقيقة بجلاء ، ومن النتائج التي ترتبت على هذه التمثيلية المصرية ، الذي كان دزرائيلى هو الممثل الأول لها في وقت من الأوقات ، أنه كان يرمى إلى أغراض أخرى غير مالية بعد شراء أسهم القناة .

ويتضح هذا بجلاء أكثر من أن الديون التي كان يطالب بها كانت خاضعة لربا فاحش لدرجة أن نصف هذه الديون على وجه التقريب كانت لا تستحق الدفع . ولسنا نبالغ في القول إذا قررنا أن إنجلترا لم تعامل كل القائمة الضخمة من الحكومات الأجنبية التي كانت مدينة لها بمثل هذا الإجحاف التي عاملت به الحكومة المصرية . وبينما كانت فرنسا وإنجلترا متضامنتين في الظاهر في إجبار الحكومة المصرية على دفع فوائد السندات ، وبينما كان مرابو باريس ولندن ينهبون الأسلاب في جيوبهم ، كانت هاتان الدولتان المسيحيتان يراقب بعضهما البعض بحسد بالغ .. وكل منهما يجاهد من أجل الاستيلاء على السلطة وهي تخشى في الوقت نفسه أن تحصل الأخرى على بعض الامتيازات السياسية . وهكذا استمر النزاع حتى الفصول الأخيرة من هذه الدراما التي انتهت بضرب الإسكندرية والتل الكبير والاحتلال الإنجليزي الدائم لمصر .

وكان كاهل الفلاحين ينوء بالأعباء في أواخر أيام الخديوى ، وكان عرش الخديوى مهددًا بالضياع إن لم تدفع تلك الفوائد الباهظة ، وقد قام الخديوى ببذل جهود يائسة لإنجاز المستحيل . ولم تقل الضرائب بل ازدادت تحت حكم الوزارة الأوروبية . وقد كتبت وصفًا تفصيليًا لحكم السندات ولكن المقام لا يسمح بسردها في هذا الكتاب .

واستمر الجشع يتغذى على الأموال . وبعد انتقال ملكية ضياع الخديوى التي كانت تقدر بما لا يقل عن ٧٥ مليونًا من الدولارات بخلاف الالتزامات الأخرى ، أخذت الإدارة الأجنبية تبحث عن مختلف الوسائل التي يمكن أن تزيد بها الإيرادات التي يحصلونها من مصر . ولسوف أذكر مصدرين أو ثلاثة فقط من هذه المصادر التي تمت بها زيادة الإيرادات ، وكان أحدها يعرف باسم (المقابلة) ، ذلك أن الخديوى أصدر مرسومًا يقضي بأن الأشخاص الذين يدفعون إلى الخزانة مبلغًا يساوى ستة أمثال الضريبة على أراضيهم يعفون من نصف هذه الضرائب بصفة مستديمة ، وتحسب هذه الضرائب على أساس الضريبة المدفوعة حينئذ ، وهكذا تقل الضرائب في المستقبل ولا يمكن زيادتها

بأي حال من الأحوال أو لأي سبب من الأسباب . وطبقًا لهذا المرسوم دخل الخزانة مبلغ يربو على ٧٨ مليون دولار ، وقد رهن الكثيرون أراضيهم لكي يحصلوا على المال اللازم .

وقد اقترحت الوزارة الأوروبية إلغاء نظام المقابلة ورفض كل الطلبات المتعلقة بها . وكان هذا سوف يزيد الدخل السنوى بمقدار خمسة ونصف مليون دولار وهي تكفى لدفع حملة السندات مبلغًا سنويًا إضافيًا قدره ١ ٪

وكان هناك مصدر آخر لزيادة الإيرادات وذلك بزيادة الضريبة على نوع خاص من الأراضي تعرف باسم « العشور » . وكان متوسط ضريبة الأراضي السنوية لكافة الأراضي الزراعية في مصر يبلغ حوالى ٥ر٥ دولار للفدان الواحد . أما في الأراضي العشورية فكانت تفرض ضريبة أقل مما كان يفرض على غيرها من الأراضي ، ذلك أنها أراض صحراوية أصلًا استصلحت خلال الخمس والسبعين سنة الأخيرة بمصاريف باهظة أنفقت في تسوية الأرض وحفر القنوات . وكانت الحكومة قد وافقت بادىء الأمر على إعفاء هذه الأراضي من الضرائب . ولكن الضرائب فرضت عليها بعد ذلك طبقًا للقانون الإسلامي وهو العشر من دخلها الكلي . ومن هنا جاءت تسميتها بالعشور . ثم زيدت الضرائب بعد ذلك تحت أعذار مختلفة حتى وصلت إلى نصف قيمة الضرائب المفروضة على الأراضي المعروفة باسم « الخراج » أو الأراضي التي فتحت . ونتيجة لهذه الحصانة ضد جزء من الضرائب ، كانت تباع هذه الأراضي بضعف ثمن الأراضي الأخرى .

وقد اقترحت الوزارة تحت عذر جعل الضرائب متساوية ، رفع الضريبة على هذه الأراضي إلى مستوى ضرائب « الخراج » ، وكان هذا لإضافة مبلغ ٧٥٠ ألف ٢٤٨ دولار إلى الإيراد السنوي قابلة للازدياد بمجرد تقييم محاصيل هذه الأراضي .

وكانت الحكومة مدينة بمبلغ يزيد على تسعة ملايين دولار دفع إلى الخزينة

بمقتضى اتفاقيات خاصة بالمعاشات الدائمة ، وقد اقترح إلغاء هذه المعاشات برمتها . وقد جمعت كل هذه « الاصلاحات » . كما أطلق عليها ، في مرسوم واحد طلب من الخديوى التوقيع عليه . وحينما اعترض الشعب والخديوى ، اتهمه (المصلحون) ، بأنه يثير السخط والاستيلاء . وبعد عزل الخديوى ، فرضت هذه الإجراءات . بعد إجراء تعديل بسيط فيها ، على مصر . وقد فرضت فائدة بسيطة على الأموال التي قدمت بمقتضى المرسوم المعروف باسم مرسوم « المقابلة » .

ونظرًا لهذه الظروف ، عقد الخديوى العزم على أن يبذل مجهودًا مستميتًا آخر لإنقاذ سيادته وتخليص شعبه من ربقة الإدارة الأجنبية ، فدعى القناصل العامين للاجتماع بقصر الخديوى لكي يبلغهم سموه أمرًا هامًا . وكانت كل دول أوربا الكبرى ، والولايات المتحدة ، وأسبانيا ، وهولندا ، والدانمارك ممثلة في هذا الاجتماع .

ولقد استقبلنا الخديوى في حضور شريف باشا ، ولجنة من مجلس الأعيان ، وبعض العلماء . وقد بدا سموه في بادىء الأمر مضطربًا للغاية ، ولكنه قال إن من المستحيل على الحكومة أن تستمر تحت وطأة الظروف الراهنة . وإن الوزارة الأوروبية قد أعدت مشروعًا ماليًا كفيلاً بالقضاء على الحقوق المكتسبة والقوانين التي كانت تعتبر مقدسة ، وإن هذا المشروع يضر بالبلاد ومجحف بعدد كبير من السكان ، لدرجة أن معارضة قوية قامت بين صفوف الشعب بحيث أصبح لزامًا عليه أن يرضخ لرغباته ويشكل وزارة أخرى .

وقام شريف باشا بإيضاح الموقف بالتفصيل ، فقال إن الحركة الوطنية بدأت في « مجلس الأعيان » الذي كان منعقدًا طوال الشتاء ، وانفضت جلساته دون أن تحقق مطالبه العادلة ، وإن البلاد لا تستطيع أن تؤيد الوزارة الحالية . وشكلت وزارة جديدة في صباح اليوم التالي ، برئاسة شريف باشا ، طرد منها الوزيران الأوروبيان .

الفصل الحادى والعشرون

عزل إسماعيل باشا

توقف حكم حملة السندات فجأة ، ولم يستأنف قط بصورته الشاذة التي بدأ بها . ويمكن وصفه بأنه كان عهدًا إنجليزيًا ، لأنه بينما كان يعرف إسميًا بالنفوذ الإنجليزي الفرنسي ، إلا أن النفوذ الإنجليزي كان سائدًا لدرجة أن النفوذ الفرنسي لم يكن يشعر به أحد . هذا التفوق في السلطة كان ملحوظًا لدرجة أن بعض المقيمين من الفرنسيين ابتهجوا مثل المواطنين لقيام ما أسموه بالانقلاب الذي أحدثه الخديوى .

وكانت الحركة كلها شعبية ، وترجع شعبيتها إلى حد كبير إلى الفشل الذريع الذي أصاب محاولة حكم البلاد (في صالح الدائنين الأجانب) عن طريق وزارة غير مسئولة ليس لديها أية معلومات عن البلاد ، لغتها وعاداتها وقوانينها . واحتياجات شعبها . وكانت الدول الأجنبية تدرك تمامًا هذا الفشل والأخطاء السياسية المسئولة عنها . ولا يمكن أن نتوقع منها أن تعترف بهذه الأخطاء ، ذلك أن الدول الأوروبية تدعى عصمتها من الخطأ فيما يختص بجميع تصرفاتها في الدول الشرقية غير المسيحية ، ومهما بلغت جسامة هذه الأخطاء أو أخطاء عملائها فإنها تصر دائمًا على أنها كانت على حق .

ولم يكن هناك أية سابقة في ذلك الوقت لتدخلها في شئون مصر بحجة ضمان دفع الديون التي يطالب بها مواطنوها . وإذا افترضنا أنه في حالة رفض أية ولاية من ولاياتنا الجنوبية دفع ما عليها من ديون للولايات الأخرى التي

تحاول أن تستولى على أموالها بالقوة ، فماذا تكون النتيجة ؟

وفي حالة مصر لم تكن ترفض دفع ديونها . بل كانت المسألة محصورة في الخلاف على نسبة الفوائد . ورغم الثمن البخس الذي بيعت به السندات المصرية ، إلا أن الحكومات كانت تطالب بنسبة من الفوائد تبلغ ضعف النسبة التى كانت تدفعها الحكومة الإنجليزية . وكان هذا المبلغ أكثر مما تستطيع مصر دفعه ، وكان مصدر المتاعب كلها هو محاولة إرغام الخديوى على أن يفعل المستحيل ، حتى بعد سلب أموال الخديوى والشعب .

وفي الوقت الذي كانت تطالب فيه هذه الحكومات بمبالغ باهظة كان الآلاف الذين ماتوا جوعًا أو نتيجة لقلة الغذاء في الوجه القبلي نادرًا ما تدفن جثثهم . وكان هذا العدد البالغ من الضحايا النتيجة المباشرة لاغتصاب هذه الفوائد الباهظة .

وقد قرر أحد الإنجليز (الذي كان ضمن اللجنة التي سارت في النيل جنوبًا في شهر فبراير من هذا العام (١٨٧٩) لحمل المؤن إلى الشعب وللتأكد من حالتهم) أن عدد الأفراد الذين ماتوا جوعًا ونتيجة لنقص الطعام لا يقل عن عشرة آلاف ، يضاف إليه عدد آخر ماتوا نتيجة الأمراض التي أصابتهم بسبب الحرمان والعوز . وأضاف قائلاً إن كل هذا كان نتيجة مباشرة للفقر الناجم عن الضرائب الباهظة . وكانت المناظر التي شاهدها المسافرون في هذه المنطقة في الشتاء مناظر تثير الفزع .

وتقع مسئولية هذه المجاعة وهذه الحالة المروعة على عاتق الحكومتين الإنجليزية والفرنسية ، وذلك بعد أن أبلغوا سلفًا عن أحوال البلاد والافتقار المنتظر إلى المؤن الغذائية . وقد وقعت هذه المجاعة في الوجه القبلي ، وكانت أقرب منطقة أصيبت بها تبعد ثلاثمائة وخمسين ميلاً جنوب القاهرة ، وهي أكثف المناطق الريفية سكانًا في البلاد . وكانت كثافة الأهالي في أقصى الأطراف الشمالية من هذه المنطقة من مائة إلى مائة وسبعة عشر شخصًا لكل

مائة فدان من الأرض . أما الأجزاء الباقية فكانت تبلغ كثافتها مائة وتسعة وسبعين شخصًا لكل مائة فدان .

وفي أبريل سنة ١٨٧٨. كانت مسألة دفع كوبونات مايو على الديون المستحقة محل نظر . إذ كان من المعروف أن أجزاء كبيرة من هذه المناطق قاحلة كالصحراء . ولم تغل الأراضي محاصيل تذكر نتيجة انخفاض النيل في العام السابق . وكان القمح يعتبر من المحاصيل الرئيسية لهذا الجزء من البلاد ، وهو أحد المحاصيل الشتوية التي تروى من فيضان النيل الطبيعي .

ولم تحدث المجاعة إلا في أوائل عام ١٨٧٩ مع أن إنخفاض النيل كان في سنة ١٨٧٧. وكان النيل منخفضًا في صيف وخريف ذلك العام حتى إن الأرض لم تنتج أية محاصيل في الشتاء التالي فى الجزء الأكبر من الوجه القبلي . وفي الأماكن التي كانت توجد فيها محاصيل ، كانت تباع وفاء للضرائب ثم تصدر . وكان باكورة المحاصيل التي أعقبت فيضان النيل في صيف سنة ١٨٧٨ نوعًا من الفول ينضج حتى شهر فبراير عام ١٨٧٩ لكي يسد بعض النقص . وقد حدثت المجاعة قبل هذا الأوان ببضعة أسابيع . وكان الذين ماتوا في الغالب بسبب المجاعة أكثرهم من المسنين أو ضعاف الأجسام من الرجال والنساء والأطفال . وكانت مجاعة فقر ، شأن غيرها من مجاعات هذه الأيام . ومع وجود وسائل المواصلات والنقل الحديثة ، هناك كمية كافية دومًا من الطعام يمكن لهؤلاء الذين يملكون المال الضروري أن يشتروها .

ولم تكن النقود متوفرة لدى الخزانة لدفع كوبونات مايو سنة ١٨٧٨ كما ذكرت حيث بلغ العجز حوالي ٦ ملايين دولار ، فقال الخديوى إنه لا يمكن دفع هذه الكوبونات مرة واحدة . وقد طالب القنصل الفرنسي العام – بناء على تعليمات صادرة إليه من حكومته ، يعضده في ذلك القنصل الإنجليزي العام ، الذي كان ينفذ التعليمات الصادرة إليه كذلك ، رغم أن هذا كان يتعارض مع رغباته ورأيه الشخصي – طالب بدفع قيمة هذه الكوبونات ،

وكانت الحقائق المرة قد رفعت إلى الحكومات ، حتى إن الخديوى توسل إلى القنصلين العامين ألا يصرا على مطالبهما وهو يلفت نظرهما من جديد إلى عجز الناس عن دفع ضرائبهم ، وعن العوز الذي لابد أن ينجم عن استنزاف كل مواردهم . وكانت الإجابة التي تلقاها من القنصل الفرنسي العام : « ينبغي أن تدفع » .

وأبلغ القنصل الإنجليزي العام حكومته أنه حيث إن الحكومتين الإنجليزية والفرنسية قد طلبتا تسديد الكوبونات ، فقد رد الخديوى بأنه سوف يبذل ما في وسعه لاستجابة هذه الطلبات ، مهما كلف البلاد من أمر ، ولكنه لا يتحمل مسئولية النتائج التي تترتب على ذلك ، وصدر الأمر بجمع المبلغ . واستخدم محصلو الضرائب وسائل غير عادية ، ولكن بعد أن تحصلوا على آخر قرش أمكن اغتصابه من الفلاحين المساكين . كان لم يزل هناك عجز قدره أكثر من ٢ مليون دولار . وقد جمع هذا المبلغ عن طريق بيع الحكومة لقمح دافعي الضرائب الذي لم يجمع بعد والذي كان لايزال قائمًا في الحقول ، وعن طريق رهن الممتلكات الشخصية لأنجال الخديوى .

ولقد دفعت الكوبونات يوم استحقاقها ، كما صدّرت الغلال بعد ذلك إلى أوروبا للوفاء بالأموال المطلوبة . ولقد أمكن لعدد من الرجال في باريس الذين بلغهم النبأ مبكرًا – بصفة خاصة – عن الأثر الذي تركه تصريح القنصل الفرنسي العام في نفس الخديوى ، أمكن لهؤلاء أن يجمعوا ثروة من جراء ارتفاع سعر السندات المصرية . وكانت النتيجة التي عادت على مصر من مجاعة فصل الشتاء التالي . ولم يمكن سد العجز من حصيلة بيع القمح . وبعد الدفع من مختلف الوجوه ، صدر قرار آخر الأمر ضد الأمراء لدفع العجز المتبقي وهو حوالي ١٢٠ ألف دولار .

وقبل ذلك بقليل ، كانت تكاليف الاحتفاظ بجيش في تركيا قد أضافت حملاً آخر على كاهل البلاد ، إذ كان الخديوى مطالبًا بإرسال قوة لكي تشترك

في الحرب ضد روسيا في الحرب التركية الروسية . وقد تردد سموه مدة طويلة حتى بعد أن استعدت القوات لركوب السفن ، ولم يرسلها إلا تحت تأثير ضغط إنجلترا السياسي . وقد حاول المسيو دى ليكسي القنصل الروسي العام الذي أمد المؤلف بتفاصيل وافية عن المفاوضات . أن يثنى الخديوى عن إرسال هذه القوات . ولكن دون جدوى .

وفي النهاية لم يجرؤ الخديوى على مخالفة طلبات السلطان التي كانت تؤيدها إنجلترا ، فأرسلت قوات قوامها ثلاثون ألف جندي ، بما فيها تلك القوات التي أرسلت من قبل للاشتراك في الحرب ضد الصرب . وجهزت وزودت بالعتاد . ثم أبحرت عبر البحر الأبيض المتوسط وأنفق عليها لمدة عام في تركيا . وعادت هذه القوات في نفس الوقت التي كانت تطالب فيه الدول بدفع كوبونات مايو سنة ١٨٧٨. ورغم تلك الأعباء التي كانت تئن تحتها البلاد . ورغم الأخطاء التي كانت ترتكب – إذا أحجمنا عن استخدام تعبيرات أقسي من تلك – في عهد حملة السندات ، إلا أن الحكومات لم تكف عن استخدام المشروعات والخطط العدوانية . فقد تزعم الفرنسيون حركة جديدة . وهي عزل الخديوى . ذلك أن العداء القديم الذي نجم عن بيع أسهم القناة لإنجلترا قد ازداد نتيجة لازدياد نفوذ إنجلترا في الشرق .

وحين برز هذا العداء بهذه الكيفية ، لم يكن لفرنسي أن يقنع بأقل من المطالبة بدماء الخديوى . وطالب الجمهور الفرنسي علانية بالأخذ بالثأر في باريس ، وكان هذا هو الذي يبغونه منذ اللحظة التي بيعت فيها الأسهم . وقد نالوا غرضهم ، ولكنهم ضحوا بذلك بكل النفوذ السياسي الذي اكتسبوه في مصر طيلة كفاح استمر زهاء قرن من الزمان ، ذلك أنه بمجرد أن عزل رئيس الحكومة القوى ، توالت الظروف التي مهدت السبيل إلى السيادة البريطانية .

وثمة فارق أساسي بين طبيعة الفرنسيين وطبيعة الإنجليز ، فالفرنسيون يضحون بالمستقبل من أجل أرضاء نزعة حالية ، أما الإنجليز فهم يزنون كل

الحقائق ، ويقرون – قبل أن يتخذوا أي إجراء – أى الطرق سوف تكون أكثر نفعًا لهم في النهاية . وهم بهذا يستطيعون أن ينتظروا وينتظروا حتى تصل اللحظة السانحة .

هذا وقد هيأ الاستيلاء على قبرص بعد مؤتمر برلين وكذلك الصداقة المتينة التى توطدت بين إنجلترا وسلطان تركيا . هيأ للإنجليز لدى الخديوى مركزًا أقوى من مركز الفرنسيين . كما كان الإنجليز أناسًا عمليين ويعرفون كيف يلائمون أنفسهم تبعًا لظروف البلاد أكثر من الفرنسيين . وقد مكنهم هذا ، بمساعدة حكومتهم . من الحصول على عدد كبير من المناصب المربحة في مصر وأن يغمروا البلاد بسيل من الموظفين الإنجليز .

وحازت أعمال الوزارة الجديدة رضاء الجمهور من كل الطبقات . ولم يستطع أحد أن يجد خطأ في الوسيلة التي كان يدير بها الخديوى شئون الحكم أو ينكر أنه كان يعمل ما في وسعه إزاء هذه الظروف . وعلى كل ، واصلت فرنسا ، تحت تأثير حملة السندات ، حملتها الشعواء التي كانت تشنها عن طريق حرب الصحافة لمدة ثلاث سنوات . وحينما ترددت إنجلترا ، وبدا عليها أنها على استعداد للتخلى عنها ، أخذت تسبر غور وزارات الدول الكبرى في أوروبا تطلب منها التأييد المعنوي .

وفي عام ١٨٧٨ في الوقت الذي انعقد فيه مؤتمر برلين لتصفية المسائل التي نشأت عن الحرب التركية الروسية ، كانت إنجلترا في حاجة إلى نفوذ فرنسا . وقد حصلت إنجلترا على هذا النفوذ عن طريق الحصول على موافقة الدول الأوروبية الكبرى على اقتراح عدم مناقشة المسائل المصرية في ذلك الوقت ، عن طريق الوعود التي أدخلت في روع فرنسا أن إنجلترا سوف تتبع سياسة فرنسا في مصر .

وتحت وقع المسائل المعلقة في برلين اضطرت إنجلترا ، مخالفة بذلك نصيحة قنصلها العام وغيره من الممثلين الإنجليز في مصر ، إلى المعاونة في إكراه

مصر على رفع الفائدة المستحقة على كوبونات مايو من ذلك العام .

ولكن الظروف تغيرت ، ولم تعد إنجلترا في حاجة إلى نفوذ فرنسا . بل أصبح من المحقق تفوق النفوذ الإنجليزي في مصر ، ورغم كل ما حدث ، أظهر الخديوى تفضيله للسياسة الإنجليزية ، وكانت الجالية الإنجليزية في مصر ، بما فيها القنصل العام ، ضد الوزارة الإنجليزية الفرنسية ، وكانت أقوى من المؤيدين لهذه الوزارة . زد على ذلك أن إنجلترا لم يكن لديها الرغبة في الدخول في هذا المشروع الجديد بالاشتراك مع فرنسا . ولم يكن ودهم المزعوم سوى مظهر خارجي فحسب . وكثيرًا ما صرح لى كبار المسئولين بانجلترا بأن حكومتهم قد سمحت لنفسها دون ترو أن تتورط في حلف معقد لا يسر خاطرهم ، ذلك أن آراءهم بالنسبة لما يجب عمله كانت تختلف تمامًا عن آراء الفرنسيين ، ولم يكن في مقدورهم أن يصلوا إلى اتفاق بشأن سياسة عامة أو مفصلة . وكانت الدولتان تغاران من بعضهما البعض لدرجة أن كلا منهما كانت تظن أن الأخرى تخفى مشروعات سياسية ماكرة في كل لحظة من اللحظات . والواقع أن كلا منهما كان يبيت مثل هذه المشروعات في معظم الأحوال .

وأصبحت المسألة المالية إحدى المسائل الثانوية من حيث الأهمية . وهذه الحقيقة هي التي جعلت تعاونهما معًا في ألفة وانسجام أكثر صعوبة عن ذي قبل . وكانت فرنسا تظن أن بفضل غزوات نابليون الأول لها حقوق مكتسبة في مصر قد حرمها الإنجليز من جني ثمارها . وكانت إنجلترا هناك ، ولو أنها لم تقصد البقاء في ذلك الوقت ، بل كانت كل ما ترمى إليه هو منع فرنسا من تثبيت أقدامها في مصر . وكان الباعث على هذه الحركة الحالية من جانب الفرنسيين هو كراهية الخديوى إلى حد كبير . أما إنجلترا التي لم يكن لديها أي دافع للجأر بالشكوى ، فقد ظلت مترددة تمعن النظر في النتائج الأخيرة . وكانت تعرف من خبرتها السابقة أن خلع أمير قوي بارع عن العرش وإقامة شاب غير محنك في مكانه يعنى تولى مقاليد الحكم بنفسها . وهي لن تتردد في حمل مثل هذه المسئولية على عاتقها ، ولكن كيف يمكن إدارة هذه

الحكومة المزدوجة ، هذه الشركة مع فرنسا في حكم البلاد ؟

ونظرًا لهذه الاعتبارات وحسن سير الحكومة فيم صر ، بدا أن ميزان القوى سوف يصبح في صالح الخديوى ، حينما دخل النزاع على حين فجأة عنصر جديد من مصدر لم يكن يتوقع بالمرة . ولم يكن هذا العنصر الجديد سوى ظهور تحالف على المسألة المصرية المعلقة بين الأمير بسمارك وبين فرنسا . وعلى الرغم من أن هذا الأمر كان مثيرًا للدهشة ، لم يكن من العسير على الشخص الذي كان يراقب الأحداث وعلى معرفة بالأحوال الدبلوماسية في القاهرة خلال العامين الماضيين أن يدرك بعض الأسباب التي أدت إلى هذا الحدث المفاجىء . كانت ألمانيا قد لعبت حتى الآن دورً ضئيلاً متواضعًا للغاية في شئون الشرق ، ولم يكن لها نفوذ يذكر بالقياس إلى نفوذ إنجلترا وفرنسا . وعلى كل فقد كان نصيبها من الدين السائر في مصر مبلغًا قدره ٧٥٠ ألف دولار ، وكان نصيب النمسا نفس المبلغ .

وأخذ القنصلان العامان التابعان لهاتين الدولتين يشكوان من أن الخديوى لا يأبه بمطالبهما في الوقت الذي يلبي فيه طلبات قناصل إنجلترا وفرنسا . وكانا يقولان دائمًا إنه لا يوجد في مصر سوى قنصلين عامين فقط : قنصلي إنجلترا وفرنسا ، وأن الباقين يمكنهم أن يذهبوا إلى حال سبيلهم . وشعر بسمارك بالإهانة نظرًا لمركز ألمانيا الثانوي في مصر ووجد الفرصة سانحة لكي يشعر العالم بنفوذه ويحصل على مركز هام في مصر تمشيًا مع هيبة الإمبراطورية الجديدة التي أسسها أخيرًا . والحقيقة أن كل موارد البلاد بما في ذلك أموال الخديوى كانت في يد المراقبين الأوروبيين الذين كانوا يستخدمونها في دفع فوائد الديون . ولم تف الوزارة الأوروبية بالوعد الذي بذلته للخديوى حينما تنازل عن أملاكه الخاصة ، لكي يدفع الدين السائر . هذا الدين كان يتزايد دائمًا ، ولم يكن بوسع الخديوى أن يفعل شيئًا لتخفيف حدة هذا الموقف طالما أن حملة السندات يمتصون كل الإيرادات .

ولسنا ندرى ما إذا كان موقف ألمانيا له أي تأثير على إنجلترا ، ومهما يكن من أمر ، فإن إنجلترا بمجرد أن أبلغت بسياسة حكومة القيصر أبدت موافقتها على خطة فرنسا التي تقضي بعزل الخديوى .

وهكذا حصلت فرنسا من عدوها اللدود الذي كانت تخشاه أكثر من غيره على ما اعتبرته معونة قيمة في تنفذ مشروع كانت تعلق عليه أهمية بالغة ، وكانت تعمل بكل قوتها لإنجازه . ولم يكن نجاحها في هذا المشروع هو السبب في ضياع نفوذها من مصر فحسب ، بل أدى إلى نفور بينها وبين إنجلترا دام عشرين عامًا . وحينما عقدت إنجلترا العزم على أن تعمل ، أصبح عزل الخديوى أمرًا يسيرًا . والمسألة الهامة الوحيدة كانت الكيفية التي ينبغي أن ينفذ بها هذا العزل .

وفي حوالي منتصف شهر يونيو نصح مستر فيفيان ، ممثل إنجلترا في مصر ، الخديوى شفويًا . وبطريقة غير رسمية كما شاع في ذلك الوقت . أن يعتزل العرش ويترك مصر فورًا على ألا يعود . ثم حضر بعد ذلك بقليل المسيو تريكو القنصل العام الفرنسي الجديد ، الذي كان يبدو أنه أرسل لهذا الغرض ، ووجه إلى الخديوى نفس النصيحة بأسلوبه غير المهذب .

وكان مسيو تريكو قد مثل فرنسا في مصر قبل ذلك واستدعى بناء على طلب الخديوى . ولهذا تعتبر عودته في ذلك الوقت إهانة مباشرة إلى سموه ، ويظهر بوضوح تحيز القابضين على زمام الحكومة الفرنسية ضد الخديوى .

وفي اليوم التالي لهذا الاتصال الشفوي . أطلع مسيو تريكو ومستر لاسل القائم بالأعمال الإنجليزي ، سموه على مذكرة روسية مشتركة تحمل نفس المعنى . وكنت في مقابلة مع الخديوى في اليوم السابق لعرض المذكرة . وكان يبدو على محياه الاكتئاب وغاضت عنه الحيوية التي كانت تميز مقابلاته عامة . حتى في وقت أخطر مشاكله . وقد تحدث بصراحة عن الموقف ، ولكنه لم يعبر عن رأيه فيما يختص بنتيجته المحتملة . وكان قد أخطر سلفًا بالمذكرة

الرسمية التي سوف تعرض عليه تطلب منه اعتزال العرش ، لكنه لم يكن يتوقع أن تعرض عليه إلا في اليوم التالي ، وفي حديث لي مع شريف باشا في نفس اليوم وجدته مفعمًا بالأمل فيما يختص بالنتيجة النهائية .

وقد أعطى الخديوى مهلة : ثمانيًا وأربعين ساعة يجيب فيها على طلبات الدولتين الكبيرتين . وحينما زاره القناصل العامون بعد انتهاء الوقت المحدد أبلغهم بأنه أبرق إلى القسطنطينية لتلقي التعليمات من السلطان ، وأنه لم يتلق إجابة بعد ، وحينما تصل الإجابة سوف يثقل عليهم بالحضور لتلقى الإجابة . وأضاف قائلاً : إنه قد استمد سلطته من السلطان ولا يستطيع أن يعفى نفسه من مسئوليات الحكومة دون صدور أوامر إليه من جلالته . واغتاظ القنصل العام الفرنسي لهذه الإجابة غير المتوقعة ، قائلاً بأسلوبه المعتاد : « منذ متى وسموك خادم ذليل للباب العالي ؟ » فرد الخديوى على الفور : « منذ ولادتي يا سيدى » .

وكانت الدولتان تأملان أن يتنحى الخديوى عن العرش طواعية لكي تتجنبا عقد أي التزامات مع السلطان . واستمر القنصل العام يناقش مسألة التنازل ويحثه عليها ، وحينما احتدمت المناقشة ، اتهم الخديوى بعصيان السلطان أكثر من مرة . فقال الخديوى : « إننى أتحداك أن تذكر واقعة واحدة » . وحينما ارتج القول على مسيو تريكو . تقدم المستر لاسل لإنقاذه بأن سئل الخديوى عما إذا كان من الأفضل في هذه الواقعة بالذات أن يعمل تحت مسئوليته الخاصة . فأجاب الخديوى على هذا السؤال بطريقة مهذبة للغاية : « سيدي العزيز . إذا كانت أول واقعة تريدني أن أستخدم فيها استقلالي عن السلطان هي أن أتنحى عن السلطة التي خولها لي فإنني لا أرى أية فائدة تعود على من ذلك » .

واستخدم القنصلان كل وسائل الضغط الممكنة للحصول على عزل الخديوى دون انتظار قرار من السلطان . وبذلت الوعود للخديوى بأنه يتولى العرش من بعده إذا وافق على التنحى عن العرش . كما هدداه بأن يخلفه في

العرش حليم باشا . ثم ينفى من مصر دون أن يأخذ شيئًا ، إذا لم يقبل ذلك .

وبعد ذلك توجه كل من القنصل الفرنسي العام والقنصل الألماني إلى القصر واستدعيا الخديوى حوالي الساعة الثالثة صباحًا ، محدثين بذلك فزعًا بالغًا في الحريم خشية اغتيالهن . ثم أبلغاه بأنهما قد حضرا لمنحه آخر مهلة لاعتزال العرش لصالح نجله ، وأن في ظرف بضع ساعات سوف يعين حليم خديويًّا خلفًا له وحينئذ يكون الأمر قد فات . فقال الخديوى في برود : « لسوف يكون هناك وقت كاف لاعتزال العرش . سأراكم غدًا . أسعدتم مساء أيها السادة » ، ثم عاد ثانية إلى غرفته .

وكان الأمير حليم هو الراية الحمراء التي كان يلوح بها الفرنسيون في وجه الخديوى كلما رفض الإذعان لمطالبهم . ولما كان نابليون الثالث هو أقوى ملوك أوروبا في ذلك الوقت ، كان الخديوى يرتعد لمجرد إعلان بسيط عن زيارة من القنصل الفرنسي العام . فكان الخديوى يقول حينئذ « ماذا يريد الآن »؟ أو يقول : « لقد جاء لكي يصر على مطلبه الذي تقدم به بالأمس » .

وكان حليم عم الخديوى ، وفي حالة وفاة الخديوى أو اعتزاله العرش يصبح المرشح الوحيد لتولى العرش ، طبقًا للشريعة الإسلامية . إذ أنه أكبر الذكور سنًّا من ذرية محمد على .

وفي عام ١٨٦٦ حصل الخديوى على فرمان من السلطان عبد العزيز يقضي بتعديل نظام وراثة العرش حيث تكون ولاية العهد لابن الخديوى رأسًا بدلاً من انتقالها في حالة وفاة الخديوى إلى أكبر أفراد الأسرة المذكورة .

وقد عارض في هذا التعديل عدد كبير من أصحاب النفوذ المقيمين في القسطنطينية ، وكان حليم يقيم في تلك المدينة ، وحينما اعتلى السلطان عبد الحميد العرش حدثت عدة مؤامرات ضد الخديوى ومحاولات لإعادة النظام القديم لوراثة العرش . ولكي يصد هذه المحاولات ، اضطر الخديوى إلى

إرسال مبالغ كبيرة من النقود إلى القسطنطينية زيادة على الجزية السنوية التي رفع مقدارها إلى ٣٫٠٤٠٫٠٠٠ دولار بسبب بعض الامتيازات المختلفة من بينها لقب خديوى ، وهو شرف لم يحظ به أجداده من قبل .

هذه الظروف تعلل خوفه من نفوذ أية حكومة أوروبية قوية قد تقلب ميزان القوى ضده ، كما تعلل قلق ممثلى الدول الأوروبية من أجل اعتزال الخديوى العرش وتوليه ابنه من بعده . ذلك أنهم كانوا يخشون أن يكون حليم ذا نزعة استقلالية متطرفة أو أن يكون واقعًا تحت نفوذ السلطان الذي قد يحاول أن يستفيد من الموقف ويستعيد الامتيازات التي قايضوا عليها مع سلفه . وهذا الموقف الأخير هو ما حدث بالفعل ، ذلك أن إصرار إنجلترا وفرنسا على رفض الخضوع لأوامر السلطان هو الذي أخفق محاولة السلطان وضمن لتوفيق باشا استمرار الامتيازات التي منحت لأبيه من قبل طالما اعتقدت الدول في ضرورة هذه الامتيازات ، إذ أن ذلك كان يعتبر ضمانًا لامتيازاتهم ، كما حدث مع توفيق الذي أجلسوه على العرش ولم يكن له أي رأي في المفاوضات ، كما اضطر أن يرضخ بعد ذلك لما يملوه عليه .

وفي مرحلة مبكرة من المفاوضات ، قبل أن يفضي القناصل بمسألة اعتزال العرش لإسماعيل ، استشير السلطان في الأمر ، فعبر جلالته عن رغبته في تعيين حليم خديويًا ، ولكنه لم يوافق على تعيين توفيق إلا تحت ضغط قوى من جانب إنجلترا .

وفي اليوم التالي لزيارة كل من القنصل العام الفرنسي والقنصل الألماني للخديوى استؤنفت المحاولات للحصول على استقالة الخديوى طواعية والتي قامت على أنباء – زعمًا أنهما تلقياها من القسطنطينية – تفيد أن السلطان على وشك أن يعين حليم خلفًا له . وقد تقدمت إليه عروض تقضي بكتابة ضمانات تكفل تنفيذ وعودهما ، ولكن الخديوى قال في إصرار إنه لن يتنازل عن ولايته إلا للسلطان أو بناء على أمره .

وفي الوقت الذي كانت تمثل فيه هذه المشاهد في القاهرة كان سفير إنجلترا وفرنسا منهمكين في العمل في القسطنطينية .

في عام ١٨٣١ أشعل محمد على حربًا ضد الباب العالي لكي يحصل على استقلاله . وفي العام التالي ، فتحت جيوشه سوريا بقيادة ابنه إبراهيم باشا ، والد إسماعيل ، إلا أن تدخل الدول الأوروبية حال بينه وبين حصار القسطنطينية ، ولكنه احتفظ بحكم سوريا بناء على المعاهدة التي أبرمت في أعقاب ذلك ، وفي سنة ١٨٣٩ حرضت إنجلترا السلطان على أن يجدد عداوته ، وكانت النتيجة أن حاقت بالسلطان هزيمة منكرة ، ولكن إنجلترا سارعت لنصرته تعاونه في ذلك النمسا ، وأوقفتا زحف قوات محمد على ، كما أجبرتاه على أن يتخلى عن سوريا التي رحبت بمقدمه ورضيت بعهده ، ومن ثم أعادتا هذه الدولة التعسة إلى حكم الأتراك ، ضد رغبتها ، كما اضطرتاه إلى الاعتراف بسيادة السلطان وأن يدفع له جزية سنوية بلغت مليونًا ونصف مليون من الدولارات . هذا العمل الذي قامت به إنجلترا لوضع مصر تحت سيطرة السلطان قد كلف هذه الدولة مائتي مليون دولار .

وكان من سياسة إنجلترا دائمًا أن تحتفظ بتركيا كسد منيع ضد روسيا ، ومهمابلغت من قسوة الأتراك إلا أنهم يعتمدون دائمًا على تأييد إنجلترا كلما تعرضت كرامة دولتهم للخطر . وهكذا لم يكن في مقدور السلطان ، طبقًا للمعاهدات المبرمة ، أن يعزل الخديوى دون موافقة الدول التي اشتركت في المعاهدة التي أجبرت محمد على على أن يقبل على نفسه وعلى خلفائه من بعده سيادة تركيا .

وعندما وصلت الأنباء من القاهرة تفيد أنه ليس ثمة أمل في أن يعتزل الخديوى العرش من تلقاء نفسه ، شعر السلطان بالرضا والسرور لأنه سوف يتمكن ، بناء على دعوة الدول الأوروبية ، من استخدام حقه في السيادة بشأن تبديل حاكم مصر . هذا الامتياز كان السلطان وأسلافه محرومين منه منذ أن

أعلن محمد على استقلاله . ومما زاد في سروره ورضاه أنه لم يكن على علاقة طيبة مع الخديوى في وقت من الأوقات . وربما كان السبب في هذا أنه منذ اعتلاء جلالة السلطان عرش الخلفاء في عام ١٨٧٦ لم تمكن خزانة مصر الخديوى من أن يرسل إلى القسطنطينية المبالغ الضخمة التي اعتاد السلطان عبد العزيز وأعضاء بلاطه أن يتسلمها .

وقبيل ظهيرة يوم ٢٦ يونية وصلت برقية إلى سراي القاهرة بعنوان « صاحب السمو إسماعيل باشا ، خديوى مصر السابق » . وفي غمرة هذه الأزمة ، كان هناك عدد غير عادي من الأشخاص في غرفة رئيس التشريفات في انتظار الحصول على مقابلة مع الخديوى .

وفي الأزمنة الغابرة . كان حامل الأنباء السيئةإلى حاكم من حكام الشرق غالبًا ما يفقد حياته . ويروى هيرودوت أن زرزيس أرسل إلى بيثيس ما يلي : « اعلم ذلك جيدًا ، أن روح الإنسان تسكن في أذنيه ، فإذا ما استمع إلى أنباء سارة ملأت كل كيانه بالبهجة والسرور ، أما إذا ما استمع إلى العكس فإنه يحتدم غيظًا وحنقًا » .

وما زال النفور من تبليغ الأنباء السيئة قويًا في الشرق ، فحين قرأ رئيس التشريفات العنوان المكتوب على البرقية سارع بإلقائها على المنضدة ولم يكن ليجسر هو أو مساعده ، طونينو بك ، أو أي موظف آخر من موظفى القصر أن يصعد بالبرقية المشئومة إلى سموه ، ولحسن الحظ دخل شريف باشا في هذه الحظة ، وكان رجلاً بمعنى الكلمة لا يتأثر بأية أفكار خرافية فأخذ الرسالة على الفور إلى الخديوى . ويقال إن الخديوى فض البرقية وقرأها دون أن يبدو على ملامحه أي تبديل . وكانت تحوى ما يلى :

« من الوزير الأعظم لتركيا إلى إسماعيل باشا ، خديوى مصر السابق .. إن الأزمات التي اعترضت مصر في الداخل والخارج قد تفاقمت تفاقمًا خطيرًا . وإن استمرار الحال على هذا المنوال سيكون خطرًا على كل من مصر

والدولة العثمانية .

ومن أهم الواجبات الملقاة على عاتق الحكومة الإمبراطورية هو أن تتخذ الوسائل التي تكفل المحافظة على الأمن والهدوء وتضمن رفاهية الناس . وقد التزمت نصوص الفرمانات الإمبراطورية بهذا الغرض . ومن الواضح أن بقاءك في منصب الخديوى لا ينجم من ورائه سوى ازدياد العقبات الحالية وتفاقمها .

ولذا ، فقد قرر جلالة السلطان . بناء على قرار صادر من مجلس وزرائه ، أن يعين في منصب الخديوى ، سعادة محمد توفيق باشا . وقد صدر بهذا المعنى مرسوم إمبراطورى» .

وقد بلغ سعادته بهذا القرار الهام عن طريق برقية أخرى ، وإني لأطلب منك أن تنسحب من أعمال الحكومة نزولاً على أوامر جلالة السلطان ٦ رجب سنة ١٢٩٦ (٢٦ يونيو سنة ١٨٧٩) . وكان سموه يعتمد على تأييد السلطان له حتى هذه اللحظة ، وحينما فرغ من قراءة الرسالة ، يقال إنه صاح قائلاً : « هذا ما أناله جزاء إرسالي إبان حكمى مبلغ ٢٠ مليونا من الجنيهات الاسترلينية (١٠٠،٠٠٠،٠٠٠ درلار) إلى القسطنطينية » . ثم طوى الرسالة في هدوء قائلاً : « ارسل في طلب توفيق فورًا . وأسرع شريف ينزل الدرج إلى باب جانبي ، وبدلاً من أن يبعث في طلب توفيق ، استقل عربته وذهب إليه بنفسه .

وكان توفيق يقيم في ذلك الوقت في قصر الإسماعيلية على مقربة من كوبرى قصر النيل على مسافة نصف ميل من عابدين . وقد تحقق أمل كان يراود شابًا في السادسة والعشرين من عمره كان حتى ذلك الوقت يعيش مع أسرته في هدوء ، دون أية مظاهر تذكر ، والذي كان يتسم بتواضع يصل إلى حد الإحجام والحياء .

وفي الوقت الذي أرسلت فيه البرقية من القسطنطينية إلى إسماعيل باشا

بعث برسالة أخرى إلى توفيق تبلغه بتعيينه في مركز خديوى بدلاً من أبيه وتطلب منه إدارة الحكومة . ولم يكن هناك أي تردد أو تأخير في تسليم هذه الرسالة . وقد شجع الأمل في الحصول على مكافأة حامل هذه الأنباء السارة على تسليمها على وجه السرعة .

ويقال إن عامل التلغراف الذي كان في انتظار البرقية التي أعلنت وفاة سعيد باشا سنة ١٨٦٣ وحملها ليلاً إلى إسماعيل خلفه كوفىء بترقية عاجلة تبعتها ترقيات أخرى حتى وصل إلى لقب باشا .

وعند وصول شريف إلى قصر توفيق وجده على أهبة الاستعداد لدخول عربته التي كانت في الانتظار ، وعلى وشك أن يتوجه إلى عابدين ، وجلس شريف بجانبه ، وبينما كانا يهمان بالخروج من بوابة القصر ، سلمه توفيق الرسالة التي أخذ في قراءتها والعربة تنهب الأرض تجاه عابدين . وكانت كما يلي :

« من وزير تركيا الأعظم إلى محمد توفيق باشا :

إن رغبة جلالة السلطان هي ضمان وسائل التقدم والأمن في مصر التي تعتبر جزءًا لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانية . هذا وإن الامتيازات التي منحت لحكومة هذه الولاية تثبت تمامًا حسن نيتنا تجاهها . ولكن العقبات الداخلية والخارجية التي نجمت لبعض الوقت تحتم علينا عزل والدكم الجليل إسماعيل باشا .

وإن مقدرتك وفطنتك المعترف بهما من جلالة سلطان تركيا تنبئان بأنك ستتمكن من حكم هذه الولاية حكمًا سليمًا وتنشر الأمن والهدوء في ربوعها تحقيقًا لرغبة جلالة السلطان . وبناء عليه ، فقد عينك جلالته بقرار إمبراطورى خديويًا على مصر ، وسيسلم إليك الفرمان الإمبراطورى حسب المراسيم المعتادة .

ولقد طلب من إسماعيل باشا في رسالة أخرى أن يتنحى عن أعمال الحكومة . وعليه فبمجرد تسلم هذه الرسالة ينبغي عليك أن تجمع العلماء والموظفين وأعيان البلاد ومستخدمى الحكومة لتبلغهم نصوص الفرمان الإمبراطورى الخاص بتعيينكم حيث تبدأون بإدارة أعمال الحكومة .

وإن هذا المركز السامي لمكافأة على قدراتك ، وسيكون اعتلاؤك العرش إيذانًا ببدء النظام والتقدم اللذين سوف يسودان البلاد التي دعيت لإدارة حكومتها .

وإني لأتمنى لك نجاحًا عظيمًا وأهنئك باعتلائك العرش » .

« ٦ رجب سنة ١٢٩٦.

وعندما أعاد إليه شريف باشا الرسالة قال : أو سوف تتخذ سموكم الإجراءات اللازمة لإعلانك خديويًا في القلعة هذا المساء ؟ . فأومأ توفيق بالإيجاب .

وسرعان ما وصلت العربة إلى المدخل الكبير بعابدين حيث صعدا السلم الفخم فقابلهما إسماعيل باشا عند مدخل حجرة الاستقبال . فأخذ سموه يد إبنه ورفعها إلى شفتيه ، حسب العادة الشرقية المتبعة في إظهار الخضوع ، ثم قال : أحييك بصفتك أفندينا ، كما كان الأهالي يسمون الخديوى ، ثم قبله على كلتا وجنتيه قائلاً : « أتعشم ألا تنسى أننى والدك وحينئذ توجه على الفور إلى جناحه الخاص » .

وهكذا ، ألقيت جميع مسئوليات حكم مصر والسودان من البحر الأبيض المتوسط إلى بحيرات ألبرت وفكتوريا نيانزا على عاتق هذا الأمير الشاب ، فأصبح الحاكم المطلق على عشرة ملايين نسمة . كانت كلمته بالنسبة لهم تعتبر قانونًا . وسرعان ما أعفاه المهدى من مسئولية السودان ووسط أفريقيا ، وتولت إنجلترا وفرنسا مقاليد الجزء الأكبر من حكم مصر ، ولكن همومه وأعباءه أخذت تزداد نتيجة لذلك بدلاً من أن تقل .

الفصل الثاني والعشرون

تعيين توفيق باشا ورحيل إسماعيل

عقب تلك الأحداث بقليل اجتمع أعضاء الوزارة بالسراى حيث ظهر إسماعيل باشا أمامهم وقبل رسميًا اعتلاء ابنه عرش مصر ، ثم أرسلت مذكرات رسمية عاجلة إلى الممثلين السياسيين بشأن تغيير الحاكم في مصر مصحوبة بدعوتهم لمقابلة سمو توفيق باشا بعد ظهر ذلك اليوم بسراى الإسماعيلية ومرافقته إلى القلعة للاحتفال بإعلان تنصيبه خديويًا .

وفي الساعة المحددة وصلنا إلى السراى حيث استقبلنا سمو الخديوى وكان الجميع بملابسهم الرسمية عدا ممثل الولايات المتحدة الذي كان مضطرًا إلى الظهور في هذه المناسبة ، كما هو الحال في المناسبات السياسية الأخرى .. مرتديًا حلة بسيطة ، وقد أدى افتقار أعضاء مجلس الكونجرس إلى المعلومات الخاصة بعادات الدول الأخرى ورغبتهم في تطبيق أفكارهم بالإكراه على العالم كله إلى حرمان ممثليهم في الدول الأجنبية من حق ارتداء الملابس الرسمية التي تقضي بها العادات الدبلوماسية العالمية .

وانضم إلينا بعد ذلك في القصر قضاة المحاكم الجديدة أو المحكمة الدولية الذين كانوا موجودين في القاهرة . وكانوا يرتدون ملابسهم الرسمية التي كانت تتكون من الطربوش الأحمر والرداء الاستامبولي ، (وهو عبارة عن

معطف ذى صف واحد بياقة منتصبة) ، ثم وشاح قرمزي عريض تنتهى أطرافه بشرابات ذهبية اللون ، وكان الوشاح يلتف فوق الكتف الأيسر ومثبتًا عند الخصر الأيمن . وقد وضعوا على صدورهم دبوسًا كبيرًا قد حفر عليه بالنقش البارز الشمس البازغة وكتب عليه باللغة العربية بالطلاء الأسود الكلمات الآتية : « العدل أساس الملك » . وكان الخديوى الجديد وأخواه (الأمير حسين والأمير حسن) ، وأعضاء الوزارة ، وموظفو البلاط ، وكبار الضباط يرتدون ملابس زاهية ، وكان العلماء والقضاة الأهليون وغيرهم من الأعيان في ملابسهم الوطنية الفضفاضة .

وقد غادر الخديوى السراى في عربة صغيرة في رفقة أخويه وشريف باشا . وسارت في أعقابهم عربات القناصل العامين والقضاة يتبعهم موكب طويل من الأوروبيين وقليل من الأهالي . وكانت القلعة تقع على مسافة تزيد على ميلين وعلى مرتفع في أقصى الجنوب الشرقي من المدينة وكانت جماعات السوارى محتشدة على جانبي الشارع المؤدي إلى السراى ، كما اصطف بعض الجنود على مسافة طويلة قبل الوصول إلى القلعة .

ولم تذع الأنباء الخاصة بتبديل الحكومة على الجمهور حتى الساعة الثانية بعد الظهر . وسرعان ما انتشرت الأخبار واشتد الزحام عند نهاية الطريق حتى أن الجند لم يستطيعوا إفساح الطريق إلا بصعوبة . وحينما كنا نرتقى ذلك التل المرتفع في تؤدة عن طريق ممر ضيق يحوطه جدران سميكة على الجانبين ، أطلق مائة مدفع وواحد معلنة للجمهور بدء حكم جديد والنهاية المحزنة لعهد إسماعيل باشا الذي بدأ بداية زاهرة منذ أكثر من ستة عشر عامًا .

وعندما وصلنا القمة شاهدنا المدينة ممتدة أمامنا بحدائقها العديدة ، وأسقفها المنبسطة ، ومداخلها الممتدة ، ومقابر المماليك والسلاطين والخلفاء والباشوات والبكوات التاريخية ، ومساجدها العديدة بقبابها ومآذنها . وكانت صورة فريدة رائعة لمدينة شاسعة تشمل حوالي نصف مليون من السكان .

ويجرى في الجهة الغربية من المدينة نهر النيل تمتد وراءه الحقول الخضراء ، وفي الجانب الآخر من الوادى توجد الأهرامات وجبال صحراء ليبيا . وكان أمامنا مباشرة مساجد وقصور القلعة محوطة برمال جبال المقطم الصفراء .

وقد شيد صلاح الدين هذه القلعة – وهو مؤسس أسرة الأكراد في مصر عام ١١٦٦ – من أحجار أخذت من أهرام الجيزة الصغيرة ، وتعتبر قليلة الأهمية في الوقت الحاضر من الوجهة الحربية ولا تعدو أن تكون أكثر من حصن دفاعي مؤقت ضد أي ثورة مفاجئة من أهالى المدينة .. ويؤدى إليها ممر ضيق قديم ذو أسوار عالية ، وكان هذا الممر مسرحًا للمآسي الشنيعة التي حدثت في أول مارس سنة ١٨١١ حيث ذبح فيه أكثر من أربعمائة من المماليك بيد جنود محمد على ، أصبح على أثرها الحاكم المطلق لمصر .

وكان المماليك عبيدًا في الأصل . كما يدل عليه اسمهم ، يدربون كجنود ، ويكونون الحرس الخاص للسلاطين . وفي عام ١٢٥٠ اغتصبوا عرش مصر وكونوا أسرة مالكة ، وحكموا البلاد مائتين وخمسين عامًا . وأصبح هؤلاء الذين كانوا عبيدًا سلاطين حاكمين . وفي سنة ١٥١٧ غزا الأتراك البلاد وأخضعوا البكوات المماليك ، وأنزلوهم إلى مرتبة الأمراء الصغار ، فأصبح البكوات حكامًا للمديريات ، ولكن الباشوات الذين وعدهم البكوات بالولاء لهم أرسلوا لحكم البلاد جميعًا . وعلى كل فقد أصبحت سلطة الباشوات اسمية فقط ، إذ أن البكوات كانت لهم السلطة التامة على المديريات ، رغم أنهم كانوا يدفعون الجزية للباشوات ، وفي بعض الأحيان كان البكوات يقومون بثورات ويصبحون شبه مستقلين عن الحكومة العثمانية .

وكان هذا هو حال البلاد عندما أصبح محمد على حاكمًا عليها ، أو الوالي . وكون البكوات المماليك طبقة من الأعياتن كانت تحكم البلاد في الواقع ، ولم تك سلطة الأتراك إلا اسمية فقط .

ووجد محمد على أنه لا يستطيع عمل شيء دون رضاهم . فلما مل هذه

السلطة المقيدة له فكر في القضاء عليهم قضاء مبرمًا . وحينئذ قام بعمل الترتيبات اللازمة لهذا الغرض ، ثم دعا كل المماليك في مصر إلى حفلة استقبال كبيرة في قصره بالقلعة .

وكانت دعوة الوالي تعتبر دائمًا أمرًا ، ولما كان المماليك يشكون في نواياه ، لبوا دعوته عن طيب خاطر . وحينما انتهى الحفل ، دعاهم للانضمام إلى موكب يسير في أرجاء المدينة ، فوافقوا على الفور . وقد تراءى لهم أنهم حين يمتطون صهوة خيولهم العربية المزركشة سوف يظهرون بمظهر العظمة ، لا يسر منظرهم الجمهور فحسب بل يبعث أيضًا في نفوسهم الهيبة من سطوة أمراء المماليك .

وحينما دخل الجميع الممر الضيق محوطين بصفوف من جنود الباشوات كحرس شرف على كلا الجانبين ، أمر الباشا بإغلاق البوابات الكبيرة خلفهم ، كما أمر بإغلاق تلك البوابات التي تقع عند سفح التل حيث حصرهم بين الأسوار العالية . وصدر الأمر ، فانقضت القوات عليهم ، وقتلوا عن آخرهم ، وكان عددهم يتراوح بين أربعمائة وخمسمائة تقريبًا . ولم ينج منهم إلا واحد كان قد وصل متأخرًا إلى القلعة فلم يتسن له الدخول قبل أن تغلق البوابة السفلية . وحينما سمع الضوضاء بالداخل فر هاربًا على جواده السريع إلى سوريا . وهكذا بضربة واحدة ، وهي أنجح الضربات في التاريخ ، أبيد عدد كبير من الأرستقراطيين الذين حكموا البلاد ما يربو على خمسة قرون . وبهذه الوسيلة استتب الأمر لمحمد على الذي كان ابن تاجر دخان من قولة ، وكان يبلغ من العمر ثلاثة وأربعين عامًا . وغالبًا ما يطلق عليه اسم الجد الأكبر لتوفيق الذي كنا بصدد تنصيبه خديويًا على مصر . والواقع لم يكن إسماعيل إلا ابنه من نسل محمد على ، ذلك أن إبراهيم باشا والد إسماعيل الذي كان قائدًا عظيمًا ، والذى خلف محمد على في حكم مصر . لم يكن سوى ابنه بالتبني ، بل كان في الواقع ابن إحدى زوجات محمد على من زوج سابق ، وولد في تركيا .

والقلعة عبارة عن مكان فسيح يكفى لإقامة مدينة صغيرة ، ويوجد بها عدة مساجد عتيقة ، وقصر كبير جدًّا ، كان يستخدم حينما كانت في مصر مكاتب لنظارة الحربية . أما القصر الذي ابتناه محمد على فقد كان متوسط الحجم ويستخدم للاحتفالات ، وهذا هو القصر الذي كان يتجه إلينا موكبنا .

وكانت العادة تقضي بإقامة احتفال رسمي عند وصول الفرمان . ولذا كان احتفالاً صغيرًا يتكون أساسًا من قراءة الرسالة الإمبراطورية أمام الوزراء والعلماء وكبار الموظفين والأعيان ومستخدمى الحكومة ، ثم استقبال الشخصيات الهامة في البلاد من أجانب ووطنيين .

وقد استقبلت الهيئات الدبلوماسية والقنصلية أولاً . وكان الخديوى الشاب وإخوته والوزراء جالسين في غرفة استقبال فسيحة . وعند دخولنا وقف سموه ، وتقدم لاستقبالنا .

وألقى عميد السلك السياسي خطابًا موجزًا باللغة الفرنسية بالنيابة عن نفسه وعن زملائه ، ورد عليه الخديوى باللغة نفسها .

ثم جلسنا ندخن ، ونشرب القهوة ، وتبادلنا بضع كلمات ، ثم استأذنا في الإنصراف . ثم تقدم القضاة بعد ذلك ثم الهيئات المدنية والدينية والعسكرية المختلفة يقدمون ولاءهم لسلطانهم الجديد ، وقد انبطح عدد كبير منهم في حضرته ، ولم يتقدم لأخذ القهوة أو الغلايين سوى الممثلين الدبلوماسيين .

وكان إسماعيل في ذلك الوقت في قصر عابدين ، فتوجهت من القلعة مباشرة لزيارته ، وقد أكون القنصل العام الوحيد الذي فعل ذلك . وكان مركز الصداقة التي بيننا إبان المشاكل التي لاقاها سموه يسمح لي بأن أفعل ما لم يستطع غيرى من القناصل العامين الآخرين الذين يمثلون الدول الكبرى أن يفعله ، فيما عدا ممثل روسيا .

وتحدث سموه بصراحة عن الموقف ، وقال إنه ينبغى عليه أن يبحر يوم الأحد أو الاثنين القادم ويتوجه مباشرة إلى القسطنطينية حيث يتوقع أن يقضي بقية أيامه . ولما كنت أعلم أنه تربى في فرنسا وأنه يحب المدنية الأوربية فقد تجاسرت بأن أقترح عليه بأن دولة أوربية خلاف تركيا قد تكون أكثر ملائمة له . فأجاب قائلاً : « نعم ، قد تكون أكثر ملائمة لي شخصيًا ، أما بالنسبة لعائلتى ، وبالنسبة لعاداتنا ، فإن هذا لن يكون ملائمًا ، بل سيكون مستحيلاً » .

وحينما كنت أستأذن من سموه في أثناء زياراتي السابقة ، كان يصطحبنى حتى باب غرفة الاستقبال فقط . وفي هذه المناسبة رافقنى ، وهو يتحدث بلا انقطاع ، خلال الصالة إلى رأس السلم وشرع في النزول معي قبل أن أتحقق من غرضه ، ولم أسمح له بالسير أبعد من هذا . واستجابة لعدم موافقتي قال، وهو يهز على يدي ونحن نفترق : « لم أعد خديوى » .

وكان يقدر عبارات المجاملة ،وقد أراد أن يتنازل عن كل حقوقه التي كان يتمتع بها إبان سيادته عن طريق مرافقته لي .

وبعد ذلك بيومين ، أي يوم السبت ، قمت بزيارة سموه مرة أخرى حيث أخبرني أن السلطان رفض التصريح له بالذهاب إلى القسطنطينية . وكان يشعر بخيبة أمل كبيرة ، ولكنه قال إنه ينبغي عليه أن يغادر القاهرة صباح يوم الإثنين وأن يغادر الإسكندرية مساء ذلك اليوم . وفي خلال أربع وعشرين ساعة من تنازله عن العرش زاره القنصل الفرنسي العام لكي يستفسر عن ميعاد رحيله ، وهو يتعلل بأنه يود أن يصدر الأوامر إلى السفن الحربية الفرنسية الراسية في ميناء الإسكندرية لكي تؤدى له التحية التي تليق بمقام الملوك عند سفرهم .

وفي مساء يوم السبت زاره مرة أخرى مع القائم بأعمال القنصل العام الإنجليزي ، خشية أن يكون هناك بعض التأخير ، كما زارا الخديوى الشاب وأصرا على أن يغادر إسماعيل البلاد فورًا . وقد طلبت الدولتان كذلك أن

يغادر الأميران حسين وحسن البلاد ، كما أخبراني بذلك . وهكذا طلب من الخديوى عن طريق أولياء أمره المسيحيين ، أن يقوم لا بنفى أبيه فحسب ، بل أخويه كذلك اللذين كانا في سنه نفسها واللذين لم يشك فيهما أحد . وكان قرار النفي هو تقريبًا أول قرار رسمى يصدره . وبعد اعتزال العرش بأربعة أيام أبحر المنفيون من الإسكندرية مع عائلاتهم إلى مكان مجهول .

ولم يكن هناك أي شعور بالابتهاج في مصر بسبب تبديل الحكومة ، بل بعض آثار العطف والاحترام للحاكم المخلوع . وعلى الرغم من العادة الشرقية بالتخلى عن المخلوع وتركه لمصيره ، إلا أن قصر إسماعيل كان مزدحمًا – منذ يوم اعتزاله العرش – بالزائرين الذين وفدوا للتعبير عن مشاركتهم الوجدانية ، كما رافقه إلى المحطة جماهير غفيرة من الناس . وهناك كان الفراق بين أفراد العائلة منظرًا محزنًا ، فقد احتضن الخديوى الشاب والده وأخويه ، واغرورقت عيون المشاهدين بالدموع . وكان الأب هو الوحيد الذي استطاع أن يتمالك عواطفه . وكان اللقاء الأخير مع ولده الذي ضحى من أجل ضمان اعتلائه العرش بمبالغ باهظة هي قيمة الهدايا التي قدمها للسلطان ورجال بلاطه .

وكانت هناك حشود غفيرة على طول الطريق إلى الإسكندرية ، وكلها تبدى عطفها واحترامها . وقد بلغ الازدحام أشده في الإسكندرية حتى اضطر الخديوى أن يصل إلى السفينة عن طريق غير متوقع .

وأطلقت السفن الحربية الراسية في الميناء التحية الملكية المعتادة ، وصعد عدد كبير من الناس على ظهر الباخرة يودعونه ، فاستقبلهم سموه بكل ود وهدوء . وكان يودع الواحد تلو الآخر بأن يصافحه ويقول كلمة رقيقة إلى الأشخاص الذين كان بينه وبينهم صداقة ، وبين كل حين كان يعانق أحد الأصدقاء القدامى المخلصين ، كما هي العادة المتبعة في الشرق .

وقد وقفت قليلاً ، على سطح الباخرة ، أتحدث إلى الأميرين ، وأنا أشاهد البعض يقبل يد الخديوى السابق ، والآخرين يقبلون ثيابه ، بينما كان ينحنى له

عدد كبير باحترام بالغ . وهكذا ودع الواحد بعد الآخر ، لمدى أكثر من ساعتين ، أفندينا السابق الوداع الأخير . وحان وقت إبحار السفينة فتحركت المحروسة – التي كانت باخرة سموه المفضلة السريعة إبان سطوته ، والتي أرسلت لكي تصحبه وعائلته إلى منفاه – بعيدًا عن الميناء وسط دوى المدافع من جديد .

وسرعان ما بلغتنا أنباء الابتهاج الذي سرى في باريس بسبب النصر الدبلوماسي و « الانتقام الرهيب » ، ولكن الشعور السائد في مصر كان شعور شعب مغلوب على أمره افترق عن حاكمه بناء على أوامر الأجانب المبغضين .

وقد فكر الفرنسيون في تدعيم سلطانهم المضمحل في الشرق عن طريق هذا العمل ، ولكنهم كانوا يمهدون الطريق لكي يفقدوا ما كتب له البقاء رغم أنف سياستهم الرديئة ، وعن طريق هذه السياسة تكدست ثروات أصحاب السندات ، ولكن الأمة تأثرت لا في هيبتها فحسب ، بل من الناحية التجارية بدرجة لا تتناسب مطلقًا مع المكاسب التي أحرزوها .

ووصل الخديوى إلى نابولى أولاً ، وحينما توقفت بتلك المدينة بعد ذلك بشهر ، وجدت سموه وعائلته ما زالوا على سطح الباخرة لا يعرفون مستقرهم بعد ، وقد زرته بعد ذلك بسنتين في « فافوريتا » ، وهو أحد القصور الملكية ، ويقع على خليج نابولى عند سفح بركان فيزوف وكان ملك إيطاليا قد منحه هذا القصر ليقيم فيه . وإذا صحت الإشاعات ، فإن هذا الصنيع لم يكن إلا مقابل جزء يسير من المبالغ الهائلة التي أقرضها الخديوى شخصيًا إلى والد ملك إيطاليا ، فيكتور عمانويل ، والتي لم يقم هذا الملك بتسديدها .

وفي هذه المرة ، بدأ التأثر البالغ على الخديوى لزيارتي ، فعانقنى بالطريقة الشرقية الصحيحة وهو يقبلني على كلتا وجنتي ، وبدأت الدموع تطفر من عينيه ، وهو واقف لم يزل واضعًا يده على كتفي . وكان شانئوه يصفون ترحيبه ووده البالغ اللذين كان يظهرهما ويفتن بهما قلوب زائريه حينما كان

خديويًّا على أنهما مجرد « حركات مسرحية » الغرض منها إدخال السرور على الزائرين دون أن يكون لها أساس من الإخلاص أو الود الحقيقى . ومما لاشك فيه أنه كان يملك موهبة فذة لإدخال السرور والبهجة على الناس ، وليس ببعيد عن الاحتمال أنه كان يستخدم هذه الموهبة في بعض الأوقات لمجرد الحصول على النتائج المرجوة . ولكن من معرفتى الشخصية لأخلاقه فإننى أعتقد أنه إلى جانب ذلك كوّن صداقات قوية كان مخلصًا لها بوجه عام .

وقد أمضيت معه بالقصر حوالى ساعة أو ساعتين أتحدث معه عن بعض الشئون المصرية ، وعند عودتى إلى نابولى ، سارت عربة الأميرين حسين وحسن ، في أعقاب عربتي لكي يردا الزيارة .

وفي خريف عام ١٨٨١ تناولت طعام الإفطار مع الخديوى في ميلانو وكذلك في شتاء عام ١٨٨٣-١٨٨٢ في باريس . وكان حاضرًا في المرة الأخيرة الجنرال ستون عند عودته من مصر بعد خدمة دامت حوالى عشر سنوات ، وكان الإنجليز قد استولوا على البلاد وأصروا على تقاعد الجنرال مع أن الخديوى الشاب كان يفضل بقاءه .

وحينما شاهدت إسماعيل آخر مرة في باريس ، كان قد بدل طربوشه بقبعة حريرية طويلة ، وظهر بمظهر الأوروبيين . وقد أقام في قصر « فافوريتا » حتى عام ١٨٨٨ حينما سمح له بالإقامة في القسطنطينية . وقد أصبح بعمله هذا أسيرًا بالفعل للسلطان عبد الحميد . خصمه العتيق ، ولم يكن في مقدوره بعد ذلك أن يبارح المدينة دون إذن خاص من جلالة السلطان ، حتى يحجز في منزله لبعض الوقت . وقبل وفاته بمدة وجيزة ، حينما رأى حالته الصحية تتدهور ، سعى للحصول على تصريح من السلطان للعودة إلى مصر ليقضي فيها البقية الباقية من حياته في مناخها الجميل ، وأن يموت في بلاده ، ولكن هؤلاء الذين كانوا يتحكمون في مصيرها رفضوا أن يؤدوا له هذا الصنيع .

وبعد وفاته في مارس سنة ١٨٩٥ سمحوا له بنقل جثمانه إلى القاهرة

ودفن بمقابر العائلة الخديوية . وهكذا توارى بطل المأساة المصرية التي استمرت من عام ١٨٧٥ إلى عام ١٨٧٩. وكان قد سبقه ولداه توفيق وحسن وشريف باشا واللورد فيفيان ، وغيرهم . وتوارى كذلك كبار الشخصيات الأمريكية التي عملت في خدمة الخديوى (الجنرال ستون والجنرال لورنج والكولونيل كولستون والكولونيل فيلد ، وكثير غيرهم) . والقول نفسه ينطبق على الأمريكيين البارزين الذين زاروا أرض النيل في هذه الحقبة ، والذين أكرم إسماعيل وفادتهم وهم : جرانت ، وشيرمان ، ووشبرن ، ومانيارد ، ولويس .

الفصل الثالث والعشرون

إسماعيل باشا وعهده

تختلف الآراء بالنسبة لمزايا وعيوب عهد إسماعيل باشا ، باختلاف مصادر المعلومات والمقاييس التي يحكم بها عليه . ولم يُمدح شخص بادىء الأمر بهذا الإفراط ثم ذُم بعد ذلك بهذا القدح مثلما حدث مع إسماعيل ، وحتى وقع في الضائقة المالية كان الأشخاص المحيطون به وكانت الصحف الأوربية من جميع الطبقات والشخصيات ذوى المراكز العالية يسرفون في مدح التطور الباهر الذي أحرزته مصر وتقدمها المطرد في عهد حاكمها المستنير التقدمي ، « نابليون الشرق » .

وعند زيارته لأوربا استقبل استقبال الملوك وأعدت له القصور الملكية في فلورنس وفيينا وبرلين وباريس ولندن ، وتنافس الأباطرة والملوك والملكات والأمراء في منحه ألقاب الشرف . ففي عام ١٨٦٧ منحته الملكة فكتوريا وسام الباث الأعظم ، وفي سنة ١٨٦٨ منحته وسام نجمة الهند الأعظم . وقد أرسل اللورد نابير إلى القاهرة لكي يقدم إلى سموه هذا النيشان الأخير . وحينما تغيرت الأحوال المالية ، صوب نحوه متسلقوه من محررى الصحف نيران مدافعهم من التشهير والطعن .

وحينئذ أصبحت الأشياء التي عملها من أجل تقدم التعليم ، ومن أجل المدنية الحديثة . وأصبح التحسن المادي للبلاد الذي أثار من قبل مثل هذا التقريظ والمدح اللذين لا حد لهما ينسب إلى بواعث الأنانية ، فقد قام بهذه الأعمال إما لإثراء نفسه ، أو – على حد تعبير الذين يحطون من قدره – :

« لكي يذر الرماد في عيون الأوروبيين » . وكل ما كان جديرًا في الماضي بأطيب الثناء أصبح دليلاً على الأنانية والخداع والدهاء الوضيع ، أو غير هذا من المشاعر الدنيئة .

ومعظم مدوني تاريخ هذه الحقبة من الإنجليز ، وقد كتب الكثيرون منهم بشيء ولا يجدون عذرًا سوى الادعاء بسوء الإدارة في عهد إسماعيل . وليس يعنيني الدفاع عن حكومته ، ولكن من العسير أن نبرر أعمال أي أمير شرقي بمقاييسنا عن مقومات الحكومة الصالحة .

ولو أن فرنسا وإنجلترا أرادتا أن تخلعا أمير أفغانستان أو شاه إيران أو السلطان ، لما وجدتا صعوبة في العثور على عذرهما بوجود حكومة فاسدة ، ثم يدخلا في روع العالم كله صدق هذه الحقيقة . وكل ما أبغي قوله هو أن حكومة الخديوى كانت أفضل بلا شك من كل تلك الحكومات ، وكان الناس يحكمون حكمًا عرفيًا ، وبقسوة ، طبقًا لمعاييرنا ، كما كانت تحكم كل البلاد الشرقية ، كانت هناك سجون قليلة . وفي حالات كثيرة كان يحل « الكرباج » و « المد » محل عقوبة السجن .

ولكن إلى جانب هذا لم يكن ثمة مظاهرات أو اغتيالات للمسيحيين كما كان يحدث في بقية أجزاء الإمبراطورية العثمانية ، وهؤلاء المسيحيون الذين اغتيلوا يعدون بالآلاف ، والمذابح التي حدثت تبلغ عدد السنين الماضية . ومع ذلك ، كانت الدول التي تعرف باسم الدول المسيحية تتضامن دومًا فيما بينها لتأييد السلطان في الاحتفاظ بالسيطرة على جميع الدول التابعة له .

وكان المسيحي طوال حكم إسماعيل باشا يتمتع بكافة الحقوق والحرية والحياة ، شأن المسلم تمامًا . وكان الأجنبي ، مهما كانت جنسيته أو ديانته ، يستطيع أن يجوب خلال أراضيه ، من البحر إلى أواسط أفريقيا في أمان كما يجوب أنحاء أية دولة في العالم ، ولو أنه استمر خديويًا دون أن تحد من سلطته ، لاستمرت الأحوال نفسها ، ولما حدثت ثورات عام ١٨٨١-

١٨٨٢.. ولا حكم عرابي باشا . ولما قذفت الإسكندرية بالقنابل وخربت وأحرقت . ولما حدث كل ما تمخض عن ذلك من فظائع ، ولما اضطرت الحكومة المصرية أن تدفع تعويضًا قدره ٢٠٠ مليون دولار أضيفت إلى الدين الوطني .

ولما كانت هناك معركة « التل الكبير » التي ذبح فيها الأهالى العزل من السلاح ، ولما نجحت ثورة المهدى ، ولما هزم وقتل هكسي باشا في كردفان مع عشرة آلاف جندى من المصريين ، ولما توالت الهزائم المنكرة والمذابح في سواكن ، ولما أرسلت الحملة المشئومة إلى أعالى النيل لإنقاذ غوردون باشا دون ضرورة ، ولما فقدت مصر والسودان وغيرهما من الولايات الواقعة في أواسط أفريقيا ، ولما أرسلت حملة من الجنود المصريين والإنجليز تكلفت مصاريف باهظة تحملتها الخزينة المصرية ، لاسترداد الأقاليم الضائعة .

كل هذه الأحداث بخسائرها التي ترتب عليها من ضياع آلاف الضحايا وملايين الدولارات كانت النتيجة المباشرة لعزل حاكم قوى كفؤ ووضع مقاليد السلطة في أيدى وكلاء بنوك باريس ولندن غير المسئولين وكان هذا العزل نتيجة لموافقة اللورد بيكر نزفيلد على الانضمام لفرنسا في محاولة لابتزاز فوائد باهظة على قروض لم تحصل منها الحكومة المصرية فعلاً إلا على ٥٠ أو ٦٠. وقد قال كاتب إنجليزي في هذا الموضوع : « هذا التدخل العنيف من جانب هاتين الدولتين هو قوة غاشمة خرجت على القانون العام من أجل أحط نزعة يمكن أن تتأثر بها الحكومات المسيحية » . ثم أضاف قائلاً : « مثل هذا الابتعاد عن كل مبدأ اتبعته السياسة الإنجليزية في الماضي لا يمكن إلا أن يكون خطيرًا » .

كان إسماعيل باشا في كثير من الوجوه رجلاً جديرًا بالاعتبار ، ولقد فاق غيره من حكام الشرق في النشاط والمقدرة الإدارية والذكاء ، فعلى يده تقدمت مصر في مضمار المدنية الحديثة إبان الست عشرة سنة من حكمه أكثر مما

تقدمت في الخمسمائة سنة السابقة على حكمه . ووصلت مصر في رقيها إلى درجة تفوق ما وصلت إليه أثناء الإمبراطورية العثمانية منذ أيام عثمان من حيث تقدم التعليم والمحافظة على الآثار . وفي الاكتشافات الواسعة – العلمية والجغرافية – وفي إنشاء السكك الحديدية وخطوط البرق ، وفي ملاحة السفن ، واستصلاح الأراضي الصحراوية .

وعندما بدأ إسماعيل حكمه كان في مصر ٢٤٦ ميلاً من السكة الحديد فأضاف إليها ٩٦٠ ميلاً بلغت تكاليفها ٦٠ مليونًا من الدولارات . وكان بها ٣٥٠ ميلاً من خطوط التلغراف أضاف إليها ما يزيد على ٥٦٠٠ ميل . وكان بها ٤٫٠٥٢٫٠٠٠ فدان من الأراضي الزراعية أضاف إليها ١٫٣٧٠٫٠٠٠ فدان إبان حكمه ، أي بزيادة مقدارها ٣٣. وكان بها قنوات ري يبلغ طولها حوالى ٤٤٫٠٠٠ ميل أضاف إليها ٨٤٠٠ ميل . وقد بلغت تكاليف القناة الكبيرة الممتدة من القاهرة إلى الإسماعيلية حوالى ٥٠٫٠٠٠٫٠٠٠ من الفرنكات ، كما أنشأ مينائي الإسكندرية والسويس ، وبلغت تكاليفهما 20 مليونًا من الدولارات .

كما أنشأ أحواضًا للسفن وجسورًا ومصانع ضخمة للسكر وأقام بعض المنارات على الشواطىء . كما بدأ نظامًا رائعًا للإنارة على جميع شواطىء مصر . واشترى سفنًا بخارية ، وأنشأ خطوط ملاحة منتظمة في البحرين الأبيض والأحمر . وقد قام ببناء حوض جاف كبير في فرنسا ثم نقله إلى الإسكندرية . وزادت قيمة الصادرات السنوية إبان حكمه إلى ثلاثة أمثال ما كانت عليه ، أي من ٤٫٤٥٤٫٠٠٠ جنيه استرليني إلى ١٣٫٨١٠٫٠٠٠ جنيهات .

أما ممتلكاته فقد أضاف إليها مساحات شاسعة من البلاد في وسط أفريقيا على شواطىء البحر الأحمر ، بما فيها سواكن ومصوع وزيلع .

وقد أمر بمسح هذه البلاد ، ووضع خريطة لها ، ثم أقام فيها حكومات

كان يخشى بأسها في كل مكان . هذه الأراضي الشاسعة مضافًا إليها السودان القديم هي ما يطلق عليه الإنجليز الآن بكل فخر ، « الإمبراطورية البريطانية الجديدة في السودان » ، وكانت كلها تحت إدارة الخديوى في الوقت الذي عزل فيه .

وكانت القاهرة في أول حكمه مدينة شرقية تمامًا ، ذلك أن شوارعها كانت ضيقة لا تكفى إلا لمرور جمل واحد أو حصان واحد ، كما أنها كانت غير مضاءة . وكل إنسان كان يخرج إلى الشوارع ليلاً يحمل مشعله ويتقدمه حامل شعلة . ولم تكن المياه متوفرة إلا فيما عدا قناة تخترق المدينة . كانت تحمل منها المياه في قرب . وعندما كانت تجف القناة ، وكان ذلك بضعة شهور من كل عام ، كانت المياه تؤخذ من خزانات تحفظ فيها المياه أيام فيضان النيل . وقد أعد إسماعيل باشا نظامًا لتوزيع الغاز والمياه في القاهرة والإسكندرية . كما أنه أضاف عدة شوارع إلى مدينة القاهرة إلى جانب عدة متنزهات ، وهكذا خلق مدينة أوروبية جميلة مزودة بوسائل الراحة الحديثة إلى جانب المدينة القديمة .

وتجنى مصر الآن ثمار هذه الإصلاحات الداخلية ، إلى جانب الزيادة في رقعة الأراضي المنزرعة ، وخطوط التلغراف ، والموانىء والأحواض الجافة والمنارات .

وألغى إسماعيل باشا كذلك تجارة الرقيق في جميع ممتلكاته وجعل من ذلك العمل الشنيع ، وهو تشويه الصبيان الملونين جريمة يعاقب عليها بالإعدام . وأوقف استيراد الرقيق ، كما صرف مبلغًا كبيرًا للقضاء على تجارة الرقيق بالسودان وغيره من أقاليم وسط أفريقيا ، ولكي يمنع نقل العبيد عبر البحر الأحمر حيث كان يأخذهم التجار إلى تركيا وبلاد فارس .

كما سن قانونًا ينص على أن بيع العبيد ، سواء البيض منهم أو السود ، من أسرة ألى أسرة يتوقف في أغسطس سنة ١٨٨٤. ولما كان من النادر أن يولد

العبيد في مصر ، قضي هذا على الرق فيها بسرعة . وسمح لكل من أنجاله بزوجة واحدة لكي يضرب مثالًا لإيقاف تعدد الزوجات وتوقف استيراد الجوارى البيض .

وقبل عهده ، كان يوجد بالقاهرة سوق حرة للرقيق حيث كانت تباع فيها الجوارى السود والبيض ، وكان الزنوج يؤسرون في وسط أفريقيا ثم ينقلون إلى أعالى النيل أو عبر البحر الأحمر ويباعون في أسواق الرقيق .

وقبل اعتزاله العرش بوقت قصير ، عقدت مع شريف باشا ، بموافقة الخديوى ، معاهدة تنص من جانب الخديوى على إلغاء تجارة الرقيق . وقد تم هذا بناء على اتفاق شفوي بشأن هذا الموضوع بينه وبين حكومة واشنطون . ولقد بعثت إلى مستر افارتس بمسودة من المعاهدة الإنجليزية والفرنسية ، ولكن نتيجة لتغيير الخديوى والإدارة بالإنجليزية والفرنسية ، لم تنفذ هذه المعاهدة قط .

وقد اشتملت هذه الاتفاقية على نص يبيح لطرادات الولايات المتحدة أن تزور وتفتش وتعتقل أي سفينة مصرية تعمل في تجارة الرقيق أو يشتبه في أنها تستخدم لهذا الغرض ، وذلك لتسليمها إلى أقرب سلطة مصرية لمحاكمتها .

وإنا لنحتاج إلى مجلد لوصف تاريخ تطور التعليم خلال حكم إسماعيل ، ففي نهاية عهد سلفه سعيد باشا كان عدد المدارس العامة ١٨٥ مدرسة فقط . ولكن هذا العدد زاد في حكم إسماعيل إلى ١٧٨٤. وكان في هذه المدارس ما بين ثمانين ألفًا ومائة ألف طالب ، وهي نسبة مئوية من مجموع الصبيان في البلاد تبلغ ثمانية أضعاف النسبة المئوية من طلبة المدارس العامة في الإمبراطورية الروسية ، وثلاثة أرباع النسبة المئوية في إيطاليا .

وفي السنة الأخيرة من حكم سعيد باشا كان المبلغ الذي خصصته الحكومة للتعليم هو ٣٠٠٠٠ دولار ، وقد زاد اسماعيل هذا المبلغ في عام ١٨٧٢ إلى

٤٠٠٫٠٠٠ دولار ، وخفض هذا المبلغ عام ١٨٨٢ في عهد حملة السندات إلى ٢٠٠٫٠٠٠ دولار ، وهو يساوى تمامًا مجموع مرتبات اثنى عشر أوروبيًا من المراقبين الذين فرضوا على البلاد فرضًا . والعرب يعرفون بشغفهم للعلم . وهذا الميل لتحصيل المعلومات معروف في العالم أجمع ، وكان تقدمهم في هذا المضمار في عهد إسماعيل ليس له نظير . كما أنهم على درجة كبيرة من الثقافة ، وقد بذل إسماعيل محاولات كبيرة لرفع مستوى التعليم ، وكان عليه أن يتغلب على الأمية المتفشية بين جماهير الشعب .

وقد صادفته عقبات ضخمة في سائر البلاد الأخرى إلى جانب التعليم . ونحن معشر الغربيين لا يمكننا أن ندرك المغزى التام من وراء هذه الإصلاحات والابتكارات ، ذلك أن الحاكم الذي يحاول أن يطعم المدنية الشرقية القديمة بالمدنية الحديثة لا يجد أي عون . ولذا ينبغى عليه ألا يبتكر ويوجه كل تغيير بل عليه في الواقع أن يفرضه بقوة سلطانه .

وكانت شخصية الخديوى شخصية محببة ، ويشهد بذلك كل موظفى قصوره من أجانب ووطنيين ، وقد أوقف العقوبات الصارمة التى كانت متبعة في مصر . فلم يعد هناك مصادرة ممتلكات ، أو حالات نفى ، ولم تنفذ إلا بضعة أحكام بالإعدام . ولقد سمعت بحالة إعدام واحدة طيلة الثلاث سنوات التي حكمها بعد وصولى ، بالإضافة إلى واحدة شاذة ، هي حالة وزير المالية ، إسماعيل صادق باشا . وفي الحكومات الشرقية المطلقة كان السلطان لابد أن يحل محل القاضي في كثير من الأحيان ، ولذا كان يحتمل وقوع بعض الظلم في بعض الحالات ، ولكن سجل إسماعيل باشا يعتبر ناصعًا من هذه الناحية إذا قارناه بسجل أي سلطان شرقي آخر . حتى الإنجليز أنفسهم لا يستطيعون أن يظهروا سجلًا أنصع من سجله في حكمهم للأقطار غير الإسلامية ، فهم لا يترددون في محاكمة الناس أو شنقهم ، أو ضربهم بالنار كلما اعتقدوا أن ذلك ضروري لتدعيم سيادتهم . وقد استخدموا بعض هذه الوسائل عند نزولهم إلى الإسكندرية بعد قذفها بالقنابل .

وبينما كانت مصر تسير بخطى متقدمة في كل ما يتعلق بالمدنية الحديثة (بما فيها رفاهية خلق دين وطني كبير اشتركت فيه معظم الدول الأوروبية على قدر طاقتها) ماذا كان يحدث في بقية أجزاء الإمبراطورية العثمانية ؟ وعلى الرغم من أن الدول الأوروبية كانت تحافظ على حكومة جلالة السلطان وتصونها من الانهيار . هل استخدمت قطرة مداد واحدة ، خلال تلك الحقبة ، في مدح التطورات المادية للبلاد أو تحسين حال سكان الممتلكات التى كان السلطان يحكمها ؟ كلا ، لم يكن هناك سوى سجل لصرخات الإنسانية المعذبة ، ومذابح الأرمن والبلغاريين ، وغيرهم من المسيحيين ، ومؤتمرات لفرض الإصلاحات بالقوة وتثبيت أقدام الأتراك . ولم يتوقف دين الدولة العثمانية عن الازدياد ، ليس إلى الحد الذي يمكن للحكومة أن تستدينه فحسب بل أكثر مما تحتمل تسديده . وفي مقابل هذا ، لم يكن في سجلها شيء تبديه اللهم إلا أحداث الاغتيالات والقتل .

ففي جميع أنحاء سوريا لم يكن ثمة ميناء واحد أو خط حديدي واحد ، ولا حتى طريق يصلح لمرور عربات المسافرين سوى الطريق الذي كان يمتد بين بيروت ودمشق . وكانت التجارة الداخلية للبلاد تنقل على ظهور البغال والجمال في طرق وعرة ملتوية لم تكن قد أصلحت لعدة قرون على الأقل . وكانت البواخر التي تبحر على طول الشاطىء تضطر إلى أن ترسو في عرض البحر ، لكي تنقل شحناتها وركابها إلى الشاطىء في قوارب صغيرة ، إذا كان الجو يسمح بذلك ، أما إذا كان الجو مكفهرًا لا يصلح لهذه العملية فتبحر دون أن ترسو .

وكان هناك في آسيا الصغرى كلها خط حديدى واحد ، قامت بإنشائه شركة إنجليزية لمسافة صغيرة إلى الداخل . أما الجزء الواقع من تركية في أوروبا فلم يستطع أن يظهر أي تقدم يذكر ، وكان البؤس ، والاضطهاد ، والظلم منتشرًا في كل مكان . ولكن رغم كل هذا كان السلطان يُرفع إلى مصاف إنسان رفيع المنزلة ، ويطلب من أجل الحكم الصالح ومن أجل رفاهية رعاياه

الأعزاء ، أن ينحى الخديوى الذي وقف عقبة في سبيل إطلاق أيدى هؤلاء الذين كانوا يضعون موارد مصر في جيوبهم . ولم يكن في وسعه إلا أن يرضخ للأمر .

ولقد عبر النائب الإنجليزي سير وليفريد ولسون عن هذه النتائج تعبيرً دقيقًا سنة ١٨٨٧ بقوله حينما كان يؤيد مشروع قرار قدم إلى البرلمان بشأن استدعاء القوات الإنجليزية في مصر فورًا : « لقد عملنا على زيادة دين مصر من ٩٠،٠٠٠،٠٠٠ جنيه إلى ١٠٠،٠٠٠،٠٠٠، وذبحنا عدة آلاف من المواطنين ، وكممنا المجلس الوطنى ، وضربنا المدينة الرئيسية للبلاد بالقنابل في ظرف غاية في الفظاعة ، ورفعنا قيمة الضرائب ، ونشرنا الدعارة والفجور في العاصمة ، وبذرنا بذور الشقاق بين الخديوى والشعب ، وسحقنا أول بوادر الاستقلال التي ظهرت في الأمم الشرقية منذ أجيال مضت » .

وينسب هؤلاء الذين يحاولون أن يبرروا عزل إسماعيل باشا بالقوة أسباب الأزمات المالية التي وقع فيها إلى إسرافه البالغ ، وعلى هذا الأساس نسجوا القصص الخيالية ، فأي بيت صيفي في الصحراء يصفونه بأنه أحد « قصور سموه الشامخة .

ـ ولم يكن هناك سوى مقرين بناهما إسماعيل يستحقان أن يطلق عليهما اسم قصور ، وقد كانت تكاليفهما لا تذكر بالنسبة لتكاليف القصور الملكية في أوروبا . وكانا مبنيين ، شأن غيرهما من المباني في القاهرة ، من الحجارة العادية الموضوعة في الملاط ، ومطليين بالجبس في الداخل والخارج ، وكان لهما أسقف مسطحة عادية من الأسمنت ولم تكن تكاليفهما مما لا تتناسب مع ثروة سموه قبل أن يصبح واليًا . وكانت حفلات الاستقبال والعشاء التي أقامها بعد وصولى إلى مصر قليلة العدد ، ولا تتسم بالإسراف . ومع هذا فإن أحد الكتاب الإنجليز الذي كان يدعى الأمانة والتحفظ في المعلومات التي وردت في كتابه أطلق عليها « حفلات الطرب » و « الولائم الفخمة » . وحسب

ما ورد في الصحف ، كانت حفلات الرقص وغيرها من أنواع التسلية التي أقامها خلفاؤه ، تحت إشراف المستشارين الأوروبيين ، تفوق في العدد والفخامة الحفلات التي كان يقيمها إسماعيل ، ومع ذلك لم يتهموا هؤلاء بالإسراف .

وحينما جاء المستر جوشن إلى مصر ، بكل ما يحيطه من مهابة عضو سابق من أعضاء إحدى الوزارات الإنجليزية ، لكي يواصل مشروع « إفساد المصريين » الذي بدأه منذ عدة سنوات خلت كعضو من أعضاء شركة فرهلنج – جوشن ، كانت إحدى التهم الخطيرة التي وجهها ضد الخديوى أنه كان يساعد في المحافظة على وجود المسرح بالقاهرة .

وكان هذا المسرح يموله إلى حد كبير الزائرون الأوروبيون والأمريكيون الذين جاءوا في الشتاء إلى مصر طلبًا للصحة أو المتعة . وتدير الحكومات الفرنسية والإنجليزية وغيرها من الحكومات الأوروبية دور الأوبرا والمسارح الرئيسية في مدنها أو تقدم لها مساعدة كبيرة . كما أن المسرح لا يزال موجودًا في القاهرة ، ولكن ما من نقد يوجه إليه الآن .

كل هذه الأنواع من الإسراف الظاهرى والتي كانت مادة غنية لمراسلى الصحف لعدة سنوات لصالح حملة السندات ، لا تفسر كثيرًا تلك المبالغ التي استدانها إسماعيل ، ولكن النفقات الباهظة غير الضرورية هي التي نجمت عن كرم الخديوى في تسلية ضيوفه من الأباطرة والملوك والأمراء ورجال حاشيتهم العديدين وسفرائهم ووزرائهم ومراسلى صحفهم الذين زاروا مصر أيام افتتاح قناة السويس .

وكان من بين هؤلاء الضيوف فرنسيس جوزيف إمبراطور النمسا ، والإمبراطورة يوجينى ، وولى عهد بروسيا ، وعدد وفير من سلالة الملوك والنبلاء . وإذا تدرجنا من هذه القائمة الطويلة من النبلاء إلى مراسلى صحف خاملة الذكر وعدد آخر من الشخصيات غير البارزة ، وجدنا أن عددا آخر يربو على ثلاثة آلاف أدرجت أسماؤهم من بين المدعوين عن طريق وساطة بعض

الرسميين . كل هؤلاء الزوار كانوا يستضافون في القصور والفنادق وبعضهم كان تحت تصرفه بواخر يستخدمونها في رحلات على النيل . لقد كان هذا إسرافًا أحمق وإظهارًا مبالغًا فيه للكرم الشرقي ، كان من الواجب أن تخصم نفقاته من ممتلكات الخديوى الخاصة .

ولقد ظن سموه حينئذ أن القناة التي ساهم في إنشائها إلى حد كبير ، سوف تكون العمل المجيد الذي يتوج أعماله . ولم يخطر بذهنه أنها سوف تؤدى إلى القضاء عليه وعلى مصر ، كما لم يخطر بباله أن الدولة التي لم تساعد في هذا المشروع والتي أعاقت العمل بقدر المستطاع هي التي سوف تجنى أرباحها التجارية الطائلة في النهاية ، وعن طريقها توسعت في فتوحاتها وزادت من سلطانها السياسي إلى حد كبير . ومن المحتمل أن دماثة خلق مسيو دلسبس وكرمه الشرقي الحاتمي هو الذي أدى به إلى هذا الإسراف الذي لا مبرر له . ومهما قيل عن أعمال مسيو دلسبس العظيمة ، فإن مما لاشك فيه أنه العبقرى الشرير لمصر ، وأن قناة السويس هي السبب الرئيسي في خرابها .

وقد احتفى إسماعيل كذلك بولى عهد إنجلترا وغيره من الشخصيات الملكية أو البارزة حفاوة لا تقل عن تلك الحفاوة التي قوبل بها المدعوون في حفل افتتاح قناة السويس . وقد أدت نفقات من هذا النوع إلى الاستدانة ، ولكنها لم تكن السبب في الأزمات المالية . ولكن السبب هو نفس السبب الذي يؤدى في كثير من الأحيان إلى إخفاق رجال الأعمال ، وهو محاولة القيام بأعمال كثيرة في وقت الرخاء سرعان ما يعقبها أزمات حين ينحسر المد .

ولقد اعتلى إسماعيل العرش سنة ١٨٦٣ في الوقت الذي كانت فيه أسعار القطن مرتفعة ، ذلك أن مصر كانت تنتج كميات كبيرة من هذه السلعة لعدة سنوات . وقد أدت هذه الأسعار المرتفعة ، إلى جانب الاعتقاد باستمرار الحرب في الولايات المتحدة ، إلى توسع كبير في هذا النوع من الزراعة . وفي سنة

١٨٦٤ بلغت قيمة صادرات مصر إلى ٧٢٠٠٠٠٠٠ دولار ، وهو حد لم يسبق له نظير . هذا الرخاء سبب اضطرابًا بالغًا بين جميع الطبقات وأدخل في روع الناس أفكارًا خيالية عن مناجم الثروة في تربة دلتا النيل ، فظن الناس أن مصر من الآن فصاعدا سوف تصبح أعظم دولة منتجة للقطن في العالم . حتى الفلاح العادي أصبح في مقدوره أن يتزوج مرة ثانية . وفقد كبار رجال الأعمال تحفظهم وجرفوا في تيار المضاربات المالية .. وتشبع الخديوى بهذه الروح السائدة وظن أن ثروة مصر لن ينضب لها معين ، خاصة وأنه نجح في كل مشروعاته السابقة .

وبعض الشرقيين يتسمون بعدم التبصر ، فمع نجاحهم وثرائهم تأتي المظاهر وحب الظهور . وكان الخديوى ، لسوء الطالع . يعرف أوروبا تمامًا ، فكان يحب عظمتها . ومع أفكاره العظيمة عن توسيع حدود مصر وتكوين إمبراطورية إفريقية على طراز المدنية الأوروبية بما فيها من خطوط حديدية عديدة وتسهيلات تلغرافية ، وموانىء ، وأحواض جافة ، وخطوط ملاحة ، وتعليم عام ، كانت تتملكه الرغبة في إنشاء مدن فاخرة وحدائق ومتنزهات غناء وكل وسائل الرفاهية التي تمتاز بها المدنية الحديثة . وكان محاطًا بفرقة من المتملقين الأوروبيين كانوا يمتدحونه ويبالغون له في ثروة البلاد ، وسرعان ما بدأ في تنفيذ مشروعات ضخمة التكاليف خاصة بالتوسع الإقليمي والإصلاحات الداخلية . وفي عام ١٨٦٤، بناء على طلب السلطان ، أرسلت مصر جيشًا صغيرًا على حسابها الخاص لإخماد ثورة في الحجاز ، وفي ربيع العام التالي أرسلت قوة أخرى إلى كريت لمساعدة تركيا في إخماد الثورة المسيحية .

وجاء على أعقاب هذه النفقات نقصان في الإيرادات . وفي عام ١٨٦٦ نتيجة لنقص محصول القطن ، قلت الصادرات بنسبة ٣٣ ٪ أي بما قيمته ٢٣ مليونًا من الدولارات . وكانت هناك مشروعات كبيرة بصدد التنفيذ ، وأبرمت بعض العقود ، ونظرًا لأن الأمل في تحسن الأحوال وزيادة الدخل من الإصلاحات التي لم تتم بعد كان يشيع في كل مكان ، لم يحدث أي اقتصاد

في المصروفات ، بل على العكس كانت تزداد باستمرار ، وكان كل عمل جديد يحتاج إلى نفقات إضافية ، فالموانىء تتطلب بناء أحواض جافة ، والخطوط الحديدية تتطلب عربات تسير عليها . كما كان هناك مبالغ ضخمة تنفق هباء وعيوب كثيرة تستنفد نفقات ، ذلك أن كل المشروعات كانت جديدة بالنسبة للأهالى ، وكانت تنفذ بواسطة عقود مبرمة مع الأوروبيين الذين كانوا يكونون طائفة نهمة تجد في البحث عن « أعمال » مربحة .

وكان للخديوى قليل من الوكلاء المختصين الجديرين بالثقة ، ولذا كان لزامًا عليه أن يشرف على كل إدارة من إدارات حكومته ، ولكي يقوم بهذا العمل كان عليه أن يكون على دراية بالسكك الحديدية ، والتلغراف ، وخطوط الملاحة ، والموانىء ، والأحواض الجافة ، ونظام إضاءة المنائر ، والإصلاحات المحلية ، والجيوش ، والاكتشافات الواسعة والغزوات الضخمة في وسط أفريقيا ، واستتباب السلطة في المديريات الاستوائية ، وفي سواكن ومصوع .

كانت كل هذه الإدارات تحت مراقبته المباشرة ، ولم يكن من الممكن إبرام عقد ، أو شراء سيارة ، أو تحويلة جديدة لخط ، أو وضع علامة من علامات الطريق دون إرشاده . وبالإضافة إلى كل هذا وإلى حكم الملايين من رعاياه ، كانت ممتلكاته الخاصة الواسعة وممتلكات أسرته ، وتنظيف وشق قنوات الري ، واستصلاح الأراضي الصحراوية تتطلب منه عناية فائقة .

وكانت إدارته لأراضيه بما فيها من مئات الألوف من العمال ، ومصانع السكر الضخمة بها ، وخطوطها الحديدية ، وقواربها ، وجمالها ، ومواشيها ، وأدواتها ، كافية لتعجيز أكبر إداري بارع . ومع كل هذه المشاغل ، لم يهمل ممتلكاته الشخصية . وكانت معرفته بتفاصيل كل آلة ، وكل أداة ، من الشادوف والمعول حتى المضخة البخارية والقاطرة والسفينة البخارية ، دائمًا مصدر دهشة كبيرة لهؤلاء الذين يحدثون إليه لأول مرة ومصدر إعجاب دائم

لهؤلاء الأوروبيين الذين كانوا على صلة به وببلاده .

وكان يبرم كل العقود الهامة ، وحتى العقود البسيطة كانت تتم تحت إشرافه ، وكانت كل هذه الأعمال كثيرة جدًا بالنسبة لعقل واحد ، ومن المشكوك فيه أن يستطيع إنسان أن يتولى أمر كل هذه المشروعات الواسعة المتنوعة - ناهيك بالمشاغل التي لا نهاية لها الخاصة بالحكومة - وكانت النتيجة مضيعة وخرابًا بسبب الوكلاء الذين تنقصهم الكفاية والأمانة .

وعلى الرغم من كل هذه الخسائر ، كان بوسع إدارته أن تفي بكل الاقتراحات التي عليها فيما عدا الفائدة الفاحشة التي كانت تدفع على الديون . وكما بينا من قبل ، كانت مصر في سنة ١٨٨٢ قد سددت كل الأموال التي تسلمتها فعلاً من بيع السندات بما في ذلك فائدة سنوية قدرها ٦ في المائة . وهذه القروض كانت تشمل الديون المختلفة من أيام سعيد باشا وقدرها خمسون مليونًا من الدولارات ، كما تشتمل على تلك الملايين العديدة التي أخذتها شركة قناة السويس نتيجة للتعويض الذي حكم به نابليون الثالث . أما الأربعمائة والخمسون مليونًا من الدولارات المدينة بها مصر الآن والفائدة التي تدفع عليها منذ سنة ١٨٨٢ والتي يبلغ مقدارها نفس مقدار الدين الأصلى فكلها من قبيل الربا دون أي وجه حق .

وتبلغ قيمة الفائدة السنوية المستحقة على المبلغ الذي مازال متبقيًا حوالى ثمانية عشر مليونًا من الدولارات ، وهذه جزية مكشوفة ينبغى دفعها لأوربا سنويًا لأجل غير محدود ، قد يمتد إلى أجيال ، مثل الجزية التي كانت تدفع لتركيا ، والتي فرضتها الدول الكبرى ، بإيعاز من إنجلترا ، على محمد على ، وتنحصر الجريمة الحقيقية التي ارتكبها إسماعيل في أنه وضع نفسه تحت نفوذ يهود لندن وباريس ، هؤلاء الذين كان معظمهم من الممولين اليهود ، وكانت لديهم القوة الكافية لتوجيه حكومتى إنجلترا وفرنسا وحثهما على ابتداع سابقة جديدة خاصة بتدخل الدول رسميًا في جميع الديون المبرمة طبقًا لعقود ،

وحتى الديون التي لا ترتكز على أي التزام أدبي .

ومن أجل جمع هذه الديون التي تميزت بهذا الطابع والتي مكنت بنوك روتشيلد ، وأبنهايم ، وجوشن ، وغيرها من البيوت المالية أن تجنى ثمار مغامراتها المالية ، قامت الدولتان الكبيرتان ببذل معونتهما الرسمية أولاً ، ثم قامت إنجلترا بعد ذلك بتقديم معونتها العسكرية .

ولم يتسن إلا لعدد قليل جدًّا من الإنجليز أن يحصلوا على معلومات صحيحة بالنسبة لأسباب الفشل المالي في مصر ، ولذا دخل في روعهم أن الأموال أقرضت بوجه عام ، وأن الديون المستحقة هي الديون التي لم تدفع بعد ، وأن هذه المئات من الملايين كان يبعثرها إسماعيل باشا في حياته الصاخبة .

وهم يشعرون بالفخر لما فعله اللورد كرومر من إقامة حكومة صالحة في البلاد ، ولكنه لم يستطع أن يخفف عن هذا القطر الصغير التي كانت تبلغ مساحته خمس ولاية نيويورك ، من دفع ثمانية عشر مليونًا من الدولارات سنويًّا عنوة واقتدارًا من هذا الشعب المظلوم وتحت وقع القوة العسكرية ، ولم يستطع كذلك أن يعفيها من دفع ثلاثة ملايين ونصف مليون من الخزينة لتركيا ، التي بلغنى أنها رهنت منذ زمن طويل ، وتذهب مباشرة إلى إنجلترا .

وحينما نتحدث عن مساحة مصر ، فإننا نستبعد مساحة الصحاري المحيطة بها ومساحة السودان وغيرها من الولايات الجنوبية ، فهذه المساحات لم تبلغ حد الاعتماد على النفس بعد ، كما أنه لم تعد جزءًا من الأراضي المصرية ، ذلك أن مصر قد دفعت تكاليف استرداد السودان ، ويسمح لها نظير ذلك ، بصفة تعويض ، بالشرف الأجوف لرفع علمها ، في الوقت الحاضر ، إلى جانب العلم الإنجليزي .

وإن ابتعاد بعض الدول الأوروبية العدوانية عن المبادىء الأصيلة السليمة ،

في محاولاتها جمع ديون قائمة على عقود وديون أخرى يُشك في صحتها باستخدام قبضتها الحديدية ، ليفتح السبيل لارتكاب أخطار جسيمة ضد الدول الصغيرة والضعيفة . وقد يؤدي تشجيعنا أو اعترافنا بأعمال من هذا النوع ضد الدول الأمريكية الضعيفة إلى أن تقع في مشاكل دولية خطيرة . والمساعدة ، والمساهمة بأي شكل من الأشكال ، في جمع ديون ضخمة كتلك التي تدين بها مصر ، تعتبر جريمة أود ألا تخلق الفرصة التي تجعل الحكومة الأمريكية تتهم بمثلها ، وإذا ما تمسكنا بالنهج الذي سلكناه حتى الآن فسوف نتجنب لا خطر مثل هذه السياسة فحسب ، بل الظلم الناجم عنها . وقد قال وزير الخارجية ، اليهو روت في خطابه الأخير الذي ألقاه في بوينس أيريس في الأرجنتين : « إن الولايات المتحدة لم تستخدم ولن تستخدم قط جيشها أو بحريتها في جمع ديون تعاقدت عليها حكومات أو أفراد » . ثم أضاف قائلاً : « مثل هذه الإجراءات تؤدى إلى المضاربة وهي قائمة على أغراض دنيئة » .

الفصل الرابع والعشرون

المحاكم الدولية

تكون المحاكم الدولية أو المحاكم المختلطة في مصر نظامًا فريدًا . وهي تتشكل من قضاة أجانب ووطنيين ، ولكي تعقد محكمة للنظر في قضية من القضايا تشكل من خمسة قضاة ، ثلاثة من الأجانب واثنين من الوطنيين . ولا يوجد بهذه المحاكم نظام المحلفين ، بل تهتدى المحكمة إلى الحقائق وتقرير المسائل القانونية . وتعرف المحكمة التي تجرى فيها المحاكمة باسم محكمة من الدرجة الأولى ، ولها فرعان : المحكمة المدنية والمحكمة التجارية . وتختص الأولى بالفصل فيما يعرف في المحاكم الإنجليزية أو الأمريكية باسم « قضايا الإنصاف » ، وتفصل الثانية في القضايا الخاصة بالمنازعات القانونية . وعلى كل هناك حالات استثناء من هذا التقسيم .

وفي المحكمة التجارية يوجد اثنان من الخبراء المثمنين أحدهما وطني والآخر أجنبي يختارهما رجال الأعمال البارزين في المدينة التي تعقد بها المحكمة . ويقوم هذان الخبيران بالخدمة لوقت معين ، وبعد انتهاء مدتهما يقع الاختيار على غيرهما ليحلا محلهما بنفس الكيفية التي ينتخب بها المحلفون في الولايات المتحدة ، فهم يجلسون مع القضاة وقت المحاكمة ، ولهم رأي في الفصل في القضية .

والأوروبيون يختارون من بين المقيمين في مصر ، أما الأهالي فيختارون من بين التجار المحليين البارزين . ولما كان هؤلاء التجار على دراية بأحوال الجمهور

فهم يعتبرون الساعد الأول لهذه المحاكم ، والقضايا المطالب فيها بمبلغ أقل من القدر المحدد لاختصاص المحكمة ، ينظر فيها أمام قاض أوربى واحد في محكمة تعرف باسم « المحكمة الجزئية » .

وتوجد كذلك محكمة استئناف ، وهي المرجع الأخير الذي تستأنف أمامه القضايا المرفوعة أمام المحاكم . وتتشكل محكمة الاستئناف من سبعة قضاة من الأجانب ، كل واحد منهم يمثل إحدى الدول السبع الكبرى ، وخمسة من القضاة الوطنيين ، وقد عين أخيرًا الجنرال جورج س . باتشلر بمعرفة الرئيس روزفلت ليمثل الولايات المتحدة في هذه المحكمة . وقد كان نائبًا لوزير المالية بواشنطن ، ووزيرًا لدى البرتغال . وذلك في عهد الرئيس هاريسون . ولما كان قد اشتغل بمحكمة الدرجة الأولى بالقاهرة لمدة عشر سنوات فقد أصبح أهلًا لمنصبه الجديد .

ويوجد بهذه المحاكم الدولية أربعة وثلاثون قاضيًا من الأجانب ، وواحد وعشرون قاضيًا من المصريين ، فمن الأجانب يوجد ثلاثة قضاة عن كل دولة من الدول العظمى السبع بما فيها الولايات المتحدة ، وقاض واحد أو اثنان عن كل دولة من الدول الأوربية المسيحية التي تعتبر من الدرجة الثانية كبلجيكا وهولندا واليونان وأسبانيا .

وتختص هذه المحاكم بالفصل في القضايا المدنية في جميع القضايا المختلطة . أي التي تحدث بين أطراف من جنسيات مختلفة ، كقضية بين مصري وإنجليزي أو بين إنجليزي وألماني ، كما أنها تختص بالنظر في القضايا الجنائية التي ترتكب أثناء معارضة تنفيذ أحكامها . ولقد أنشئت هذه المحاكم في عهد الخديوى إسماعيل لكي تحل محل أكبر عدد من المحاكم القنصلية التي كانت قد أنشئت بمقتضى الامتيازات الأجنبية التي منحت للدول المسيحية .
ولم تعترف الحكومات المسيحية فقط باختصاص المحاكم الموجودة في الدول غير المسيحية بالفصل في النزاع بين رعاياها . وكلما كانت هذه الدول تفتح

ذراعيها للأجانب بغرض التجارة أو الإقامة المؤقتة أو الدائمة كانت تعقد معاهدات أو تمنح امتيازات خاصة بالفصل في النزاع بين الأجانب ، وهذا هو حق الدول الأوربية في الفصل عن طريق قناصلها ، بين مواطنيها الذين يقيمون في دولة من الدول غير المسيحية سواء بصفة مؤقتة أو بصفة دائمة . وقد شذت اليابان أخيرًا عن هذه القاعدة ، وسواء كان ذلك صوابًا أم خطأ فإن تصرفات محاكمها المقبلة سوف تقرر ذلك ، ولكن بعض التجار الأوربيين قد قدموا شكاوى خطيرة في هذا الشأن .

أما في حالة الإمبراطورية العثمانية فإن الخلفاء والسلاطين لم يكن في وسعهم أن يتعاملوا مع الكفار ، فإن الدخول في اتفاقيات معهم يعد اعترافًا بأن لهم حقوقًا لابد أن تحترم حتى من جانب الخليفة نفسه ، وبدلاً من الدخول في اتفاقيات أو إبرام معاهدات ، كان الخلفاء يصدرون رسائل تشتمل على منح بعض الامتيازات ، هذه الخطابات كانت تعرف لدى الشرقيين باسم « البراءة الإمبراطورية » ولدى الأوربيين باسم « امتيازات » تمنح للبحارة والتجار الأجانب الذين يفدون للتجارة في ممتلكات الخليفة وتقضي بإعطائهم حصانة ضد القبض عليهم أو الإزعاج من جانب السلطات المحلية .

ولقد صدرت هذه الامتيازات بادىء الأمر في القرن الثاني عشر ولم تتواضع الأمم المسيحية في طلباتها الخاصة بالامتيازات الأجنبية . وحينما سنحت الفرصة حصلوا على امتيازات إضافية في المدن الرئيسية بمصر ، وخاصة في الإسكندرية حتى أصبح الناس يتساءلون ما إذا كانت الحكومات الأجنبية أم السلطة المحلية هي الحاكمة . هذه الامتيازات الأجنبية التي طالبت بها الدول الأجنبية وتمتعت بمزاياها ، نجم عنها وجود سلطات عديدة في مصر .

وكان الأجانب من المسيحيين ، فيما يختص بحكمهم وكل الإجراءات القضائية الخاصة بهم ، يعتبرون كأنهم مقيمون في بلادهم . وكان يمثل هذه

الدول عدد كبير من القناصل يتراوح بين ١٤ و ١٨، وكل قنصل كان الحاكم الفعلي لأعضاء جاليته وقاضيًا يفصل في الشكاوى والقضايا التي ترفع ضدهم : ولم يكن لأحكامه وقراراته أي استئناف إلا لدى حكومته .

وعلى كل ، لم تكن هناك وسائل لتنفيذ الأحكام ضد الأجانب سوى سلطة القنصل الذي يتبعه الخصم الصادر ضده الحكم .

ولم يكن الأجانب معفين من إلقاء القبض عليهم ومحاكمتهم بواسطة السلطات المحلية فحسب ، بل كان أطفالهم الذين يولدون في مصر يتجنسون بجنسية آبائهم . وقد يستمر هذا ، كما حدث فعلاً في بعض الحالات ، لعدة أجيال ، ولكي تضمن الأسرة هذا الحق الخاص بجنسية الآباء والأطفال ، كان من الضروري أن تسجل الأسرة أسماءها فقط ، ثم تحفظ في دفاتر القنصلية .

وكان يقيم في مصر في عام ١٨٧٨ ثلاثون ألفًا من اليونانيين ، وعشرة آلاف من الإيطاليين ، وكثير غيرهم من جنسيات أخرى . وكان أصحاب البنوك وجزء كبير من التجار الكبار وغيرهم من رجال الأعمال في البلاد من الأجانب ، كما كان جل المشاريع التجارية في أيديهم .

ومع وجود أربعة عشر نظامًا قضائيًا مستقلاً ، غالبًا ما كانت تتعارض قراراتهم – حيث إن كل قنصل كان يتصرف بمقتضى قوانين دولته – أصبح هناك اضطراب لا حد له تنجم عنه صعوبات ومشاكل خطيرة .

وقد اتبعت عدة طرق مختلفة لتجنب هذا الخلط ، ولكن أول حل فعال توصلوا إليه كان المحاكم الدولية . ويقال إن هذا لم يحدث إلا عن طريق مفاوضات شاقة طويلة ، كما يقال أن الخديوى قد استخدم أموالاً كثيرة في القسطنطينية وفي صحافة لندن وباريس حتى نجح في إنشاء هذه المحاكم . وقد تمسكت عدة دول بشدة بالامتيازات الممنوحة لها أو التي اكتسبتها عن طريق الممارسة الطويلة ، وطبقًا للامتيازات التي أخذت قسرًا . وما زال الفصل في

الجرائم من اختصاص المحاكم القنصليّة .

وكان القاضي الأجنبي يتقاضى مرتبًا ضخمًا لا يوازى العمل الذي يقوم به رغم أنه كان يحصل على إجازة سنوية تبلغ مدتها ثلاثة أشهر ونصف شهر ، وهي شهور الحرارة عادة ، من يونية إلى أكتوبر . وعلى كل كان لابد من بقاء ثلاثة قضاة من الأجانب أثناء العطلة لعقد محكمة تنظر في الأمور المستعجلة . وكان هؤلاء يأخذون إجازاتهم في ميعاد متأخر ، وكانت المحكمة مزدحمة بالقضايا بصفة مستديمة من شهر أكتوبر إلى يونية .

وكان القضاة يعدون الأحكام على هيئة التقرير الذي يقدمه المحكمون ، ويشتمل على الحقائق التي توصلوا إليها ، والرأي القانوني والأمر بالتنفيذ . وطبقًا للقانون الفرنسي يجب إعلان الخصم الذي صدر ضده الحكم بالحقائق والحيثيات التي أدت إلى إصدار الحكم ، وإلا أصبح الحكم باطلاً وغير قابل للتنفيذ .

وكانت اللغات الرسمية التي تستخدم في هذه المحاكم ، إلى وقت قريب ، هي اللغات الفرنسية والإيطالية والعربية . وقد أضيفت الآن اللغة الإنجليزية.

ولكن الواقع أن اللغة الفرنسية هي اللغة الرئيسية ، ذلك أن كل القضاة ، فيما عدا الإيطاليين ، وكذلك معظم المحامين لا يستخدمون لغة غيرها في إجراءات المحاكمة . أما المستندات الخاصة بتقديم الأدلة فتكتب بعدة لغات بالإضافة إلى اللغات التي سبق ذكرها ، وهي اليونانية والألمانية والأسبانية والتركية ، وحتى العبرية ، وكان هذا يستلزم عددًا كبيرًا من الكتبة والمترجمين .

وكانت المحكمة هيئة مستقلة في تصرفاتها ، فلها حق التصرف التام في تعيين وعزل مستخدميها من كتبة إلى مأمورى أحكام مدنية إلى مترجمين . وكانت المحكمة تتقاضى مصاريف كبيرة من المدعين نظير خدمات الكتبة

والمأمورين والمترجمين ، وكذلك تتقاضى نسبة على الأحكام الصادرة . وكانت الإيرادات التي يتحصل عليها من هذه المصادر ومن تسجيل الحجج والسندات والرهونات والتعهدات تزيد عن قيمة المصاريف اللازمة للمحاكم ، وتدفع الزيادة للحكومة المصرية . وفي خلال الثماني والعشرين سنة من إنشاء هذه المحاكم التي تنتهي في ٣١ أكتوبر سنة ١٩٠٣ بلغ عدد القضايا التي فصلت فيها هذه المحاكم حوالى ٨٠٧ ر٢٢٩من القضايا ، وبلغ إيرادها من المصادر التي ذكرتها ٧٢٢ر١٨٠ر٧ جنيهًا مصريًا أي ٥١٠ر٩٢٣ر٣٥ من الدولارات . وبلغت نفقات هذه المحاكم إبان تلك المدة ٧١٥ر٧٤٣ر١٨ دولارًا . فيصبح الفائض مبلغ ٨٩٥ر٠٧٩ر١٧ دولارًا دفعت إلى الحكومة المصرية . هذا وقد ازدادت أعمال هذه المحاكم بسرعة مطردة خلال العشر السنوات الأخيرة . وقد وصلت إيرادات سنة ١٩٠٤ مبلغ ٠٠٠ر٩١٠ر٣ من الدولارات ، وإيرادات سنة ١٩٠٥ مبلغ ٠٠٠ر٠٤٨ر٥ دولار . أما الفائض الذي دفع إلى الحكومة المصرية سنة ١٩٠٥ فقد بلغ ٠٠٠ر٩٧٨ر٣ دولار . وهكذا بدلاً من أن تصبح نفقات هذه المحاكم عبئًا على الحكومة ، كما هو الحال مع محاكمنا ، أصبح موردًا خصبًا ، وهو نوع من الضرائب لم يلجأ إليه لحسن الحظ حتى الآن .

وكان القضاة يشغلون مناصبهم لمدى الحياة ، أو طالما كانت هذه المحاكم قائمة ، ولم يكن من الممكن عزلهم من طرف حكوماتهم أو من طرف الحكومة المصرية . وعلى كل ، كان يمكن عزلهم عن طريق محكمة الاستئناف بسبب سوء السلوك أو عدم الكفاية .

وكانت الشهادة الشفوية نادرًا ما يسمح لها في حالة نظر إحدى القضايا ، ولكن كان يجرى توجيه بعض الأسئلة أو إثبات بعض الحقائق . وإذا سمح بالإدلاء بمثل هذه الشهادة ، كما هو الحال في المحاكم الأمريكية أو الإنجليزية ، لا يكون لها فائدة كبيرة بالنسبة للأطراف المتخاصمة ، إذ لا يصح شهادة موظف أو صاحب عمل أو خادم أو سيد أو شريك في العمل أو أي شخص من

الدرجة الرابعة في القرابة لأحد الأطراف . وهو نفس النظام المطبق من حيث المبدأ في فرنسا وغيرها من دول أوربا . وهو قائم على افتراض أنه لا يمكن تصديق أي شخص له مصلحة في القضية ، مهما كانت الصلة بعيدة بينه وبين الطرف المعني .

وإذا لم تكن العقود محررة فليس لها أي علاج قانوني بوجه عام ، ولا يمكن الاعتماد في هذه الحالة إلا على شرف المتقاضين . وحتى دفع النقود لا يمكن أن يبرهن عليه شفويًا ، ولكن الطرف الذي يدعى عليه بأنه حصل على مبلغ ما يمكن أن يعلن بالحضور إلى المحكمة ، ثم يلقى عليه سؤال بسيط عما إذا كان قد تقاضى المبلغ . وإذا لم يمثل أمام المحكمة فإنه يخسر قضيته . أما إذا حضر وأنكر الدفع ، فإن هذا يحسم الأمر . ولا يمكن أن يدلل على كذب إنكاره بواسطة شهادة شفوية . وفي القضايا الجنائية يؤخذ بالشهادة الشفوية كما هو الحال في النظام الإنجليزي أو في القانون العام .

أما قيمة الممتلكات أو مقدار الخسائر الناجمة عن الأضرار فإنها تحدد عادة بواسطة الخبراء الذي تعينهم المحكمة . وينبغي أن يقدم الطلب الخاص بهذا التقدير عقب الحادث الذي تسببت عنه الأضرار مباشرة ، كما ينبغي على الخبير أن يكتب تقريره في الحال ويقدمه إلى المحكمة لكي تستخدمه عند النظر في القضية .

ويسمح بتقديم دفاتر الحسابات ، إذا كانت تحرر بطريقة خاصة ، والنسخ المطبوعة ، كأدلة في القضايا التي تحدث بين التجار فقط ، ولكن الحسابات والميزانيات تحدد في تقارير مكتوبة من طرف المحاسبين الخبراء الذين تعينهم المحكمة كذلك .

وكان يؤخذ بالوثائق والتعهدات والخطابات وغيرها من الكتابات كدليل دون الحاجة إلى إثبات صحتها . وكان للخصم الحق في أن يطعن في هذه المستندات بالتزوير ، فإذا ما ثبت هذا التزوير يصبح المستند باطلاً . في مثل

هذا الظرف تؤجل القضية ، ثم تنظر هذه الحالة بمفردها أمام قاض واحد ، وفي حالة فشل أحد الطرفين في إثبات ادعائه لا يحكم عليه بدفع قيمة المصاريف فحسب ، بل يحكم عليه بالغرامة إذا ثبتت سوء النية أو التزوير .

وتعقد المحكمة جلساتها يوميًا بصفة عامة قبل الظهر ما عدا يوم عطلة المسلمين الذي يوافق يوم الجمعة وكذلك يوم الأحد . أما المحاكمة فتتكون من بعض المناقشات الوجيزة بين المحامين بشأن الأوراق الخاصة بالقضية ، بما فيها تقريرات الخبراء ، إذا كان هناك أي تقرير ، وغالبًا لا تستغرق الجلسة أكثر من ساعة ، وغالبًا لاتزيد عن نصف هذا الزمن .

وتتسلم المحكمة أوراق القضية مع مذكرات المحامين ، ثم توزع القضايا على القضاة ، وعلى القضاة الأجانب بوجه عام لفحصها . وكان يتفق على قرار في مجلس يعقد كل أسبوع ، ويكون هذا القرار بناء على الحكم الذي أصدره القاضي الذي تسلم الأوراق لفحصها ، ويقرأ الحكم في جلسة علنية بواسطة رئيس المحكمة . وكانت الإجراءات مختصرة جدًا ، ويصدر الحكم في القضية في أقصر وقت ممكن بعد رفع القضية .

وكانت القرارات جميعها تصدر بأغلبية أصوات القضاة ، أو القضاة والمثمنين الحاضرين بالجلسة . ولا يسمح بآراء منشقة بالجلسة كما لا يباح بسر الآراء المختلفة للقضاة . فالحكم يعتبر صادرًا من المحكمة ، وهو بالنسبة للجمهور صادرًا بإجماع آراء القضاة . وذلك لأن اختلاف الآراء والعلم بوجود الشقاق بين القضاة في الرأي يضعف من تأثير الحكم ، كما يقلل من الثقة بالمحكمة ويحمل على عدم احترامها . وهناك من يدافع عن اتباع نفس هذا النظام في محاكم بلادنا .

والحاجة إلى إقامة مزيد من الأدلة الواضحة المفصلة كثيرًا ما تسبب الارتباك للقاضي ، ولاشك في أن المواطن غير المتعلم تحيق به أضرار كثيرة من جراء هذا ، ولكننى لست مستعدًا للقول بأن هذه الطريقة لا تؤدي إلى إظهار

الحقيقة كما هو الحال مع نظامنا القائم على الأدلة المتنازعة والمتناقضة في أغلب الأحيان . ولاشك في أن التأكد من قيمة الخسائر التي تحيق بالممتلكات عن طريق خبراء مختصين يعملون في الحال هو أكثر ملاءمة من الحكم القائم على الشهادة الشفوية التي تتبع في محاكمنا ، والتي يستغرق عدة سنوات .

ولقد نظمت المحاكم المختلطة عام ١٨٧٥، واستخدم في ذلك قانون هو عبارة عن تعديل للقانون المعروف باسم « قانون نابليون » وكانت هذه التعديلات بحيث تلائم عادات وظروف البلاد . ولكن تطبيقها بواسطة المحاكم دل على أنها في حاجة إلى إجراء تعديلات أخرى . وفي عام ١٨٨٠ تكونت لجنة دولية لإدخال بعض التعديلات الإضافية . وقد عين الرئيس هاييس جورج س . باتشلر الذي كان قاضيًا في هذه المحاكم بالقاهرة ، والمؤلف ، لكي يمثلا الولايات المتحدة في هذه اللجنة . وكانت هذه اللجنة تنعقد من وقت لآخر بالقاهرة خلال شتاء ١٨٨٠-١٨٨١، ولكنها لم تنجز أعمالها بسبب بعض الخلاف بشأن عديد من المسائل الهامة .

وبينما كنت في إجازة بالولايات المتحدة في صيف سنة ١٨٨١ وصلتنى برقية من رئيس الكتبة بوزارة الخارجية يطلب حضورى إلى واشنطن . عند وصولى إلى هذه المدينة صباح أول يوم من شهر يولية علمت أن الرئيس مستر جاوفيلد يود أن يرانى . وقد رتب لى المستر بلين الذي كان وزيرًا للخارجية حينئذ مقابلة مع الرئيس بعد انتهاء انعقاد مجلس الوزراء في ذلك اليوم . وكان آخر اجتماع يعقده هذا الرئيس المأسوف عليه . وعندما دخلت الغرفة بناء على دعوة المستر بلين ، كان أعضاء الوزارة الآخرون يتجاذبون أطراف الحديث ويرتبون أوراقهم تأهبًا لمغادرة الغرفة . وبعد أن حييتهم ببضع كلمات اتخذت مقعدى على مقربة من الرئيس الذي بدأ الحديث بشأن منصب القاضي الأمريكي في مصر الذي أصبح شاغرًا بعد تعيين القاضي مورجان في منصب سفير فوق العادة ووزير مفوض لدى المكسيك . وسألنى ما إذا كنت أرغب في شغل هذا المكان قائلاً إن المستر بلين قد أوصى بأننى الشخص اللائق لهذا

المنصب وأنه يسره أن يعرضه لي إذا كان يلقى قبولاً مني .

وكان الرئيس قد أعد العدة للقيام برحلة إلى نيوانجلاند على أن يغادر واشنطن صباح اليوم التالي . وبينما كان أعضاء الوزارة يتأهبون لمغادرة الغرفة ، التفت ناحيتهم وقال بصوت مرتفع : « من ذا الذي سيصحبني غدًا ؟ » وفي اعتقادى أن مستر بلين أجاب أنه ينوى الذهاب معه ، كما قال آخرون بأنهم سوف ينضمون إليه بعد ذلك .

وقد قبلت العرض الذي تقدم به الرئيس ومن ثم أرسلت برقية إلى مصر عن طريق وزارة الخارجية تعلن تعييني في هذا المنصب . وكنت في نيويورك صباح اليوم التالي حينما ورد نبأ اغتيال الرئيس . وعندما وصلت إلى مصر في أكتوبر ، عينت بالمحكمة المختلطة بالإسكندرية .

الفصل الخامس والعشرون

الشغب والهياج بالإسكندرية

بينما كنت منهمكًا في أعمالي الجديدة في المحاكم في شتاء عام ١٨٨١-١٨٨٢ كانت الأزمة المالية التي استمرت منذ وقت عزل الخديوى قد وصلت إلى ذروتها ، وازداد استياء الجمهور إلى درجة لا حد لها . ولم يكن هناك اعتراض على الخديوى ، ولكن الكراهية كانت موجهة ضد السيطرة المالية الأجنبية .

ولا يمكن القول بأن الشخصيات الحاكمة في لندن والتي كانت تملى السياسة الإنجليزية فيما يتعلق بمصر لم تكن لتتنبأ بنتيجة عملها هذا . وقد تغيرت الوزارة الإنجليزية ولكن الممثلين الأجانب والمصالح الأجنبية بقيت في يد العناصر المتعصبة من حزب المحافظين الذي كان يعتقد أن المصالح الإنجليزية في كل قطر من أقطار العالم ينبغى تفضيلها على مصالح غيرها من الأقطار . وكانت تحركهم نفس البواعث التي تمثلت بعد ذلك في غارة جيمسون وسياسة سيسل رودس في جنوب أفريقيا .

وبعد إجراء تعديلات مختلفة بالوزارة المصرية كانت تتم أحيانًا بوسائل تدل على بدء التمرد ، أصبح عرابي باشا هو القوة الحاكمة . ولم يتدخل عرابي في الإيرادات المخصصة لدفع فوائد الدين العمومى ، ولم يصدر منه أي خطر حقيقى في سياسته سوى أنه قلل من هيبة القوات الأجنبية التي كانت ربما تؤدى - إذا استمرت الحال على هذا المنوال - إلى استقلال مصر مرة

أخرى . وكان عرابي معبود الشعب . وقلما كان يوجد وطني محبوب لدى الجمهور المصرى كعرابى باشا . وكان ظهوره بالإسكندرية مناسبة لاحتفاء شعبي لم يسبق له مثيل بين أفراد هذا الشعب . وقد جعله هذا موضع سخط هؤلاء الذين كانوا يملون على الحكومة سياستها . وكثيرًا ما تساعد المطامع الشخصية إلى درجة ما على إثارة الحركات الوطنية ، ولكن الحقائق أثبتت فيما بعد أن ما من وطني كان بعيدًا عن الدوافع الشخصية مثل عرابي . والواقع أنه بعد التحقيق الدقيق لم يمكن العثور على أي دافع لديه (سوى الرغبة الجامحة في التحرر من سيطرة أجنبية غاشمة) .

وما من شك في أن الخديوى كان يعطف على حركة تحرير البلاد من قبضة حملة السندات ، وكان يسره أن يعاونها لو أنه كان واثقًا من نجاحها . ولكن إخفاقه كان معناه الضياع ، حتى شبه السلطة التي كانت بيده . ولم يكن أمامه طريق آخر أكثر أمانًا من الرضوخ لأوامر « هؤلاء الذين فرضوا عليه » .

وكانت معارضة الدول الكبرى بعد فوات الوقت أمرًا غير محمود . وكان الشعب مقيد الوثاق مكتوف الأيدى . ولم يكن هناك جيش يستحق الذكر أو أية أموال لإنشاء جيش ، إذا لم يكن لمصر أية رقابة على ماليتها ، وكل ما زاد عن صافى إيراداتها كان يرسل إلى باريس ولندن مقابل ما عليها من فوائد الديون ولم يكن يترك للشعب إلا النزر اليسير ، حتى نفدت ثروات أفراده التي كانوا قد جمعوها قبل ذلك أو ورثوها عن الذين أقرضوهم ليدفعوا ما عليهم من ضرائب . ومهما تكن النتائج ، فإن الحكومات الأجنبية لم تكن لديها نية ترك الموطىء الذي حصلوا عليه – بدون سفك دماء – عن طريق سلسلة طويلة من المفاوضات ، وعن طريق الضغط السياسي على القاهرة والقسطنطينية . ذلك الضغط العنيف الذي لم يكن في مقدور أحد أن يقف في سبيله .

وقد بعثت إنجلترا وفرنسا بأساطيلها إلى الإسكندرية وألقت بمرساها في

الميناء ، كما حذت حذوها دول أخرى ، بغرض مراقبة تحركات هذه الأساطيل . وكان من بين هذه السفن الحربية التي وصلت إلى ميناء الإسكندرية عدة قطع من الأسطول اليوناني . وكان هناك قليل من الود بين الطبقات الدنيا من اليونانيين في الإسكندرية وبين العرب . ولكن وجود البواخر اليونانية جرح كبرياء المصريين وأثار حفيظتهم ، كما أثار كراهية اليونانيين بالمثل . وقد زاد توتر الشعور العام ، وأصبحت جميع الطبقات في حالة من الاضطراب لم تكن لتوجد لولا وجود السفن الحربية العديدة في الميناء ، ولكان الهدوء التام قد ساد لو أن هذه السفن لم تصل .

وبعد وصول الأساطيل الإنجليزية ببضعة أسابيع وقع حادث نتيجة للتوتر السائد ، أدى إلى هياج عنيف . وعن طريق تشويه الحقائق تشويهًا جسيمًا ، استطاع الإنجليز أن يضفوا لونًا من التبرير على العمل الذي قامت به إنجلترا عقب ذلك .

كان يسكن الجانب الشرقي من الإسكندرية عدد كبير من الأوربيين والطبقات الراقية من المصريين ، أما الجانب الغربي فكان يسكنه عامة الشعب والطبقات الدنيا من الأجانب . كان يسكن في هذا الجانب كثير من اليونانيين المعروفين بميلهم إلى الشغب وبسوء الخلق في بعض الأحيان . وقد حدث شغب كبير في يوم من أيام الآحاد في هذا الجانب . ولم تعرف تفاصيل هذا الشغب بالدقة كما هو الحال في معظم المشاحنات . ولكننا نعلم علم اليقين أن أحد الرعايا الإنجليز ، وهو أحد الملطيين من اليونانيين ، وهو الذي أثار النزاع . وكان عدد كبير من أفراد الطبقة العاملة من الأهالى والأجانب جالسين إما في المقهى أو نائمين وقت القيلولة حيث كانوا في عطلة . وقام نزاع بين عربي وبين هذا اليوناني بشأن مبلغ بسيط من النقود . واستشاط اليوناني – الذي يقال إنه كان مخمورًا – غضبًا ، فسحب سكينًا وطعن بها العربي في بطنه . وقد أثار منظر المصاب محمولاً وهو يدمى ، والقصة التي تواترت بأسرع ما يكون ، غضب الأهالى الذين بدأوا يتجمعون في أعداد كبيرة .

وكان عرب مصر خاضعين لأجيال عديدة لحكومة استبدادية عدوانية بوجه عام . والمصريون بطبعهم هادئون محبون للسلام . ولكن حينما انتشر النبأ ، ازداد تجمع الناس واحتدم غضبهم ، ولكن ما أن بدأ اليونانيون والملطيون في إطلاق النار من نوافذ دورهم ومن أسطح منازلهم على الأهالى العزل من السلاح ، وقتل بعضهم وجرح البعض الآخر حتى ثارت ثورتهم وشرعوا في ارتكاب أعمال انتقامية . وكان الأهالى ، فيما عدا البدو ، غير مصرح لهم بحمل السلاح الذي كان يعتبر من وسائل الترفيه ، فلم يستطيعوا إلا أن يزودوا أنفسهم بالهراوات ، وهي عصي ضخمة كتلك التي يحملها الفلاحون عند سيرهم في الحقول . وهي عبارة عن فروع خشنة مستديرة يبلغ قطرها بوصة ونصف بوصة ، أو بوصتان ، وطولها حوالى خمسة أقدام ، كما أنها ثقيلة وأقرب إلى الهراوات منها إلى العصي . ولما كان لايوجد أراض تزرع فيها الأشجار التي تستمد منها الأخشاب ، كانت هذه الهراوات تستورد عبر البحر الأبيض وتباع في الأحياء العربية . وكان اليونانيون يحملون أسلحة نارية بإذن من القنصل ، بحجة أنها كانت ضرورية لحماية أنفسهم . ونتيجة لإطلاق النار جن جنون المصريين وتدفقوا إلى هذا الجانب من المدينة يقتلون بهراواتهم كل أوروبي يعثرون عليه في الطريق .

وكان « فندق أوروبا » التي كنت أتناول فيه وجباتي يقع في الطريق الجنوبي من ميدان محمد على ، وعلى مقربة من الحي العربي . وكانت شقتي التي أقطن فيها على مسافة ثلاثة أرباع ميل ، فغادرت الفندق في حوالى الساعة الثانية . وبعد ذلك بساعة تقريبًا كان من الضرورى وضع حاجز عند بوابة الفندق لحماية النزلاء من الغوغاء . وقد انتهز اللصوص هذه الفرصة وسلبوا أغلب المحال التجارية الواقعة في الحي العربي . وقد أفلت بعض الضباط البحريين الأمريكيين الذين كانوا على الشاطىء يرتدون الملابس المدنية من الموت بأعجوبة . وقد عجز البوليس عن قمع هذه المظاهرة العنيفة .

وفي فصل الصيف جرت العادة في مصر على أن يأخذ الإنسان إغفاءة

قصيرة بعد الغداء . وتغلق عادة البنوك والمحال وغيرها من الساعة الثانية عشرة إلى الساعة الثالثة بعد الظهر ، فلا يزعج أحد في راحته أثناء تلك الفترة . وكان المسئولون في الإسكندرية يأخذون إغفاءتهم المعتادة وقت أن بدأت الاضطرابات . وبعد مرور حوالى ساعة على طعن العربي أوقظ الحاكم من نومه وأبلغ بخطورة الموقف . ولم يكن هناك في ذلك الوقت وزير للداخلية ، وكان الحاكم يتلقى التعليمات من الوزارة مباشرة . ولذا استغرق اتصاله بالقاهرة وبقوات الأساطيل الإنجليزية والفرنسية وقتًا طويلاً . وأخيرًا استدعى الجنود ، فحضروا على عجل ، وبمجرد وصولهم استتب الأمر مرة ثانية .

وكانت الساعة ما بين الرابعة والخامسة عندما وصلنى النبأ بأن هناك قتالاً دائرًا في شوارع المدينة ، وعلى الرغم من أنني أخطرت بأن من المجازفة الخروج في هذا الوقت ، إلا أننى شرعت فورًا في السير نحو ميدان محمد على . وقد صادفت بعض أشخاص في الشوارع كانوا يفرون هاربين من الأحياء التي يجرى فيها الشغب . وفي الوقت الذي دخلت فيه الطرف الجنوبي من الحي ، كان الجنود قد حضروا من القلاع الموجودة بجزيرة فاروس ودخلوا الحي من الطرف الآخر . وحينما وقفت على السلم العالي لقصر العدل شاهدت أشخاصًا قلائل يفرون بأقصى سرعة ممكنة . وبمجرد ما عرف أن الجنود يقتربون اختفى الغوغاء بسرعة سحرية .

ولقد ضاعت حياة ستين من الأوربيين في هذا الشغب ، وهؤلاء كانوا من أفراد الطبقة الدنيا ، وجلهم يسكنون الأحياء العربية . وقد أشيع في اليومين التاليين ، دون أن يثبت العكس ، أن أضعاف هذا العدد من العرب قد قتل . وقد افتخر أحد اليونانيين في اليوم التالي بأنه قتل خمسة أفراد .

هذه هي الرواية الصحيحة ، بقدر الإمكان ، لما أطلق عليه المؤرخون مذبحة المسلمين للمسيحيين فى الإسكندرية ، ولم يطلق عليها أحد في الأيام الثلاثة أي اسم سوى أنها كانت هياجًا مؤسفًا خطيرًا بدأه أحد الأجانب .

لقد أطلق القنصل الفرنسي في تقريره الذي رفعه إلى حكومته بتاريخ اليوم التالي على هذا الحادث أنه عبارة عن « شغب » . وقد قال في ذلك ، بالإضافة إلى أشياء أخرى : « في حوالى الثالثة بعد الظهر تشاجر ملطي مع أحد الأهالى فطعن الأول الثاني بسكين في بطنه . وعندما أخذ يصرخ تجمع العرب . وكان الحي يسكنه بعض المالطيين واليونانيين وكان الأخيرون مسلحين في تبجح . فإذا بالمسدسات تطلق من النوافذ . وتتخذ المعركة طابعًا عامًا . وإذا بجماعات من العرب يندفعون من جميع الأحياء مسلحين بالهراوات ويضربون الأوربيين ضربًا يفضي إلى الموت ».

وكان القومندان باتشلر ، أحد ضباط السفينة الحربية (آلان) واقفًا في ذلك الوقت ضمن الضباط الأمريكيين على الشاطىء ، وقد كتب في تقريره يقول : « لقد كانت مظاهرة خطيرة ، قتل فيها عدد كبير من الأوربيين والأهالى »

وقد نشرت روايات مشابهة في الصحف الإنجليزية في اليوم التالي ، وظهرت هذه الفقرة في جريدة الديلى نيوز : « أطلق الأوربيون النار من النوافذ فقتلوا عددًا كبيرًا من العرب الذين أحدثوا بدورهم أضرارًا جسيمة بين الأوربيين في الشوارع . وقد نشرت الصحف الأخرى أنباء تفيد المعنى نفسه .

وعندما عاد المراسلون الأوربيون – الذين كانوا قد حضروا إلى مصر عند وصول الأساطيل – من القاهرة ، سرعان ما أصبح يطلق على الشغب اسم « مذبحة » يرجع السبب فيها إلى تعصب المسلمين . ولقد اشتطوا في قولهم إلى حد اتهام عرابى باشا ، دون أي داع ، بأنه هو الذي أوعز بهذا الشغب إلى الغوغاء ، كما عمل على تنظيمه . وقد نقل الموتى والجرحى من الأوربيين إلى المستشفيات الأوربية ، أما الأهالى فقد قاموا على الفور بدفن موتاهم ، ولم يعرف عدد الضحايا على وجه الدقة قط .

وكانت البيانات والتقريرات التي ينسب القسط الأكبر منها إلى خيال

المراسلين الصحفيين ، تنشر في إنجلترا وفي غيرها من بلاد القارة ، وكذلك في الصحف المصرية التي يملكها الأجانب ، حتى أن الاعتقاد في صحتها لم يكن مقصورًا على الإنجليز والأوربيين فحسب ، بل على الأوربيين المستوطنين في مصر بصفة عامة . ولقد اعتقد الأوربيون الأكثر ذكاء ، والذين كانوا يعرفون الحقائق ، أن مصالحهم سوف يخدمها الاحتلال الأجنبي ، ولذا شجعوا نشر هذه الأنباء دون أن ينشروا على الملأ أي اعتراض من جانبهم . وهكذا يصنع التاريخ .

وبعد حدوث الشغب بأسبوع ، قرأ المؤلف رواية غير صحيحة بالمرة عن الحادث في إحدى الصحف المشهورة في لندن . ولما كنت على معرفة بسيطة بمراسل تلك الصحيفة ، فقد سمحت لنفسي أن أنتقد روايته هذه . وسألته : لم أخفى جزءًا من الحقائق ووصف الشغب بأنه مذبحة دبرها المسلمون سلفًا للمسيحيين ، علي حين أنه يعلم أن أحد الرعايا الإنجليز قد بدأها ، وأن عدد القتلى من الأهالى يفوق عدد الأجانب . ولم تبدر أقل بادرة من اضطراب على المراسل . وأجاب في برود إنه في مصر لغرض ما ، وهو بهذا يؤدى الغرض من مهمته . ثم ابتسم ورفع يديه في وضع شخص يمسك بصحيفة ويقرؤها ، وأضاف قائلاً وهو يمزح : « إننى أرسل برقية كل يوم إلى لندن ، وفي الصباح التالي يقرؤها المشتركون في الصحيفة في جميع أنحاء إنجلترا وهم يحتسون قهوتهم بكل جد وثقة كما لو كانوا يقرأون الإنجيل » .

ولقد خلقت هذه الروايات التي نشرت والمعلومات التي كان يفضي بها القناصل إلى مواطنيهم والتي تفيد أن الحرب وشيكة الوقوع ، خلقت حالة عامة من الفزع ، وأصبح كل قطار يتحرك من الداخل مزدحمًا بالأوبيين الذين استقلوا أول باخرة إلى بلادهم ، أو لجأوا ، من شدة فزعهم ، إلى ظهر إحدى السفن الراسية في الميناء . وكانت المحاكم مستمرة في عملها طالما أن هناك مدعين أو ظهر لهم محامون ، واستمر وصول السفن الحربية حتى كان الميناء عبارة عن مظاهرة للسفن الحربية لم يشهد لها مثيل ، وحتى الولايات المتحدة

التي كان لها أسطول محدود في ذلك الوقت ، كانت محتلة بأربع سفن .

وكانت البواخر من مختلف الجنسيات تغدو وتروح وهي محملة في العادة بالمهاجرين ، وكانت السفن الفرنسية والإيطالية واليونانية راسية بالميناء وهي غاصة بأناس من جنسياتها ممن لا يستطيعون دفع أجور نقلهم . ومن ثم كانت المياه مغطاة بقوارب يمتلكها الأهالى وهي تغدو وتروح بالقرب من هذه السفن ، وكان بعضها يستخدم المجداف ، ولكن معظمها كان مزودًا بالقلاع ذات الطراز الشرقي . وكان بحارة هذه القوارب الذين كانوا يرتدون الأزياء الوطنية ، بطربوشهم الأحمر أو العمامة ، لا ينفكون عن الحركة والضجيج .

وكان بعض الضباط بملابسهم الرسمية في زوارقهم يعملون مع البحارة ، وهم في حللهم التي تمثل جنسية كل منهم ، يجيئون ويذهبون من وإلى الشاطىء أو يقومون بزيارة ضباط البواخر الأخرى . وكان جمال الطقس وجمال الأعلام المرفوعة على مختلف البواخر ونشاط البحارة المصريين يضفى على المنظر منظر يوم عيد دون أن يوحى بالكارثة التي توشك أن تقع . وكان هذا هو الهدوء التام الذي سبق هبوب عاصفة الحرب . وكانت المدينة والبلاد كلها تسود فيها السكينة والهدوء ، كما هو الحال في الميناء .

وكانت تجرى هناك محاولة جدية في ذلك الوقت للحصول على دليل يبرهن على أن عرابي باشا كان مسئولاً عن حدوث هذا الشغب وأنه كان نتيجة لخطط رسمها هو وشركاؤه . وكان لدي الحكومة الإنجليزية من الأسباب السياسية ما يجعلها ترغب في إثبات بعض الأعمال الإجرامية ضد هؤلاء ، ولذا عينت محاميًا من الإسكندرية وحصلت على بعض المعلومات غير الموثوق فيها والمليئة بالمتناقضات وخاصة من المالطيين واليونانيين ، ودون أن تعثر على أي شيء يبرهن على هذا . وقد وجه لورد جرانفيل ، في رسالة بعث بها ، نظر العملاء البريطانيين إلى الحصول على دليل يدين عرابي والذين يعملون تحت إمرته . ولكنهم عجزوا عن ذلك فتخلوا عن المهمة .

ورغبت الحكومة المصرية في الحصول على تحقيق كامل في الموضوع ، فكونت لجنة تحقيق . وقد عينت إنجلترا ، عن طريق القنصل الإنجليزي ، المحامى الإنجليزي الذي أشرت إليه على أنه عضو في هذه اللجنة لكي يمثل حكومته فيها .

وبمجرد أن عرف هذا النبأ في لندن بعث اللورد جرانفيل بتعليمات بأن « يبتعد الممثلون الإنجليز عن هذه اللجنة ، وانسحب الممثل الفرنسي كذلك ، وبدون معونة هاتين الحكومتين لم يكن في الإمكان إنجاز أي شيء . وبسبب الامتيازات الأجنبية التي كان يتمتع بها الأجانب لم يكن من المستطاع الاستشهاد بأجنبي أمام اللجنة ، كما لم يكن من المستطاع تفتيش منازل الأجانب للبحث عن الأشياء المسروقة أثناء فترة الشغب دون موافقة القناصل وتعاونهم مع السلطات . وقد رفض القناصل إعطاء هذا الإذن، وهكذا منع اللورد جرانفيل الوصول إلى مزيد من التحقيق في الموضوع .

ولم تقم هنالك أية أدلة على الإطلاق على أن هذا الهياج كان نتيجة خطط سابقة مدبرة . وعلى كل ، فالحقيقة أن مثل هذه المزاعم وإيقاف التحقيق فجأة ، إنما تعزى إلى عدم وجود أي لوم على أحمد عرابي ، وأن رفض الحكومة الإنجليزية للتعاون مع هؤلاء الذين لهم حق أدبي في إجراء تحقيق جدي قد ترك شكا في عقول الكثير من الإنجليز ، وشعروا بأن هناك حقائق ترغب الحكومة في إخفائها . ولقد أعد اللورد راندولف تشرشل بعض الأوراق التي قدمت إلى البرلمان يطالب فيها بمزيد من التحقيق .

ولقد كتب السير إدوارد ماليت ، المندوب البريطاني في القاهرة ،في ٧ مايو سنة ١٨٨٢ رسالة إلى اللورد جرانفيل وزير الخارجية البريطانية يقول فيها : « إنني أعتقد أنه لابد من حدوث مضاعفات من نوع حاد قبل إيجاد أي حل مرض للمسألة المصرية ، وأنه من الأصوب الإسراع في هذا خير من التأخير فيها » . وهذا يعنى بالطبع « حل مرض » من وجهة نظر إنجليزية .

في ذلك الوقت كان الحزب الوطني يملك زمام الحكم ، وكانت الإجراءات الحكومية مقنعة ومرضية للجميع فيما عدا الأجانب الذين لم يكن لهم رغبة سوى حكم البلاد لمصلحتهم ، وهؤلاء الذين لم يكونوا يجرؤون على عصيان أوامرهم . وقد كان السلام يسود بين مختلف طبقات الشعب في جميع أنحاء البلاد . ومع هذا كان القنصل الإنجليزي في الإسكندرية يمد المالطيين واليونانيين بالسلاح سرًا ، كما كان القنصل اليوناني ، بناء على نصيحة القنصل الإنجليزي ، يحذو حذوه مع رعاياه من اليونانيين . وهكذا مدت أخطر طبقة وأكثرها فوضى بالوسائل التي أضفت على المشاغبات طابعها الدموي .

وقد شرح الأميرال البريطاني لأحد ضباط فرقته التفاصيل لرسم الخطط والقيام بتنظيم ما . ولم يبد أن الفرنسيين قد اشتركوا أو ساهموا في هذه الاستعدادات ، ولم يعلم القنصل النمساوي أو القنصل الإيطالي بهذا السر حتى ٩ يونية ، أي قبل حدوث الهياج والشغب بيومين . وكان القنصل اليوناني ، بناء على نصيحة القنصل الإنجليزي ، يحذو حذوه مع رعايا القناصل العامين بالقاهرة . كما كان السير إدوارد قد علم بما يضمره القنصل الإنجليزي ، ولكنه التزم الصمت حتى ذلك الوقت . وعقد القناصل العامون اجتماعًا صباح يوم الأحد الذي حدثت فيه الاضطرابات ، وكانوا يرون أن التسليح هو « أخطر طريق يمكن اتباعه ، ومن المحتمل أن يؤدى إلى تصادم في أية لحظة » وقد أبلغ هذا القرار إلى القنصل الإنجليزي بالإسكندرية ، وعقب تسلمه بساعتين كان الشغب والهياج على أشدهما .

على أنه توجد حقيقة أخرى غريبة ، فقد كان من المعروف أنه خلال الشغب كانت أسلاك التلغراف مشغولة بالاتصالات بين محافظ الإسكندرية ، والقوات والسلطات القنصلية ، وحكومة القاهرة ، ولم تنشر أية حقائق عن هذه الاتصالات .

وكان عرابي باشا مجتمعًا مع درويش باشا ، المندوب الخاص لتركيا ولم يكن لديه علم بما يدور في الإسكندرية حتى انتهت المظاهرات .

وكنت على معرفة وثيقة بالمستر كوكسن القنصل الإنجليزي بالإسكندرية لعدد من السنين . وكان رجلاً شريفًا ، وإنني لعلى يقين من أنه لم يعمل سوى ما كان يعتبره واجبًا رسميًا عليه ، ولم يكن في وسعه أن يفعل سوى أن ينظر إلى كل شيء من وجهة نظر إنجليزية ، أي مراعيًا المصالح الإنجليزية ، ومهما يكن من مقاصده أو مقاصد الممثلين الآخرين من الإنجليز . فإن ثمة استنتاجات لا محيص عنها لأي شخص كان على علم بالحقائق ، أو درس الوثائق الرسمية بعناية

١ - كانت أحداث الشغب أسى كبيرًا بالنسبة لعرابي وأصدقائه ، فإن من مصلحتهم أن يستتب الأمن ، وكانوا يعلمون هذا تمام العلم

٢ - كان هؤلاء الذين يرغبون في الاحتلال العسكري الأجنبي يرحبون بقيام هذا الشغب . وكان هو « المضاعفات التي من نوع حاد » التي كان لابد ، في نظرهم ، من « حدوثها قبل إيجاد أي حل مرض للمسألة المصرية » والتي « كان من الأصوب الإسراع فيها بدلاً من تأخيرها » .

٣ - مهما كان الغرض من تسليح المالطيين ، فمن المؤكد أنه إن لم يكن هذا قد أحدث قيام الشغب فعلاً ، لحدث نتيجة طباعهم الحادة المتعطشة للدماء .

وجاءت الأساطيل الإنجليزية والفرنسية إلى مصر ، لحفظ الأمن في البلاد ، على حد زعمها ، وقد خلق وجودها حالة لم تكن تتوقعها فرنسا مطلقًا ، ذلك أنها اعتمدت في تحقيق أغراضها على الضغط الدبلوماسي والاستعراض البسيط لقوتها ، وإلى هذا الحد ، قامت بأداء دورها لإرضاء أصحاب السندات في باريس ، ولكي تحافظ على هيبتها ، وتمنع إنجلترا من السيطرة على مصر . ولم

يكن في نيتها أن تشترك في اعتداء حقيقى ، ولم يكن في وسعها أن تحث برلمانها على قبول هذا العمل ، وينحصر خطؤها الذي لا يمكن إصلاحه في أنها أوعزت بخلع حاكم قوى بارع ، ووضع حاكم مكانه يخضع لأوامر المراقبين الذين ترسلهم باريس ولندن وكان إرسال أسطولها إلى الإسكندرية ، على الرغم من أنها لم تكن تنوى الاشتراك في أية عمليات حربية « كان تصريحاً سيء الطالع من جانبها بضرورة استخدام القوة » . وكان إخفاقها هذا فرصة لإنجلترا ، سرعان ما انتهزتها .

وحينما تكون أمة من الأمم مستعدة للحرب ، وتضع نصب أعينها غزوًا مربحًا ، فإن من اليسير إيجاد أسباب لبدء العدوان . وتحت ستار الادعاء بأن عرابي كان يقيم مدافع إضافية في القلاع مدعمًا بهذا مركزه ومعرضًا بهذا الأسطول البريطاني الراسي في الميناء للخطر – وهو أمر نفاه كل من الخديوى وعرابي – تحت هذا الستار شرع الأميرال سيمور في عملياته العدوانية .

وكان قد مضي شهر على حدوث الشغب ، وكان الأجانب يهجرون المدينة خلال هذه الفترة . وقد طلب من عرابي باشا تسليم القلاع ولكنه لم يفعل ، فاتخذت الترتيبات العاجلة لقذف المدينة بالقنابل ، ولقد دعيت مرارًا للالتجاء إلى إحدى البواخر الراسية في الميناء . ولكننى كنت أجيب بأنه حينما تعطى الإشارة ببدء العدوان المتوقع ، فلسوف أفعل ذلك . وحتى ذلك الوقت ، لم أجد سببًا يبرر تركى المدينة .

الفصل السادس والعشرون

ضرب الإسكندرية بالقنابل

قبيل ظهر يوم الأحد الموافق ٩ يولية تلقيت نبأ من مصدر خاص موثوق به أن إعلانات ضرب المدينة بالقنابل ، الذي سيحدث بعد ذلك بأربع وعشرين ساعة ، سوف تطبع هذا المساء بعدة لغات مختلفة على ظهر سفينة الأميرال الإنجليزي ، ثم توزع في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي .

وعند الغسق أخذت إلى البارجة لانكستر ، وكانت تحت إمرة أمير البحر نيكلسون . وقد أبدى دهشته لسماع النبأ الذي أفضيت به إليه وشك في صحته ، ثم قال إنه على اتصال بالأميرال الإنجليزي يوميًا ولا شك في أن الخبر كان قد بلغه لو أن ميعاد الضرب قد حدد ، وأضاف قائلاً : لقد عشت في الشرق مدة طويلة تكفى لعدم الاعتقاد في الإشاعات غير الموثوق في مصادرها .

فأجبته بأنني لست في حل أن أذكر له مصدر النبأ ، ولكنه يمكنه الاعتماد على صحته .

واستدعى قادة السفن الأمريكية الأخرى ، وصعدوا إلى ظهر سفينة الأميرال حيث عقدوا اجتماعًا للتشاور ، ولكن الأميرال ظل غير مقتنع . وقضيت الليلة على سطح جالينا ثم نقلت بعد ذلك إلى ظهر السفينة كوينيبوج ، وصدر الأمر بإبحار جالينا بعيدًا ، وقد أبحرت بالفعل صباح الضرب .

وفي الفجر صدرت الأوامر من الأميرال نيكلسون بالاستعداد بالتحرك ، وبعد بضع دقائق صدر الأمر بالاستعداد للتحرك بسرعة « ا » وكان قد تلقى في منتصف الليل إشارة رسمية بالضرب المقصود ، وحينماصعدت إلى سطح السفينة حياني البحارة بطريقة مؤثرة رائعة . وكنا راسين في مرفأ رحب مقابل لقصر الخديوى ، رأس التين ، أي على بعد ميل أو أكثر من المرسى العادى . وكان بالميناء عدد كبير جدًّا من السفن الراسية . وكان يوجد إلى جوار البوارج الحربية بواخر وسفن بحرية من مختلف أنحاء البحر ا لأبيض ، من سفن ذات شراعين ، وغلايين ، وسفن للصيد وغير ذلك من السفن الصغيرة بأعداد وفيرة . وكان بعضها بشراع مربع والبعض الآخر بقلاع مستطيلة .

وكان هناك قبل ذلك صف من القوارب الشراعية تمر بنا تجاه البحر ، وكل منها ترفع علمها القومي . واستمر هذا العرض لمدة ساعات عديدة . وعلى الرغم من أن البواخر الأمريكية كانت على أهبة التحرك إلا أنها ظلت في مكانها حتى يصل قطار القاهرة يحمل نائب القنصل العام الأمريكي وموظفيه .. ومن ثم تحركنا خارج الميناء ورسونا خلف الأسطول الإنجليزي على البعد الذي ظنه الأميرال مناسبًا .

وفي هذا المكان أخذنا نترقب أحداث الغد ، وكان خلفنا السفن التجارية ، والبوارج الحربية ، التابعة لكل الدول الأوربية المحايدة تقريبًا . وكان الأسطول الفرنسي قد انسحب وأقلع إلى بورسعيد . وكان نسيم البحر العليل قد توقف ، ولما كانت الشمس تميل نحو المغيب كانت تنعكس أشعتها الأخيرة على صفحة المياه الهادئة ، وكانت حوالى ستين أو سبعين سفينة راسية على الشاطىء الرملي على طول هامش البحر حيث كانت تفصله عن المدينة التي كانت تبدو كلها هادئة آمنة .

ومن ذا كان يمكنه التنبؤ بما سيحدث لها ، وأية مناظر مروعة سوف تشهدها ، حينما يجن جنون أهلها ، إذ تدوى القنابل التي تقذفها أساطيل

العدو ويخر السكان الأبرياء صرعى ؟

وكان السلك البحري الممتد تحت الماء تشرف عليه شركة إنجليزية فنقل الطرف الواقع على الشاطىء المصري إلى سفينة راسية على بعد عدة أميال في عرض البحر . وفي أثناء الليل كان الأسطول الإنجليزي يلقى بأضواء الجير على طول خطوط الدفاع الواقعة على الشاطىء .

وبزغت الشمس صباح اليوم التالي في سماء صافية ، وكان يومًا من أيام الصيف الجميلة في مصر ، وكانت الاستحكامات تمتد على الشاطىء ، يرجع بعضها إلى عهد محمد على . ولم يكن أحدها معدًّا لمقاومة آلات الحرب الحديثة ، ولا لحماية الرجال الذين يتولون إطلاق المدافع . وكان بعضها مبنيًا من الحجارة بحيث كان من العسير أن تجد مكانًا أخطر من هذا المكان بالنسبة لجندى يقف على مرمى من قنابل بارجة حديثة مجهزة تجهيزًا كاملاً . وقد برهنت هذه الاستحكامات على أنها مذابح حقيقية .

وإذا نظرنا جهة الجنوب وجدنا على يسارنا استحكامات « فاروس » و « عدا » ، وكانت تقع الأخيرة في موقع «فارى » القديم وكانت إحدى عجائب الدنيا السبع ، وكان يقع على يميننا المدخل إلى الميناء الجديد ، والمنارة الجديدة ، وبعض الاستحكامات الأخرى . ويقع خلفها ، على مسافة بعيدة فوق مرتفع بسيط العمود الجرانيتي الشاهق الذي يعرف باسم « نصب بومبي » . أما جهة الشرق فتقع المدينة المحتومة المصير .

وأمامنا مباشرة ، كان يقف أسطول حديث ، أقوى أسطول تجمع لارتكاب أعمال عدوانية حتى وقتنا هذا ، كان هناك ثماني مدرعات وخمس سفن مبنية من الخشب ، وقد وقفت هذه السفن في أماكنها في ساعة مبكرة من الصباح ، وكانت المدرعة « انفلكسيبل ذات هيكل مبنى من الخشب والحديد ، ويبلغ سمك الألواح الحديدية من ١٦ إلى ٢٦ بوصة ، والألواح الخشبية من ١٧ إلى ٢٥ بوصة . وكانت هذه السفينة من أكبر المدرعات التي

شيدت ، إذ كانت مسلحة بمدافع زنة كل منها ثمانون طنًا ، وتستطيع أن تقذف قنابل تزن ١٧٠ رطلاً مدى خمسة أميال .

وفي تمام الساعة السابعة صباحًا انطلقت إشارة إيذانًا ببدء الضرب وردت القلاع بإطلاق النار على الفور .

وكان الخبراء العسكريون يتوقعون إسكات المدافع المصرية خلال ساعة واحدة ، وكان من المعتقد أنه من المستحيل بالنسبة لأية قوات تقبع في مثل هذه الاستحكامات ، أن تتحمل ، ولو لفترة وجيزة ، مثل هذا السيل الجارف من القنابل التي تلقيها سفن الأسطول عليهم . وخلال حديث كان قد دار بينى وبين الجنرال ستون منذ أيام خلت ، سألته عن الوقت اللازم للأسطول لإسكات مدافع القلاع ، وبعد تفكير دام بضع لحظات ، أجاب قائلًا: « حوالي ثلاثين دقيقة » . ولكن الجميع منوا بخيبة الأمل .

وكنا نسمع طوال النهار زئير المدافع الذي يصم الآذان ، ونشاهد انفجار القنابل ودخان المعركة الذي كان يدفعه نسيم البحر إلى البر فيحيط البلدة بسحابة منه . وقد أمطرت الثلاث عشرة سفينة الرجال البواسل في قلاعهم بوابل من القنابل المتفجرة حتى وصل عددها إلى أكثر من ثلاثة آلاف قنبلة . وكان في مقدورنا أن نرى الانفجارات بوضوح وكنا نراقبها في شغف من سفننا . وكانت تنفجر أحيانًا في الهواء قبل ميعادها ، وأحيانًا كانت تنفجر فوق رءوس العرب في الاستحكامات فتبعثر أشلاءهم في كل مكان . وكان البعض الآخر يدخل في الأرض على عمق كبير أو في البناء ثم ينفجر هناك فيرسل بسحب من الغبار والأنقاض تاركًا خلفه أخاديد كبيرة ، وكان يبلغ عمق بعض هذه عض هذه الأخاديد ثمانية أقدام ويبلغ عرضه ستة عشر قدمًا بل يزيد ، وكانت تمر إحدى القنابل من وقت لآخر من فوق قلعة من القلاع وتدخل المدينة .

ولقد أذهلتنا شجاعة العرب وهم يصوبون مدافعهم ، إذ بعد أن ينقشع

الغبار والدخان المتصاعد من القنابل المتفجرة التي تترك كل ما حولها حطامًا ، كانت تتصاعد سحابات صغيرة من الدخان من فوهة مدفع قريب يدل على أن الأحياء من الجنود مازالوا متشبثين بمراكزهم .

وخلال النهار حدثت ثلاثة انفجارات في القلاع ، اعتقدنا حينذاك أنها صادرة من انفجار مستودعات الرصاص أو أن الترسانات تلقى في عنان السماء بسحب من الدخان ، وأكوام الأنقاض . وكان أحد هذه الانفجارات في قلعة « عدا » فأسكت مدافعها وقضى على كل شخص في القلعة تقريبًا ، مما يدل على عدم صلاحية هذه الاستحكامات القديمة الوقوف في وجه المدافع الضخمة الحديثة . ولم تصمت جميع المدافع المنصوبة في القلاع حتى الساعة الخامسة بعد الظهر ، ولم يكف الإنجليز عن إطلاق النار حتى الساعة السادسة ، وقد تلقت السفن عددًا كبيرًا من الطلقات . وحدثت بها بعض الأضرار ، وإن لم تكن جسيمة . وكان عدد القتلى والجرحى صغيرًا إذ قتل ستة أشخاص وجرح سبعة وعشرون شخصًا ، وقد قال الأميرال في تقريره :« لقد كان من المستحيل أن نعلل سبب هذه الخسارة الضئيلة للغاية بالنسبة لكمية القنابل والطلقات التي أصابت السفن » .

وكان يوجد في القلاع حوالى ١٥٠٠ مقاتل مات أغلبهم في مراكزهم . وبعد بدء المعركة مرت إحدى القنابل عبر السفن الإنجليزية وسقطت على مقربة منا . وحوالى الساعة العاشرة تحركنا قليلاً تجاه البحر ، ولكننا ظللنا أكثر قربًا من مسرح الأحداث عن أي سفن أخرى لم تشترك في القتال .

وفي الصباح التالي كان كل شيء هادئًا . وكان الإنجليز قد دفنوا موتاهم في البحر ، ثم ألقيت قنبلتان أو ثلاث قنابل على الاستحكامات ولكنها لم ترد بشيء . وقد شاهدنا بعد ظهر ذلك اليوم دخانًا كثيفًا يتصاعد من الجزر الشمالية للمدينة واستمر يتزايد حتى أقبل الليل فشاهدنا ألسنة النيران تمتد تدريجيًا فوق الحي الأوروبي مهددة بإفناء هذا الجزء من المدينة .

وأخذت تتسع الرقعة المحترقة طيلة اليوم التالي والليلة التالية .. وكان الأوربيون يمتلكون معظم هذا الجزء من المدينة ، ولكن لم يكن هناك جنود لإنقاذ تلك الممتلكات من الدمار . وخلال مساء الثالث عشر من الشهر أنزلت فرقة من الجنود الإنجليز ولم يتوغلوا داخل المدينة . ولكنهم اتخذوا أماكنهم على طول جانبها الجنوبي .

وقبيل ظهر اليوم الرابع عشر ، وكان يوم الجمعة ، كان الأميرال الأمريكي قد سئم من الانتظار ، فتحرك إلى الميناء متقدمًا السفن المحايدة الأخرى ، دون تلقى أية إشارة من الإنجليز ، ثم أرسل بعد ذلك مائة وخمسة وسبعين بحارًا إلى المدينة لإعادة فتح القنصلية الأمريكية . ليفعلوا ما بوسعهم لإخماد النيران . وقد تم هذا بناء على طلب الأميرال الإنجليزي وبموافقة الخديوى الذي كان قد عاد إلى قصره برأس التين ، وفي الصباح استولى البحارة الإنجليز على القلاع الداخلية وبعض بوابات المدينة المحاطة بالأسوار .

وعلى الرغم من أن الجنود المصريين كانوا قد أخلوا المدينة قبل ظهر يوم الأربعاء ، إلا أن الإنجليز لم يدخلوها حتى يوم السبت ، بعد أن أعادت قوتنا الصغيرة الهدوء إلى أحيائها ، ورفعت العلم الأمريكي عند الطرف الجنوبي من ميدان محمد على .

ودخلت المدينة كذلك يوم السبت . وكان جزء كبير من الحي الأوروبي عبارة عن كتلة من الأنقاض المحترقة . وكانت الشوارع التي لم تصل إليها النيران تشبه شوارع بومبى في عزلتها . وكانت المحال قد نهبت ولم تكن لترى شخصًا سائرًا . ولمدة يومين عقب انسحاب السلطات المحلية بسبب قنابل الأساطيل ، كانت المدينة بأكملها في أيدى اللصوص ، وكانت النتيجة كما كانت متوقعة ، وإن لم تكن أسوأ مما كان يحتمل حدوثه في لندن أو نيويورك . فلتطرد السلطات المحلية من أي من هاتين المدينتين ، ولسوف نرى حشدًا من اللصوص المدمرين والسارقين تعج بهم المدينة في ظرف ساعة واحدة .

وكان قلب المدينة لا يمكن الوصول إليه إلا خلال طرق ملتوية ، وكانت جدران المباني عالية بصفة عامة ويبلغ سمكها حوالى ثلاثة أقدام ، وهي مبنية من الأحجار غير المستوية والملاط ويصل بعضها ببعض كتل من الأخشاب وتطلى بالجبس من الداخل والخارج . ولذا كانت كتلة الأنقاض ضخمة جدًّا لدرجة أنها كانت تغطى الأرض لارتفاع عشرة وخمسة عشر قدمًا وتملأ حتى الشوارع الواسعة . وقد دمرت كذلك عدة أميال من المباني ، وكانت النار لاتزال تنتشر ، ولحسن الطالع كانت كمية الأحجار والأسمنت والملاط الكبيرة المستخدمة في كل جزء من أجزاء المباني ، وكمية الأخشاب الصغيرة جعلت هذه المباني تحترق احتراقًا بطيئًا .

وقد أنقذ بحارتنا قصر الحقانية والقنصلية الأمريكية وعددًا كبيرًا من المباني الأخرى ، وكانت هناك بضع قنابل ملقاة في الشوارع لم تنفجر بعد ، كما كان هناك آثار بضع قنابل أخرى في المباني الباقية . وطبقًا لما نشرته التقارير الرسمية قتل حوالى مائتين من السكان العزل من السلاح بواسطة هذه القنابل الطائشة وشظايا البعض الآخر . وقد ظهر بعد ذلك أن القوات التي أخلت المدينة هي التي أشعلت النيران فيها . ومن المحتمل أن بعض الحرائق حدث بفعل القنابل . ومن المعروف أن أحد المباني الملحقة بقصر رأس التين قد شبت فيه النيران بهذه الطريقة .

وقد قمنا بزيارة القلاع عقب الضرب فظهر لنا مدى المحنة التي تعرض لها الجنود المصريون في هذه الاستحكامات المكشوفة غير المحصنة . ولا يمكن للكلمات أن تصف ذلك المنظر ، فالمدافع الملقاة والجدران المهشمة ، وبقايا القنابل المتفجرة وكسر الحجارة المبعثرة فوق مساحة القلاع الداخلية كلها كانت في حالة يستحيل معها أن يستطيع أي شخص الإفلات من هذه المجزرة البشرية ، وكان منظر « قلعة عدا » حيث حدث انفجار المخزن الذي تسبب في تراجع الحامية الباقية ، كما وصفها الأميرال الإنجليزي بإيجاز ، كان منظرًا مروعًا . وكان من الواضح أنه لم يبق شخص حي لكي يستطيع التراجع ، فقد

كانت القنابل وشظاياها والأنقاض من جميع الأنواع ملقاة بكميات كبيرة في كل اتجاه بحيث كان يتعذر على أي شخص أن يهرب .

وعلى الرغم من هذه الحالة ، إلا أنني وجدت مايلي في وصف أحد الكتاب العسكريين للمعركة : « إن الإنجليز ، على الرغم من دهشتهم من ثبات خصومهم ، إلا أنهم كانوا أول من اعترفوا بأن رجالاً على شاكلتهم كانوا قد قبلوا التحدى في اليوم التالي وجددوا القتال » . والواقع أن الرجال كانوا أمواتًا في الغالب أو عاجزين عن القتال . ولو أن هناك ألفًا وخمسمائة من رجال المدفعية زيادة على العدد الذي قاتل بالفعل ، وكان من الممكن استخدامهم ، ثم وضعوا في صباح اليوم التالي في هذه السلخانات المكشوفة والتي كانت مجردة من آلات الدفاع ، لقضي عليهم كما قضي على من قبلهم ، ولأي غرض ؟ ليس هناك من شك في شجاعة القوات الإنجليزية ، ولكن متى وأين وقفوا عند مدافعهم لكي يذبحوا كما وقف هؤلاء الرجال؟ ولو كان هناك أقل بادرة من أمل في النجاح النهائي لكان من الممكن تبرير تضحية حتى أعظم من هذه .

وقد احترق كل الحي الخاص برجال الأعمال في المدينة ، أما الجزء الذي أفلت من ألسنة النيران فقد نهب تمامًا . وقد جرت مناقشات في ذلك الوقت بشأن عمن يكون المسئول عن هذه النكبة المروعة . وإذا سلمنا ، كما زعم البعض ، بأن الضباط المصريين المدحورين واللصوص من الأهالى هم الذين تسببوا في إحداث الجزء الأكبر من الأضرار ، فمن المسئول عن خلق الظروف التي أدت إلى هذه الأحداث ؟ وبتعبير آخر ، من كان المسئول عن عدم إنزال الرجال للاستيلاء على المدينة حينما أخلاها السكان ؟ وإذا كان السبب هو نقص الرجال ، فمن المسئول عن بدء الاعتداءات دون وجود قوة مستعدة للنزول ؟ كان ثمة قوات إنجليزية في كل من قبرص ومالطة ، ولم يكن الأمر في حاجة إلى أكثر من عدد قليل من الرجال . وكان تأخير العمليات أربعة أيام يكفى لعمل كل الترتيبات اللازمة .

حتى لو سلمنا بأن إنجلترا كانت محقة في احتلالها العسكري لمصر ، وسلمنا بأنها كانت على حق في استيلائها على الإسكندرية بالقوة لتحقيق هذا الغرض ، فإنها غير محقة في تدمير الإسكندرية بالقنابل وبهذه الطريقة التي تم بها . ولم أسمع قط بأن أحد الإنجليز قد حاول أن يبرر هذا العمل حتى هؤلاء الرجال الذين حاولوا أن يستميحوا لها العذر اعترفوا بأنها كانت غلطة من جانبهم . وقد سمعت عددًا من الضباط الإنجليز من البحرية والجيش يتحدثون عن بدء إطلاق النيران دون وجود قوة برية كافية على أنه كان خطأ عسكريًا مؤسفًا . وقد عزا بعض ضباط الجيش هذه الغلطة إلى طموح الأميرال ورغبته في أن يقرن اسمه بحدث من الأحداث التاريخية ويتوج سجل خدمته بجزء من مجد غزو كان يعلم أنه على وشك الوقوع . وثمة تفسير ممكن آخر ، وهو أن السلطات الإنجليزية أسرعت بالقيام بهذا العمل لكي يصبح أمرًا منتهيًا وحقيقة واقعة خشية حدوث مضاعفات سياسية .

ويمكن شرح الموقف في بضع كلمات ، ذلك أن أنظار العالم كانت متجهة إلى الإسكندرية منذ البداية ، كما يتبين من التقارير الرسمية التي نشرت فيما بعد ، على الرغم من أن إنجلترا لم يكن لديها نية دخول مصر عن طريق تلك المدينة . ولسنا ندرى منذ متى كانت إنجلترا تفكر في خطة لغزو مصر . وتدل الوثائق الرسمية التي نشرت فيما بعد أن الخطة كانت قد أعدت بكامل تفاصيلها قبل ضرب الإسكندرية بثمانية أيام . وكانت الخطة تقضي باحتلال مصر بواسطة غزو يتم عن طريق قناة السويس .

وكانت تقضي بأن تدخل بورسعيد قوة قوامها حوالى عشرين ألف جندى ، ثم تحضر فصيلة أخرى من الهند لتدخل السويس . وكانت هذه الجيوش ستتقابل في الإسماعيلية على مقربة من مركز القناة . وبعد انتصار سهل يسير في ضواحى التل الكبير ، في الطرف الشرقي من الأراضي المنزرعة ، كانت ستقوم حملة من الفرسان السريعة وتتجه إلى القاهرة قبل أن يكون لدى المصريين المهزومين وقت لاسترداد قوتهم . وكان هذا هو ما حدث

بالضبط عقب ذلك بشهرين بمجرد أن أرسل الجنود . وحينما يكون هناك مقاومة مسلحة ضئيلة يصبح من اليسير أن ترسم خططًا حربية وتنفذها بالحرف الواحد ، كما يحدث في أي معركة صورية .

وفي هذا التاريخ الذي ذكر ، وضعت الخطط الخاصة حتى بوسائل النقل عبر الصحراء من القناة إلى التل الكبير ، وعلى طول الصحراء إلى القاهرة . وقد اقترح شراء ألف بغل من أمريكا لشحنها في الحال .

وأصدرت تعليمات سرية إلى الضباط ونظمت قائمة طويلة من التفاصيل . وغادر سير أرشيبلد أليسون إنجلترا إلى قبرص لكي يتولى أمر إنزال القوات هناك وتنظيم استعدادهم للإبحار إلى بورسعيد .

وفي غمار كل هذه الاستعدادات الحربية التي أعدت قبل ضرب الإسكندرية بالقنابل ، لم يرد ذكر أي تعاون متوقع مع الفرنسيين ، وقد ظل أسطولهم في الإسكندرية إلى جانب الأسطول الإنجليزي حتى وقت إصدار التعليمات بضرب الإسكندرية ، دون أن يبدو أي نقص في الانسجام بين الاثنين . وكانت الاستعدادات الحربية سرية ، وكان من الواضح أن إنجلترا قد علمت ، عن طريق جواسيسها ، إن لم يكن بوسيلة أخرى ، أن البرلمان الفرنسي لن يعطى الإذن بالقيام بأية اعتداءات عسكرية .

وقد انتهزت إنجلترا في نهم ، الفرصة التي أتيحت لكي تزيح عن كاهلها عبء تحالف طالما كان مصدرًا من مصادر إزعاجها . ولقد سنحت الفرصة التي كانت تترقبها منذ أمد طويل . ولسوف تكون مصر ملكًا لها دون أن تشترك الحكومة الفرنسية معها في إدارتها .

وقد يكون خوفها من حدوث أي تغيير أو مضاعفات في مفاوضاتها مع الفرنسيين قد دفعها إلى البدء في القيام بالاحتلال الفعلي .

وفي تلك الحالة ، قد يكون قذف المدينة بالقنابل قبل أوانه ، مسببًا بذلك

إحدى النكبات الكبرى في القرن التاسع عشر ، نتيجة لتلقى أوامر مباشرة من لندن . وكانت الأسباب التي أبديت في ذلك الوقت لضرب المدينة بالقنابل هي أن الإنجليز – عن طريق استخدام أضواء الجير – اكتشفوا أن المصريين كانوا يدعمون مراكزهم في القلاع ، وأنهم نصبوا مدفعًا أو مدفعين زيادة عما كان فيها، وأن الأميرال أبلغ حكومته بالحقائق قائلاً إن أسطوله كان معرضًا للخطر ، وإنه نتيجة لهذه الأسباب قد حصل على الإذن باحتلال القلاع إذا رأى أن ذلك ضروري . ولقد نفت الوزارة المصرية هذا النبأ . وذهبت إلى حد أنها عرضت أن ترفع مدفعين عن كل مدفع يثبت أنه نصب حديثًا . وكانت هذه الأسباب التي أبديت سخيفة للغاية بحيث لا تستحق أن نفكر فيها لحظة واحدة . ومن الواضح أنها لم يكن لها أي تأثير على تحديد خطة الأميرال ، إذ كان يدرك تمام الإدراك أن أي شيء في وسع المصريين أن يفعلوه في تدعيم مركزهم لن يجدى فتيلاً في تحديد مصير أي هجوم يشن على هذه الاستحكامات ، كما كان يعلم أنه لم تتوفر النية أو الميل من جانب المصريين في أن يبدأوا بالعدوان .

الفصل السابع والعشرون
في أعقاب ضرب الإسكندرية

كانت عودة المهاجرين الذين لجأوا إلى داخل البلاد فرارًا من ضرب القنابل مأساة محزنة . وكان الناس قد فهموا ، حتى المطلعون منهم ، أن الهجوم سوف يقتصر على القلاع فحسب ، وأن الخطر الوحيد الذي يهدد البقاء في أي جزء من أجزاء المدينة ، لا في ضواحيها القريبة ، هو الرعب والحنق اللذان قد يثيرهما الضرب في نفوس الأهالى .

ومن المحتمل أنه لم يكن قد هاجر من السكان البالغ عددهم ٢٥٠ ألف نسمة سوى ستين ألفًا انفجرت القنبلة الأولى فأيقظت الباقين من فتورهم وعدم اكتراثهم . وكانت أغلبية كبيرة من السكان تعتقد أن ما من شيء خطير سوف يحدث - أو - لم تصد القلاع الحجرية المنيعة والمدافع العتيقة التي زودت بها ، عنهم غارات المعتدين منذ نعومة أظفارهم ؟ فلم يخافون الآن ؟ ألم يغرق الجنود المتحفزون في القلاع الأسطول الإنجليزي أو يطردوه بعيدًا عن شواطئهم ؟

ولم تدرك جموع الطبقة الدنيا الخطر الذي يحيق بهم إلا حينما بدأت القنابل الطائشة تتساقط في وسطهم . وحينئذ شرعوا في الهروب ، وسرعان ما عمت حركة الهجرة من المدينة . وقد تشبث الكثيرون ، حتى في هذه الساعة الرهيبة ، بحمل ممتلكاتهم الضئيلة . وتحد بحيرة مريوط الإسكندرية من الجنوب . ومن ناحية الغرب يفصل شريط ضيق طويل من الشاطىء البحيرة عن البحر . وكان الطريق العملي للهروب بالنسبة للحشود الفارة من الرجال والنساء والأطفال هو جهة الشرق أو الجنوب من ضاحية الرمل ، وهي ضاحية

صغيرة مقامة في الصحراء على مقربة من البحر . وفي هذا الاتجاه أخذ الألوف من الناس يبحثون عن ملجأ لهم .

وبدأت القوات تفد من قبرص يوم الإثنين ، أي عقب الضرب بستة أيام . وحينما أنشئت مراكز خاصة بالجيش وأصبح هناك قوة كافية لإقرار الأمن في المدينة ، بعث برسل إلى المهاجرين ، الذين كانوا معسكرين في الرمال ، يبلغونهم بأن في وسعهم أن يعودوا في أمان إلى المدينة ، فأخذ المهاجرون يفدون إلى منازلهم في شغف ، على الرغم من البؤس الذي كان يرتسم على تلك المساكن ، ودخلوا المدينة عن طريق بوابة رشيد أو بوابة الرملة ، ومروا في شارع عريض كان يعج بهم لمدة ساعات .

كانوا عبارة عن سيل متدفق من الإنسانية المعذبة ، وكلهم كانوا يرتدون ملابس بسيطة تعلوها القذارة والغبار . وكان الأهالى حفاة الأقدام شبه عراة ، وكانت النسوة يحملن أطفالهن الرضع بين أذرعهن ، بينما كان أطفالهن يسيرون متثاقلين وهم نصف عراة بجوارهن ، وكان الرجال والنساء الشيوخ منهم والشباب ، يحملون ما بقى لهم من متاع . ومن حين لآخر كان يبدو أحد الأثرياء وقد حمل ظهر حماره أو حصانه أو عجله وماله من ممتلكات ، كما كان هناك أيضًا بعض العربات العتيقة محملة باللوازم الشخصية . هكذا كان حال هذه الجموع المتباينة التي كانت تمر من الشوارع التي كانت تفوح منها رائحة الدخان المتصاعد من الأنقاض المحترقة ، قاصدة إلى أحيائهم التي يقطنون بها في المدينة . ولحسن الطالع أن النار لم تحدث أضرارًا جسيمة في هذا الجزء من المدينة ، ولكن بيوتها جردت من الأشياء التي كانت قيمتها تكفى لإغراء اللصوص .

وبقى الخديوى في قصره بالرمل خارج المدينة ، وعلى مقربة من جانبها الجنوبي الشرقي ، أثناء الضرب ، ثم عاد إلى قصر رأس التين في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي الذي نزل فيه البحارة الأمريكيون إلى البر . وكان الجنرال

ستون ، وقد وفى بالوعد الذي أخذه على نفسه أمام الخديوى السابق إسماعيل باشا بأن يظل بجانب ابنه توفيق وأن يخلص له ، ملازمًا للخديوى طيلة أيام المحنة .

وفي مقابلة لي مع سموه بعد ذلك بوقت قصير ، صرح لي بأنه أصدر أوامره لعرابي بألا يسمح للإنجليز بأن ينزلوا إلى البر ، وكان يبدو من حديثه أنه يوجه إليه اللوم لأنه لم يستطع تنفيذ أوامره . ثم أضاف قائلاً : « بصفتي ممثلاً للسلطان ، فإن من واجبي أن أدافع عن البلاد ، ولا أستطيع أن أتنازل من تلقاء نفسي عن شبر واحد من الأرض » .

وكل الإشاعات التي سمعت بعد ذلك عن اتهام عرابى بأنه كان ينوى الإضرار بالخديوى كانت محض خرافة ، ولو ثبت شيء من هذا القبيل ، لكان عرابى قد حكم عليه بالإعدام بدلاً من النفي . ولقد روى لي سموه ماحدث فعلاً بالتفصيل . كان عرابى يرغب أن ينسحب الخديوى داخل البلاد ويظل هناك ، ومن ثم أرسل ضباطًا لكي يصحبوه . وكان هذا سوف يزيد من مكانة الحزب الوطني ، وهي نفس الأسباب التي جعلت الإنجليز يرغبون في وضعه تحت سيطرتهم ، ذلك أنهم حاولوا أن يجعلوه يرحل ، كما صرح لي سموه ، على ظهر إحدى السفن التابعة لهم قبل ضرب الإسكندرية . ولكنه رفض أن يفعل هذا مفضلًا أن يظل مع شعبه .

وليس من المعروف قط ما إذا كان الخديوى قد توقع فعلاً أن يكتب له النصر في الدفاع عن البلاد . ومن المؤكد أنه كان يرغب ذلك . وكان من السهل عليه أن يتولى أمر عرابى ، ولكنه كان يدرك تمامًا ، بناء على نصيحة المستشارين المخلصين . أن إنجلترا إذا ما أطبقت يدها على مصر لن تفلت من قبضتها بعد ذلك على الإطلاق . وحينما رأى أن مزيدًا من المقاومة لن يجدى . سلم نفسه على أنها الوسيلة الوحيدة التي ينقذ بها عرشه بما تبقى له من سلطة شكلية . ومنذ ذلك الوقت حتى وفاته لم يكن أمامه سوى أن ينفذ

مشيئة آسريه . أما الخيانة المزعومة التي تنسب إلى عرابى فتنحصر في أنه عصى أوامر الخديوى على حين كان الأخير أسيرًا في الواقع .

وبعد وصول الأسطول الإنجليزي في شهر مايو ، استقال عرابى ووزارته ، بناء على طلب الإنجليز . ونزولاً عن رغبة الممثلين الدبلوماسيين النمساويين والألمان والإيطاليين ، أعاد الخديوى تعيين عرابى وظل في الحكم حتى بعد انتهاء ضرب الإسكندرية . ثم بذل الإنجليز جهودًا عنيفة في كل من القسطنطينية ومصر لكي يعلن رسميًا أن عرابى خائن . وكان هذا في رأيهم ضروريًا للإبقاء على أسطورة صداقتهم للخديوى وأنهم قد جاءوا لتأييده . وكان ثمة أسباب سياسية هامة ذات طابع دولي تجعل من الضروري استمرار الحكم باسم الخديوى . ولو أن من الممكن أن يتهم عرابى بالخيانة لساعد هذا على تنفيذ خططهم الحربية التي رسموها . وكان حتى ذلك الوقت ينفذ أوامر السلطان والخديوى التي تقضي بمعارضتهم . وكانت الحقائق واضحة جدًّا لدرجة أن الخديوى تردد في أن يستجيب لطلباتهم الشاذة التي قدموها إليه .

وقد زعموا أن مهمة الأسطول هي إعادة سلطة الخديوى وإقرار الأمر في البلاد ، ذلك الأمن الذي لم يكن قد اختل حتى وقت وصولهم ، وبتعبير أوضح ، جاء الإنجليز متظاهرين بأنهم أصدقاء للخديوى ، لكي يساعدوه ضد نفوذ عرابى والحزب الوطنى . وقد أصدر الخديوى أوامره إلى عرابى بأن يطلق النار على هؤلاء الأصدقاء وسفنهم في حالة قيامهم بأي اعتداء ، وألا يسمح لهم بالنزول فوق أرض مصر . وقد حاول عرابى بكل ما وسعه من جهد أن ينفذ هذه الأوامر . وقد فعل ما في مقدور أي قائد أن يفعله بهذه الوسائل التي يمتلكها ، بل فعل أكثر مما كان يظنه أي خبير عسكرى . وهكذا هدمت الاستحكامات والقلاع ، وقتل الجنود من المشاة ، وحرقت المدينة كحادث من أحداث الحرب ، دفاعًا عن البلاد ضد أصدقاء الخديوى ! لقد كانت المدرعات والمدافع التي يزن كل منها ثمانين طنًا أقوى من عرابى الذي اضطر أن يستسلم لمصيره المحتوم .

ومهما كانت الحقائق . فإن الخديوى لم يستطع أن يقاوم طلبات هؤلاء الذين وقع بين براثنهم ، أو يحتفظ حتى لسلطته الصورية وأخيرًا ، أعد له بعض العباقرة هذا التصريح الشهير وكان عليه أن يصدره وينشره على الناس .
« فليعلم كل من يطلع على هذا الأمر أسباب طرد أحمد عرابى باشا ولكي يستنير الجمع .. ننشر الحقيقة فيما يلي :

بعد عشر ساعات من الضرب كانت استحكاماتنا قد تهدمت وضرب ٤٠٠ مدفع من مدافعنا ، كما قتل العدد الأكبر من رجال مشاتنا وشوهوا على حين لم يفقد الأسطول الإنجليزي سوى خمسة رجال ، ولم تصب بواخره بأية أضرار جسيمة .

ثم جاء إلينا عرابى باشا في سراى الرمل وأفضى إلينا بالأنباء المؤلمة الخاصة بهدم القلاع .

أما فيما يختص بأميرال الأسطول الإنجليزي فقد طلب منا أن نخلى قلاع العجمى والدخيلة والمكس لكي تحتلها قواته . وقد اجتمع مجلس الوزراء بمساعدة سعادة درويش باشا وقرر أنه لا يمكن تسليم القلاع دون استصدار أمر صريح من جلالة السلطان ، وأن على العكس من ذلك كان من الضروري أن نعمل على الدفاع عنها عن طريق تعزيز حامياتها لكي نمنع نزول القوات الأجنبية . وفي نفس الوقت بعثنا برسالة إلى الباب العالي :

ولكن عرابى باشا توجه إلى بوابة رشيد في الإسكندرية دون أن يتخذ أي إجراء عسكري . وقد أرسلت في أثره أحد رجال الياوران لكي يذكره بأنه ينبغي عليه أن يرسل مددًا إلى المراكز المتفق عليها .

وأجاب عرابى باشا بأنه لا يستطيع أن يرسل جنديًا واحدًا ، ثم أمر الجنود أن ينسحبوا معه ويلجأوا إلى كفر الدوار ، تاركًا المدينة دون أن يدافع عنها أحد .

وفى اليوم التالي نزلت القوات الإنجليزية في الإسكندرية ، وهي أهم نقطة في بلادنا ، واستولت على المدينة دون أن تطلق رصاصة واحدة ، وهي حقيقة توصم الجيش المصري بالعار ، إذا لم يكن هذا العار الذي لا يحمى قد وقع كله على كاهل هذا الذي كانت القيادة بيده ، على كاهل عرابى باشا » .

هذا الإعلان ، بالنسبة لهؤلاء الذين كانوا على علم بالحقيقة ، هو وثيقة بالغة الشذوذ والسخف . ولكنه قد وضع لهذه الطبقة من الناس التي كان المقصود أن ينشر بينهم ، وقد ظن الذين أصبحت بيدهم السلطة حينئذ أنها وسيلة بارعة للحط من شأن عرابى بين جموع الطبقة الجاهلة من المصريين . وكانت هذه الطبقة تعتقد في مناعة وقوة تلك المدافع القديمة الموجودة بالاستحكامات ، كما كانوا يعتقدون في سلطة الخديوى المنزهة عن الخطأ . وكان اتهامه لعرابى وإلقاء مسئولية الفشل في إغراق السفن الإنجليزية أو طردها من الشواطىء المصرية على عاتقه ضربة ساحقة لهيبته ومنزلته . وكان تبريرًا للخديوى كذلك وأداة نافعة في حكم البلاد .

وقد أعادت البواخر القادمة المقيمين الأجانب بالتدريج ، وظهرت على المدينة معالم الحياة من جديد ، وكان الكثير من الشوارع مسدودًا تمامًا بواسطة الأنقاض المتخلفة من المبانى التي احترقت .

وكانت بعض الشوارع معرضة للخطر بسبب الجدران الآيلة للسقوط . وكان « فندق أوربا » الذي انتقلت إليه قبل ضرب المدينة قد احترق واحترقت معه كتبي وحاجياتي الأخرى . أما المبنى الذي كنت أقيم فيه والواقع في الجزء الجنوبي من المدينة فقد اتخذه الضباط الإنجليز مقرًا لهم .

ولحسن الحظ استأجرت بعض الغرف المتواضعة في مسكن بسيط يقع على مقربة من مياه الميناء الشرقي القديم ، الذي كان يستخدمه البطالمة والرومان .

وقد بقى عدد كبير من الكتبة وغيرهم من الموظفين في المحاكم أو عادوا

إليها على وجه السرعة . وكان جميع القضاة ، باستثناء شخصي ، عائدين أثناء الصيف . وفي الوقت الذي كنت فيه متحملاً كل المسئوليات كانت واجباتي إدارية فقط . ولم يحاول أحد أن يتخذ إجراءات قضائية . وكان عرابى قد انسحب إلى كفر الدوار ، وهي نقطة واقعة على طريق السكة الحديد إلى القاهرة خلف بحيرة مريوط ، على مسافة سبعة عشر ميلاً .

وقد أنشئت مراكز للجيش حول المدينة ، وبقيت السفن الحربية راسية في الميناء ، ولكن كانت كل الحركات العسكرية العدوانية قد توقفت بصفة مؤقتة . وكان رأى الخبراء العسكريين في ذلك الوقت يقضي بأن جيشًا صغيرًا مدربًا يستطيع أن يزحف بسهولة إلى القاهرة أو إلى أي مكان في الوجه البحري ، وعلى كل لم يكن الإنجليز مستعدين لتنفيذ الخطط التي رسمها في لندن السير جارنت ولسلى .

وكانت هذه الخطط تقضي بأن تعطى إنجلترا الفرصة لكي تبرهن لأوربا على أنه في أية حالة طارئة يمكن لإنجلترا أن تجلب قوات من مصادر أخرى خلاف الجزر البريطانية .

وكان من المعلوم أنه لن يكون هناك قتال جدى ، وظن المسئولون أنه سوف يكون من الأسلم ، بل من قبيل الضربات السياسية السديدة استخدام قوات هندية تحت إمرة ضباط من الإنجليز . ومنذ ذلك الوقت والإنجليز يهنئون أنفسهم على الطريقة البارعة التي أمكن بها أن يستعرضوا مواردهم الحربية الضخمة . وعند وصول هذه القوات وغيرها من إنجلترا استخدمت قناة السويس كقاعدة حربية . وعلى الرغم من أن المسيو دلسبس كان له مطلق السلطة على القناة ، إلا أن احتجاجاته ومعارضته القوية ذهبت أدراج الرياح . كانت المسألة في بساطة قوة عسكرية برية وبحرية . وسوف ينطبق القول نفسه على قناة بنما وقت الحرب . وسوف تعتمد السيطرة عليها واستخدامها على قدرتنا علىالتشبث بها ضد جميع الأعداء .

هنالك أرسل عرابى أحد ضباطه إلى التل الكبير لاقامة الاستحكامات في ذلك المكان الذي يعتبر أسهل بقعة موجودة للدخول إلى البلاد من جهة القناة ، وكان من السهل عليه أن يغلق القناة ، ولكنه تركها مفتوحة لدخول القوات المعادية معتمدًا على وعود المسيو دلسبس . وبعد أن استسلم الخديوى ، بدأ الكثير من الضباط المصريين يعدون العدة للمستقبل ، وقد اتصل الضابط المكلف بالدفاع عن التل الكبير بالسلطات الموجودة بالإسكندرية عن طريق أسرة الجنرال ستون وأبدى استعداده لإخلاء مركزه بدلاً من الاستمرار في العمل الذي كلف به ، وهرب الضابط عن طريق قناة السويس مزودًا من الإنجليز بكافة المعلومات عن حالة الاستحكامات ، ولم يكن هناك سوى حوالى ثمانية آلاف جندى من الأهالى المدربين في جيش عرابى . وهؤلاء كان معظمهم معسكرًا في كفر الدوار وفي رشيد ودمياط ، وهما مصبا النيل الحاليان . أما باقى الجنود من المصريين فكانوا إما طاعنين في السن ، أو فلاحين غير مدربين ، كان يمكن لألف جندى مدرب أن يجبروا عشرة آلاف منهم على الفرار . ولقد كانت المعركة التي أطلق عليها معركة التل الكبير سببًا في منح السير جارنت ولسلى لقب لورد ، على أنها إذا ما قورنت بالمعارك الكبيرة التي خاضها الإنجليز في أوربا وآسيا وأمريكا خلال الخمسين سنة الأخيرة تعتبر مجرد مناوشة بالنسبة للإنجليز . وكان هناك فجوات كبيرة في الاستحكامات كانت تستطيع الخيالة أن تنفذ منها ، وعلى الرغم من وجود خطين من المتاريس ، إلا أن المدافع لم تنصب إلا في واحدة منها فحسب .

زحفت القوات الإنجليزية لمسافة كبيرة عبر الصحراء في « ليلة حالكة الظلام » ، وقامت بالهجوم في فجر تلك الليلة . وكان الطريق خاليًا من الموانع ، والمراكز العسكرية . ولم يقف أحد في سبيل ذلك الزحف . وقد بلغ نجاح وهدوء تلك الحركة ، كما بلغت دهشة المصريين ، إلى حد أن شرعت بعض القوات الإنجليزية في تسلق المتاريس قبل أن تطلق رصاصة واحدة ، ثم أطلقت بعد ذلك ، لمدة بضع دقائق ، عدة رصاصات طائشة بواسطة العرب الذين استيقظوا فجأة في الظلام الذي كان لا يزال مخيمًا حتى كان من

الصعب تمييز الأصدقاء من الأعداء . وقد استيقظ عرابى على دوى المدافع ، ولكنه ، قبل أن يرتدى ملابسه ، كان جنوده قد انسحبوا تمامًا ، وطبقًا لما ورد في التقرير لإنجليزى الرسمي « ألقوا أسلحتهم وأخذوا يطلبون الرحمة » .

في هذه المعركة التي استمرت بضع دقائق فقط ، فقد الإنجليز ثمانية وخمسين شخصًا ، بما فيها الضباط الذين ماتوا بعد ذلك متأثرين بجراحهم . أما المصريون فقد خسروا ، حسب معلومات موثوق بها ، ألفين ومائتي قتيل وعددًا كبيرًا آخر مات بعد ذلك . ثم اقترب الإنجليز ودخلوا الاستحكامات ، طبقًا للأوامر الصادرة إليهم من القائد ، دون أن يطلقوا رصاصة واحدة ، ونظرًا لهذه الظروف وقصر الوقت الذي حدثت فيه المقاومة ، لم يكن من العجيب أن تلتزم التقارير الرسمية الإنجليزية التي نشرت الصمت إزاء الخسائر من الأهالى ، ذلك أنها كانت مذبحة لا معركة .

وكان معظم الأهالى المقيمين في التل الكبيرحينذاك من الفلاحين العزل من السلاح ، وكانوا قد أحضروا إلى هناك بأعداد وفيرة لاقامة المتاريس بنفس الطريقة التي كانوا يستدعون بها لحفر وتنظيف قنوات الري طبقًا للنظام المعروف باسم السخرة . وكانوا ينامون في مثل تلك الأحوال ، في مكان عملهم بالليل ، على الأرض يلتحفون ببطانية واحدة على الأكثر لوقاية أنفسهم ، وفي الوقت الذي حدث فيه الهجوم الإنجليزي ، كان الآلاف من هؤلاء الأهالى راقدين على الأرض حيث كانوا يعملون طيلة اليوم السابق . وقد ذبح هؤلاء دون تمييز ، مع الجنود الفارين ، بواسطة القوات الهندية .

ولقد صرح لى ضابط إنجليزي كان قد حضر معركة التل الكبير موضحًا هذا العمل ، أن هذه القوات جن جنونها حينما أصيب بعض الهنود ، وقبل أن يستطيع الضباط أن يسيطروا عليهم حدثت هذه المذبحة الأليمة . ومما لاشك فيه أن هذه المعلومات صحيحة ، فما من ضابط إنجليزي من ضباط الوقت الحاضر يسمح بوقوع مثل هذه المذبحة ، بل كانت ببساطة حالة من حالات

« إطلاق العنان لكلاب الحرب » . وكان درسًا غير منتظر لأوربا المسيحية عن مغبة استخدام جزء من هذه الطبقة .

وعقب معركة التل الكبير توقفت كل معارضة مكشوفة للغزو الإنجليزي ، وانتقل مقر الحكومة مرة أخرى إلى القاهرة . وانتقلت قوة من الفرسان الهنود إلى الإسكندرية كحرس شرف استخدم في حراسة الخديوى إلى محطة السكة الحديد ، وكانوا ممتطين صهوة خيولهم ومرتدين ملابسهم الوطنية الزاهية فبدوا في صورة بهيجة . هذا العرض كان الغرض منه التأثير في نفوس الأوربيين والأهالى لكي يثبتوا في أذهانهم فكرة وجود قوة احياطية كبيرة للإمبراطورية الإنجليزية في قلب الهند . وحينما ركب الخديوى محاطًا بهذه الثلة من الجنود ، إلى جوار السير ادوارد مالت ، الممثل السياسي والقنصل العام الإنجليزي ، مخترقين الشارع الرئيسي الذي اصطف الأهلون على جانبه ، لم يصفق الناس ولم يبدوا أي مظهر من مظاهر الفرح .

ولقد توطد الاحتلال العسكرى الدائم للبلاد ، أثناء الصيف والخريف . ومنذ ذلك الوقت ساد الخضوع التام ، ذلك أن بقاء الخديوى في منصبه كان رهنًا بتوقيعه للأوراق التي كانت تعد له ، دون أي نقد أو تعليق ، تمامًا كما ينفذ الجندى في الجيش أوامر رؤسائه .

ولقد قام الخديوى الشاب بمحاولة بسيطة ، منذ بضع سنوات ، لكي يمارس بعض حقوق السيادة التي خولت له ، ولكن السلطات الإنجليزية قمعت هذه المحاولة في مهدها .

وعقب احتلال الإسكندرية مباشرة ، رفع المقيمون الأوربيون شكاوى شديدة اللهجة إلى المسئولين بسبب ضياع ممتلكاتهم الذي سببه ضرب الإسكندرية وما ترتب على ذلك من إحراق وسلب المدينة .

وأصدر الخديوى مرسومًا يقضي بأن مصر مسئولة عن تعويض هذه

الخسائر . وماذا كان بوسعه أن يفعل غير ذلك ؟ لقد أصبح شبه مبدأ دولي أن المهزوم عليه أن يدفع ثمن هزيمته . وكانت الخسائر التي حدثت في الإسكندرية مجرد حدث من أحداث الحرب . وقد جرت العادة أنه في القضايا القائمة بين المتخاصمين في محاكمنا أن الطرف المحكوم ضده يدفع في الغالب تكاليف القضية على أساس أنه كان مخطئًا في ادعاءاته . وقد يكون هذا سليمًا من الوجهة العملية بين الأمم . ولذا ، فإن الأضعف ينبغى عليه أن يدفع تكاليف الفشل الذي حاق به .

وبدأت المفاوضات بين الدول ، وكانت نتيجتها إبرام اتفاقية خاصة بتكوين لجنة دولية للتعويضات . وكانت الحكومات المختلفة تعين أعضاء هذه اللجنة التي بدأت عملها في الشتاء التالي . وكان عدد أعضاء اللجنة أحد عشر عضوًا ، إثنان من مصر ، وواحد من كل دولة من الدول السبع الكبرى ، وواحد من اليونان ، نظرًا لكثرة التعويضات الخاصة بها ، وممثل عن كل دولة من دول الدرجة الثانية . وقد عين الرئيس الأمريكي مؤلف الكتاب لكي يكون عضو اللجنة عن الولايات المتحدة .

وكانت الطلبات الخاصة بالتعويضات كثيرة العدد بحيث كان لزامًا علينا أن نفحصها فحصًا عاجلاً ، إذ بلغ عددها حوالى أكثر من عشرة آلاف طلب . وكان فحصها بدقة والبحث عن أدلة ، كما هو الحال في محاكم التعويضات الأمريكية ، يستغرق سنين طويلة ، وعلى كل ، فقد كانت الإجراءات مشابهة للإجراءات المتبعة في المحاكم الفرنسية عند نظر إحدى القضايا المدنية ، فيما عدا أن المحامين لم يحضروا شخصيًا ، بل قدموا مرافعاتهم مكتوبة . ولم يؤخذ بالشهادات الشفوية ، كما كانت جلسات اللجنة سرية ، ولم يكن من المتوقع أن تكون هناك عدالة بالمعنى الصحيح نتيجة لعمل يمتاز بمثل طابع السرعة هذه . وعلى كل ، فقد كان المدعون يطالبون بسرعة البت في طلباتهم ، قائلين إن دفع نصف المبالغ المستحقة لهم دون تأخير لكي يستخدموها في إعادة بناء وإنشاء أعمالهم أفضل لديهم من دفع المبالغ كلها بعد عدة سنين .

وكان المدعون يقدمون طلبات مفصلة مقرونةبالأدلة ، ومرفقًا بها إقرارات وشهادات من أشخاص يدعون أنهم على علم بهذه الحقائق . وكان محاموهم يضيفون إلى ذلك بيانات مقتضبة يلخصون فيها الأدلة والبراهين ويدلون بآرائهم واستنتاجاتهم فيما يتعلق بالمبالغ التي يستحقها عملاؤهم ، وفي حالات المباني التي هدمت ، يضاف إلى ذلك آراء الخبراء والبناءين والمقاولين والمهندسين . وتعرف هذه الطريقة لدى الفرنسيين باسم « الدوسيه » ، وقد رفعت هذه الطلبات إلى محامي الحكومة الذين فحصوا الأوراق ثم أدلوا بآرائهم واستنتاجاتهم . وبهذه الصيغة تعرض كل دعوى أمام اللجنة التي انقسمت إلى لجان وزع العمل فيما بينها .

وقسمت « الدوسيهات » بين أعضاء اللجان لفحصها ، وكتابة تقارير تعرض على اللجنة التي تتخذ فيها قرار بالقبول أو التعديل أو الرفض . ثم تجتمع اللجنة بكامل هيئتها يومًا من كل أسبوع وتتلقى تقارير اللجان المختلفة . وكانت هذه التقارير تحول الموافقة في العادة دون اختلاف في وجهات النظر ، ولكن في الحالات الأكبر أهمية ، كان هناك في الغالب خلاف في الرأي وفي بعض الأحيان كانت تجرى مناقشات طويلة حامية .

انتهت اللجنة من أعمالها في غضون أحد عشر شهرًا ، بعد أن فصلت في العشرة الآلاف طلب التي قدمت لها ، وحكمت بما يقرب من عشرين مليونًا من الدولارات . وكانت النية متجهة إلى منح تعويضات بسيطة تتفق مع الحقائق على قدر الإمكان . وقد رفضت بضعة طلبات ولكن معظم الطلبات تقريبًا حكم فيها بمبالغ أقل مما طلب ، وفي بعض الحالات لم تمنح إلا مبالغ يسيرة . وفي غمرة الشك الذي كان يحيط بجزء كبير من التعويضات ، كانت الأحكام الصادرة في صالح الحكومة المصرية ، ومن المحتمل أن المجموع الكلي للمبالغ التي منحت لم يكن أكثر من نصف قيمة مجموع الخسائر الفعلية .

الفصل الثامن والعشرون
مستقبل مصر

ما هو مستقبل مصر ؟ كثيرًا ما يوجه هذا السؤال ، من الناحية السياسية ، ستبقى البلاد الواقعة على النيل ، من البحر الأبيض إلى البحيرات العظمى في وسط أفريقيا ، مديريات إنجليزية في الواقع ، طالما أن إنجلترا تحكم الهند وغيرها من المستعمرات ، وقادرة ، كما هو الحال في الوقت الحاضر ، على الاحتفاظ بسيادتها البحرية .

وفي حديث دار بيني وبين السير ادوارد مالت ، قبل أن أغادر الفندق إلى ظهر السفينة الأمريكية ، مساء الليلة التي حدث فيها الضرب صرح لي بأنه لولا وجود قناة السويس ، لخرجوا من مصر في ظرف أربع وعشرين ساعة . وكان هذا هو الشعور السائد في وزارة جلادستون في ذلك الوقت ، ولكن الأمر يختلف اليوم ، حتى ولو لم تكن هناك قناة ، فمتى استولت إنجلترا على قطعة طيبة من الأرض لا تتخلى عنها مطلقًا ، ولسوف تحكم مصر ما دامت تتحكم في جبل طارق .

والتحكم في قناة السويس بالنسبة لها يعتبر من أهم الأمور الحيوية . ففي حالة قيام حرب عالمية ، سوف تكون القناة من أكبر العوامل المساعدة لها . ولقد استولت عليها في مقابل مبلغ يقل عن ٣٠ مليونًا من الدولارات ، وعلى الرغم من أن قناة بنما أقل حيوية بالنسبة لنا ، إلا أنها سوف تكلفنا ٢٠٠ مليون دولار . وكل من هاتين القناتين ذات فائدة كبرى من الناحية التجارية وللأغراض الاستراتيجية . ولن تفرط أي من هاتين الدولتين في هذه الحقوق

المكتسبة ما دامتا تتبوءان مركزهما المتقدم الحالى بين الدول الكبرى في العالم .

لماذا ، إذن ، لا تخلع إنجلترا عنها لباس التنكر وتحيل مصر ولاية إنجليزية بدلاً من أن تحكمها بواسطة نظام خداع استشاري في الظاهر ؟

أولًا لأن من الأيسر أن تحكم الشعب بواسطة الخديوى الذي يتكلم لغتهم ويدين بدينهم . وهم يعتبرونه سلطانهم الشرعي وصاحب الحق في حكم البلاد ، فيحترمون أوامره وسلطانه حتى أكثر من احترامنا لرئيس جمهوريتنا . كما أنهم يعرفون أن بلادهم قد أصبحت محتلة بدولة أجنبية وأن الخديوى يجب أن يوافق على رغباتهم . ويعتقدون كذلك ، بفعل أشياء كثيرة لا تتفق مع رغباته ، ولكنهم لا يعدمون الأمل في إنهاء هذا الاحتلال الأجنبي يومًا من الأيام .

وقد حرص الإنجليز على أن يمدوا الخديوى وأسرته بمرتبات كافية ويحيطون بمظاهر العظمة التي تضفى عليه مظهر السلطان الحقيقى . وعن طريق الإبقاء على هيبة سموه ، يمكن حكم البلاد بواسطة الأهالى ، ولا يلزم إلا الإبقاء على قوة صغيرة من الجنود الإنجليز في البلاد . أما القوة الحاكمة الحقيقية ، التي يزعم أنها سلطة استشارية فقط ، فتتهرب بهذه الطريقة من مسئولية أعمالها وسياستها التي لا ترغب دائمًا في تحملها . فالخديوى ، نظريًا ، هو الحاكم المطلق الذي يسن القوانين جميعًا ويطالب بتطبيقها . وكل المراسيم والأوامر تصدر باسمه . وبمقتضى هذه السلطة المزعومة يخضع الأهالى لأعباء لم يكونوا ليتحملوها في الظروف الأخرى إلا عن طريق استخدام القوة العسكرية .

حينما كنت في زيارة للوجه القبلي ، منذ بضع سنوات ، تحدثت بشأن ضريبة الأراضي مع أحد الأهالى الذين يقطنون ما بين الأقصر والشلال الأول . وكان يمتلك قطعة كبيرة من الأرض في هذا الوادى الضيق الآهل بالسكان . وقد أخبرنى أن الضريبة كانت مرتفعة جدًا لدرجة أنها لم تكن تترك له سوى القليل ، ولكن حينما كان الخديوى يزور أعالى النيل ، وبعد أن فحص الأمر

بنفسه ، قام بتخفيض الضريبة في هذا الجزء إذ وجد أنها باهظة فعلاً . ولم يكن هذا الرجل سوى فلاح ، ولكنه كان من الشخصيات البارزة في المنطقة التي يعيش فيها . وكان له ابن على درجة كبيرة من الثقافة ، ومع ذلك كان كلاهما يتوهم أن الخديوى يستطيع أن يغير قيمة الضرائب من تلقاء نفسه ، كما كان يفعل حكام مصر السابقون . هذه الطريقة التي تبقى على هيبة الخديوى في نفس شعبه هي طريقة بارعة ، ولا يستطيع استخدام مثل هذه الخدعة والإبقاء عليها لسنين طويلة سوى هؤلاء الذين كانت لهم خبرة طويلة في حكم الولايات الهندية .

ولو أن إنجلترا جعلت مصر إحدى ولاياتها ، لسوف تظل ملزمة بدفع الديون التي يذهب أكثرها للشعب الإنجليزي ، كما تظل ملزمة بدفع الجزية إلى تركيا التي تذهب في الواقع إلى أصحاب البنوك في إنجلترا .

وثمة أسباب أخرى ذات طابع دولي تجعل إنجلترا تستمر في اتباع هذا النظام الاستشاري للحكم ، ذلك أن إنجلترا قد وعدت مرتين بأن تسحب قواتها العسكرية ، المرة الأولى حينما كان حزب الأحرار يسيطر على الحكم ، والمرة الثانية في عهد المحافظين . وعلى الرغم من أن مسألة الاحتلال الدئم اعتبرت منتهية نتيجة لصمت الدول الكبرى ، فإنها لم توافق على ذلك الاحتلال بصفة رسمية قط . وكانت فرنسا لا تزال تطالب بحقوقها ، على الرغم من أن المفاوضات التي جرت منذ وقت قصير تدل على أنها قد تخلت عن هذه المطالب إلى حد كبير في مقابل « أن تطلق يدها » في مراكش تؤيدها في ذلك إنجلترا .

كما أن كل الدول المسيحية تتمتع بامتيازات أدت إلى إنشاء المحاكم المختلطة ، ولن تتنازل بعض هذه الدول عن تلك الامتيازات إلا تحت ضغط شديد . وينبغى كذلك وضع حقوق السلطان في الاعتبار ، إذ أن جلالته ، باعتراف كل دول أوروبا ، هو السلطان الحقيقى على مصر . حقيقى أن سلطته

اسمية فقط في الوقت الحاضر ، ولكن « استيلاء » إنجلترا على السلطة سوف يكون افتئاتًا على حقوقه قد يؤدى إلى شعور عدائي على الدوام .

وكانت سياسة إنجلترا تقضي بأن تعزل روسيا وسط مناطقها الجليدية في الشمال ، ولذا كانت دائمًا في حاجة إلى معونة السلطان لإبقاء الدردنيل مغلقًا في وجهها . وفي حالة قيام حرب طاحنة مع هذه الدولة ، تلك الحرب التي كان شبحها يراود مخيلة السياسي الإنجليزي على مدى جيلين ، قد يقوم صاحب الجلالة السلطان ، إذا أراد ذلك ، بإصدار نداء ديني يستغيث به ، وحينئذ يهب ملايين المسلمين في الهند . الذين يعتبرونه خليفتهم ، خليفة محمد ، وحامى الإسلام . وما لم يقم الإنجليز بإبرام اتفاقية مرضية مع الباب العالي لنقل سلطة حكم مصر إليهم ، فإن من الممكن أن تستمر طريقة الحكم الحالية إلى الأبد ، حتى ولو كان من اللازم إزاحة جميع العقبات السياسية الأخرى من الطريق .

ماذا ستكون عليه حال سكان مصر مستقبلاً ؟ أما حالة الطبقة العاملة التي تكوّن الغالبية العظمى من الشعب ، فلسوف تبقى على ما هي عليه الآن ، وعلى ما كانت عليه في الماضي السحيق . لم يكن هناك تغيير كبير لمدى قرون ، ولن يحدث تغيير كبير لمدى قرون مقبلة . أما الأراضي فيمتلكها الأجانب بسرعة . وقد أصبحت بعض الشركات الإنجليزية وبعض الأفراد ملاكًا لمساحات كبيرة من الأرض . ولكن بصرف النظر عمن يمتلك التربة ، سواء كان أوروبيًا أو تركيًا أو من الأهالى ، فإن حالة هؤلاء الذين يعزقونها ، ويحفرون القناة ويطهرونها ، ويقيمون الجسور على النيل ، ويقومون بالجزء الأكبر من العمل الذي يتطلبه الري ، لن يتغير من الناحية المادية .

ولقد تحسنت وسائل الحكم الفظة القاسية في بعض الأحيان التي كان يستخدمها الحكام في الماضي ، كما هو الحال في الدول الأخرى . ولكن الناس يتلقون أجرًا زهيدًا عن عملهم بحيث يستحيل حدوث تطور إما في

ثقافتهم أو في أحوالهم المعيشية ، ذلك أنهم يكسبون من عشرة إلى خمسة عشر سنتًا في اليوم ، ولا يعملون إلا جزءًا من السنة فحسب . ويعتبر هذا الأجر أكبر مما كان يتقاضونه في الماضي ولكن تكاليف المعيشة قد ارتفعت نسبيًا . ونظرًا لهذه الظروف ، لن تخبئ الأيام لهم سوى الجهل ، والكوخ أو الحظيرة المبنية من اللبن ، وأقل كمية ممكنة من الغذاء البسيط الذي يحفظ أجسادهم من العدم .

ويعتبر إلغاء السخرة في عد الخديوى توفيق خطوة على الطريق السليم ، تستحق الثناء . ولقد عمر هذا النظام أكثر من الوقت الضروري له . وكان العمل في تطهير القنوات وإصلاح جسور النيل يحتاج جهدًا كبيرًا بحيث كان من المشكوك فيه أن ينجز هذا العمل بدون استخدام السخرة التي كانت عبارة عن نوع من الضرائب المفروضة على الجماهير . وكان الإهمال أو التأخير يسبب نكبات كبيرة ، فالمياه التى يتحكم فيها النهر وتوزع بواسطة القنوات هي الحياة بالنسبة لمصر .

وبمقتضى نظام السخرة كان لابد للفلاحين على طول القنوات العديدة أن يقوموا بالعمل الضروري في قراهم دون أن يتقاضوا أجرًا ، كما تتم أعمال الطرق في بعض أجزاء الولايات المتحدة . وكانت طريقة المعيشة أثناء القيام بهذا العمل لا تختلف ماديًا عن الطريقة التي اعتادوا عليها ، وهي عناء كبير إذا ما قيست بمعايير معيشتنا ، ولكنها إذا قورنت بطريقة معيشتهم فلن تختلف كثيرًا عن الفرق بين حياة جنودنا وقت السلم وحياة المدنيين .

أما دين مصر فهو في الواقع على ما هو عليه منذ خمسة وعشرين عامًا ، وهناك أسباب سياسية تجعل من سياسة الحكومة الإنجليزية ألا تعمل على تخفيض قيمته ، ذلك أن الدين هو السبب المزعوم الذي جاءوا من أجله ولسوف يظل سببًا مزعومًا لبقائهم . ولقد بيعت بعض الأراضي والممتلكات التي كان إسماعيل قد وهبها للدولة وذهب ثمنها وفاء للدين . ثم استجدت

التزامات أخرى بسبب الخسائر التي حدثت في الإسكندرية ، وبسبب حرب السودان ، وبسبب إجراء بعض الإصلاحات العامة المتنوعة . وقد أضاف إقامة سد أسوان وقناطر أسيوط مبلغ ٨٠٠٠٠٠ر٠٠٠ دولار إلى قيمة الضرائب السنوية لمدة ثلاثين عامًا . ولقد خفضت النسبة العالية من الفوائد ، ولكن قيمة الفوائد ، والجزية إلى تركيا ، والاحتلال الإنجليزي والإدارة الباهظة التكاليف كل هذه تكوّن مبالغ ضخمة في مجموعها لدرجة أن الطبقة العاملة سوف تظل في حالة من الفقر . أما ملاك الأراضى منهم ففي حالة أفضل مما كانوا عليه في الماضي ، وذلك نتيجة لتخفيض قيمة الفوائد إلى نسبة معقولة ، وعن طريق حصولهم على الأيدى العاملة مقابل الأجر الزهيد الذي يدفع لهم الآن ، يستطيعون أن يحققوا دخلاً لا بأس به من أموالهم التي يستثمرونها .

وسوف يظل الفلاح الكادح العادي في المستقبل ، كما كان في الماضي ، ما يعرف لدى الطبقات الراقية من الأوروبيين والوطنيين « من دواب الحمل » . وأن الحمار النافع الذي يحمل أثقال الفلاح ومتاعه إلى عمله ، ليعيش في حالة أحط منه بقليل . ولست أعنى بقولى هذا أن أوجه اللوم إلى الحكام الحاليين أو أنسب إليهم وجود هذه الأحوال . ومما لاشك فيه أن وجودهم في مصر ليس بغرض القيام بمهمة إنسانية أو تبشيرية ، أو لنشر المدنية ، ولكن حكومتهم قد وجدت هناك لأنها تؤمن بالرفاهية التجارية والسياسية للإمبراطورية ، كما وجد مواطنوهم هناك ، سواء موظفين أو غير موظفين ، لمصالحهم الشخصية .

وتعتبر إدارة اللورد كرومر أفضل إدارة ممكنة ، إذا أخذنا في الاعتبار الظروف التي بدأت فيها حقيقة لانستطيع أن نمتدحه كثيرًا ، ولكنه هو وخلفاؤه كان ينبغي عليهم أن يستمروا في ابتزاز الجزية السنوية من الناس لدفعها إلى أصحاب السندات وإلى تركيا . وكانت إدارته في الواقع ، حكومة شخصية أي أن نجاحها كان يعتمد على نواياه الطيبة ومقدرته الشخصية . ولكن هل تجد إنجلترا كرومر آخر ؟ ذلك أن مسألة السيادة على مصر كانت ما زالت مجال أخذ ورد ، وكانت أنظار أوروبا متجهة إلى إدارة حكومتها .

لذا كان من صالح إنجلترا أن تكون هذه الإدارة هي أفضل ما يمكن لا لأسباب سياسية فحسب بل لأسباب تجارية كذلك . وقد عبر لي أحد الباشوات المصريين . ممن كانوا يحتلون منصبًا مرموقًا . عن أن الإنجليز لم يهملوا الناحية التجارية بقوله : « إن الإنجليزي يحكمون حكمًا صالحًا ، ولكنهم لا يحكمون من أجل مصلحتهم » ذلك أن إنجلترا هي التي كانت تجنى ثمار هذا الحكم ، فما لم تعزق الأرض جيدًا وتحصد أعواد القمح ، ثم تخزن حباته في عناية ، فإن الكميات الكبيرة المطلوبة لسد حاجاتهم لم تكن ليتحقق وجودها . ولكن مهما توفرت النيات الطيبة ، فإن محاولة إجراء أي تحسين مادي في حال الفلاحين ، في الوقت الذي لم تدفع فيه الديون التي فرضت عليهم فرضًا ، هي محاولة يائسة . وقد تتحسن أحوالهم بعض الشيء لو أن هذه الأعباء الباهظة أزيحت عن كاهل البلاد ، ولكن تحسين حال الجموع الغفيرة من الطبقة العاملة لن يكون ملموسًا، إذ أن إدراك الموقف الحقيقى كان يتطلب عملاً دائمًا واهتمامًا متواصلاً .

ينبغى أن تكون أسباب الحياة ميسرة في قطر مثل الولايات المتحدة بعدد سكانه الهائل ، ومساحاته الشاسعة الخصيبة من الأرض . ولا شك في أن التقدمين المادي والعقلي في متناول الجميع ، بل أصبحا العاطفة السائدة بين الناس . أما مصر ، باستثناء السودان وولايات أواسط أفريقيا فهي في حدود أراضيها الزراعية تعتبر قطرًا صغيرًا يحيطه البحر والصحراء وتنحصر مواردها في تربتها ، ذلك أنها تحتوى على ما لا يقل عن ٦ ملايين فدان من الأراضي الزراعية ، وتبلغ قيمة ديونها ٤٥٠ مليونًا من الدولارات ، أي بواقع ٧٥ دولارًا عن كل فدان من الأرض . وإذا حولنا الجزية التي تدفع إلى تركيا إلى رأس مال يدفع بواقع ٣٫٥٪ من الفوائد ، فإننا نضيف مبلغ ١٠٠ مليون دولار إلى الدين الذي يدفع عنه فوائد ، وبهذا يصبح المبلغ الذي يدفع عن كل فدان ٩٠ دولارًا . وهو في الواقع رهن عقاري يبلغ قدره ٩٠٠ دولار عن كل مائة فدان ينبغى دفع الفوائد المستحقة عليه كل نصف سنة . ويقال إن عدد سكان مصر

الآن هو ١٠ ملايين نسمة . وهكذا يجب أن يعول كل مائة فدان ١٦٦ شخصًا ، وتسدد فوائد عن كل ٩٫٠٠٠ دولار وتغطى تكاليف الحكومة ، بما في ذلك مصاريف المدن ، والمدارس ، والاحتلال الأجنبي وإدارته . فكم يتبقى بعد ذلك لهؤلاء الذين يعزقون الأرض ؟

إن الفنادق الحديثة الفاخرة ، وزيادة وسائل الرفاهية ، وقضاء شتاء ممتع في العاصمة ، أو في الوجه القبلي ، في مجتمع قوامه أناس مثقفون مهذبون وضباط إنجليز مؤدبون ، لما يخلب لب السائح الذي يعلم عن طريق العدد الوفير من الكتب الإنجليزية والتصريحات الشفوية أن هناك تغيرًا عجيبًا في مصر . وهو يعيد هذا القول على مسامع أصدقائه ويجعله أساسًا لمقالاته في الصحف والمجلات والكتب . ولكن من النادر أن يدخل هؤلاء السائحون كوخًا من أكواخ الفلاحين أو يدققوا البحث في الأحوال الحقيقية التي تعيش فيها هذه الطبقة .

وقبل ذلك كانت إصلاحات إسماعيل باشا تترك هذا الأثر في نفس السائح حينما كان يرى التغير العجيب الذي جعل الناس في أوروبا يسبحون بحمده ؟ ولكن الإصلاحات المدهشة التي قام بها والإصلاحات التي أنجزها خلفاؤه من بعده لم تغير من حال الفلاحين ، فلسوف تجدهم ، إذا شئت أن تتعرف على أحوالهم ، يعيشون في نفس الأكواخ ، وفي نفس البؤس الذي كانوا يعيشون فيه في سالف العصر . وكانت حتى الأحوال في عصر إسماعيل باشا ، إلى وقت وقوع الأزمة المالية ، أفضل منها منذ ذلك الوقت حتى الآن ، فقد كانت الأموال تتدفق على البلاد من بيع المحاصيل ومن إيرادات القرض . وكانت هذه الأموال تنفق في التحسينات الواسعة النطاق التي سلف ذكرها . ومنذ ذلك الوقت تتدفق الأموال إلى الخارج ، إلى أوروبا التي امتصت كل موارد البلاد . وسواء يعيش المصريون في أحوال أفضل أو أسوأ من سابقتها ، فإنهم ليسعدون تحت ظل حاكم وطني من دينهم عن أي حاكم أجنبي . وعلى الرغم من أن الحكومات الأوروبية أكثر تنظيمًا من الحكومات الوطنية ، إلا أن

نظام فرض الضرائب ، كما يطبقونه في جميع المستعمرات غير المسيحية ، هو طاحونة قد عدلت بمهارة فائقة حيث تناسب مقدرات البلاد الإنتاجية ، فهي تطحن بدقة وتحصل على كل ما يمكن من الدقيق . ولا يبقى لهؤلاء الذين ينتجون ثروة البلاد ، بكدهم وكدحهم ، سوى النزر اليسير مما تغله الأرض ، ولا تترك لهم فرصة لزيادة نصيبهم ، ولذا كثيرًا ما تحدث المجاعات إذا تلف المحصول .

وليس هناك حكومة أفضل من الحكومة الإنجليزية بالنسبة للشعب الإنجليزي ، سواء في إنجلترا أو في المستعمرات التي يحتلها مواطنوها . ولكن الحكومة الإنجليزية التي تفرض على المستعمرات التي يكون أهلها غير مسيحيين لا يمكن أن يصطبغوا بالصبغة الإنجليزية ، فهي حكومة عرفية عسكرية ، يحرم على المواطن الاشتراك فيها ، إلا في حدود ضئيلة للغاية في بعض المدن ، كما يحرم عليه أن يشغل أي مركز قيادي ، سواء كان مدنيًا أو عسكريًا وتتوقف معاملته على شخصية هؤلاء الذين يتحكمون فيه ، وإذا تصادف أن يكون الحاكم اللورد كرومر مثلاً ، فإنه يكون سيدًا طيبًا ، ولكنه سيد على الدوام يضمن ويبقي على خضوع الشعب له باستخدام القوة العسكرية كلما احتاج الأمر إليها ، ويعامل المواطن دومًا على أنه مخلوق أقل منزلة منه .

وفي أوائل عهد فرض الرقابة الإدارية الإنجليزية الفرنسية على البلاد استحضر عدد من الإنجليز ، من ذوى الخبرة الطويلة في الهند ، إلى مصر لكي يشغلوا المناصب الحكومية الرئيسية . وعندما تم الاحتلال العسكرى نظم جيش وطني تحت قيادة ضباط إنجليز ، كما هو الحال في الهند ، ولكن دون تطبيق النظام كله الذي كان يستخدم في هذه البلاد ، ذلك أن إنجلترا أنشأت بالهند نظامًا يمكن أن نطلق عليه اسم الارستقراطية العسكرية ، حكمت بواسطته البلاد . وبمقتضى هذا النظام يصبح الجندى الإنجليزي العادي شخصًا ذا أهمية ، له من الخدم أكثر مما لأحد اللواءات في جيشنا . فيخصص له طباخ وخادم ينظف ويرتب ملابسه ، وخدم يمسحون أحذيته ، ويسهرون على راحته

وهو نائم ، ويخدمونه عند تناول طعامه ، ويؤدون له جميع الخدمات . وإذا كان هذا الجندى من الفرسان فيخصص له سائس يطعم جواده ويعتنى بنظافته . وبهذه الكيفية تتحقق فكرة سيادة الرجل الأبيض .

ويستخدم نفس النظام بين الجنود من الأهالى الذين يكونون الجزء الأكبر من الجيش ، فالوطنيون يسمح لهم بتولى بعض المناصب . ولكنهم لا يستطيعون أن يتحكموا في رجل إنجليزي ، ذلك أن الإنجليزي ، مهما كان منصبه الرسمي وضيعًا ، تفوق رتبته رتبة أي مواطن . ويخصص للضباط من الأهالى بعض الخدم كذلك ، ولكن عددهم لا يصل إلى العدد المخصص للضابط الإنجليزي . وحتى الجندى العادي من المواطنين له خدمه ويتقاضي مرتبًا أعلى من المرتبات العادية في البلاد ، وذلك لكي يضفى عليه هذا مركزًا أعلى من مركز أي طبقة عاملة ، فيصبح شخصًا ينتمى إلى طبقة ممتازة . ولذا بمجرد أن يلتحق بالخدمة لا يرغب في أن يتخلى عن منصبه . وهكذا يصبح الجنود طائفة أرستقراطية ، تسيطر وتتحكم في جموع الشعب ، وتحكم البلاد بأقصى الوسائل العرفية ، فهم جنود جلالة الملك ، ولذا فإن أي شيء يرغبون فيه هم ورؤساؤهم يعتقدون أن لهم الحق في الاستيلاء عليه دون الانتظار للشكليات التي تتم بها طريقة الاستيلاء .

ولقد كنت منذ عدة سنين مضت أتناول طعام العشاء مع أحد الضباط المتقاعدين من الإنجليز في مقره وكان قد عمل مدة طويلة في الخدمة العسكرية في الهند ويحمل لقب (جنرال) . وكان هناك عدد من المدعوين وكلهم من الإنجليز فيما عداى . وتطرق الحديث إلى الهند وإلى الحرب الإنجليزية الهندية ، فأخذ الجنرال يقص على مسامعنا طرفًا من خبراته ، فروى لنا كيف كان حاضرًا في إحدى المناسبات حينما ربط بعض الأسرى من الهنود إلى فوهة مدفع فتناثرت أشلاؤهم ، ثم قال « كنت حينذاك ضابطًا برتبة ملازم . وصرح لى قائد الفرقة في الصباح أن من المحتمل أن يقع بصرى على منظر دماء أثناء النهار ، فلم أفهم القصد من حديثه ، ومن ثم صدر لنا الأمر بالوقوف في

أماكننا . وكان مكاني إلى جانب أحد المدافع ، فوقفت ، وإذا بالدماء تتناثر فوقي تلوث ملابسي . وبعد أن روى عدة تفاصيل خاصة بتنفيذ هذا الحادث قال بلهجة حازمة : « حسنًا ، لقد قلمنا أظافرهم ، وفي نيتنا أن نبقيها كذلك » . وحينما استفسرت منه عما يقصده من هذا التعبير أجاب قائلاً : « لقد جعلناهم في فقر مدقع ، وفي نيتنا أن نبقى عليهم هكذا حتى لا يتمردوا علينا » .

وينبغي ألا يتطرق إلى الأذهان أن هذا الضابط كان بأي حال من الأحوال وحشًا ضاريًا أو مجردًا من الشعور الإنساني ، ذلك أنني كنت أعرفه جيدًا وكان رجلاً عطوفًا . وإنسانًا مهذبًا ، وإني لعلى يقين من أنه ما كان ليسيء إلى أحد عن قصد . ولكنه كان يمثل الطراز الإنجليزي الذي ينظر إلى كل شيء من زاوية المصالح الإنجليزية . فمن وجهة نظره ، ووفقًا لما تلقاه من تعليم ، لابد من أن تسود سلطة حكومة جلالة الملك حيث يرفع العلم الإنجليزي ، سواء بوجه حق أو بدون وجه حق . وكل من يقف في وجه هذه السلطة يعتبر خائنًا ، خارجًا عن القانون ، عرض حقه في الحياة للخطر . ومن المشروع ، ومراعاة للمصالح الإنجليزية ، ينبغي أن يكون عقابه مثلاً رادعًا لغيره ويحول بينه وبين القيام بأي عمل من أعمال التمرد والعصيان . ويتضح النجاح في إبقاء الهنود فقراء من المجاعات التي انتشرت أخيرًا في الهند . ففي السنوات التي تكون فيها المحاصيل وفيرة تؤخذ هذه المحاصيل نظير الضرائب . وحينما يكون هناك نقص في المحصول ، لا يجد الهنود ما يشترون به غذاءهم . ويضطر الشبان الأقوياء والرجال المتوسطو العمر إلى الرحيل للبحث عن وسيلة يقيمون بها أودهم . أما المسنون والضعفاء والعاجزون فيكون مصيرهم الهلاك . ولا يعتبر هذا خسارة من الناحية الاقتصادية الخالية من العنصر الإنساني ، إذ أن الطبقة غير المنتجة هي التي تتلاشى بالآلاف . ويقول ويليام ج . بريان في مقال له عن (الحكم البريطاني في الهند). والذي نشر في الكومونر في ٦ يولية سنة ١٩٠٦ : « إن فقر الناس في الهند مؤسف للغاية ، ذلك أن الملايين

يعيشون على حافة الموت طوال الوقت ، وإن الإنسان ليظن أن مجرد مظهرهم يتوسل من أجلهم » . ومع هذا فإن هذه الملايين التي تتضور جوعًا تدفع سنويًا ، نظير (تمتعهم) بميزة حكم المسيحيين لهم مائة مليون دولار للجيش وخمسة عشر مليونًا من الدولارات للموظفين المدنيين الذين يحولون بينهم وبين التمرد . لقد استولت إنجلترا من هذا القطر ، في المائة والخمسين سنة الأخيرة ، على آلاف الملايين من الجنيهات . وما زالت تستولى ، طبقًا لمصادر إنجليزية موثوق بها ، من هؤلاء القوم المساكين ، بالإضافة إلى كل النفقات ، على ثلاثين مليونًا من الجنيهات الاسترلينية سنويًا تضيفها إلى الثروة الضخمة التي جمعتها قبل ذلك من هذه البلاد .

ويقول المستر بريان أنه قد سمع عدة مرات وهو في الهند أن (الطاعون يعتبر دواءًا سماويًا لعلاج ازدحام السكان) . ولكنه لم يشر إلى المجاعات على أنها تعتبر من نفس الدواء .

ولذا فإن الإنجليز الذين لم يحضروا إلى مصر لمصلحة المصريين لا يمكن أن نتوقع منهم إلا أن يحكموا لصالح إنجلترا فحسب . وعلى كل ، فإن عدد السكان قليل إذا قورن بعدد سكان الهند ، كما أن هناك عدة قواعد إنجليزية عسكرية قريبة من مصر . ونظرًا لطبيعة الأهالى المحبة للسلام ونظرًا للظروف الأخرى ، فلن تجد إنجلترا لزامًا عليها أن تلجأ إلى وسائل الحكم الشاذة التي تستخدمها في الهند . ومن المحتمل أن تمنحهم إنجلترا أفضل حكومة ممكنة تحت الشروط التي فرضتها . وهذا يعتبر من مصلحة إنجلترا ، وإلا لما أمكن الاستيلاء على كل هذه المبالغ سنويًا من البلاد . ومما لاشك فيه أنها لن ترى ضرورة لاتخاذ وسائل غير عادية للإبقاء على فقر الجماهير . فإن المبالغ الثابتة التي ترسل إلى أوروبا من موارد البلاد سوف تؤدى حتمًا إلى هذه النتيجة . ولحسن الطالع أن سنوات القحط والمجاعات نادرة الوجود ، ولقد مر أكثر من ربع قرن منذ أن حدثت آخر مجاعة في مصر .

الفهـــــــرس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادى عشر

الفصل الثانى عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر

رقم الإيداع : [illegible] / ١٩٩٥
الترقيم الدولي [illegible] ٢٣٢ ـ ٢٥٧ ـ ٩٧٧

الطابع : ٩ ش عماد الدين كامل ـ متفرع من [illegible]
[illegible] ٢٦٣٢٧٢٨٣
القاهرة

مصر
وكيف غُدِر بها

الزهراء للإعلام العربي